

جامعة سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
ظهرالمهراز - فاس



مركز دراسات الدكتوراه: الجماليات وعلوم الإنسان
تكوين الدكتوراه: التعاير والأشكال الرمزية
بنية البحث: مختبر الأبحاث النصية والدراسات المصطلحية
تخصص اللغة العربية وآدابها

الأبعاد التعليمية والتربوية للتواصل الحضاري وحوار الثقافات منظومة التربية والتعليم بالمغرب نموذجا

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب

تحت إشراف الأستاذ:
الدكتور جمال بوطيب

إعداد الطالب الباحث:
مصطفى العامري
الرقم الوطني: 9696802272

السنة الجامعية:

1441- 1442 هـ

2020-2021 م

إهداء

إلى روح أبي الطاهرة تغمده الله برحمته

إلى أمي نبع الحنان أطال الله في عمرها

إلى زوجتي الكريمة

إلى رحاب وإيناس امتداد الحياة

إلى إخوتي وأخواتي الأعزاء

كلمة شكر وتقدير

ولو أنني أوتيت كل بلاغة وأفنيت بحر النطق في النظم والنثر

لما كنت بعد القول إلا مقصرا ومعتزفا بالعجز عن واجب الشكر

لا يسعني في البداية إلا أن أتقدم بأسمى معاني التقدير والاحترام، حيث تعجز الكلمات عن التعبير عما أكنه في نفسي من مشاعر الاحترام ووافر الامتنان لأستاذي المشرف الدكتور جمال بوطيب الذي قاد خطوات هذا العمل، فقد كان خير مرشد ومعين، منحني الكثير من صبره وجهده رغم انشغالاته الأكاديمية والمهنية.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى كل أعضاء مركز دراسات الدكتوراه الجماليات وعلوم الإنسان وبنية البحث التواصل الثقافي وجمالية النص لما يبذلونه من جهد جهيد في تأطير رواد البحث العلمي بهذه الجامعة العامرة. والشكر موصول، كذلك، لكل من ساهم في إنجاح هذه المهمة.

مذخر

نعيش في عالم متعدد الثقافات والأديان والمعتقدات والتقاليد التاريخية، عالم معقد مليئاً بالتحديات، عالم القرن الحادي والعشرين الذي لا توجد فيه إجابة بسيطة وسهلة عن أي سؤال وتورق أسئلة مقلقة معطيات سلامنا ومستقبل عيشنا.. عالم جديد بذكاء اصطناعي وبنيات اتصال عالية التكنولوجيا وسلطة السوق وعولمة الخوف والأوبئة، عالم يختزل المشروع الإنساني في مؤشرات كمية وتصورات الصدام أكثر من التواصل والحوار رغم الادعاء بأن الإنسان محور وهدف لكل تنمية. عالم عانت فيه البشرية فترات من النزاع الأيديولوجي والحروب والمآسي والهيمنة، كما راكمت لحظات تاريخية من التواصل والتلاقح والحوار.

المنتبغ للتحويلات التي شهدها العالم في أواخر القرن العشرين ومطلع هذا القرن، يلاحظ مشهدا ثقافيا وسياقا زمنيا تميز بأحداث تاريخية عظيمة وعولمة تأتي على الأخضر واليابس وتنوع ثقافي بارز وثورة علمية وتكنولوجية غير مسبوقة. إذ شهدت فترة نهاية القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة أحداثا (نهاية الحرب الباردة؛ نظام عالمي جديد؛ حرب الخليج؛ أحداث شنتبر 2001؛ الحرب على العراق وأفغانستان....) وتيارات فكرية وابدولوجية ومفاهيم سياسية وتشريعات دولية، أحدثت تغييرات حاسمة في بنية المجتمعات المعاصرة، وانتقلت بالحضارة الإنسانية إلى إصدار ثالث ما بعد صناعي - بعد النموذجين الفلاحي والصناعي - واستبدل الصراع الأيديولوجي السابق بمنظومة كونية تحرسها مؤسسات وقوة دولية مهيمنة أكدت المركزية الغربية بتصور أحادي الخلفية الأيديولوجية والثقافية، يقدم الحداثة بصفتها مشروعا غربيا يعوض الفكر الديني بمضمون عقلي وعلمي في صالح الإنسانية قاطبة، معلنا نهاية التاريخ بالانتصار لنموذج حضاري على غيره من النماذج الحضارية الأخرى، دون أي اعتبار للحقوق والهويات الثقافية ويحمل في نفس الآن مخاطر على تعددية القيم والمعتقدات والثقافات.

العولمة كبعد جديد للوجود الإنساني أسهمت في حركة التدفق الحر للمعلومات والأفكار والأموال والأشخاص بسهولة وسرعة وشمولية، لا مثيل لها في العقود السابقة، وشكلت قفزة حضارية نوعية جعلت العالم في مرحلة من التحول الجذري، على الصعيد المعرفي والثقافي ومجالا للتبادل والتداول وأقفا رحبا للتواصل يخترق الحدود الإقليمية

والهويات الوطنية والثقافية، يصهر العالم في بوتقة ثقافية واحدة حيث يتيه الجميع باحثا عن امكانية بناء مضمون ثقافي للعولمة يسمح بالاختلاف والتعددية الثقافية. العولمة الآن، بما هي صورة لإمبريالية جديدة من نوع ثقافي تمارس ضغطا سلبيا على الهويات الثقافية وتهدد التواصل الحضاري وحوار الثقافات، لا يمكن القبول بها إلا بقيم متقاسمة عالميا تشكل فرصة لما هو محلي للوصول إلى العالمية.

التنوع الثقافي من أهم سمات المجتمعات المعاصرة التي تتميز بوجود أفراد من خلفيات ثقافية ودينية متنوعة ودرجات من التنوع في الممارسات الثقافية وأنماط السلوك أفرزت رهانات الهجرة والمواطنة والهوية: التثبيت بالهوية الثقافية ومفهوم الوطن، الخوف وكرهية الأجانب والتمييز على أساس عرقي أو ثقافي أو ديني، مما يهدد النسيج الاجتماعي لهذه المجتمعات ويجعل إدارة التنوع الثقافي تحديا، وطنيا وعالميا.

الثورة العلمية والتقنية أسفرت عن نمو خارق لحجم المعلومات المتاحة وفتحت آفاقا معرفية جديدة غيرت العالم بعمق وعلى نحو لا سبيل للرجوع عنه وكان لها الأثر الكبير على الانفتاح وتقسيم المجتمعات على أساس المعرفة وليس الموارد، منحت للتواصل والثقافة والتربية ونطاق تفاعل الأفراد والمجتمعات إمكانات وفرص عظيمة: تكنولوجيا الاتصالات، مجتمع المعرفة وفي نفس اللحظة أثارت تحديات لم تكن متوقعة من قبل ومشكلات الفجوة الرقمية بين المجتمعات وأسئلة عميقة حول مسؤوليتنا والتزاماتنا تجاه الأجيال القادمة، في زمن موسوم بإيقاعات سريعة للتحويلات التكنولوجية، من ربط شبكي وذكاء اصطناعي يفوق أي ابتكار في تاريخنا وأضحت في متناول القاصي والداني، ما برحت تغير وتؤثر على طرق عيشنا واشتغالنا وأنماط تفكيرنا وعملنا وصناعة الرأي، تستحدث أشكال ثقافية جديدة وتدفع أخرى إلى الاندثار وتثير فينا الحنين إلى الماضي بين الفينة والأخرى، غير أننا نرى أن بإمكان هذه التكنولوجيات والإنجازات الرقمية أن تساعد في جعل عالمنا أكثر إنصافا وأكثر سلما، كما يمكن أيضا أن تهدد الخصوصية وتفاقم عدم المساواة.

في نفس السياق، الاعتبارات السابقة تسائل مدى تفكير الإنسان - بعلم ليس أعمى - في ابداع حلول وبدائل ممكنة لما تراكمه الحضارة المعاصرة من أزمات تجعل البشرية

مهدة في وجودها على مستويين: المستوى البيولوجي (أزمة النظام البيئي) والمستوى الثقافي (تراجع التنوع الثقافي) وينتج عنها تحولات طالت مجالات عدة وتوترات بين العالمي والمحلي وبين التقليد والحداثة وبين الروحانيات والماديات وبين الهيمنة وتكافؤ الفرص وبين توسع دائرة المعارف والقدرة على التحكم فيها وبين مطالب بحقوق الإنسان والسلطة المطلقة. هذه التوترات ولدت، رغم تحسن التحصيل العلمي واتساع نطاق الاتصال والتواصل، إشكاليات نجلها في:

– تفشي التمييز العنصري وكرهية الأجانب والمسلمين بشكل خاص، الظاهرة التي بلغت مستويات غير مسبوقة.

– ثنائية العالمية والمحلية أو الكونية والخصوصية التي انبثقت عنها تساؤلات من مثل: كيف يمكن للفرد أن يصبح مواطناً عالمياً دون أن ينفصل عن هويته الثقافية؟ أيهما أنفع التنوع أم التجانس والتنميط الثقافي؟

– جدلية الأنا والآخر: بين الانغلاق والانفتاح كيف يمكن التعامل مع الآخر المختلف دون التكر للذات؟ من أنا ومن نحن؟ ما هويتي الثقافية وما علاقتي بالآخر، خصوصاً إذا كان له سبق الحضاري؟ هل يهدد الانفتاح هويتي أم يغنيها؟

– التكامل والتنافس بين الثقافات: هل الثقافات متعددة تكمل بعضها البعض أم في تنافس يرنو إلى التفوق والامتياز والهيمنة؟

برز مع هذه الإشكاليات سؤال الحضارة أو المسألة الحضارية وانهالت الدراسات الثقافية والأبحاث العلمية تعيد بوصلة كل الجوانب الحضارية والاشكالات التي تفرزها، في كل عصر من عصور التاريخ برزت حضارة على كوكب الأرض وكل حضارة امتازت بخصوصية معينة وشكلت في جوانبها الإيجابية قيمة مضافة لمنجزات الإنسان، تعاقبت- على سبيل المثال لا الحصر- الحضارة اليونانية والحضارة الإغريقية والحضارة الصينية القديمة والحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

في عصرنا هذا أضحت الثقافة مؤشراً ومفتاحاً لفهم وتأويل الظواهر والتحولات الاستراتيجية العالمية، وتبلورت في هذا السياق وبشكل متزامن مقولتان متعارضتان، الأولى مقولة صدام الحضارات التي صاغها أشهر المفكرين الاستراتيجيين في الولايات

المتحدة الأمريكية، صموئيل هنتنغتون أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد، متخذاً من الثقافة أو الهوية الحضارية بوصلة التماسك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة، ومعتمداً على تحليله لتوازن القوى بين الحضارات الآخذ في التغير نتيجة ظواهر وتحولات عالمية ذات خلفية ثقافية، يشكل فيها الدين - خاصة الإسلام أو الخطر الأخضر - أكثر المواضيع إثارة في هذه الأطروحة كسند للحوار أو الصدام بين البشر، يفاقم التعصب الاثني والديني والثقافي.

مقابل هذا الخطاب الذي يفتت الحضارة الإنسانية إلى هويات تتصادم لا محالة بينها، ظهرت المقولة الثانية الموسومة بحوار الثقافات والحضارات، كنقد وتقويض لمقولة صدام الحضارات، أطروحة تهدف بناء تراكمات فكرية وثقافية تستفيد من الإرث الحضاري والإنساني المشترك على أساس التنوع الثقافي، بغض النظر عن العرق والدين واللغة و.. من أجل بناء السلام والتعايش وخلق فرص التسامح، حوار ينطلق من تقارب وتفاعل الأفكار ووجهات النظر بين مجموعة من الأفراد أو الهيئات، ينتمي كل منهم إلى ثقافة من الثقافات وتحذوهم الرغبة والارادة في التواصل الحضاري والاستجابة لحق شعوب الأرض في السلام والأمن والتنمية.

إن خضوع العالم لثقافة واحدة أو كتل ثقافية تفرض كونية ثقافية بمنظومة قيم مهيمنة على باقي الثقافات، تقوض الاختلاف وتعيق سبل الحوار، سيولد لامحالة مقاومة وممانعة في صلب اهتمام الهويات الثقافية وتتمظهر في حالات التعصب والتطرف العنيف وتصريحات تطفح بكرهية الأجانب والتمييز في نطاقات ثقافية مختلفة، شرقاً وغرباً، تبدو فجوة في الكتابات الفكرية والمقالات الصحفية وفي شاشات الاعلام والفن السابع، تصدم الأنظار وتخلف ردود أفعال، تجعل الحوار بلا شك واحداً من أهم تحديات المجتمع الدولي الذي استقبل الألفية الثالثة في منظومة الأمم المتحدة بسنة حوار الحضارات وأضحى موضوع حوار الثقافات والحضارات والأديان من الموضوعات التي تحظى بأهمية متزايدة في المجتمع الدولي وأجندة أعمال مؤتمرات وملتقيات ومنتديات دولية وإقليمية.

في ظل تفاعل المتغيرات والتوترات والإشكالات السالفة الذكر، أمسى عالمنا - قريتنا الصغيرة - المحكوم حتماً بلقاء كوني بين الثقافات والأديان، في مواجهة ثلاثة

فرضيات ممكنة لهذا التواجد: تناقضات حادة تقضي لصدامات وعنف أم تهجين ثقافي أم تواصل حضاري وحوار ثقافي على أساس احترام التنوع وقبول الحق في الاختلاف. كما باتت عينة من التساؤلات مشروعة: ما الذي يمكن لأنظمة التربية والتعليم القيام به أمام كل هذه المعطيات والحال أنها لا توجد خارج العالم وإشكالات ثقافته؟ إلى أي حد يسهم التعليم في إدراك وتفسير ومواكبة التحولات الكبرى التي يعيشها عالمنا اليوم؟ كيف يمكنه تدبير الإشكاليات والتحديات الثقافية للقرن الحادي والعشرين التي تترشح بين الفرضيات الثلاثة؟

وحيث يتوسل الحوار أساسا إلى موجهات تربوية تستجمع قدرات ومهارات وقيم التواصل اللازمة للتعامل، ازدادت أهميتها مع سيطرة تكنولوجيا المعلومات والاتصال ومواقع التواصل العالمية والبرمجيات الذكية والمنصات التفاعلية، لما لا التفكير في مقاربة تربوية لفكرة حوار الثقافات، ينبثق معها نور الأمل والتقاء الأفكار. التربية مسؤولة عن مرجعيات ومنهجيات التفكير ومواقف وسلوك الأفراد وعملية دينامية تتأثر بالتراث الثقافي والعوامل الثقافية ونمط الحياة، رغم أن المدرسة ليست مكانا أو معهدا لنقل الثقافة والتراث بشكل حصري فهي مطالبة بتنظيم الحوار بين إرث الماضي ومشكلات الحاضر داخل نفس الثقافة، وبين الثقافات داخل نفس الحضارة الإنسانية.

أليس كلا المشروعان، مشروع التربية ومشروع حوار الثقافات يكونان رؤية مشتركة لمستقبل الإنسان وأرضية فكرية أو منظور موحد للقضايا والثقافات والبناء الحضاري، لا يولد الإنسان مزودا بها، بل تنمى لديه بالتربية والتعليم. كلا المشروعان يشتغل ويعتمد، كذلك، على المعرفة حيث يختار الإنسان الحوار أو القطيعة وفق معرفة تاريخية مسبقة توفرها التربية والتعليم والتواصل والقيم الإنسانية الكونية ويمكن أن تحقق التفاهم والتفاعل والمحافظة على الخصوصية بالموازاة مع الانفتاح ومقاومة أي مشروع للهيمنة والعولمة.

التعليم بأهميته الراسخة عبر الزمن قوة تحويلية لإصلاح العالم ونشر الوعي بالحاضر وتكوين المستقبل. دوره أبعد من الدور النفعي في تنمية الاقتصاد، يكتسي أهمية خاصة في عصر العولمة باعتباره وسيلة لإتاحة فرص الاستفادة من منافعها والاستجابة

لنمط الحياة المعاصرة في مجتمع المعرفة، التصور الذي يجعلنا ندرك بالقطع أنه من العبث أن نتصور مجتمعا إنسانيا لا تتواصل ولا تتحاور مكوناته وأن منظومة تعليمية لا تنظم العلاقات الانسانية وخاصة التواصلية بين روادها وتخلق مجتمعا مغلقا على ذاته وينفي وجود الآخر، ليبقى الإشكال حول مواصفات الإنسان الذي نريده للمستقبل، والذي يحيلنا وجوبا على نوعية وجودة البرامج والمناهج التعليمية التي تلزمنا في المختبر الأول للتغيير الاجتماعي والبحث عن حلول للقضايا والتحديات التي تعترض سبيلنا: إننا نقصد التربية والتعليم مختبر إعداد مواطني عالم الغد. مع العلم أنه لا يجب استثناء أي جهة من مهمة الانخراط في التواصل الحضاري وحوار الثقافات، سواء كانت رسمية أو غير رسمية، هيئات وجماعات دينية أو مدنية، مؤسسات إعلامية أو فنية أو تكوينية. لا يحتاج الأطفال والشباب، في عالم العولمة اليوم، إلى القدرة على التواصل والتنسيق فحسب، بل ينبغي عليهم أن يكونوا مستعدين للقيام بذلك في محيطٍ متنوّع ومتعدّد اللغات وعابرٍ للثقافات.

عالم اليوم الذي يبدو مرتبكاً يحتاج أكثر من أي زمن مضى إلى التواصل والحوار منهجاً وأداة لتفادي الصدام والصراع وتحقيق السلم والتعايش. ما من سبيل إلا بتربية ترتقي بأخلاق التواصل والتنوع الثقافي وتنمي روح التسامح والتعايش واحترام كرامة الإنسان لدى الناشئة في زمن مبكر وتعليم يؤسس لبناء معرفي وحضاري وتفكير نقدي. تعليم يوفر المهارات والقدرات المنهجية والاستراتيجية والثقافية والتواصلية والتكنولوجية والقيم والمواقف الايجابية التي نعد على أساسها تصوراتنا وتفسيراتنا، نترجم إلى ممارسات عملية تقبل بالتنوع وتسمو بالعيش والمشاركة الإنسانية.

على الأشخاص المتعلمين في عصرنا هذا فهم تاريخهم وخلفيتهم الثقافية وعليهم أيضا معرفة وفهم ثقافات وخلفيات الغير، لا يمكن الاقتصار على إتقان لغة واحدة أو جهل مهارات تكنولوجيا الاتصالات، كما يجب أن يكونوا قادرين على استيعاب الرموز الثقافية والانخراط في مجتمع المعرفة بقيم إنسانية كونية، تتجاوز الجدل والايديولوجيات إلى التركيز على بناء التنمية الانسانية.

نحن إذن أمام موضوع جديد لإثراء العلاقات الانسانية في فضاء كوني، يستدعي أدوات جديدة واشتغال معرفي جديد على مستوى المفاهيم الدينية والثقافية والحقوقية والمشارك الإنساني في إطار مشروع تربوي بمثابة إطار مرجعي، تتلاقى فيه أدوار ووظائف التربية والتعليم الحديثة بمقاربات تربوية وبيداغوجية تلقي الضوء على الرصيد المعرفي لثقافات الشعوب ولغاتها وأديانها وخصوصياتها وتتأمل أبعاد وامتدادات التواصل الحضاري وتقارب الثقافات وذوي الأديان والقضاء على جذور التطرف والانغلاق الديني. بما يقتضى ذلك من تنقيح للكتب المدرسية والمعينات الديداكتيكية وتأهيل الفاعل التربوي الواعي بمستجدات واشكالات وسيناريوهات المستقبل الملتبسة.

أُفردت للتعليم أهمية بالغة في جميع المواثيق والصكوك الدولية، لدوره في التنمية الإنسانية وضمان كرامة الإنسان وإحقاق حقوق أخرى وليس صدفة أن يركز مجموعة من المثقفين والأكاديميين والدبلوماسيين، في الوثائق والإعلانات والبيانات الدولية على دور التربية ومغزى التعليم الذي يطال جميع شرائح المجتمع وكل مراحل الحياة، من أجل بناء جسور التواصل والتفاهم والحوار بين الثقافات ويبراهنون على النظم التعليمية عالميا - بمناهجها وكفاءاتها وفضاءاتها التربوية وكافة مستوياتها - كأداة مثلى في نشر المعرفة بالثقافات والمعتقدات والتنوع الثقافي وأنماط السلوك التي تشجع على قبول الآخر واحترام الاختلاف وتعلم العيش معا وتأهيل التعليم الديني وتدرّس اللغات الأجنبية كجسر مثالي للتواصل الحضاري والحوار بين الثقافات.

ولأنه لا يكفي حصر الحوار في اجتماعات وندوات ومناظرات أكاديمية تظهر تنوع الثقافات ولا في مؤتمرات يقصدها رجال الدين لإظهار حجم التسامح في الأديان أو المشترك الديني بين الأديان، وإنما وجود استراتيجية طويلة المدى محددة المعالم تتسم بالاستمرارية والتواصل وقياس الأثر. بات إرساء التعاون والحوار اللازمين عبر الحدود الثقافية والحضارية بين أتباع الأديان والثقافات، جزءاً لا يتجزأ من الاستراتيجيات الدولية للتربية والتعليم وموضوع مبادرات وسياسات منظمات دولية وإقليمية، كالأمم المتحدة ومجلس أوروبا واليونسكو واليونسيف والاييسيسكو والاليكسو على سبيل المثال لا الحصر، وضعت إطاراً مرجعياً دولياً لحوار الثقافات والحضارات والتنوع الثقافي ودلائل

توجيهية حول التعليم متعدد الثقافات والتعلم من أجل العيش المشترك واستثمار المهارات اللازمة لتحديات القرن الحادي والعشرين والتربية على المواطنة العالمية في مجتمعات المعرفة.

واعتبارا لما حققته منظومة التربية والتعليم بالمغرب - في مسارها التاريخي - من مكتسبات كمية ونوعية، في إطار أورش إصلاح متتالية. مسار توج بمراجعة وتنقيح المناهج التربوية وفق نموذج بيداغوجي قائم على اعتماد التربية على القيم والاختيار وتطوير الكفايات التواصلية والثقافية والاستراتيجية والمنهجية مؤطرة بقيم الهوية الحضارية ومبادئها الأخلاقية والثقافية وقيم المواطنة وحقوق الإنسان بمبادئها الكونية، نجد في المقابل، سيلا من المطالب الفكرية والحقوقية والأكاديمية حول مساءلة أدوار منظومة التربية والتعليم في تحسين صورة الآخر في المناهج والفضاءات التربوية والتعليمية ونبذ العنف والتطرف ومراجعة المناهج الدراسية وتنقيحها من الأفكار والصور النمطية المؤسسة للإقصاء والعنف وتطعيمها ببرامج تعليمية ومواد تربوية مفتوحة ومرنة ومتعددة الثقافات، تنهل من غنى التنوع الثقافي للإنسانية وتعيد تصميم المناهج التربوية من راع لمواطن «صالح» في المجتمع إلى تكوين مواطن يقبل الاختلاف ويسهم في البناء الحضاري، يتواصل مع الآخر بدون حواجز أو موانع ثقافية ويؤمن جازما أن لا مستقبل آمن للعالم بدون تعليم ذي رأس مال معرفي يرتقي بالإبداع والذكاء الجمعي ويساعد الأفراد على وضع آليات جماعية للتواصل والحوار والتفاعل والتعايش والإنتاج في إطار تواصل تتفاعل فيها المعرفة والثقافة والتربية والتعليم.

في حدود هذا التصور، نصبو لمقاربة التساؤل المركزي التالي: إلى أي حد يمكن أن تسهم منظومة التربية والتعليم في تعزيز التواصل الحضاري وحوار الثقافات؟ كعمل بحثي يقدم قراءة نقدية في تحديات ومكتسبات منظومة التربية والتعليم المغربية في هذا المجال، عمل ذو طابع تربوي تعليمي، يتجاوز واقع التعددية الثقافية إلى طموح الوحدة في ظل بيداغوجيا للتنوع الثقافي ولكي نتبين عمق هذه الإشكالية والإحاطة بها نظريا ومنهجيا، نثير جملة من التساؤلات الفرعية والجوهرية:

– هل ثقافات العالم في حالة حوار أم صدام أم لا يعدو الأمر تواصلاً حضارياً داخل حضارة إنسانية واحدة؟ ما منشأ ومبررات أطروحتي الصدام والحوار؟ وأي قراءات نقدية لهما؟

– لما الاستثمار في التعليم والرهان عليه في تعلم العيش معا في مسار للتواصل الحضاري وحوار الثقافات؟

– ما علاقة التربية والتعليم بالثقافة وأي حدود وأبعاد وامكانات لتفاعلها؟

– ما اشكالات التواصل الحضاري وحوار الثقافات؟ وأي أبعاد وامتدادات تتناسل منها وتجد إسقاطات لها في مجال التربية والتعليم؟

– ما توصيات ومخرجات القرارات والندوات والبيانات الدولية – بما فيها العربية والإسلامية والمغربية تحديداً – التي توصي بأهمية التربية والتعليم في التواصل الحضاري وحوار الثقافات؟

– أية مقاربات تربوية وبيداغوجية وتواصلية كفيلة بتحقيق تواصل حضاري وحوار ثقافي؟

– ما أهمية تعليم اللغات وتجديد الخطاب في التعليم الديني ونهج التربية على المواطنة العالمية في مجتمعات للمعرفة والتنوع الثقافي؟

– أي دور للتنمية الثقافية للطفل ومهارات الحياة والتواصل في التربية على الحوار؟

– على ضوء التساؤلات السابقة، هل تستجيب منظومتنا التعليمية التي تخضع للإصلاح والتجديد بين الفينة والأخرى للحاجة المتزايدة في عصرنا هذا للتواصل الحضاري وحوار الثقافات؟

خصصنا لهذا البحث ثلاث مسلمات تبنى عليها الأفكار المتضمنة في ثنايا هذا العمل ولا نحتاج إلى برهان لإثباتها أو دحضها أو تقديم دليلاً عليها لشدة وضوحها:

– المسلمة الأولى: عالمنا غني بمختلف الثقافات يحتم الاتصال والتواصل بين الأفراد والثقافات. إن الآخر شريك في الحياة والإنسانية.

– المسلمة الثانية: الحوار أفق للتواصل. لا جدوى من التواصل إن لم يحقق حواراً.

– المسلمة الثالثة: التربية والتعليم أنجع الأدوات والمداخل لتحفيز تواصل حضاري وحوار ثقافي وإصلاح العالم. على غرار مقولة الايمان مطهر للقلوب نسلم بالتعليم مطهراً للعقول بصفة عامة والحاضنة للتعصب بصفة خاصة.

ونفترض كئالذ خطوة يقوم بها الباحث في خطوات البحث العلمي أن:

– كل خطاب ديني معين يفسر ويؤطر الفعل ورد الفعل اتجاه الثقافة الأصل والثقافات الأخرى ومن تم يمكن لحوار الأديان وتجديد الخطاب الديني عبر التعليم أن يحققا التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

– الإيمان بالتنوع الثقافي يمهد الطريق لنجاح التواصل والحوار بين الثقافات وصد الموجات العابرة من أشكال التطرف والعنف، إذ لا يمكن أن نحقق مالا نؤمن به.

– التعدد اللغوي ومهارات التواصل جسور لتعزيز التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

– بناء التعليم للمشارك الإنساني والمواطنة العالمية في مجتمع المعرفة مسار موجه لتحول تاريخي وثقافي نحو التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

– تغيير مركز الاهتمام في المدرسة من المعلم والتعليم إلى المتعلم والتعلم ومن التلقين وتخزين المعرفة إلى بنائها وإنتاجها، متغيرات تكفي لجعل التعلم في القرن الحادي والعشرين مختلفاً وحتمياً لأي تغيير ممكن.

إن اختيار موضوع بحثنا هذا لم يكن وليد صدفة أو أمراً عابراً، بل نضجت فكرته في سياق زمني يعرف نقاشات وتوجهات دولية تعبر عنها وثائق المؤسسات الدولية التي ترسم السياسات التربوية العالمية وتعنى بشؤون التعليم وترى ضرورة إعادة التفكير في التربية والتعليم نحو صالح مشترك عالمي – رؤية تمتد إلى غاية 2030- وإصلاح مضامين ومناهج التعليم وتحديثها استجابة للتحديات الراهنة والمستقبلية، ليس في المغرب فقط، بل في كل أرجاء العالم.

هذا الاختيار تبلور كذلك وفق دواع شخصية ومهنية وأخرى موضوعية وعلمية-أكاديمية، فالتفكير في الموضوع لم يكن وليد سنة التسجيل في سلك الدكتوراه بل ظهر كهاجس فكري شغلنا منذ ولوج ماستر حوار الثقافات في الثقافة العربية الإسلامية موسم 2011-2012، لتتم بلورته وتحويله إلى إشكالية نظرية بتأطير وتوجيه من أستاذنا الدكتور جمال بوطيب، نتأمل ونتساءل فيه حول إشكالية تجمع بين التربية والتعليم والثقافة والتواصل والحوار الثقافي على ضوء مقارنة نقدية لمنظومة التربية والتعليم بالمغرب، نتوسل فيها بمعرفة نظرية وأدوات منهجية ومسترشدين بتجربة مهنية في حقل التربية والتكوين تزيد عن العقدين من الزمن، ويمكنها أن تفرز صوتا مهنيا ينادي بالتواصل والتربية على الحوار الثقافي، علما أننا لا ندعي السبق في ذلك.

ويمكن تحديد أقوى الدوافع التي حدث بنا إلى اختيار البحث في هذا الموضوع، في:

■ الاهتمام العلمي الذي يتجسد في تقديم تصور أعمق وأشمل للتواصل الحضاري وحوار الثقافات، واختيار توجه نظري نقدي لموقع الحوار ضمن سيرورة العملية التعليمية التعلمية برمتها؛ العالم اليوم يتحمل مسؤولية تربية النشء على التواصل والحوار.

■ قلة الدراسات التي تناولت موضوع التواصل الحضاري وحوار الثقافات من زوايا تربوية وتعليمية - على حد علم الباحث- مما يضفي على البحث جانب الريادة ويجعله نواة لأبحاث أخرى في المجال نفسه.

■ استجابة بحثية علمية لتوصيات قرارات وأعمال مؤسسات دولية، ثقافية وسياسية، نصت على ضرورة إدراج مادة تعليمية حول الحوار بين الحضارات ضمن المقررات الدراسية في جميع مراحل التعليم، بحيث تنشأ أجيال الغد متشبعة بروح التواصل والحوار، مقتنعة بأدواره في الأمن والسلام في أفق ترسيخ ثقافة الحوار بين الثقافات في ضماؤها.

■ الفضول العلمي لفهم واستجلاء موضوع البحث تربويا وتعليميا وفحص خطاب وميكانيزمات التواصل الحضاري وحوار الثقافات في المدرسة الوطنية المغربية؛

■ المساهمة، من موقع البحث العلمي، في تطوير وإغناء السياسة التعليمية بما يتماشى والاستراتيجيات العالمية الراهنة في مجال التربية والتعليم وتحديات القرن الحادي والعشرين ووضع البرامج والمناهج التربوية المغربية؛

■ البحث في اشكالات ثقافة الحوار بالمدرسة المغربية كمطلب علمي أصبح ملحا بالنظر لمستويات العنف والسلوكات اللامدنية التي تسجل يوميا في مؤسساتنا التعليمية ومحيطها الوطني والدولي.

يأتي البحث، أيضا، كمساءلة - من موقع البحث العلمي - لراهن وضع تربوي وتعليمي يعرف انشغالات ومطالب ملحة حول ضرورة إصلاح مضامين ومناهج التعليم بالمغرب وتحديثها وما يصاحب ذلك من انشغالات سياسية وثقافية واجتماعية ما تزال متواصلة إلى الآن، فالأسرة المغربية بدأت تعمق عزلة المدرسة الوطنية وتفقد الثقة في رسالتها التربوية.

غني عن البيان ما لهذا المجال، الذي آثرنا البحث فيه، من أهمية بالغة تتبع من أهمية الموضوع الذي يتناوله، كمجال فكري وحضاري والسياق الزمني الذي يجري فيه وأهمية المؤسسات التربوية الحاضرة له، فالمشهد التربوي-التعليمي عامة والمغربي خاصة، لازال حقا فتيا جاذبا للبحث والتتظير، يعاني في الزمن الحاضر من عدة إشكالات تعثر مسار نجاحه، كالعنف وانتشار السلوكات اللامدنية وغياب الحافزية للتحصيل العلمي والحضور الباهت للمضامين الثقافية ومهارات التواصل بالكتب المدرسية والحوامل البيداغوجية المستعملة في عملية التدريس، إشكالات تستوجب تدخل البحث العلمي الرصين. الأمر الذي يعطي لبحث موضوع التواصل الحضاري وحوار الثقافات في مجال التربية والتعليم طابع الراهنية وأهمية نظرية وتطبيقية تطمح للإسهام في:

- فهم واستجلاء الاشكالات والأبعاد والامتدادات والمداخل النظرية والمقاربات البيداغوجية للموضوع كقضية تربوية ثقافية من شأنها تنوير مسارات التربية والتعليم والتعلم؛

– المزوجة بين بعدين هامين في حياة الإنسان، البعد الأول تربوي والبعد الثاني ثقافي وحضاري؛

– الانطلاق من أسانيد معرفية وفكرية مختلفة تؤثر على الموقف من الثقافات والحضارات وطبيعة الرؤى للعالم والعلاقة بين مكوناته، تحفيزا لاتخاذ مواقف ايجابية من الآخر الثقافي والحضارات المتعاقبة؛

– اغناء البحوث والدراسات الموضوعية في مجالات التواصل والحوار الإنساني عموما، في زمن زادت فيه بؤر التوتر والصراع عددا وحجما؛

– إثارة انتباه الفاعلين التربويين لأهمية التربية والتعليم في تعزيز التواصل الحضاري وحوار الثقافات؛

– اضاءة مدى استجابة المناهج الدراسية المغربية وآليات اشتغالها لرهانات التواصل الحضاري وحوار الثقافات؛

– وضع تصور نظري لمقاربة التواصل الحضاري وحوار الثقافات في منظومة التربية والتكوين؛

– اقتراح إجراءات تربوية وبيداغوجية تستطيع من خلالها المنظومة التعليمية تشجيع معرفة الحضارات والثقافات والأديان وفهمها والتواصل مع ذويها.

– إقامة جسر بين المقاربة النظرية لحوار الثقافات والصياغة العملية لمقتضيات بيداغوجية وتربوية كفيلة ببلورة إسهامات التربية والتعليم في التواصل الحضاري وحوار الثقافات؛

– إثارة أفكار ومنطلقات عمل تهم تطوير الموارد التربوية والتعليمية حول كيفية تدبير التنوع الثقافي في المناهج والفضاءات التربوية والتعليمية.

يصعب الجزم باستفراد هذا العمل بالأسبقية في دراسة مثل هذه الإشكالية، في غياب توثيق بيبليوغرافي موثوق به، لكن ما يعطي لهذا العمل الطابع المميز، كونه يسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:

– رسم حدود وأبعاد العلاقات التي تجمع التربية والتعليم والثقافة والتواصل والحوار مع الآخر؛

- التعرف على مبررات الرهان على الإطار الثقافي للتربية والتعليم لتعزيز التواصل والحوار؛
- استطلاع أفق التربية على الحوار ومخاطر الحوار على الأفراد والمجتمعات الإنسانية.
- التعرف على أطروحتي صدام الحضارات وحوار الحضارات واستشراف مستقبل العلاقة بين الحضارات والثقافات.
- تصنيف اشكاليات وأبعاد وامتدادات التواصل الحضاري وحوار الثقافات
- الاطلاع على رؤية ومنظور المنظمات والمنتديات الدولية، في مقابل الاسهامات الاسلامية والعربية والمغربية تحديدا.
- ادراك دور تعليم وتعلم اللغات وفق كفاية تواصلية متعددة اللغات كجسر للتواصل الحضاري وحوار الثقافات.
- توضيح دور تجديد الخطاب الديني في إطار التعليم الديني وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في مشروع التواصل الحضاري وحوار الثقافات.
- البحث في المقاربات التربوية والتعليمية الكفيلة بالارتقاء بالتواصل الحضاري وحوار الثقافات وإيجاد مداخل وسبل جديدة لتعليم الموضوعات الثقافية.
- محاولة إرساء إطار نظري ينسق جهود التربية على قيم التسامح والسلام والتعليم من أجل المواطنة العالمية وبناء التعليم مجتمع المعرفة كأطر مرجعية لمناهج تعليمية تعتمد المواطنة بين الثقافية وحوار الثقافات.
- تعرف مدى استجابة المناهج التربوية المغربية للأهداف السالفة الذكر؛

لتنفيذ هذه الأهداف، بأي منهج علمي يمكن مقارنة هذا الموضوع مقارنة علمية؟ في حين لا يزعم العلم والعلماء تقديم الحقائق كاملة ومطلقة، يعد استخدام المنهج العلمي من أكثر الأدوات كفاءة في البحث عن حقائق المعرفة الإنسانية والظواهر والمفاهيم العلمية. المنهج في البحث العلمي مسألة جوهرية، إذ تعتمد "صحة أي بحث علمي وبدرجة كبيرة على المنهج المستعمل والكيفية التي استعمل بها"¹. بالنسبة لموضوع بحثنا

¹- موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصة للنشر، الجزائر، الطبعة الثانية، 2006، ص 36.

هذا سنعتمد المنهج الوصفي التحليلي كاختيار منهجي. في الجوانب المرتبطة بالوصف، نسعى إلى:

– تحديد أهمية ومبررات تأصيل ثقافة التواصل والحوار انطلاقاً من حقلي التربية والتعليم.

– توصيف منشأ وسياق أطروحتي الصدام والحوار.

– رصد قرارات وتوصيات واقتراحات المؤسسات والمنظمات الدولية والإقليمية الداعية إلى توظيف إمكانات التربية والتعليم في التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

– توصيف مكونات المنهاج التربوي المغربي المحتمل ترسيخها ورعايتها للتواصل الحضاري وحوار الثقافات، الممثلة في الخطاب والوثائق التربوية الرسمية التي تعكس فلسفة وغايات المدرسة الوطنية المغربية والآليات البيداغوجية والمضامين اللغوية والدينية والتعليمية في الأسلاك التعليمية الثلاثة.

– وصف مهارات التواصل اللازمة لحوار الثقافات.

وفي الجوانب المرتبطة بالتحليل، نبتغي:

– تفكيك العلاقة بين التربية والتعليم والثقافة والتواصل بحثاً عن المشترك وحدود التبادل والتفاعل.

– قراءة نقدية لأطروحتي الصدام والحوار من وجهة نظر فاعل تربوي في حقل التربية والتكوين.

– استخراج المتغيرات التي تؤثر في الموضوع واستقصاء اشكالات وامتدادات التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

– استنباط المفاهيم النظرية وتحديد المداخل العملية والمقاربات المقترحة في الوثائق الدولية لتطوير التواصل الحضاري وحوار الثقافات عبر مجالات التربية والتعليم.

– تدقيق المسافة بين إمكانات التنظير واکراهات التنفيذ وتعقيداته.

– تفصيل مدى إسهامات تعليم اللغات والتعليم الديني والتربية على المواطنة العالمية في مجتمع المعرفة في تعزيز التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

– استقصاء راهن ومستقبل التواصل الحضاري وحوار الثقافات في ظل التحولات العالمية، خاصة ما يرتبط بالطفرة التكنولوجية غير المسبوقة وتداعياتها على النشاط الإنساني.

– تركيب نتائج عامة تهم موضوع البحث.

جدير بالذكر أن البحث العلمي ليس بمنأى ولا معزل عن الخلفيات السياسية والثقافية والاجتماعية والدينية المؤطرة لعمل البحث وبيئة الباحث، فالعلوم الإنسانية على حد تعبير بول باسكون Paul PASCON "لا زالت لم تتخلص من شحناتها الإيديولوجية ولم يتحقق لها شرط الحياد"². إذا كان التحليل هو حد الاشتغال المنهجي فإن حدود الاشتغال الزمنية للأطروحة تتطلق من العقد التاسع للقرن العشرين إلى غاية أواخر العقد الثاني للقرن الواحد والعشرين.

من أجل مقارنة واعية لإشكالية البحث وتمشياً مع الاختيار المنهجي الذي تم اعتماده، انتظم بناء العمل البحثي وفق مدخل وأربعة فصول، تتضمن اثنا عشر مبحثاً تقارب إشكالية البحث وتجب عن تساؤلاته.

ضبط الفصل الأول المفاهيم والمصطلحات الرئيسية في البحث والمفاهيم المتداخلة معها من قبيل تقارب الثقافات وتعارف الحضارات وتحالف الحضارات، مع الفصل بين حوار الثقافات وحوار الحضارات وحوار الأديان من حيث الدلالة والخلفية، ثم بيان الحاجة إلى الآخر للتواصل وضرورة الحوار وتوضيح حدود وأبعاد علاقة التربية والتعليم بالثقافة والتواصل بالحوار، دون التغافل عن مبررات الرهان على التعليم لرفع تحديات القرن الحادي والعشرين وتعزيز التواصل الحضاري وحوار الثقافات من جهة ودواعي وأهمية ترسيخ التواصل والحوار في مجال التربية والتعليم من جهة أخرى.

قارب الفصل الثاني مستقبل العلاقة بين الحضارات والثقافات بين التواصل والحوار في أطروحة حوار الثقافات والصراع في أطروحة صدام الحضارات وتوازن المصالح كنتيجة لقراءة نقدية للأطروحتين. الحديث في المستقبل أعالنا على رصد أربع

² - بول باسكون، زيارة قصيرة لمطبخ العلوم الإنسانية، ترجمة مصطفى كامل، مجلة بيت الحكمة، العدد 3، 1996، ص 104.

اشكاليات للتواصل الحضاري وحوار الثقافات مصحوبة بأربعة أبعاد، حصرنا الاشكاليات في تشطي الهوية الثقافية مقابل العولمة الغربية أولا وعلاقة الإسلام والغرب ثانيا والتطرف والعنف المعولم كمؤشرات للصدام ثالثا وصراع اللغات بين بسط الهيمنة والوظيفة التواصلية رابعا، أما الأبعاد والامتدادات فتتوزعت بين تعزيز التنوع الثقافي والتعدد اللغوي وتحفيز الترجمة وإبراز المشترك الانساني والديني.

أضاء الفصل الثالث أدوار وأهمية التربية والتعليم في التواصل الحضاري وحوار الثقافات، انطلاقا من وثائق الفكر المؤسسي الدولي الصادرة عن أروقة منظمة الأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو والاتحاد الأوروبي والمننديات الدولية مع بيان طبيعة ونوعية الإسهامات الإسلامية والعربية ممثلة في جامعة الدول العربية ومنظمتي الايسيسكو والاليكسو، لنختم بالمشاركة الوطنية على الصعيد الدولي والبحث في مدى حضور التواصل الحضاري وحوار الثقافات في مرجعية منظومة التربية والتعليم بالمغرب وخطاب إصلاحها.

فصل الفصل الرابع في مداخل وجسور ومقاربات التربية والتعليم والتواصل الحضاري وحوار الثقافات، في ثلاثة مباحث، المبحث الأول يرصد الأهمية التواصلية وما بين الثقافية لتعليم متعدد اللغات والإنجازات التي حققتها المدرسة المغربية في هذا المجال. المبحث الثاني يبحث امكانات تجديد الخطاب الديني عبر التعليم الديني والتعليم العتيق بالمغرب وتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، بينما المبحث الثالث يدرس التربية على قيم التسامح والسلام والتعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية وبناء التعليم لمجتمع المعرفة كسبل للتواصل الحضاري وحوار الثقافات ذات نفس تربوي تعليمي يمكنه إحداث تحول ثقافي عميق.

بعد بحث ليس بالقصير حول الدراسات السابقة التي تناولت موضوع البحث، لم نصل لدراسة أكاديمية تناولت مدى إسهامات التربية والتعليم في إنكاء التواصل الحضاري وحوار الثقافات، كما لاحظنا أن البحوث التي تشترك جميعها في حتمية الحوار أو تتحدث بشكل محوري عن حوار الثقافات والحضارات، تتناول الموضوع من زوايا نظر محددة - خاصة الدينية- ولم تعالج أو تقارب الجوانب التربوية والتعليمية للتواصل الحضاري

وحوار الثقافات أو دراسته دراسة نقدية في مجال بعينه. تجدر الإشارة هنا إلى أنه سبق لي إنجاز بحث لنيل شهادة الماستر في «حوار الثقافات في الثقافة العربية الإسلامية» يوليو 2013 حول موضوع تجليات الحوار في مجال التربية والتعليم، المدرسة المغربية نموذجاً. العمل البحثي الذي خلص إلى أن:

– تجربة ورصيد خطاب المنظومة التربوية المغربية، سواء تعلق الأمر بالاختيارات والموجهات التربوية الكبرى أو مواصفات التخرج من مؤسسات التربية والتعليم، في حاجة للإغناء بقيم وثقافة الحوار وإدماج أبعاده في برامج تعليمية تكون مفتوحة ومرنة ومتعددة الثقافات.

– الحوار، ثقافة ومنهج، يحضر بشكل محدود داخل الكتاب المدرسي وحوامل المعرفة بالمدرسة المغربية، إضافة إلى فتور العلاقة البيداغوجية في الوسط المدرسي بسبب انهيار السلطة البيداغوجية للمدرس ووجود العنف كسلوك عام داخل المؤسسات التعليمية.

– تعليم الألفية الثالثة لم يعد قاصراً على تعلم المعرفة وتطبيقاتها، بل أغنى مهامه باستكشاف التنوع المبدع للجنس البشري وتنمية الوعي بنواحي التشابه بين كل البشر عبر مناهج وآليات بيداغوجية تنمي معرفة الآخرين وتاريخهم وتقاليدهم وقيمهم، كمقومات تعليم يصطلح عليه حالياً بالتعليم المتعدد الثقافات.

كنا نؤكد في نفس الاتجاه، تنظيم هيئات – الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي وجامعة الدول العربية – ومنظمات دولية كاليونسكو والائيسيسكو والاكسو مؤتمرات وندوات وملتقيات قدمت فيها أوراق عمل ورشات عمل أنتجت مقترحات وتوصيات ونداءات وإعلانات تبرز أهمية الجانب التربوي والتعليمي في تعزيز التواصل والحوار بين الثقافات.

إلى جانب غياب دراسات سابقة في الموضوع على حد علم الباحث، من المعلوم أن كثيراً من الأبحاث والدراسات تنشر باللغة الإنجليزية ولكي يكون الباحث قادراً على مواكبة آخر المستجدات في مجال بحثه يجب أن يكون مستوى تمكنه منها جيداً، حتى يتسنى له تنويع مصادره ومراجعته ولأن رصيدنا من إتقان اللغة الإنجليزية لم يكف وافراً،

توسلنا بالترجمة أحياناً للاطلاع على مضامين لفيف من الوثائق والمراجع وسجلنا الأمر من بين الصعوبات التي اعترضتنا، إضافة إلى اعتبار البعض حوار الثقافات شعاراً وصورة مثالية تلمع أو تغطي على الصراعات الكبرى في العالم ذات الأبعاد السياسية.

الفصل الأول

التواصل الحضاري وحوار الثقافات والتربية والتعليم والثقافة: مفاهيم وتصورات

دفعاً لأي تأويل أو التباس في الفهم، ارتأينا البدء بإطار مفاهيمي نهدف منه تفكيك وتحديد المصطلحات والمفاهيم الأساس الموظفة في هذه الدراسة. غير أن قراءتنا لها - كاختيار منهجي - تتأسس على التوليف بين الأفكار التي طرحها لفيف من الأكاديميين والمفكرين، وتركيب خلاصات واستنتاجات شخصية، بعيداً عن المعاني اللغوية لهذه المفاهيم والمستهلكة في بحوث سابقة.

يرفع العنوان مفاهيم ذات دلالات عميقة، فهو يجمع بين الثقافة والثقافات والحضارة والحضارات والحوار والتواصل، وهي مفاهيم مثقلة بالمعاني تارة، عابرة لعدد من الحقول المعرفية وحاملة لتعقيدات يستعصي معها التحديد الدقيق تارة أخرى. رغم ذلك سنبحث دلالات وخلفيات هذه المفاهيم والعلاقات التي تجمعها وفق ثلاث مباحث، يسلط المبحث الأول الضوء على مفاهيم الدراسة، وارتباطاتها بمفاهيم مجاورة لها، بينما يحدد المبحث الثاني حدود وأبعاد علاقات الثقافة والتربية والتعليم ومظاهر التفاعل بينها مع الإشارة لأهمية الاستثمار في التعليم لإغناء ثقافة الاطفال ومواجهات تحديات القرن الحادي والعشرين ويقارب المبحث الثالث الحاجة إلى التربية والتعليم من أجل التواصل الحضاري وحوار الثقافات وأهمية وأفق ترسيخ التواصل والحوار في مجال التربية والتعليم، مع التنبيه لمخاطر تخييب الحوار، في محاولة لرسم ملامح نموذج بيداغوجي قائم على التواصل والحوار ويدعم التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

المبحث الأول: التواصل الحضاري وحوار الثقافات، دلالات وخلفيات.

الثقافة والثقافات والحضارة والحضارات وحوار الثقافات وحوار الحضارات وحوار الأديان، لعلها كلمات مطاطة وممتدة ومتداخلة مع التقارب بين الثقافات – في العقد الدولي للتقارب بين الثقافات 2022/2013- وتعارف الحضارات وتحالف الحضارات والتواصل الحضاري، مفاهيم نطلع عليها في مقالات وكتابات وأعمال فكرية مختلفة حول الهوية والعولمة والهيمنة والصراعات والصدام ونوظفها أحيانا في أحاديثنا من دون أن نهتم بالفروق بينها، أو نحاول تحديد معناها تحديدا وافيا بلمح واضح.

هذا ما حدا بنا أن نبدأ بالإجابة عن التساؤلات التالية: ما دلالات الثقافة والحضارة وما مميزاتها؟ كيف تطور المفهوم بين الحوار والتعارف والتقارب والتحالف، وصولا إلى التواصل؟ وما خلفيات ذلك؟ هل نعيش حضارة إنسانية واحدة بثقافات متعددة أم

حضارات شرقية وغربية، قديمة ومعاصرة؟ هل يتعلق الأمر بحوار الثقافات والحضارات أم حوار الأديان أم تواصل حضاري؟

أولاً: الثقافات، من الحوار إلى التقارب الثقافي.

بسبب تعدد مكوناتها وطفرة الكتابات واختلاف زوايا النظر والحقول المعرفية التي تناولتها بالدراسة والتحليل، الثقافة من أكثر المفاهيم استخداماً في العلوم الإنسانية وعلم الأنثروبولوجيا - العلم الذي أصبحت معه الثقافة موضوع دراسة - ومن أكثرها صعوبة في التعريف لتضمينه معان غزيرة اكتسبها عبر مسار تطوره الدلالي، فحظي بعشرات التعاريف، ليس بينها تعريف جامع ومانع أو متفق بشأنه.

من بين التعاريف اخترنا ثلاثة، التعريف الأول من علم الأنثروبولوجيا وهو أشهر التعريفات وأشدّها انتشاراً، صاغه الأنثروبولوجي الإنجليزي إدوارد بورنيت تايلور (Edward Burnett Tylor) في أواخر القرن التاسع عشر، سنة 1871 في كتابه «الثقافة البدائية»، حيث عرف الثقافة بأنها "الوحدة الكلية المعقدة التي تشمل المعرفة والايمان والفن والأخلاق والقانون والعادات، بالإضافة إلى أي قدرات وعادات أخرى يكتبها الإنسان بوصفه عضواً في مجتمع"³. التعريف الثاني من حقل الفلسفة، إذ يرى الفيلسوف إدغار موران الثقافة "مجمل العادات والتقاليد والممارسات والمهارات والمعارف والقواعد والمعايير والممنوعات والاستراتيجيات والمعتقدات والأفكار والقيم والأساطير والطقوس، التي تستمر من جيل إلى جيل، وتتوالد داخل كل فرد وتنتج التعقيد الاجتماعي وتُجدده"⁴.

³ - دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص 31.

⁴ - إدغار موران، النهج إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2009، ص 77.

التعريف الثالث من الفكر المؤسسي، حيث تضمن اعلان مكسيكو بشأن السياسات الثقافية والذي أصدرته اليونسكو سنة 1982، تدقيقاً لمفهوم الثقافة على أنها "مجل السمات المميزة، الروحية والمادية والفكرية والعاطفية، التي يتصف بها مجتمع أو مجموعة اجتماعية وعلى أنها تشمل، إلى جانب الفنون والآداب، طرائق الحياة وأساليب العيش معاً ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات"⁵.

نستشف من هذه التعاريف المتنوعة المشارب أن الثقافة في كل مكان، قلعة حصينة تكتنز داخل حدودها:

- أنماط فكرية وتمثلات وتصورات ورموز تستعمل وتوظف في إنتاج معرفة "يكتسبها أو يتعلمها الأفراد. إنها ما يعرفونه ولكن هذا لا ينفي وجود بعد جمعي أو مشترك للثقافة"⁶.
- نظام من المعايير والقيم الأخلاقية والجمالية والدينية، توجه الأفعال وأنماط السلوك وتشكل الموروث الاجتماعي للإنسان.
- أسلوب جماعة أو أمة ورصيد من أشكال التعبير وفن العيش التي تحكم العلاقات الاجتماعية تاريخياً داخل ثقافة معينة.
- جوانب مادية تتجلى في منتجات ثقافية من صنع الإنسان وأخرى لامادية كالأخلاق والأعراف.
- حركية ودينامية، فهي ليست ثابتة أو جامدة، كما أنها "ليست متغيراً مستقلاً، إذ يؤثر فيها عدد من العوامل من بينها على سبيل المثال: الجغرافيا والمناخ والسياسة وصروف التاريخ"⁷.

⁵ - اليونسكو، الإعلان العالمي بشأن التنوع الثقافي، 1982.

⁶ - لورانس إ. هاريزون وصمويل انتجتون، الثقافات وقيم التقدم، ترجمة شوقي جلال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، 2009، ص 362.

⁷ - المرجع نفسه، ص 42.

■ تتوعا ليس إلا أحد جوانب الصورة، بينما التفاعل والقواسم المشتركة مع الثقافات الأخرى جانب آخر.

تلازم الثقافة الإنسان كحق من حقوقه وينفرد بها ككائن وحيد منتج لها، لا يوجد مجتمع بشري، قديم أو حديث بدونها، إنها "تركيبية براقة خاصة بالمجتمع. هي الزهرة التي نمت على أرض المجتمع الخصبة. هي زهرة اللؤلؤ أو زهرة الربيع: بتولها متعددة ولكنها أحادية اللون"⁸، تتميز بخصائص: البعد الانساني والاستمرارية التاريخية والاكْتساب والانتقال بين الأفراد والأجيال، مركبة من عناصر وسمات متعددة، متطورة وغير جامدة، بل متنوعة ومختلفة من مجتمع لآخر. ليست فقط ما تحقق من تراكم وموروث ثقافي نعيشه في حاضرننا وىمنحننا مصدرا للانتماء، بل هناك من يرى "أنها أيضا وإلى حد كبير ما نحيا من أجله: الوجدان، العلاقة، الذاكرة، القرابة، المكان، المجتمع المحلي، الإشباع العاطفي، البهجة الفكرية، الإحساس بمعنى أساسي وجوهري"⁹.

الثقافة منفتحة ومنغلقة في الوقت نفسه، فهي من جهة منغلقة على رأس مالها وتراثها المميز لها، تحميه التقاليد والثوابت والمعتقدات، لهذا تبدو غير مفهومة بالنسبة لثقافات أخرى ومن جهة أخرى هي سجل مفتوح لكيانات مجتمعية حية - غير ساكنة أو جامدة- تواكب التطور المعرفي والابتكار العلمي وتخضع بذلك لتفاعلات وتحولات مستمرة داخلية وخارجية، قد تتعارض مع قيم أو معتقدات أو محرمات، لتكون النتيجة كل ثقافة هي في صدام مع ذاتها من خلال تدبير أزماتها وتناقضاتها، ليست إرثا جاهزا وبنية مغلقة بل حصيلة تاريخ من التفاعل والتعدد والتنوع، الأمر الذي يحيلنا على سؤال التجديد من داخل الثقافة أو خارجها ومدى التوترات التي قد تحصل عند تجدد المجتمعات ومعها الثقافات.

⁸ - إيف ميشو، ما الثقافة؟، جامعة كل المعارف، الجزء السادس، ترجمة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006، ص 418.

⁹ - فكرة الثقافة، تيري إيجلتون، ترجمة شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة إنسانيات، القاهرة، 2012، ص 12.

وحيث أن " أبناء البشر قد أنجزوا ثقافات مختلفة بفعل التباعد الجغرافي والخصائص المميزة للبيئة والجهل الذي كانوا فيه بالنسبة لسائر البشرية"¹⁰، ليست هناك ثقافة عالمية واحدة بل أنماط ثقافية -غير محدودة- تؤثر وتتأثر بعضها ببعض، بفعل الاتصال وبشكل عفوي، قبل تنظيم المؤتمرات والملتقيات للنخب الفكرية. أنماط ثقافية تتداخل وتتلاقح وتتفاعل، فهي كما يراها ادوارد سعيد "تملك عنصرا كونيا يجعلها تسمو على الإقليمية والقومية والمحلية والآنية والعرقية والطبقية، إلى آخر ذلك من التصنيفات التي ظلت إلى عهد قريب تثقل كاهل الثقافة"¹¹ وهذا ما يغني الثقافات ويجعلها "تدخل ضمن الممارسات الإبداعية والإنتاجية التي تسهم في خلق خصوصيات معينة وأساليب متفردة تعكس من خلالها فلسفتها في الحياة ورؤيتها للعالم ومنطقها الفكري ... وذلك ضمن أنساق لا تلبث أن تحمل معها بذور التلاقح فيما بينها في أفق ملامسة المغايرة والاختلاف والتنوع"¹² على المدى البعيد ويدفع بضرورة الحفاظ على تنوعها عبر منظومة التعليم وتعزيز التعاون الثقافي على الصعيد الدولي لإقامة روابط بين الثقافات أوثق مما كانت عليه.

ازدادت حركية الثقافة بتزايد حجم التبادل بسرعة وسهولة والسياحة والهجرة وغزو العلامات التجارية وصور الموضة واللوحات الفنية وإيقاعات الموسيقى في حياة الأفراد والمجتمعات والفضاءات العامة والخاصة في كل بقاع المعمور، ولم يعد الإنتاج الثقافي ملاذا لأفكار المفكرين والمبدعين كما كان سابقا. أصبحت الثقافة سلعة تتوجه نحو الربح المادي، بل صناعة واسعة النطاق ووجها جديدا لعولمة أدخلت قيما وممارسات جديدة على الهويات الثقافية بأدواتها اللامعة، تروج لثقافة غربية - أمريكية تحديدا- باعتبارها واحدة ومتجانسة ودعائية، ماضية في السيطرة وأصبح الاحتكاك إما إيجابا

¹⁰ - كلود ليفي شتراوس، العرق والتاريخ، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص 11.

¹¹ - ادوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة علاء الدين أبو زينة، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص 10.

¹² - المصطفى العمراني، انثروبولوجية التواصل وهران الحوار الثقافي، مقاربات مجلة العلوم الإنسانية، العدد 24، المجلد 12، 2016، ص 39.

يفضي إلى تناقف أو سلبا يقود إلى إلحاق الضرر بتعدد الثقافات وتنوعها والتساؤل بقلق الباحث "هل تتلاشى في ظل العولمة الاختلافات الثقافية في أنحاء العالم أم تزداد؟"¹³.

وفي سياق عالمي حُسم فيه الصراع بين الغرب والشرق الاشتراكي، زاد منسوب تيار العولمة الغربية وأصبحت الثقافة منذ تسعينات القرن الماضي "ساحة المعركة الأيديولوجية للنظام العالمي الحديث"¹⁴ ونموذجاً تحليلياً للعلاقات الدولية ومفتاحاً لفهم وتأويل القضايا والانشغالات الاستراتيجية العالمية، بل هناك من ذهب إلى القول: "الحقيقة المحورية المحافظة هي أن الثقافة وليست السياسة هي التي نحدد نجاح المجتمع وأن الحقيقة المحورية الليبرالية هي أن الثقافة يمكنها أن تغير ثقافة ما وتحميها من نفسها"¹⁵ وأصبح "الذود عن القيم الثقافية يمكن أن يفضي إلى نزاعات كرد فعل على عدوان ثقافي"¹⁶.

ازداد وعي المجتمع الدولي بأهمية الثقافات في تشجيع السلام العالمي، فكان من بين تحديات القرن الواحد والعشرين الحاجة إلى إرساء تواصل وحوار بين الثقافات لبناء عالم أقل عنفاً. فماذا عن حوار الثقافات؟

ورد في الكتاب الأبيض لمجلس أوروبا أن حوار الثقافات "عملية تبادل وجهات النظر بشكل متفتح ومحترم ما بين أشخاص ومجموعات ذات أصول وتقاليد إثنية وثقافية ودينية ولغوية مختلفة، في إطار روح التفاهم والاحترام المتبادلين. ومن بين العناصر الأساسية في هذه العملية، هناك الحرية والقدرة على التعبير فضلاً عن الإرادة ومملكة

¹³ - ديفيد انغليز وجون هيوسون، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة لما ناصر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، الطبعة الأولى، 2013، ص 316.

¹⁴ - جان بيدرفين بيترس، العولمة والثقافة، المزيج الكوني، ترجمة خالد كسراوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015، ص 72.

¹⁵ - لورانس إ. هاريزون وصمويل انتجتون، الثقافات وقيم التقدم، مرجع سابق، ص 21.

¹⁶ - المهدي المنجرة، حوار التواصل، سلسلة شراع، كتاب الشهر 1، دار النشر المغربية، الطبعة الرابعة، 1997، ص 49.

الإنصات إلى الآخرين"¹⁷. بمعنى حوار الثقافات إطار عمل لحكمة التنوع الخلاق للثقافات والمجتمعات وآلية للبحث عن مبادئ إنسانية عادلة لحل نزاعات الجماعات الحاملة لثقافات مختلفة واستتاب الأمن والسلم، بناء على قيم التواصل والحوار من انفتاح واحترام وتقاهم متبادل ما بين الأفراد والجماعات ذات الخلفيات الثقافية والدينية المختلفة.

حوار الثقافات محاولة فحص لأوجه التشابه والاختلاف وسلوك حضاري ضروري داخل كل ثقافة وبين الثقافات، للتخلي عن أي تصنيف نمطي للثقافات ورؤية مستقبلية تسعى إلى التعريف بشكل أفضل بمختلف الممارسات والتصورات والخصوصيات التي تطبع مختلف الثقافات بدون اقضاء أي ثقافة أو خصوصية ثقافية والتي لا تخلو بدورها من قيم كونية يؤمن بها كل محاور. تقول كويشيرو ماتسورا الأمينة العامة السابقة لمنظمة اليونسكو: "يمكن أن نبني الأمل في توجه أخلاقي جديد على فكرة حوار الثقافات. إن مثل هذا الحوار يقر بأن احترام كل الثقافات واجب"¹⁸.

ازداد وعي المجتمع الدولي بحقيقة أن "الثقافات لها دور هام في تحقيق وتشجيع السلام العالمي والتعايش بين الشعوب والأمم وفي الوقت نفسه يمكن استغلالها وتوظيفها لتأجيج الصراعات ونشر التعصب والعنف والعنصرية والتطرف الديني داخل المجتمعات وفيما بينها"¹⁹ وأخذت فكرة حوار الثقافات بعدا وأفقا دوليا واسعا بعد أن تبلورت في أروقة المؤسسات الثقافية الدولية، في إعلان مكسيكو حول السياسات الثقافية سنة 1982 وإعلان اليونسكو العالمي للتنوع الثقافي في نونبر 2001 وإعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة عن قرارها بجعل سنة 2001 سنة الأمم المتحدة لحوار الحضارات وسنة 2010 سنة دولية للتقارب بين الثقافات وإعلان الفترة الزمنية 2013-2022 عقدا دوليا للتقارب

¹⁷ - مجلس أوروبا، الكتاب الأبيض حول حوار الثقافات، من أجل العيش معا متساويين في الكرامة، ستراسبورغ، 2008، ص 19.

https://www.coe.int/t/dg4/intercultural/Source/Pub_White_Paper/WhitePaper_ID_ArabicVersion.pdf
(Accessed 20/04/2020)

¹⁸ - جيروم بندي، القيم إلى أين؟، ترجمة زهيدة درويش جبور، منشورات اليونسكو، دار النهار، بيروت، ص 12.

¹⁹ - محمد سعدي، دور الثقافة في بناء الحوار بين الأمم، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الأولى، 2012، ص 5.

بين الثقافات. في مؤشر على تطور مفهوم حوار الثقافات وانفتاحه على مفاهيم جديدة من مثل التقارب بين الثقافات وتعارف الحضارات وتحالفها. فماذا عن التقارب بين الثقافات؟

التقارب بين الثقافات هو المصطلح الأحدث عهداً للإعراب عن مطمح الوحدة في «إطار التنوع» و«طرق الحوار» و«التسامح» و«الحوار بين الحضارات» و«الحوار بين الثقافات والأديان» وأفق جديد ذو تحديات جديدة²⁰ ويقصد به "تمكين الأجيال الحالية والمقبلة بحيث تكون مجهزة على خير وجه بالمعارف المناسبة والكفاءات والمهارات والأدوات الجديدة اللازمة للتبادل والتواصل والتعاون عبر الحدود الثقافية والدينية والوطنية بحيث يغدو أبناءها مواطنين عالميين مسؤولين في عالم أكثر أمناً للجميع"²¹ وذلك من خلال مبادرات ومشروعات التعليم والفنون والتراث وكذلك العلوم وتكنولوجيات المعلومات والاتصالات بهدف "ترويج التفاهم والمعرفة المتبادلة للتنوع الثقافي والاثني واللغوي والديني ونشر المبادئ والأدوات اللازمة للحوار الثقافي عبر التعليم الجيد ووسائل الإعلام"²².

دولياً، أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 2010 سنة دولية للتقارب بين الثقافات²³ وعينت منظمة اليونسكو لقيادة الاحتفال بها والإشعار بأهمية التبادلات والتحويلات المستمرة بين الثقافات والعلاقات المقامة بينهم منذ فجر الإنسانية وتعزيز تبادل المعرفة من خلال مواضيع رئيسية من مثل جودة التعليم وبناء قدرات فيما بين الثقافات وأقر المجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو في الدورة الرابعة والتسعين بعد المائة سنة 2014، خطة العمل للعقد الدولي للتقارب بين الثقافات 2013-2022²⁴.

²⁰ - اليونسكو، خطة العمل الخاصة بالعقد الدولي للتقارب بين الثقافات (2013- 2022)، باريس، 2014، ص 2.

²¹ - المرجع نفسه، ص 2.

²² - المرجع نفسه، ص 4.

²³ - <https://www.un.org/ar/events/iycr2010/background.shtml> (Accessed 20/04/2020)

²⁴ - https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000226664_ara (Accessed 20/04/2020)

من أبرز أهداف خطة تقارب الثقافات توفير خطوط توجيهية ومبادئ لتتوير وإلهام المشروعات التربوية والتعليمية وفرصة لعرض القدرات الكامنة للتقارب كعملية بطيئة وتدريبية وصبورة، خاصة ما يتعلق بكفاءات جديدة متعددة الثقافات في المناهج الدراسية والتربية على السلام والتعليم من أجل المواطنة العالمية والحوار الثقافي والقدرات اللازمة للانفتاح والتواصل. تتمثل ميزة العقد الدولي للتقارب بين الثقافات في اتاحة نهج طويل الأمد وأثره قابلا للقياس على أرض الواقع.

وفق هذا المنظور، أصبح حوار الثقافات - بالمفاهيم المجاورة له- من أكثر المفاهيم حضورا وإثارة وموضوع تفكير وانشغال في أعمال كثير من الندوات والملتقيات الإقليمية والدولية ومراكز الدراسات والمقالات الصحفية بسبب "ارتباطه الوثيق بجملة من الاشكاليات المتعلقة بكل من: الهوية الثقافية والسياسات الثقافية وتفاعل الثقافات والعولمة الثقافية وصراع الثقافات والهيمنة الثقافية وتنميط الثقافات و... والتنوع الثقافي"²⁵.

لقد دخل العالم في الثلث الأخير من السنة الدولية لحوار الثقافات نفسها، في دوامة من التطرف العنيف وتحولات عاصفة في مناطق من العالم - خاصة الإسلامي - لا تزال مشتتة إلى اليوم، كان لها تأثير سلبي على الأمن والسلم الدوليين وعلى فكرة الحوار في حد ذاتها وحيث "بإمكان منظمات المجتمع المدني ومهنيي التربية أن يساهموا في الحوار بين الثقافات على المستويين الأوروبي والدولي وذلك بالانخراط، على سبيل المثال،... في شراكات وبرامج عابرة للحدود وخصوصا منها تلك الموجهة للشباب"²⁶، أليس مشروع التربية والتعليم أولى وأقرب وأرحب مشتملا لزرع واستنبات حوار الثقافات لفهم الاختلافات وتعلم كيفية تدبيرها؟

²⁵ - محمد سعدي، دور الثقافة في بناء الحوار بين الأمم، مرجع سابق، ص 4.

²⁶ - مجلس أوروبا، الكتاب الأبيض حول حوار الثقافات، مرجع سابق، ص 58.

ثانياً: الحضارات الإنسانية بين مسارات الحوار والتعارف والتحالف.

حاول باحثون ومفكرون ومؤرخون وضع تعريف شامل للحضارة، فتعددت التعاريف والتفسيرات باختلاف الدراسات الحضارية والمدارس والحقول المعرفية التي توظفه، فضاغت من تعقيد لفظ الحضارة وأثارت جدلاً حول ما يختزله ويكتنزه نظامها بفعل التطور الدلالي الذي حظي به عبر تاريخ الحضارة نفسها وأضحت حصيلة تفاعلات تشتمل على "الأوجه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والعلمية والأدبية والدينية من نشاط الإنسان؛ أي إن لها معنى جامعاً يضم في داخله مختلف أنواع الثقافات والدراسات التي يمكن أن يقوم بها ذهن البشري"²⁷.

تفيد القراءة الأولية للتعريف المختلفة للحضارة أن:

- كل حضارة متصلة بجغرافيا وفضاء مرتبطة بموقع ذي حدود تكاد تكون ثابتة. تتحقق في أرض/ مكان من خلال الفعل العمراني وإمكانات طبيعية أتاحها تلك الجغرافيا، قد لا تتوفر لحضارة أخرى.
- الحضارة امتداد في الزمان بنهوضها بالفعل الحضاري تاريخياً، تنتقل الأجيال مضمونه، جيل بعد جيل ومن فترة لأخرى، عبر قنوات مختلفة، من قبيل التعليم على سبيل المثال لا الحصر.
- الحضارة مجتمعات، ما من حضارة بدون مجتمعات وارتبطت حضارات بأسماء شعوب بعينها، مما يعني أن الأشخاص لا تصنع حضارة.
- للحضارة علاقة بمختلف العلوم: علم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم تستمر الحضارة وتبنى بالعلم وكذلك الدين "الخط الأقوى في قلب الحضارات، ماضيها وحاضرها معاً"²⁸، بما يوفره من رؤية كونية. إلا أنه يجب الاعتراف أن الحضارة الغربية كلما نمت وازدهرت بدت تبتعد عن المفاهيم الدينية وتقترب أكثر فأكثر من التفكير العقلاني والنزعة الفردية.

²⁷ - فؤاد زكريا، الإنسان والحضارة، مؤسسة هنداوي للنشر، المملكة المتحدة، 2018، ص 18.

²⁸ - فرناند بروديل، تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999، ص 18.

■ الحضارة اقتصاد، ما من حضارة عبر التاريخ إلا كانت نابذة من منجزاتها الاقتصادية والتقنية والتكنولوجية والديموغرافية. تزدهر ظروفها المادية أو تتدهور وينعكس ذلك على بقاءها، على سبيل المثال ارتبط اقتصاد الحضارة الغربية ارتباطاً عضوياً بازدهار ونمو الرأسمالية في ربوع أوروبا وتدفق الأموال والمشاريع في مجتمعاتها.

■ الحضارة ذاكرة جماعية/ فكر جماعي، أغلب الحضارات "ارتبطت بالاكشافات الكبرى والاختراعات والعقائد والغزو والفتح والتجارة"²⁹ وباسم الحضارة "ادعى الأوروبيون أنهم جاءوا إلى القارة التي أطلقوا عليها تعبير (القارة السوداء) أو المظلمة لنشر الحضارة بين شعوبها التي وصفوها بأنها شعوب ليست لها حضارة تعيش حياة بدائية"³⁰ وسخروا الأفارقة واستنزفوا كل خيرات بلادهم الطبيعية لتحقيق أكبر استغلال ممكن.

■ الحضارة وعاء لثقافات متعددة، ترسل وتتلقى التأثيرات الثقافية المختلفة. في مفهوم اليونسكو، البعيد عن النظريات الإيديولوجية التي تنتبأ بوقوع الصدام بين الحضارات، الحضارة "عملية مستمرة لتقبل كل ثقافات العالم على قدم المساواة في إطار مشروع كوني دائم"³¹.

■ لكل حضارة مظهر لغوي ولغات ورؤى للعالم، لا يمكن تصور حضارة بدون لغة أو لغات، بمنتها يصاغ وينقل الأساس الفكري، ليتم تداوله ونشره وترتقي لغة حضارة بعينها إلى التداول العالمي.

من الصعب تصنيف الحضارات حسب عامل واحد، كالتاريخ أو الانجازات المادية أو العمران أو نوع المجتمع. الحضارة الإنسانية نسيج متعدد الألوان، عبارة عن تركيب - كان متوازناً أم لا - بين قوى وقيم خلاقة تنتقل بواسطة نمط للعيش (فن العيش) ومهارات تخلدها الفنون والتحف والعمران (الفنون المعمارية/ هندسة البنايات) والابتكارات والبحث العلمي. لا ريب أن العلم والفن عنصران متكاملان وحاضران في أي حضارة.

²⁹ - محمود قاسم، موسوعة الحضارات المختصرة، المكتبة الأكاديمية، الطبعة الأولى، 2012، ص 11.

³⁰ - شوقي عطا الله وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم، الحضارة الإفريقية، دار الجمهورية للصحافة، مصر، 2009، ص 5.

³¹ - اليونسكو، تقرير الاستثمار في التنوع الثقافي وحوار الثقافات، موجز تنفيذي، باريس، 2009، ص 4.

أبرز تصنيف حديث للحضارات يرجع لصمويل هنتجتون، حيث العالم ينقسم وفق الاختلاف والتباين بين الثقافات إلى ثمان حضارات كبرى وهي: الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية والحضارة الأمريكية اللاتينية والحضارة اليابانية والحضارة الهندية والحضارة الصينية والحضارة الإفريقية والحضارة البوذية واعتبر "الفروق بين الحضارات ليست فروقا حقيقية فحسب، بل هي فروق أساسية. الحضارات تتميز بالوحدة عن الأخرى بالتاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والدين..."³²، بينما يتحدث بعض المثقفين حسب عبد الكبير الخطيبي "بكل طوعية عن وجود ثلاثة نماذج كبيرة للحضارة: حضارات الصورة (الحضارة الأوروبية وامتداداتها في أمريكا)؛ حضارات الدليل (الحضارة الهندية والصينية والإسلامية حيث تقيم القوة الرمزية في القرآن....) وحضارات الإيقاع كالحضارة الإفريقية المتوفرة على أسطورة ونشكونية رائعة... ألهمت فنانيين مبدعين كبيكاسو وجياكومتي"³³.

علاقة بما تتميز به الحضارات وتختلف، بشكل جوهري أحيانا - خاصة بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية - يجري الحديث في الأوساط الفكرية والمؤسسية الدولية عن حوار الحضارات. فماذا عن هذه الفكرة أو المقولة التي تبدو للوهلة الأولى رنانة؟ يقصد بحوار الحضارات تنظيم ممثلي الحضارات المختلفة لقاءات تعاون وتفاعل لينصت بعضهم إلى بعض وليبلغ كل طرف رسالته الحضارية للآخر بالجدال والإقناع والبرهان، لذا فهو يعد عملا فكريا يكتشف ما هو مشترك بين بني البشر ويقدر ما هم مختلفون فيه. الحوار بين الحضارات عملية يمكن أن تجري بين الحضارات وداخل الحضارة الواحدة، وتقوم على الإدماج والرغبة الجماعية في التعلم وكشف المسلمات ودراساتها وتوضيح المعاني المشتركة والقيم الأساسية وتكامل وجهات النظر المتعددة من خلال الحوار.

³² - صمويل هنتجتون، صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، الطبعة الثانية، القاهرة، 1999، ص 17.

³³ - عبد الكبير الخطيبي، السياسة والتسامح، ترجمة عز الدين الكتاني الإدريسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998، ص 35.

فكرياً، تم تداول مفهوم حوار الحضارات - كقضية عالمية إنسانية- على نطاق واسع أوائل تسعينات القرن الماضي، لتكون بديلاً إيجابياً لمقولة صدام الحضارات التي أثارت جدلاً واسعاً ما زال يتنازل إلى اليوم ويتنبأ بظهور صراعات رئيسية في العالم على أساس الاختلافات الثقافية بين أمم وجماعات تختلف من حيث التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد عامة والدين خاصة. يعتبر روجيه غارودي حوار الحضارات "وحده يمكن أن يولد مشروع كوني يتسق مع اختراع المستقبل. وذلك ابتغاء أن يخترع الجميع مستقبل الجميع"³⁴ ونرى جلياً أن مستقبل الجميع لا يمكن أن نضمنه بدون تعليم عالمي جيد للجميع. بدوره المفكر المغربي عابد الجابري وصف مفهوم حوار الحضارات بالشعار الذي بدا له نبيلاً ومعقولاً إلا أنه غير برئ "فالذين يرفعونه واقفون عند منطوقه حيث ينطوي موقفهم على نوع من الغفلة، ذلك لأن الحوار بين الحضارات إما أن يكون عفويّاً تلقائياً نتيجة الاحتكاك الطبيعي فيكون عبارة عن تبادل التأثير، عن أخذ وعطاء، بفعل الصيرورة التاريخية. وهذا النوع من تلاقح الحضارات لا يحتاج إلى دعوة، ولا يكون بتخطيط مسبق، بل هو عملية تاريخية تلقائية"³⁵.

دولياً، تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 2001 سنة لحوار الحضارات، فزاد الاهتمام من جانب الدول الأعضاء والمؤسسات الأكاديمية والمنظمات غير الحكومية والمؤسسات الدولية والإقليمية لعقد الندوات والملقيات والمؤتمرات وتنظيم أنشطة في إطار برنامج عالمي للحوار بين الحضارات، تارة تحت نفس العنوان «حوار الحضارات» وتارة أخرى باستعمال كلمة «ثقافة» بدل كلمة حضارة.

مؤسساتياً، تتعدد الهيئات التي تهتم وتتدارس مفهوم ومضامين حوار الحضارات، من المنظمات والهيئات العالمية والإقليمية، من مثل: الأمم المتحدة ومجلس أوروبا واليونسكو والاييسيسكو والايكسو ومنظمات أخرى غير حكومية كمؤسسة آنا ليند لحوار

³⁴ - روجيه غارودي، في سبيل حوار الحضارات، تعريب عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة 4، 1999، ص 10

³⁵ - محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1997، ص: 130-131.

الثقافات الأوروبية ومتوسطة ومراكز دراسات تابعة لحكومات دول. في نفس الاتجاه، نعثر في الأدبيات الفكرية على مفاهيم أخرى مجاورة لمفهوم حوار الحضارات كبديل حضاري في التعامل مع الآخر، من مثل «تعارف الحضارات» ذي المرجعية الدينية و«مبادرة تحالف الحضارات» ذات الخلفية المؤسسية الدولية، فما المقصود بمقولتي تعارف الحضارات وتحالف الحضارات؟

تعارف الحضارات مفهوم نحتة زكي الميلاد³⁶ في مؤلفه «المسألة الحضارية» وحاول التأسيس له معرفيا باعتباره يعبر عن رؤية وتصور إسلامي لشكل العلاقات مع الأمم والمجتمعات والحضارات الأخرى، فكرة مستوحاة من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَلًا لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾³⁷، فالآية تبرز مفهوم التعارف بين الأمم والحضارات وتؤكد عليه في مجال العلاقة بينها لخصوصية جوهرية فيه "فلم تقل فرضا ليتعاونوا أو ليتوحدوا أو ليتحاوروا ولا ليتفرقوا أو يتصادموا"³⁸. في الآية خطاب إلى الناس كافة يحمل إشارتين، الأولى إلى وحدة الأصل الإنساني (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ) والثانية إلى الإقرار بالتنوع الإنساني في قوله تعالى (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَلًا لِتَعَارَفُوا).

مهما تعددت واختلفت الأجناس البشرية والأوطان والبيئات المحلية والسياقات الزمنية على امتداد الكون والتاريخ، التعارف مبدأ وقاعدة أساسية في العلاقات الإنسانية. يقول أدونيس: "إذا كانت معرفة تقتضي نوعا من الانفصال عنها، فإن معرفة الآخر

³⁶ - زكي عبد الله أحمد الميلاد، من مواليد سنة 1965م، بمحافظة القطيف، شرق المملكة العربية السعودية، كاتب وباحث في الفكر الإسلامي والإسلاميات المعاصرة والدراسات الفكرية، رئيس تحرير مجلة «الكلمة»، فصلية فكرية تعنى بشؤون الفكر الإسلامي وقضايا العصر والتجديد الحضاري، تصدر من بيروت، وعضو الهيئة التأسيسية لملتقى الأديان والثقافات للتنمية والحوار، مقره بيروت، لبنان. زكي الميلاد صاحب نظرية «تعارف الحضارات» التي أدرجتها بعض الدول العربية في التعليم الثانوي والجامعي، وعقدت حولها مكتبة الإسكندرية مؤتمرا دوليا سنة 2011م ونشرت حولها العديد من المقالات والمؤلفات وقدمت عنها الكثير من الرسائل الجامعية في عدد من البلدان العربية. مؤلفاته المنشورة تزيد عن أربعين كتابا، منها: «المسألة الحضارية». كيف نبني مستقبلنا في عالم متغير؟ و«محنة المثقف الديني مع العصر» ترجمت ونشرت حولها مراجعات في مجلات ودوريات ثقافية وفكرية عربية. (<http://www.almilad.org/page/sira.php>)

³⁷ - سورة الحجرات، الآية 13.

³⁸ - زكي الميلاد، المسألة الحضارية: كيف نبني مستقبلنا في عالم متغير؟ المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1999، ص 70.

تقتضي على العكس نوعاً من الاتصال معه، أعني تعاطفاً عميقاً. فالإنسان، في هذا المستوى، معرفة و«تعارف». وأنا هنا أستخدم العبارة القرآنية التي تضيء، بقدّمها نفسه، حدثت نفسها. التعارف: هو هذه الحركة من الانفصال - الاتصال في آن³⁹.

من جهة لن يكون هناك حوار ولا تعاون دون تعارف بين الأمم والحضارات ومن جهة أخرى، لمبدأ التعارف دور وقائي في نفي النزاع والصراع والسيطرة والإقصاء، لعل الصدام في عدم التعارف وجهل الحضارات والثقافات الأخرى وتكوين صور نمطية جاهزة وليس في عدم الحوار بينها. يلتقي ويشترك التعارف مع مفهوم التواصل، وفق نظرة زكي الميلاد، في نسق معرفي متقارب أو متجاور مع مفهوم التواصل لدى المفكر الألماني المعاصر والبارز يورغن هابرماس في فلسفته التي أطلق عليها التفاعلية التواصلية. فالتواصل يرتبط بحقل المعرفة ومفهوم التعارف يرتبط بحقل الاجتماع، أفراداً وجماعات ومجتمعات، يتجاوز فلسفة الذات إلى بناء المعرفة والتعارف والوصول إلى الآخر، فلا تعارف بدون تواصل.

نرى مفهوم تعارف الحضارات، بخلفيته الدينية وسنده الفلسفي، تصوراً إسلامياً معاصراً للفكر العربي والإسلامي في إدراكه للعلاقة الحضارية بين الأنا والآخر وبديلاً إسلامياً لنظريات الصراع والصدام بين الحضارات التي هيمنت على الخطاب السياسي والفكري والفلسفي والإعلامي العالمي. تبدأ الحضارات بالتعارف لتتخلص من رواسب واحتمالات الصدام لتصل إلى حوار الحضارات، إلا أنه لم يكتسب الثقة العلمية ولم نعثر على دعم وتأيد له بين المفكرين والأكاديميين في ملتقيات وندوات وخطابات المؤسسات الإقليمية والدولية. مع ما يُعرف من كون "المجال العربي في علم الحضارة وتاريخ

³⁹ - أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف)، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، 2002، ص 5.

الحضارات لم يشهد ازدهارا وتقدما وليس معروفا عن الكتابات العربية تميزها في هذا الحقل⁴⁰.

أما بالنسبة لمبادرة تحالف الأمم المتحدة للحضارات فهي: "اتفاق مجموعة من البشر ينتمون إلى حضارات مختلفة على أن يتحالفوا، يتفقوا، حضاريا ويتفاهموا ثقافيا ويقيموا فيما بين حضاراتهم الأصلية تحالفا"⁴¹ ويمكن تلخيص الهدف الاجمالي للتحالف في "تحسين التفاهم والعلاقات التعاونية بين الأمم والشعوب عبر الثقافات والأديان، وأثناء هذه العملية، المساعدة في مواجهة القوى التي تغذي الاستقطاب والتطرف"⁴² وكذلك مواجهة الأحكام المسبقة والفهم الخاطئ وتحقيق الرخاء والسلام للبشرية.

في شتبر 2004 وخلال جلسات الجمعية العامة للأمم المتحدة التاسعة والخمسين، قام رئيس الحكومة الإسبانية خوسى لويس زاباتيرو بطرح مبادرة تحالف الحضارات وانضم رئيس الوزراء التركي رجب طيب اردوغان كمشارك في رعايتها. اكتسبت المبادرة طابعاً أممياً وتبناها الأمين العام للأمم المتحدة السيد كوفي عنان في 14 يوليو 2005 ليشكل فريقا رفيع المستوى للمبادرة ضم 20 شخصية سياسية وأكاديمية واقتصادية بارزة، تنتمي إلى أصول جغرافية مختلفة تكلفت بإعداد تقرير يعتبر الوثيقة المرجعية للمبادرة. تقرير استعرض الأدوار الرئيسية التي يمكن أن يقوم بها التعليم - إلى جانب الشباب والهجرة ووسائل الاعلام - واقترح مبادرات تعليمية يمكن القيام بها لتحسين التفاهم العالمي⁴³، سنأتي على ذكرها بتفصيل في الفصل الثالث.

⁴⁰ - زكي الميلاد، تعارف الحضارات: الفكرة، الخبرة والتأسيس، مجلة الحوار الثقافي ، مخبر حوار الحضارات التنوع الثقافي وفلسفة السلم، جامعة مستغانم، الجزائر، عدد خريف وشتاء 2013، ص 19.

⁴¹ - عبد العزيز بن عثمان التويجري، الحوار وتحالف الحضارات، منشورات الايسيسكو، 2009، ص 15.

⁴² - الأمم المتحدة، تحالف الحضارات، خطة التنفيذ 2007-2009، نيويورك، 2006، ص 4.

⁴³ - الأمم المتحدة، تحالف الحضارات، قاعدة بحوث لتقرير الفريق الرفيع المستوى ، نيويورك، 2006، ص 4.

تَعْتَبَرُ المبادرة أن "تاريخ الحضارات هو تاريخ الاستعارة المتبادلة والتلاقح التهجيني"⁴⁴ وأن الحضارات تعكس الثراء والتراث العظيمين للبشرية التي تتداخل وتتفاعل وتتطور في علاقتها مع بعضها البعض، مما يؤشر لعدم وجود تسلسل هرمي بين الثقافات ووجود البعد التواصلي في علاقة الحضارات واعتبار التحالف إطار عمل لتعزيز ثقافة الحوار بين جميع الأمم والثقافات، الذي اتخذ عنواناً لمنتدى التحالف لسنة 2019: "بناء الحوار من أجل العمل ضد التمييز وعدم المساواة والصراع العنيف"⁴⁵، نفس السنة التي شهدت الحادث المروع لإطلاق النار على مسجدين في نيوزيلندا.

في العمق تحالف الحضارات ليس بداية نهاية صراع الحضارات ولكنه تنويع لما بعد الحوار وخلاصة نظرية للحوار بين الحضارات أو "النتيجة الطبيعية للحوار بين الحضارات وثمره له وهو خلاصة للجهود الخيرة التي بذلها حكماء هذا العالم على مدى عقود من السنين"⁴⁶. مبادرة «تحالف الحضارات» منشؤها سياسي، مما يتطلب إرادة سياسية جماعية يصعب تطبيقها في هذه المرحلة من تاريخ العالم والتي تبعث على الانزعاج من حالة الشتات وعدم التوازن ووقوع أحداث مروعة داخل المواقع الدينية وخارجها.

ثالثاً: حوار الثقافات أم حوار الحضارات أم حوار الأديان: نحو تواصل حضاري

بديل.

إذا تساءلنا هل نحن أمام حضارة إنسانية واحدة أم حضارات متعددة؟ رب قائل يقول: ليس هناك اليوم إلا حضارة كونية واحدة، هي الحضارة المعاصرة التي يسهم فيها العالم كله. الحضارة الإنسانية واحدة بخبرة إنسانية واحدة تقوم على ثورة علمية وتقنية

⁴⁴ - الأمم المتحدة، تحالف الحضارات، تقرير الفريق الرفيع المستوى ، نيويورك، 2006، ص 5.

⁴⁵ - <https://news.un.org/ar/story/2019/05/1032101> (Accessed 20/04/2020)

⁴⁶ - عبد العزيز بن عثمان التويجري الحوار وتحالف الحضارات، مرجع سابق، ص 14.

وتكنولوجية واحدة ونمط إنتاج واحد، وحصيلة تاريخ من الانجازات البشرية التي عمت كوكب الأرض والفضاء الخارجي له، خاصة في الجانب المادي.

يقول عبد الإله بلقزيز "الحضارة تعبر عن حركية ووثيرة تقدم الكسب الإنساني العام، المادي والتقني والأدبي، فهي بذلك عالمية وجوهرها تخزين الخبرة الإنسانية وتعميمها، أما الثقافة فهي فاعلية اجتماعية وفردية نشيطة تتعلق بأسلوب رؤية الجماعات لنفسها وتاريخها وواقعها وتعاملها معه"⁴⁷.

لما لا نتفق، إذن، أن الحضارات قامت بمشاركة أجناس متعددة⁴⁸، وأنه لا توجد حضارة نمت بمفردها، بل عرفت تطوراً ناتجاً عن نظام معقد من التبادل والتأثير. أليس بناء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية وهجرة واستقطاب الأدمغة عبر العالم وابتكارات تكنولوجيا الاتصالات التي تغطي الأرض برا وبحرا خير مثال أن العالم يعيش اليوم حضارة واحدة يشارك في بنائها جميع الأمم والشعوب؟ حضارة حديثة تدين في وجودها، كذلك، لحضارات شرقية قديمة لا يسع المجال لتبيان مدى تلاقحها وتفاعلها، في حين يعج العالم بالثقافات المتنوعة في جغرافيته الواسعة وهي مصدر للاختلاف بخصائصها المميزة لكل بيئة ثقافية، تتجسد فيها الخصوصيات على مستوى المعتقدات والفنون والتقاليد والآداب واللغات والبنى الاجتماعية التي أنجزها البشر عبر حدود الزمان والمكان.

تأسيساً على ما سبق، يغمرنا الايمان أننا "نعيش في ظل حضارة واحدة وثقافات متعددة، لكل منها رؤيتها المتميزة للعالم واستراتيجيتها الخاصة في تعاملها وتفاعلها مع مختلف مكونات الحضارة العالمية"⁴⁹، في سياق عولمة فجوة "توظف كل ما لديها من قوة مادية ناعمة وقوة معرفية وعلمية وقوة تقنية فائضة وقدرة عسكرية فائقة لفرض ثقافتها

⁴⁷ - عبد الإله بلقزيز، العولمة والمماتعة، دراسات في المسألة الثقافية، بيروت، منتدى المعارف، 2011، ص 157.

⁴⁸ - حسين مؤنس، الحضارة: دراسة في أصولها وعوامل قيامها وتطورها، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة،

العدد 237، 1998، ص 50.

⁴⁹ - محمد سعدي، دور الثقافة في بناء الحوار بين الأمم، مرجع سابق، ص 11.

ورؤيتها على الآخر⁵⁰ وتهدد مختلف الخصوصيات الثقافية وتغذي مواقف سلبية ثقافية ودينية متبادلة وتثير السؤال: هل يتعلق الأمر بحوار الثقافات أم حوار الحضارات أم حوار الأديان؟ أم لا يعدو الأمر طوافا بلا هدف ولقاءات فكرية تملئها اعتبارات السياسة والمجاملة في العلاقات الدولية.

لقد طال الالتباس الجلي في دلالات ومعاني الثقافة والحضارة الدراسات العلمية والأكاديمية وخطابات الوثائق الدولية، الرسمية وغير الرسمية، وأصبح توظيف حوار الثقافات وحوار الحضارات بنفس المعنى وبشكل مترادف. يعبر عن هذا الخلط المفكر المغربي طه عبد الرحمن بقوله: "قد لا يخفى على ذي بصيرة أن مفهوم الحضارة في عبارة «حوار الحضارات» مفهوم مجمل غير مفصل، بل مفهوم مشوش غير مبين، فقد يستعمل تارة بمعنى مساو للثقافة، بحيث يكون حوار الحضارات هو عين حوار الثقافات وقد يستعمل لفظ الحضارة تارة أخرى بمعنى أعم، فيكون حوار الثقافات جزء من حوار الحضارات، وقد يستعمل لفظ الحضارة تارة ثالثة بمعنى أخص، فيكون حوار الحضارات جزء من حوار الثقافات⁵¹ ويقترح حوار الحضارة الغربية مع الثقافات الأخرى على فرض أن "مفهوم حوار الحضارات غير ذي موضوع فالحوار لا يكون بين جانبيين أحدهما حضارة مشهودة والثاني حضارات غائبة، كانت ولم تعد... والصواب أن يستبدل مكان هذا المفهوم مفهوم غيره وهو حوار الحضارة الغربية مع الثقافات الأخرى لأن الثقافة لا يشترط فيها الشرط المزدوج بل يكفي فيها وجود الذاكرة"⁵².

ونعتقد من وجهة نظرنا، أن الحوار يمكن أن يكون بين الثقافات أما داخل الحضارة الإنسانية فيكفي الأمم والشعوب، الأفراد والجماعات التواصل اعتمادا على الآليات

⁵⁰ - حسين جمعة، ثقافة الحوار في مواجهة تحديات العولمة، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الطبعة الأولى، 2010، ص 50.

⁵¹ - طه عبد الرحمن، الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، 2013، ص 181.

⁵² - المرجع نفسه، ص 182.

التقليدية والحديثة، التقنية والتكنولوجية التي ما فتئت تتطور يوما بعد يوم. لنخلص إلى حوار الثقافات كسبيل وجسر للتواصل الحضاري.

من جانب آخر، أكثر أهمية وإثارة في مختلف الثقافات والحضارات، قدمت عددا من البحوث الأكاديمية أطروحات بحث خلصت إلى استنتاج مفاده أن لا حوار للحضارات والثقافات بدون حوار الأديان لأن "الصراع بين الحضارات إنما هو في جوهره صراع بين معتقدات، لا بين طبقات ولا عرقيات... الحضارة وإن تكونت من عناصر كثيرة إلا أن أهم عنصر فيها هو العنصر الثقافي وأن أهم عنصر في الثقافة هو الدين"⁵³، كذلك يرى صمويل هنتنغتون أن الدين أكثر أهمية في المقومات الموضوعية التي تحدد الحضارة، إذ يعد "الدين من السمات الأساسية المحددة للحضارات ... والأديان الكبرى هي الأسس التي تعتمد عليها الحضارات الكبرى"⁵⁴. في التاريخ البشري ارتبطت حضارات عديدة بديانات سماوية وأخرى عالمية: المسيحية والإسلام واليهودية والهندوسية والكونفوشيوسية و... باعتبارها حاملة لمعتقدات راسخة كانت مصدرا لعدوان وعنف أحيانا وعامل سوء التفاهم بين البشر.

الملاحظ أن حضور الدين ليس على درجة واحدة في جميع الحضارات، وليس على وتيرة واحدة أيضاً حتى في نطاق الحضارة الواحدة، فهناك حضارات يحتل فيها الدين مصدرا وحيزا مهما كالحضارة الإسلامية، وهناك حضارات لا يمثل الدين فيها حضورا كالحضارة الغربية المعاصرة وتظل هذه العلاقة بين الحضارات والثقافات وخلفياتهما الدينية راسخة وثابتة، مع ما يظهر في هذه العلاقة من تفاوت وتباين وقوة وضعف. من جانب آخر، لو أخذنا بالتصور الإسلامي للدين والذي يجعل منه نظاما يشمل جميع جوانب الحياة الإنسانية، فإن مدلول حوار الحضارات يصبح مرادفا لمدلول حوار

⁵³ - جعفر شيخ ادريس، صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى، 2012، ص 9.

⁵⁴ - صمويل انتجتون، صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، مرجع سابق، ص 79.

الأديان إلا أننا نعتقد أن الدين أخص من الحضارة ويسهم إسهاما عظيما في بنائها، كما نثق أن لا حوار للثقافات إلا بمشاركة المؤمنين من الأديان في حوار ذي مسار حسّاس ومعقدّ يتطلب تعليما يرى في الآخر رفيقاً محترماً ويمارس دورا رياديا في إرساء نظام أخلاقي تتفق عليه كل الأمم والثقافات، كما يسمح بإعادة النظر في الخطاب الديني وتسليط الضوء على بؤر التطرف فيه.

لعلنا لا نغادر الصواب إذا اعتبرنا أن تنظير القرن العشرين ذو طبيعة صراعية وأن التفاعل بين الحضارات أو الثقافات أو الأديان من الموضوعات التي لاقت اهتماما في العقد الأخير من هذا القرن في خطاب مقالات وندوات دولية وكتابات المفكرين، خاصة ما أثار منها الجدل، «نهاية التاريخ» لفرنسيس فوكوياما و«صدام الحضارات» لصمويل انتغتون، قدم كل منهما نظرية "تحاول تشخيص طبيعة التفاعل بين الحضارات في عصر انتهت فيه الحرب الباردة وأصبح واضحا أن عالمنا يخضع لتفاعلات العولمة التي تدعمها وتعمل على نشرها القوة العظمى في عالمنا المعاصر"⁵⁵، وبدت، بذلك، الحاجة ملحة إلى التفكير في تصور بديل ارتأيناه تواصل حضاريا. يقول عبد العزيز بن عثمان التويجري مدير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإيسيكو» "العالم اليوم في أشد الحاجة إلى هذه الأنماط من السلوك والممارسات المتحضرة التي من شأنها أن تخفف من أجواء التوتر التي تسود المجتمعات الإنسانية"⁵⁶.

التواصل الحضاري في مفهومه الدلالي وفي مضمونه الفكري والثقافي هو "إقامة جسور بين الثقافات من خلال تقوية الروابط التي تجمع بين الشعوب"⁵⁷. يسعى نبيل للوعي الجمعي للأفراد والمجتمعات والحكومات والمؤسسات الثقافية والتعليمية، الدولية

⁵⁵ - علي إبله، تفاعل الحضارات بين إمكانيات الالتقاء واحتمالات الصراع، دار شركة الحريري للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006، ص 9.

⁵⁶ - عبد العزيز بن عثمان التويجري، التواصل الحضاري والتفاهم بين الشعوب، منشورات الإيسيكو، 2010، ص 9.

⁵⁷ - المرجع نفسه، ص 8.

والإقليمية والمحلية، يهدف إلى تبادل الأفكار وتقاسم الآراء والبحث المشترك عن الحلول للمشاكل القائمة وتخفيف أجواء التوتر، اسهاما في بناء حضاري آمن ومستقر لعالم تتراكم فيه المشكلات وتتفاقم. ورد في الكتاب الأبيض لمجلس أوروبا "إن الإنسانية لم تكن في مرحلة من مراحل التاريخ أشدَّ حاجةً إلى تعزيز التواصل والتحالف بين الحضارات منها اليوم، بعد أن تصاعدت موجة السياسات المناهضة للتواصل الحضاري وللحوار بين الثقافات والرافضة للتحالف والمتعارضة مع قيم التسامح والتفاهم والتعايش بين الأمم والشعوب والاحترام المتبادل بين الأفراد والجماعات الإنسانية"⁵⁸.

مما لا شك فيه أن تراكمات المعارف والعلوم الإنسانية وإنجازات الحضارات على مر العصور ما كانت لتتم بدون التواصل كاعتقاد وسلوك وممارسة، لا مناص من التواصل الظاهرة المتأصلة في التاريخ الانساني والقيمة الإنسانية المشتركة التي تتجلى في تفاعل وتبادل الوصل لا القطع بين طرفين أو مجموعة أطراف تعبر عن مستويات رفيعة من التواصل والتفاهم والحوار، تبلور خطاب يستثمر الرصيد الثقافي الانساني والقيم والمبادئ المشتركة بين الثقافات والحضارات، يعزز المشترك ويدبر المُختلف فيه باحترام متبادل. وهو بذلك صمام الأمان والمدخل السليم لتجاوز حالة التَّشْطِي والصراع، سواء كان محليا وإقليميا ودوليا، ثقافيا وحضاريا. بدوره التطور العلمي، خاصة في الجانب التقني والتكنولوجي، يطبع الحضارة المعاصرة أكثر من جميع الحضارات التي عرفها الإنسان في تاريخه ويتخذ من التواصل الخاصية الأساسية لهذا التطور على نطاق واسع ودولي، يمكن التعويل عليه لإشاعة ثقافة التواصل الحضاري في الفضاء الأزرق ومنصاته التفاعلية.

⁵⁸ - مجلس أوروبا، الكتاب الأبيض حول حوار الثقافات، مرجع سابق، ص 19.

هناك حتمية للتواصل والتفاعل بين مختلف الثقافات والحضارات متأصلة في تاريخ البشرية، ومن هنا ضرورة إرساء تواصل فعال ودائم بين مختلف الخصوصيات الثقافية حتى يصبح العالم موطناً رحباً للجميع. حتمية التواصل لا تعني ذوبان الخصوصيات الثقافية وتوحيدها في حضارة كونية وحيدة بثقافة مهيمنة، تقضي على كل أشكال التفاعل والتبادل الثقافي، بل تأتي من الحاجة إلى الآخر والحق في الخصوصيات الثقافية لمختلف الشعوب من أجل بناء حضارة إنسانية مشتركة.

التواصل الحضاري هو ثمرة حوار الثقافات وتقاربها يعزز المفاهيم الحديثة للتعايش والتسامح والسلام العالمي وهي القيم المستوحاة من هدي الأديان السماوية والمبادئ الإنسانية، جسر لتحالف الحضارات وتجديد البناء الحضاري. أن الأوان في زمننا الحاضر للعمل على اكتشاف العلاقات بين مختلف الثقافات، بروح التعددية والانفتاح العلمي والثقافي، دون الانحياز لأي مصالح أو أجندات سياسية. وهو ما نصبو إليه في هذا العمل من منظور إسهامات التربية والتعليم في التواصل الحضاري وحوار الثقافات، حيث الدافع الرئيسي لهذا المشروع هو الحصول على ملامح رؤية موحدة ومتكاملة للعالم، تشتغل على التفاعل والترابط بين الثقافات والحضارات ومواجهة التفسيرات الخاطئة، التي بدلاً من أن تركز على التواصل والحوار تؤكد على فرضية «صراع الحضارات».

المبحث الثاني: التربية والتعليم والثقافة والتواصل: معادلات التفاعل.

بداية ووفق ما أوردنا في المبحث الأول، تتضح أهمية الدرس الثقافي من زاويتين، الأولى أنها تؤثر لرهان تحفيز النشاط الإنساني في حقول الإبداع الفكري والأدبي والفني وإعداد عقول شغوفة تستطيع تدبير التنوع الثقافي وبلورة مستقبل ثقافي، بينما تتمثل الزاوية الثانية - التي لا بد أن نوليها ما تستحق من اهتمام - في الالمام بحالة التعدد الثقافي والصراع والتوتر الذي يطبع واقعنا ومستقبلنا، حيث الثقافة أصبحت عاملاً فاعلاً

في تحديد العلاقات المعاصرة بين الأمم والشعوب واثارة النزاعات والصدمات الخلافات بينها.

في هذا السياق، إذا كنا نريد حواراً وتفاعلاً بين الثقافات والحضارات له انعكاسات مباشرة على واقعنا وتصل آثاره إلى الأفراد صغاراً وكباراً، من الأولى أن ننطلق من المدرسة. فلم يعد بإمكان منظومة التربية والتعليم التي تتحمل مسؤولية تكوين الفرد وتأطير المجتمع أن تظل بمنأى عن تحول العالم والتأثيرات المباشرة أو غير المباشرة للعولمة والفيض الطافح للمعلومات والتطور المتسارع والمقلق لتكنولوجيات الإعلام والاتصال، هذا من جانب ومن جانب آخر على سبيل التقديم، يقتضي الحديث عن التربية والتعليم والثقافة والتواصل حديثاً عن حدود وأبعاد العلاقة ومدى الارتباط بين هذه المكونات التي يبدو فيها الآخر ثابتاً ومتغيراً والإنسان مدنيّ بطبعه، لا بد له أن يعيش مع الناس.

أولاً: الحاجة إلى معرفة الآخر للتواصل وضرورة الحوار في زمن التحولات.

في عالم التدفق المعرفي الهائل والذكاء الاصطناعي وانترنت الأشياء وحديث الآلات مع بعضها البعض والانفجار المعرفي - الإعلامي تحوّل الخوف من المجهول إلى خوف من المعلوم، عززته محاولات تعميم ثقافة العولمة كشكل من أشكال الغاء الآخر وسلب خصوصيته الثقافية وأمسى كل إنسان ينظر إلى الآخر من زاوية ثقافته، يراه مختلفاً عنه اختلافاً يوقظ الوعي بما بين الأنا والآخر والثقافات والمجتمعات من فروق واضحة، قد يؤدي التفاعل بينها إلى صدام أو صراعات مستمرة. نرى أننا ما زلنا بحاجة إلى تواصل إنساني لنعرف الآخر أكثر ونعرفه من نكون ونحقق الأفضل لوجودنا والإنسانية. يقول المهدي المنجرة "إن النقلة التي يعرفها العالم من «مجتمع إنتاج» إلى «مجتمع معرفة» تطرح مشاكل جديدة تتطلب تعاوناً دولياً أوثق وخاصة في ميادين العلوم

والتكنولوجيا والتواصل"⁵⁹. وسواء كان المجتمع صناعيا أو معرفيا لا يمكن لأية جماعة إنسانية أن تتشكل وتستمر دون قيام علاقات بين أعضائها تلبي حاجات تواصلية تدعم تنظيمها واستقرارها، فالوجود الإنساني وجود مع الآخر ومن أجله أحيانا، معه نتخلص من العزلة ونبني الذات أو نحقق مصلحة فردية أو جماعية. لا مجال للانزواء أو إقفال الحدود في عالم اليوم المفتوح على مصراعيه.

في ظل هذا الوجود الإنساني يكتسي التواصل - الذي تحتل فيه اللغات والرحلات والبعثات العلمية والترجمة والتبادل الثقافي الموقع الفاعل والمؤثر - سمة الحتمية والضرورة في ظل هيمنة ثقافة الصورة واللغات والآداب والأفكار والفنون والأنواع والعلامات التجارية وأنماط الاستهلاك والترفيه، هيمنة برز معها سؤال الهوية والاختلاف جليا بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب والتراث والحداثة... وبين الأنا والآخر، بين «نحن» الذات الجماعية والآخر، سواء كان داخل أو خارج حدود تاريخنا أو جغرافيتنا أو ثقافتنا. إن التواصل وإن كان ينطلق من تحقيق رغبة آنية ثم التفاعل والتشارك والتبادل والتأثير في الآخر إلا أنه، على المدى البعيد، يهدف إلى تأثيث فضاء ثقافي يلتقي فيه الاختلاف والحوار وسيادة القبول بالآخر والتفكير النقدي والتسامح.

الايمان بالتواصل طريقا وحيدا لاكتشاف الآخر وتصويب تمثّل الأفراد لثقافات بعضهم البعض والايمان بالحوار سبيلا للتفاهم والتوافق والتكامل الإنساني لا تقليده، يقتضي بذل جهد أكبر لفهم الآخر وثقافته والتساؤل في لحظات للتأمل، لا ندعي عمقه: من الذي يجعل من المختلف آخر؟ هل هو الذي لا يتحدث لغتنا؟ أم الذي لا يعتقد عقيدتنا ولا يؤمن بديننا ولا يتقاسم معنا ثقافتنا؟ على أي أساس تتحدد العلاقة مع الآخر ولماذا يطبعها القلق والارتياب؟ وهل نحن بحاجة للآخر المختلف عنا؟ أليس الاختلاف الثقافي بين الأنا والآخر هو ما يميز صورة الصراع والعلاقة بينهما، وهو ما يبرر التعامل

⁵⁹ - المهدي المنجرة، حوار التواصل، سلسلة شراع، كتاب الشهر 1، دار النشر المغربية، الطبعة الرابعة، 1997، ص 137.

والفعل ورد الفعل بينهما، أليس سعي العولمة بمعينة «الأنا الغربي» إلى التمرکز وإخضاع الآخر ثقافيًا هيمنة تجعل من التشبث بالهوية مطلبًا ثقافيًا ملحا؟

الآخر أو الغير كلمة مشبعة بالغموض وتعبير موسوعي ذو دلالة مثقلة بالمعاني، فهو "عبارة جامعة نستخدمها للدلالة على غيرنا من البشر بكل تنوعاته ومسمياته.. وكل منا في النهاية هو الآخر بالنسبة لغيره"⁶⁰. الآخر مخرج مناسب لمخاطبة الجميع بدون استثناء وبلا حرج يشكل صورة كينونة جامعة لمعاني الخوف والتحدي ومصدرا للقلق في الآن نفسه، فوجوده ككيان آخر مختلف يشكل قلقا للأنا، خاصة إذا عارض رغباتها ومصالحها وحرّياتها. لذلك، قيل: "يفهم التواصل على أنه تدخل للآخر في تكوين الأنا أو الهوية وبنائها"⁶¹ ويستعصي على كل فرد التواصل "دون أن تكون خريطته الذهنية غنية بمعلومات حول ثقافة الآخر ورؤيته للعالم"⁶² لكن على أساس علاقة إيجابية وقائمة على التواصل والحوار والتعاون والإخاء.

في موسوعة لالاند الفلسفية الآخر "أحد مفاهيم الفكر الأساسية ومن تم يتمتع تعريفه فهو نقيض الذات ويقال على كلمات شتى، مختلف أو مميز"⁶³ وفي سياق الكتابات التي تتحدث عن الثقافة أشهر استعمال معاصر لهذا المفهوم هو استعمال ادوارد سعيد في حديثه عن الاستشراق، في ضوء ذلك وصف مصطلح الآخر بكونه "يمثل شكلا من أشكال التصور الثقافي للأفكار والمفاهيم إذ يمثل هذا التصور أساس بلورة هويات الذوات الثقافية من خلال إحدى علاقات القوة السياسية التي يكون فيها الآخر هو الطرف الخاضع"⁶⁴ وأن ما قام به الاستشراق في ادعائه معرفة الشرق لا يعدو تصويره بوصفه

⁶⁰ - حامد بن أحمد الرفاعي، نحن والآخر وإشكالية المصطلح والحوار، سلسلة إصدارات لتعارفوا، العدد 23، مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى، 2006، ص 39.

⁶¹ - رشيد بوطيب، مفهوم التواصل في الفلسفة، من الحقيقة إلى الاختلاف، سلسلة فكر ونقد، التواصل نظريات وتطبيقات، الكتاب الثالث، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، 2010، ص 33.

⁶² - المصطفى العمراني، انترولوجية التواصل ورهان الحوار الثقافي، مقاربات مجلة العلوم الإنسانية، مرجع سابق، ص 44.

⁶³ - اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت- باريس، الطبعة الثانية، 2001، ص 124.

⁶⁴ - سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي: إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2017، ص 11.

الآخر بالنسبة للغرب، وفق معيار "كلما كانت الهوية معتمدة على ثنائية (نحن/هم) فهي هوية سلبية لا تعرف الذات إلا عبر إقصاء الآخر"⁶⁵.

للحظة الأولى يبدو أن الآخر صار ضرورة لبلورة الهوية وإبراز الخصوصية ومثار خشية من التتميط والتعميم أيضاً، محورا وطرفا في العلاقة الوجودية بين الإنسان والإنسان، ينشأ الخوف منه لأنه يظهر ككائن بهوية أخرى، لا يُعرَفُ ما يريد وما يسعى إليه، فهو يختلف عن الأنا في اللغة التي يتحدثها أو المعتقد الذي يدين به أو العرق الذي ينتمي إليه أو الثقافة التي يتبناها ويشكل إشكالية ما فتئت تثير الانتاجات الفكرية شرقا وغربا.

قديمًا، كانت صور التعامل مع الآخر مختلفة نسبيا من ثقافة إلى أخرى وكانت الأطماع التوسعية والهيمنة على الكون حلم أو طموح الامبراطوريات السابقة، لكنها اليوم مع المركزية الغربية أصبحت أكثر اتساقا وحضورا في تهميش الثقافات وتدمير أسسها وقيمها على الصعيد العالمي، حيث "نظام الآخر الغربي يتأسس على قاعدة تنصيب نفسه كحامل لرسالة حضارية لشعوب مصنفة ب (المتوحشة) و(الكسولة)، أي العاجزة عن الإنتاج واستغلال الثروات الطبيعية. المسار الذي أثار ولا يزال يثير شبقية التوسع والهيمنة عند الغزاة"⁶⁶. إذن، صورة الآخر في الفكر الغربي تكشف عن النزعة الإمبريالية التي يُبديها منتجو هذا الخطاب وتؤكد لها أطروحة إدوارد سعيد في «الثقافة والإمبريالية» إذ تكشف أن المشروع الثقافي للغرب برمته يقوم على إلغاء الآخر وأن الآخر هو دائما موضوع امتلاك واستعباد، أو موضوع معركة حضارية وثقافية ظهرت في أطروحات هنتغتون في كتابه صدام الحضارات وأطروحات فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ بعد انهيار المنظومة الاشتراكية. ماذا عن صورة الآخر في الفكر العربي؟

⁶⁵ - عبد الله الغدامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2009، ص 10.

⁶⁶ - غريغوار منصور مرشو وسيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، 2001، ص 12.

تتدرج مقارنة الآخر الغربي كإشكالية حددت طبيعة علاقة الأنا والآخر وما أحيط بها من ملابسات، بين الاندماج والاختلاف والصدام والتبعية والخضوع، الدراسات المعرفية اتجهت إلى بيان طبيعة هذه العلاقة وما يحيط بها من تكامل وتأثير وتأثر تارة وصراع وحوار تارة أخرى ودراسة تجارب الآخر في منجزاته التاريخية والحضارية فيما عرف بالاستشراق أو الاستغراب أو البعثات العلمية والرحلات والترجمة وهجرة الأدمغة واحتلت ثنائيات: التراث والحداثة، الأصالة والمعاصرة، الأنا والآخر، الشرق والغرب، التقليد والإبداع... حيزاً كبيراً من التحليل والجدل والحوار في الفكر العربي المعاصر، بعدما مُنيت الحضارة العربية الإسلامية بتراجع كبير، عسكرياً ومعرفياً وثقافياً - بسبب عوامل تاريخية عديدة منها الحروب الصليبية التي شكلت منعطفاً حاسماً في تاريخ الصراع بين الشرق والغرب - ولم يستيقظ الباحث العربي إلا تحت صدمة الانبهار بالآخر المتفوق حضارياً وعسكرياً، أدت إلى المطالبة بمراجعات فكرية وقيام حركات إصلاح، مع إثارة مشاعر متناقضة وسمت الاحتكاك الحضاري مع الآخر الغربي الأوروبي، تارة إيجابية وتارة أخرى سلبية، تميزت بعدم الثقة في التراث الذي انتاب لفيف من المفكرين والمتقنين العرب اتجاه الحضارة الغربية وقيمها البراقة.

وباتت تحليلات تشخص هذه العلاقة "منها من رأت فيه منقذاً يخلصها من عصور الظلمية ومنها من رأت فيه استعماراً عسكرياً سياسياً ومنها من تعاملت معه على نحو اجتزائي من خلال تفضيل دولة على دولة أو تيار فكري على تيار آخر ومنها من وجدت فيه بعد (الاستقلالات) وجوداً استعماريّاً واقتصادياً ومنها من توسمت فيه كل ذلك ماعداً استعمارهِ الثقافي" ⁶⁷ وتداولت أسئلة كثيفة، كان أشهرها السؤال المثير ⁶⁸: لماذا تخلف المسلمون؟ وأطروحة الاستشراق المضاد أو الاستغراب بلغة حسن حنفي ودعوته إلى "إيداع الأنا مقابل تقليد الآخر وإمكانية تحويل الآخر إلى موضوع للعلم بدلاً من أن يكون

⁶⁷ - غريغوار منصور مرشو وسيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، 2001، ص 10.
⁶⁸ - الأمير شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدّم غيرهم؟، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية، ص 6.

مصدرا للعلم"⁶⁹ ونشرت أعمال نخبة من المفكرين أمثال ادوارد سعيد في «الثقافة والامبريالية» ومحمد عابد الجابري في «المسألة الثقافية».

من دون حسم، تفاوتت المقاربات التي درست العقل العربي والموروث الثقافي وغياب الديمقراطية والتبعية للغرب والانحراف في فهم الإسلام أو تفسيره وأثيرت تساؤلات في الفكر العربي والإسلامي المعاصر حول كيفية التواصل الحضاري بين الأنا العربي المسلم والآخر الغربي واختلفت الاتجاهات الفكرية بين تيار حدائي يؤمن بضرورة الانفتاح على الحضارة الغربية، بخيرها وشرها، للخروج من حالة التخلف والوهن وتيار يتشبث بالتراث ويدعو إلى التمسك بالقيم العربية الإسلامية ويحذر من أسس الحضارة الغربية وأصولها المنحرفة وتيار ثالث يجمع ويوفق بين التراث العربي الإسلامي والحداثة الغربية، ينهل من الآخر اشعاعه الحضاري والعقلاني، ويحارب نزعته الامبريالية.

بينما الانشغال الفكري بهذا الموضوع لازال قائما، تقدم الغرب حتى وصل إلى سطح القمر والمريخ واستكشف أسرار الكون الفضائية وتزايدت الهوة الحضارية بيننا وبين الغرب بسرعة أكثر وبشكل صارخ وتقدمت شعوب ودول في آسيا (كوريا الجنوبية؛ الصين؛ الهند؛ سنغافورة؛..) كانت إلى أمد غير بعيد أكثر تخلفا من الدول الإسلامية. فهل سنبقى في دائرة السؤال التاريخي لماذا تأخر فلان وتقدم علان ودوامه التيارات الفكرية العربية؟

للخروج بهذه العلاقة من دائرة الاتهامات والاقصاء والهيمنة، وخطاب الضحية والانعزال نتيجة سوء الفهم أو الخوف وانعدام الثقة بين مختلف الثقافات، لا نرى بديلا غير تعميق التواصل والحوار والعمل مع الآخر على إرساء المسارات المعرفية والحضارية التي تعترف بالاختلاف والتنوع خصوصا. إذا كانت السلع والمنتجات والمعلومات تنتقل بين المجتمعات والنطاقات الثقافية بشكل سلس فإن تبادل حقيقيا للأفكار

⁶⁹ - حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص 5.

وتغييرا عميقا في النظرة للآخر وإسقاطا فعليا للحواجز النفسية والتاريخية والثقافية يفترض المثابرة وإبداع آليات جديدة لإرساء قيم عالمية للتواصل بين مختلف الثقافات والديانات.

على هذا النحو، يُعد اكتشاف الآخر فعلا إنسانيا إيجابيا، حافزا للتعارف والتواصل والحوار، يلبي الحاجات النفسية والاجتماعية والتوازن النفسي العاطفي للأنا وليس جحيما نخاف الاقتراب منه أو التعامل معه. له الحق أن يكون كما يريد ومرحلة الاعتراف به هي قبوله، بدون شروط مسبقة، بل القبول بالتعددية يفرض الحوار لمناقشة الآخر عقليا وإنسانيا ورهانا لاختبار قدرتنا على أن نعيش معا ونفهم العالم معا ونبني المستقبل ونفكر معا ونحقق بذلك "فهم الذات من خلال الآخر وفهم للآخر من خلال الذات، حق مشاع للجميع... اكتشاف للذات واكتشاف للآخر داخل الذات"⁷⁰. رغم ذلك "تبقى وقفة الذات أما الآخر باختلافه الثقافي والعقدي والعرقى هي وقفة مشوبة بالقلق تبحث عن المختلف أملا في الوصول إلى المؤتلف، فالذات في واقع الأمر لا يتحقق وجودها إلا بوجود الآخر إنسانيا"⁷¹ ويكون الهاجس الأكبر للأنا هو قبول الآخر وكيفية التواصل مع الآخر دون أن تفقد هويتها واختلافها، الجدل الذي يفرض نفسه في الحوار كمسار مشترك سيمكننا من فهم ذاتنا والتفاهم مع الطرف الآخر، في حين عدم قبول الآخر ورفضه لسبب ما يضع حاجزا أمام التواصل معه. ليبقى السؤال التقليدي من هو الآخر يحيلنا على سؤال أكثر عمقا وأهمية من نحن؟ وعلى استنتاج مفاده: لا يمكن توصيف الآخر بمعزل عن الأنا.

يمثل التواصل الحضاري والحوار بين الثقافات والأديان أرقى صيغ التواصل والحوار مع الآخر، أفرادا وجماعات. في "تأصيل ثقافة الحوار مع الآخر تخلق حالة من التوافق بين الذات والآخر لتحقيق المنافع الخاصة والعامة للأطراف المتحاورين؛ وإن لم

⁷⁰ - شراد فوزية، الحوار والتواصل عند يورغن هابرماس، مجلة علوم التربية، العدد 17، منشورات عالم التربية، 2007، ص 117.
⁷¹ - سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي: إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2017، ص 10.

تبلغ مرتبة التطابق أو الاندماج⁷² ويصبح الحوار مشروعاً لإصلاح الذات وتخليصها من سموم السلوكيات العدوانية اتجاه الآخر مادام الوجود الاجتماعي الإنساني لا يتحقق إلا بوجود الآخر المختلف الذي ندخل معه في حوار لفهم بعضنا البعض وبناء ما هو جماعي ومشارك، عبر تجربة انفتاح على الحرية التي تجعل الإنسان يتقبل الآخر كما هو، يحترم فكره ويشعره بأن حرية فكره مرتبطة بحرية الفكر الآخر. في المقابل كل موقف سلبي من الآخر، سيواجه عدوانية مضادة والتعصب والتطرف بمثلها.

وحيث الحوار "علاقة تقوم بين مختلفين لا بين متشابهين أو متوازيين أو متقاربين، بهدف الوصول إلى نقطة التقاء"⁷³ تشكل مظهراً إنسانياً إيجابياً، نقيضاً لإقصاء الآخر ووسيلة مثلى لإضاءة المناطق المظلمة في العلاقات الإنسانية وضرورة إنسانية تقع ضمن الحاجات الأساسية كالحاجات الفسيولوجية والحاجة إلى الانتماء، بل "حاجة ضرورية فيما بيننا قبل أن تكون حاجة لنا مع الآخر، ثقافة الحوار ترتفع عن الصخب والرفض والغضب والإقصاء على مستوى الأفراد والمؤسسات والمنظمات والأنظمة الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية..⁷⁴، نلفت النظر إلى أن نقيض الحوار أو "غياب الحوار الجاد ما هو إلا انعكاس آلي لضعف البنية العلمية والفكرية في العمل"⁷⁵، يغذي مشاعر والتعصب والإحباط والتطرف وفقدان حرية التعبير والرأي.

إضافة لما سبق ذكره، تزداد حتمية الحوار نظراً لما تشهده المجتمعات المعاصرة من تساؤل فرص الأمن والاستقرار وتعاضم مظاهر التنوع والتعدد في المعتقدات والأفكار والثقافات، يتعين معها "النظر إلى ما في التعدد من تكامل بين أجزاء التجربة

⁷² - صلاح فضل وآخرون، أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص 40.

⁷³ - جورج مغامس، حوار الثقافات والأديان، من الحوار العقائدي إلى ثقافة الحوار والانفتاح، وقائع المؤتمر المنعقد في جامعة السيدة اللويزة، لبنان، 2000، ص 17.

⁷⁴ - صلاح فضل وآخرون، أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير، مرجع سابق، ص 42.

⁷⁵ - أحمد بن عبد الرحمن الصويان، الحوار أصوله المنهجية وأدابه السلوكية، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ص 38.

الثقافية الإنسانية، والذي لا يتم إلا بمد جسور التواصل والحوار بينها"⁷⁶، فالوضع العالمي الراهن يعرف أشكال تطرف عنيف تثار بين الفينة والأخرى في كل بقاع العالم، تغذيها ثورة تكنولوجية تعمق الفجوة الرقمية بين الأفراد والمجتمعات والثقافات وتجعل من كل منتبج للحقل الثقافي والفكري، يستجيب لدعوات الحوار وصداه الواسع في المؤتمرات والمحافل الدولية والإقليمية، "الحوار والحوار وحده ولا شيء غير الحوار"⁷⁷ لبناء مستقبل للعالم على هدي الضمير الإنساني الواعي وإقامة العلاقات بين الثقافات على التكامل الثقافي بدلا من الاختراق والهيمنة وصهر ثقافة في ثقافة أخرى. فهل يمكن ذلك؟

يبدو من خلال ما تقدم أن الانشغال بتجاوز المسافة بين التنظير المطلوب والممارسة المأمولة في خطاب التواصل الحضاري وحوار الثقافات وواقع يتسم بالتوترات والأزمات الإقليمية والتطرف العنيف، يظل مشروعا للبحث عن السبل الكفيلة بتعليم قواعد وأساليب التواصل وترسيخ قيمه في المسارات المعرفية للأنظمة التربوية التي تعد بداية الطريق نحو ممارسة التواصل مع الآخر بشكل فعال والحرص على ربط جسور التواصل وتعزيز الحوار بين الأفراد ومختلف ثقافات العالم، ليتحول إلى سلوك فردي وجماعي بين الأفراد والجماعات، بين الأمم والشعوب يُغلب الجانب الإنساني في العلاقات الثقافية، من خلال ما نقدمه من احترام وتقدير للآخرين.

كما تبدو المنظومة التربوية - الجهاز المناعي الرادع لكل اختراق ثقافي - في حاجة إلى فلسفة للتربية ترسي الطابع الإنساني للثقافات، تراهن على التنوع وتوجه الاهتمام للعلاقة مع الآخر وتطور العلاقات الإنسانية على أساس الانفتاح والثقة في الآخر والانصات والبحث عن أفضل السبل لحسن التصرف إزاء الاختلاف مع الآخر والقبول به بشكل يؤدي إلى الحد من نزعات التعصب ويتجاوز العنف كحل للخلاف والتطرف،

⁷⁶ - توفيق بن عامر، الحوار... لماذا؟ أعمال الندوة المنعقدة في إطار وحدة البحث "حوار الثقافات" من 23 إلى 25 نونبر 2007 بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، مطبعة فن الطباعة، 2009، ص 5.

⁷⁷ - طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2011، ص 7.

لنكون قادرين من خلال التواصل مع ذواتنا والآخر والعالم على تحقيق الذات كحاجة نفسية والتعاطف والتسامح بالمتفكر عليه وتدبير المختلف فيه، وتكون العلاقة بين الأنا والغير أو بين ثقافة وأخرى، لا تقوم على الإقصاء والتهميش والصراع، بل تقوم على الاحترام والتواصل والحوار والإنصات والتسامح والتقدير المتبادل.

نحقق هذا الطموح ونحن نتوسل بالتربية والتعليم ووسائل الاتصالات التي لم يشهد لها التاريخ الإنساني مثيلاً وما تتطلبه التغيرات والتحديات العالمية المتسارعة والمتلاحقة منذ بداية القرن الحادي والعشرين، لقد باتت الحاجة إلى التواصل أمرًا ملحاً وإلى الحوار خياراً استراتيجياً. تواصل وحوار ينطلقا من الوسط المدرسي بين الأطفال من أجل بناء قواعد وقيم الحوار مع الآخر. إنها مسألة تربوية، الطفل يبدأ من المدرسة بالتدرب على الاعتراف بالآخر وتقبله وقبول ثقافته وطرق تفكيره وتبادل علاقة تواصلية مباشرة معه.

ثانياً: علاقات التربية والتعليم والثقافات: حدود وأبعاد.

في زمن تمر فيه البشرية بمنعطف تاريخي فريد، حيث التحولات عميقة وبسرعة قصوى. تفتح الثقافات المجال، لإثارة مواضيع واشكالات على بساط البحث وسهام التساؤلات: أليست التربية والتعليم في مواجهة مباشرة مع افرازات العولمة والاختلاف الثقافي والفوارق الحضارية إجمالاً؟ النجاح فيها سيكون عظيماً والفشل سيزيد الطين بلة. إلى جانب المعرفة وتشكيل ذكاءات الفرد، هل تشكل التربية والتعليم أساساً متيناً للثقافات؟ هل يمكن أن نتعلم كيف نعيش سوياً في فضاءات موحدة رغم التنوع واختلاف المعتقدات والرؤى نحو العالم؟ ونحقق مقولة "المنع تغذية الكراهية بين الحضارات، يجب على كل ثقافة أن تعلم الجميع الفهم والاحترام المتبادلين"⁷⁸.

⁷⁸ - جيمس مارتين، معنى القرن الحادي والعشرين، ترجمة أحمد رمو، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2011، ص 357.

ترمي التربية إلى تكوين الفرد بصفته كائنا اجتماعيا، كما ترمي إلى إدماج الفرد في ثقافته، وفق سلوكات مكتسبة تميزه عن سائر الكائنات الحية الأخرى وتجعل منه جزء من مجتمع إنساني، تمكنه من اكتساب ما يؤهله لفهم ذاته وتفهم الآخر وقبوله ومواجهة التغيرات العالمية التي سيواجهها في مستقبله، في إطار ثقافي عالمي يتموج بين الكوني والإقليمي والوطني والمحلي ويختلف من مجتمع إلى آخر ومن حقبة زمنية إلى أخرى.

الطفل، المستهدف من التربية والتعليم منذ مولده، لكونه كائنا اجتماعيا لا يمكن أن ينفصل عن السياق الاجتماعي والثقافي المحيط به، يتبنى أدواره وتتأثر شخصيته بالثقافة والقيم السائدة في مجتمعه. يتفاعل مع ثقافة المحيطين به ويعمق معرفته بتراث ثقافته ويجيب عن قائمة التساؤلات التي تثيرها الحضارات والثقافات الإنسانية الأخرى وتتطلب التواصل والحوار والتفكير بمنهجية نقدية علمية تحقق الوظيفة الحقيقية للتربية والتعليم في تحقيق الذات والتكيف مع الآخر والتغيير والتحول الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ...

بشكل نظامي أو غير نظامي، التربية والتعليم منصة عمل بأبعاد متعددة ومتداخلة كنظام ومؤسسات وفضاءات ومناهج تعليمية تشكل مشتلا للفكر الإنساني وتطوير قدرات الإنسان العقلية والفكرية، هي حقل متسارع التطور، تحول من فكرة تكوين الرأسمال البشري إلى إنتاج الرأسمال المعرفي، حيث تتحدد قدرة المجتمعات ومكانتها برصيدها المعرفي الذي يخضع لمتغيرات الخصوصية الثقافية. انتقل من مهمة ومسؤولية تكوين الإنسان معرفيا وتهيبئ اليد العاملة المؤهلة في العصر الصناعي إلى مهمة مواكبة التحوّلات المذهلة والمتسارعة في القرن الحادي والعشرين - التي لم يعد في استطاعة الخيال أن يلاحقها - والرهانات المعقدة من قبيل التدفق الكثيف للمعلومات والتقنيات الرقمية وتعدد أنماط الهجرة والعولمة والفوارق الحضارية بين الشمال والجنوب، في حقبة جديدة من الطفرة التكنولوجية ممثلة في الجيل الخامس لانتترنت الأشياء التي تعتمد على

المعرفة العلمية المتقدمة والقدرة على التوظيف الأمثل للقدرة الإبداعية للأفراد، حقبة معرفية نوعية تُسائل التربية والتعليم حول مدى التخطيط أو إحداث تغيير في عقل الفرد وثقافته ونظراته إلى الآخر وتكيفه مع بيئته والعالم لأن "كل وضعية تعليمية تنتج حتما علاقة بالآخر وبالمحيط وتضع المتعلم أمام مشكلة يستدعي حلها وجود الآخرين"⁷⁹.

الثقافة كالتربية، التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من ثقافة المجتمع ورصيده، ليست جينات وراثية أو غريزة يحملها وينقلها الإنسان من جيل لآخر عبر الزمان والمكان، هي تجسيد مستمر وتراكمي لنموذج المعرفة والمهارات والفنون والعلوم والمعتقدات والقيم الإنسانية والرموز وأنماط السلوك التي يتم تعلمها ونقلها وتحويلها عبر الأجيال، إنها عملية مكتسبة عن طريق التعلم تعتمد على التربية والتعليم كأساس يقوم عليه استمرار الثقافة وتناقلها ومعبّر للانفتاح على الحضارات والثقافات الأخرى. وهذا ما يؤكد حاجتها إلى التربية والتعليم، بل إن العمليات المختلفة التي تمكن الثقافة من الاستمرار والتطور هي عمليات بيداغوجية وتربوية بالدرجة الأولى ترسخها التربية والتعليم في أذهان الأفراد، فرادى وجماعات.

الثقافة والتربية كلاهما يتمحور حول الإنسان من خلال الاستثمار في قدراته وخبراته وتنظيم الأفعال الإنسانية، كلاهما يتوسل بالآخر في إطار نسق من التفاعلات ذات خصائص إنسانية ومكتسبة وتراكمية بشكل مستمر، استمرارها مرهون بمدى القدرة على التواصل عبر أجيال متلاحقة عن طريق التربية والتعليم كجسر يعمل على نقل وتعزيز الرصيد الثقافي داخل أي مجتمع وبناء المشروع الثقافي المجتمعي وترسيخ الهوية الثقافية في عقول النشء وحمايته من أي محاولات طمس أو تشويه أو استلاب.

⁷⁹ - عز الدين الخطابي، نموذج بيداغوجي للتواصل، دفاثر التربية والتكوين، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، العدد 12، أكتوبر 2017، ص 33 و34.

بين النظام التربوي والثقافة القائمة في كل مجتمع، وفق هذا المنظور، تفاعل عميق ومستمر زمانا ومكانا في مسار واحد للبناء الحضاري وأي مشروع ثقافي يسعى إلى الإنتاج الثقافي ونقل الإرث الثقافي إلى أجيال الغد والانفتاح على ثقافات أخرى وخيارات جديدة، سيعتمد على مناهج تربوية ونموذج بيداغوجي منفتح ينحو نحو بناء تعليم يُثمن الاختلاف بين الثقافات ويقبل بفكرة التنوع، ممارساته التربوية وأنشطته التعليمية والتعلمية تمنح أهمية لمهارات الاكتشاف والمبادرة والتواصل والحوار بنفس أهمية المعارف الأساسية المرتبطة بالقراءة والكتابة والحساب. نموذج بيداغوجي يوضح أوجه التجانس والتشابه، بل وأيضا أوجه الاختلاف بين الثقافات، دون التسرع في إصدار أحكام قيمة حول هذه الاختلافات، يقر بالخصوصية الثقافية في علاقاتها بالثقافات الأخرى وينمي الوعي بخصوصيات الآخر واعتبارها منبعا للانفتاح والتواصل وإدراك الإشكالات المرتبطة بتعدد الثقافات.

يصبح مع هذا التصور التواصل الحضاري والحوار الثقافي قيمة ثقافية مضافة للتربية والتعليم وقيمة تربوية مضافة لدراسات الحقل الثقافي تضمن "اعتراف التعليم بالدور الهام للثقافة في تحقيق الاستدامة، مع مراعاة الظروف والثقافة المحلية والتوعية بشأن أشكال التعبير الثقافي"⁸⁰ وتجعل من الثقافات المحلية والوطنية بروافدها ولغاتها ومرجعياتها المتنوعة، أساس متين في التربية والتكوين، منه تستوحى البرامج ومحتويات الكتب المدرسية والحوامل البيداغوجية، بدون أن تكون الوحيدة والمهيمنة، غنى هذه الثقافات سيزداد وقدرتها على الإقناع ستتسع وإبداعاتها ستتتشر وتتعمق فقط بالتلاقح والتلاقي مع الثقافات الأخرى والتفاعل النقدي معها، بل والدخول معها في حوار وتواصل خلاقين.

⁸⁰ - اليونسكو وآخرون، التعليم حتى عام 2030، إعلان انشيوين، نحو التعليم الجيد المنصف والشامل والتعلم مدى الحياة، 2015، ص 50.

تشكل المدرسة مختبرا أو لنقل مشتلا فعلا في تحقيق ذلك وفي التربية على مثل هذا التواصل الحوارى الضرورى لمعرفة أعمق بالأنأ، ولإعادة تقويم مكانتها فى العالم بسعة أفق وبرحابة المعنى⁸¹. فى اتجاه آخر على التجديد البىءاغوى "أن يأخذ فى عىن الاعتبار، المكون الثقافى والتثقىفى وبخاصة ما ىتصل بالفنون والآداب وتارىخ الأفكار، والموروث ووسائط الاتصال المتطورة وأوراش الابداع والابتكار بالمدرسة وفرص التواصل والحوار المباشر مع الكتاب والفنانىن"⁸² وإدماج مضامىن تربوىة جءىة فى المنهاج لإكساب الناشئة القىم والاتجاهات والسلوكات الإىجابىة نحو الثقافات: ومنها التربىة البىئىة، التربىة من أجل الءىمقراطىة وحقوق الإنسان، وأخىرا التربىة من أجل السلام والتربىة من أجل المواطنة العالمىة. كما نجد من ىءعو إلى اءءاث مسالك خاصة بالباكالورىا الءولىة.

المدرسة بهذا الأفق فضاء رءب للاستثمار فى العقل البشرى والثقافات الإنسانىة واكتشاف الذات والآخر وتقءىر التنوع الثقافى وناقلى له فى نفس الآن، بإمكانها أن تضاعف من وظائفها ومبررات وجودها وقدراتها فى البناء الحضارى وتحسىن مردوىة المشروع المءتمعى الذى تتبناه وكل اضمءال لحضور الثقافة فى برامج المنظومة التربوىة والتعلىمىة، ثقب أسوء فى التءصىل العلمى - المعرفى والمنهجى - لءى المتعلمىن والمتعلمات، التءصىل الذى ىجب أن لا ىبقى رهىنا لأزمة التلقىن ومعزولا عن السىاقات الثقافىة المءلىة والعالمىة والانشغالات التواصلىة للفرد والجماعة ومغىب لءور الثقافة فى تءقىق التنىمة من ءلال التربىة والتعلىم.

ءلال ءورتها السبعىن المنعءة بتاريخ 25 شتبر 2015، صاءقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على برنامج 2015-2030 بمءابة إطار عمل عالمى ىحمل شعار «تءوىل

⁸¹ - عبء الحمىء عقار، فى وظائف المدرسة، المدرسة المغربىة أسئلة ورهانات، مجلة المدرسة المغربىة، المجلس الاعلى للتعلىم، المملكة المغربىة، العءء 1، مائ 2009، ص 47.
⁸² - المرجع نفسه، ص 46.

عالمنا: خطة التنمية المستدامة في أفق 2030»⁸³. الهدف الرابع من الخطة خاص بضمان التعليم الجيد، المنصف والشامل للجميع وتعزيز فرص التعلم مدى الحياة لتحقيق "التنمية المستدامة واتباع أساليب العيش المستدامة وحقوق الإنسان والمساواة بين الجنسين والترويج لثقافة السلام ونبذ العنف والمواطنة العالمية وتقدير التنوع الثقافي وتقدير مساهمة الثقافة في التنمية المستدامة، بحلول عام 2030"⁸⁴.

طبيعة العلاقة التفاعلية بين التربية والتعليم والثقافة تحيلنا على اشكاليات من قبيل مدى التأثير الذي يمكن أن يحدثه التربية والتعليم في الثقافة، ماداما وجهان لعملة واحدة، وأي مشروع للتربية والتعليم يمكن أن يسهم في الانفتاح على الثقافات الأخرى؟ وأي إستراتيجيات ثقافية أو مقاربات تربوية نظرية أو مخططات تعليمية تطبيقية يمكن أن تسهم في توسيع نطاق التواصل الحضاري وحوار الثقافات؟ وأي خطر يشكله التركيز الشديد حاليا على التكنولوجيا كأداة للتحكم والتواصل وتهيمش الاتجاهات التأملية النقدية والثقافية للمعرفة الانسانية؟

حسب تقرير التنمية الإنسانية العربية 2002 "البلدان العربية معزولة عن المعرفة والثقافة العالمية"⁸⁵ مسؤولية تتحمل جانبا منها المنظومة التربوية والتعليمية التي لم تستطع الاسهام في بناء مشروع حضاري عربي ودعوة في نفس الآن إلى التفكير في تجديد وتطوير مخرجات أنظمة التربية والتعليم في الوطن العربي عموما والمرور من تلقين وتحصيل المعارف وذهنية الامتحان إلى التعلم بالبحث والاكتشاف وتكوين كفاءات تحمل مواصفات معرفية ومهارية وقيمية قادرة على حل المشكلات ومواجهة التحديات الحضارية لهذا العصر، تعمل من أجل تهيئ الأجيال الجديدة لتقبل المتغيرات

⁸³ - الأمم المتحدة، الجمعية العامة، قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم A/RES/70/1، 2015.

⁸⁴ - المملكة المغربية، المجلس الأعلى للحسابات، تقرير موضوعاتي حول مدى جاهزية المغرب لتنفيذ أهداف التنمية المستدامة 2030-2015، https://unctad.org/meetings/en/SessionalDocuments/ares70d1_ar.pdf (Accessed 22/04/2020).

⁸⁵ - البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، تقرير التنمية الإنسانية العربية 2002، ص 50.

والمستجدات في عالم اليوم وإلا "ستظل مدارسنا تخرج رجالا ينتمون إلى عصر التصنيع، إلى أن نبدأ في تعليم الشباب المهارات الضرورية للتعرف على أبعاد التناقض في قيمهم واستجلائها، إن لم يكن بتصفية هذا التناقض"⁸⁶.

سؤال الثقافة/ الأبعاد الثقافية في البرامج والمناهج الدراسية ومناهج التكوين يواجه عددا من الصعوبات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الغموض الذي يلف مفهوم الثقافة وحضور الثقافات المحلية والبعد الثقافي في البرامج والمناهج الدراسية والتوجيهات البيداغوجية.
- عائق التحكم في اللغات.
- نزع الجانب الثقافي عن المواد العلمية والتخصصات التقنية وكأن الثورة العلمية مرت بدون سياقات سوسيو - ثقافية.
- محدودية الاستثمار في برامج الولوج إلى الخدمات والمبادلات الثقافية.

في إحالة ذاتية للمجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي حول «إدماج الشباب عن طريق الثقافة» تبين: "غياب برنامج ثقافي واضح، مع برامج عمل دقيقة، داخل المنظومة التربوية والتعليمية؛ التفاوت الكبير بين النيات المعلنة وبين الطابع المحدود للاستثمارات في مجال الثقافة في البرامج والمضامين، مع غياب مراعاة شروط الفعالية والاستدامة؛ عجز واضح في البنيات التحتية والتجهيزات والحاملات الثقافية؛ غموض يلف مجال تدبير الاستعمالات اللغوية وآثارها السلبية في الممارسات الثقافية للأطفال والشباب"⁸⁷.

لم نتوغل بعيدا في تحليلنا لمسألة الثقافة في علاقتها بالتربية والتعليم، إذ أننا لم نتجاوز التركيز على الأبعاد الثقافية لمنظومة التربية والتعليم وأهمية وظيفتها الثقافية والمطالبة ببذل مجهود فكري وتواصل يشارك فيه بالضرورة كل المربين وخبراء

⁸⁶ - ألفين توفلر، صدمة المستقبل، المتغيرات في عالم الغد، ترجمة محمد علي ناصف، مطابع نهضة مصر، الطبعة الثانية، 1990، ص 439.

⁸⁷ - المملكة المغربية، المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، اللجنة الدائمة المكلفة بالقضايا الثقافية والتكنولوجيات الحديثة، المدرسة-

التكنولوجيات الجديدة والرهانات الثقافية، إحالة ذاتية رقم 17/2014، مطبعة سييما، 2014، ص 41.

التربية وتهيبى الوسائل والاليات الكفيلة بتحقيق ذلك. إن عجز منظومة التربية والتعليم عن الاضطلاع واستثمار ثقافة فرد ما وتكوين قدرته على التفتح على الثقافات الأخرى المغايرة لثقافته، وإيجاد حلول تربوية لتدبير التعددية الثقافية من شأنه أن يشكل فشلا سيضاف إلى رصيد عدم الثقة في مخرجاتها وتقصيرا في أداء مهامها الثقافية.

لذا ترسخت قناعتنا، في ظل التحولات والمتغيرات المتسارعة التي يعرفها العالم في القرن الحادي والعشرين ونؤكد عليها دوماً، أن الاستثمار في التعليم كحقل خصب يعد رهانا استراتيجيا ومطلبا واقعيا من أجل مستقبل ثقافة الأطفال، لكن كيف ذلك؟

ثالثا: مستقبل ثقافة الأطفال بين الاستثمار في التعليم ورهانات القرن الحادي والعشرين.

الطفولة المبكرة والمتوسطة طور من أطوار النمو ومرحلة نمائية حاسمة في تشكيل شخصية الطفل، محور الكثير من الأبحاث والدراسات حيث غاصت مختلف العلوم في عالم الطفولة تتغىي الكشف عن علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين الدوافع والمتغيرات الذاتية والثقافية والموضوعية والاجتماعية.

بناء الإنسان ككائن ثقافي يبدأ منذ الطفولة، كما أن الاهتمام بثقافة الأطفال خيار استراتيجي لا يمكن تجاهله في عالم متغير، مادامت الثقافة إراثاً تاريخياً للأفراد والمجتمعات فمن المؤكد المحافظة عليها ومن الضروري ترسيخها في أذهان الأجيال واعتبار الاهتمام بثقافة الأطفال، مواطنو القرن الحادي والعشرين، جزء لا يتجزأ من نظرة مستقبلية استراتيجية تلتقي وتعظم مع الحاجة إلى تواصل حضاري ناجع وحوار حقيقي بين الثقافات تؤدي فيه التربية بصفة عامة دورا فعالا وأعمق في صياغة عقلية الطفل وتشكيل أفكاره واتجاهاته ويتم الحفاظ بصفة على خاصة هويتهم الثقافية والاجتماعية في ظل العولمة والطفرة الرقمية. بقدر ما تحرص التربية ومعها التعليم على

ترسيخ القيم والخصوصية الثقافية، بقدر ما تسعى المتغيرات العالمية والمجتمعية المعاصرة إلى زحزحة ذلك - بشكل ضمني أو صريح أحياناً- لتجعل ثقافة الطفل على المحك بين الخصوصية والعولمة الثقافية.

ما يثير الأسى في هذا الشأن ندرة الدراسات والأبحاث حول الطفولة في العالم العربي عامة، بينما اتجهت الدراسات الأجنبية إلى علم نفس النمو وعنيت بدراسة نمو الطفل بل حاول عالم الاجتماع الفرنسي اميل دوركايم "أن يقدم صورة عن كيفية انتقال القيم والأفكار إلى الأطفال"⁸⁸، مادام الطفل يولد فرداً وليس شخصاً ولكي يصبح الفرد شخصاً لابد أن ينفرد بخصائص ثقافية ويكتسب لغة وفكراً وقيماً إنسانية لتصبح شخصية الطفل وليدة الثقافة وحصيلة مؤثرات ثقافية. يمكن الجزم بالتلازم بين الشخصية والثقافة والقول أن للثقافة دور في تبلور شخصيات الأطفال وتشكيل الوعي الثقافي في أنماط سلوكهم ونموهم العقلي والانفعالي، إضافة إلى تعزيز الانتماء والهوية وبناء احترام الذات والمعرفة بالاختلافات الثقافية.

ثقافة الأطفال هي جزء من ثقافة المجتمع وإحدى ثقافته الفرعية، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بثقافة المجتمع. في العادة، يعمل كل مجتمع في إطار مسؤولية جماعية لنقل ثقافته إلى الأطفال وتعريضهم لكل المؤثرات الواردة في ثقافة مجتمعهم التي تختلف بدورها - إلى حد ما- عن ثقافة أطفال الجيل السابق. لذا يمكن أن تكون البيئة الثقافية عاملاً من عوامل نضج ذكاء الطفل وذات أثر في نموه العقلي والانفعالي والاجتماعي.

في مجال النمو العقلي المتمثل في الذكاء ومختلف العمليات العقلية كالإدراك والتصور والتفكير فهو يقاس بالقدرة على حل المشكلات أو بقياس ما لدى الطفل من مهارات ترتبط بثقافته وتوجه تفكيره نحو البناء أو الهدم. كما يظل للبيئة الثقافية أثرها في إكساب الطفل أساليب التعبير عن الانفعالات وتطويرها أو تعديلها وفق ما يسمى بالعادات

⁸⁸ - هادي نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، مرجع سابق، ص 18.

الانفعالية والعواطف والميول والاتجاهات النفسية التي تمثل حالة الاستعداد الذهني والانطباعات لدى الطفل اتجاه الأشخاص أو الأفكار، يمتصها ويكتسبها في العادة من بيئته الثقافية عن طريق التربية والتعلم وتؤثر في نموه الاجتماعي ونوع العلاقات مع الآخر ومواقف التفاعل معه في فترات الاتصال والتواصل.

في سياق الاختلافات الثقافية السائدة الحديث عن ثقافة الأطفال حديث عن أسلوب التفكير المراد تحقيقه كما أن "القول إن للثقافة دورها في تشكيل طرق التفكير لدى الأطفال يعني أن التفكير هو طريق اكتسابهم كثيرا من عناصر الثقافة لأن التفكير يقود إلى الفهم"⁸⁹ وهو جوهر التعلم وأبرز مهمة تقوم بها مؤسسات التربية والتعليم والتنقيف وكل حديث عن ثقافة الأطفال هو حديث عن تواصلهم الثقافي والحضاري وفهمهم للحياة والعالم وكيفية نقل الآداب والفنون والمعرفة وإثرائها.

على ضوء مستجدات عصرنا هذا ومتغيراته المتسارعة، إلى جانب الأسرة - البيئة الثقافية الأولى والأمنة- يصبح التعليم، أحد مصادر ثقافة الطفل، في مواجهة سؤال: كيف نستثمر في التعليم ونكسب أطفالنا التشبث بهويتهم الثقافية والانفتاح على ثقافات الآخر، تواصلًا وحوارًا في ظل التحديات المعاصرة والمتغيرات الثقافية العالمية والتطور التكنولوجي المذهل والتجاذبات بين المحلي والكوني؟ وتتشكل بناءً على هذا السؤال انشغالات أخرى تتعلق بأهم المضامين الثقافية أو المداخل المعتمدة في المناهج التعليمية المقدمة للأطفال والشباب، بفضلها يمكن أن نضمن تواصلًا حضاريًا وحوارًا بين الثقافات.

التعليم بمعنى نقل المعرفة والتطور الفكري والمعتقدات والقيم أُفردت له أهمية قصوى في كافة المواثيق والصكوك الدولية كحق أساس من حقوق الإنسان، لدوره في التنمية بجميع أشكالها وضمان كرامة الإنسان وحرية وتفجير طاقاته الكامنة، يُستند إليه لضمان حقوق أخرى وإحقاقها. تضع الدول إطارًا وطنيًا وقانونيًا متماسكًا يؤمن الشروط

⁸⁹ - هادي نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، مرجع سابق، ص 92.

اللازمة لتحقيق التعليم الجيد والمستدام، وتتحمّل الحكومات مسؤولية إنفاذ الحقّ في التعليم وتأمين التعليم الجيد للجميع وتطبيق سياسات واستراتيجيات تعليمية وتقييمها.

لا نتوقع جدلاً في كون التعليم رصيد لا غنى عنه للبشرية يجب تأمينه مدى الحياة وبمعايير جيّدة لأنه السبيل لتحقيق الذات وإثراء المعارف واكتساب القيم والثقافة، وحيث الإيمان بأن المعرفة في عالمنا قوة والتعليم ينطوي على مفاتيح التمكّن منها وتمكين - في نفس الآن - الأطفال والشباب من رسم معالم مستقبلهم، أكد تقرير دايلور للتربية في القرن الحادي والعشرين أن أحد سبل مواجهة التحديات يكمن في أن يبني التعليم على أربع دعائم: تعلم الفرد ليكون وتعلمه للمعرفة وتعلمه للعمل وتعلمه العيش مع الآخرين⁹⁰، الأمر الملح والضروري في نهاية قرن وسمه العنف والنزاعات وبداية قرن آخر يتوق لحوار الثقافات والتواصل الحضاري في قرية عالمية صغيرة. ويبدو من خلال التجارب الرائدة في العديد من دول العالم التي حققت أشواطاً في التنمية الثقافية ومجتمع المعرفة أن الاستثمار في التربية والتعليم استثمار في الإنسان وإنتاج المعرفة والابتكارات العلمية والتكنولوجية كمدخل أساس للاستجابة للتحديات المعاصرة وبناء حضارة إنسانية أقل عنفاً وتطرفاً وهيمنة ثقافية.

اعتباراً لما سبق ذكره وما تحقق من انجازات كبيرة كما وكيفا في فرص التعليم للجميع وتغيير حياة الأفراد عن طريق التعليم، انتقل دور التعليم من الدور التقليدي الكامن في اكتساب المهارات الأساس في القراءة والكتابة والحساب في إطار مناهج ونماذج بيداغوجية مغلقة تستهدف الجانب المعرفي من شخصية الفرد فقط إلى نشر المعرفة والقيم معاً وتعزيز العلوم والتكنولوجيا والابتكار والابداع وتنمية مهارات التحليل والتركيب وقدرات التواصل واتخاذ القرارات والمواقف وفق مقاربات مفتوحة تستهدف جميع

⁹⁰ - في منتصف سنة 1996 صدر عن منظمة اليونسكو تقرير بعنوان «التعلم: ذلك الكنز المكنون»، عرف باسم تقرير دايلور، رئيس اللجنة الدولية التي كُلفت بصياغة التقرير والمكونة من 14 شخصية بارزة من جميع مناطق العالم للتأمل في قضايا التربية والتعليم في القرن الحادي والعشرين. التقرير على الرابط :

https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000109590_ara/PDF/109590arab.pdf.multi (Accessed 24/01/2020)

مكونات الشخصية الانسانية وانتقلت بذلك، تحديات التعليم من هاجس التعميم وتحقيقه للجميع إلى هاجس الابتكار والابداع والاكتشاف والتعلم مدى الحياة، مما سيعزز فرص التواصل والحوار والسلام والتنمية المستدامة ومواجهة تحديات المستقبل المحلية والعالمية.

احتفاء بهذا الدور الجديد الذي يضطلع به التعليم بأبعاده العالمية، قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الثالثة والسبعين يوم 3 دجنبر 2018 إعلان يوم 24 يناير من كل سنة يوما دوليا للتعليم⁹¹ ودعت جميع الدول الأعضاء ومؤسسات منظومة الأمم المتحدة ومنظمات المجتمع المدني من أجل الاحتفال بهذا اليوم بما يليق به. على هذا النحو، كان موضوع اليوم الدولي للتعليم لسنة 2020 هو تسليط الضوء على السبل العديدة التي يمكن للتعلّم من خلالها تمكين البشر من المحافظة على كوكب الأرض وتعميم السلام والتسامح ومجابهة تحديات العولمة من قبيل: تحولات منظومة القيم واشكالية الهوية الثقافية واكتساح التكنولوجيا والتقنية وسرعة تدفق المعلومات ودراسات المستقبل.

ولوعينا والمستقبل، شكّلت اليونسكو لجنة دولية مستقلة تُعنى بإعادة التفكير في دور التعليم ومستقبل التربية والتعليم والتركيز على إعادة إحياء التفكير في دور التربية والتعلم والمعرفة في ضوء التحديات والفرص الهائلة الممكنة التي يمكن التنبؤ بها والمرجوة من المستقبل⁹². ترعى لجنة اليونسكو مبادرة عالمية لإعادة تصور الطريقة التي يمكن أن ترسم بها المعرفة والتعلّم ملامح مستقبل البشرية وكوكب الأرض، مع استشارة ومشاركة المهنيين والأشخاص رؤيتهم عن كيفية تطوير التعليم بحلول 2050 عبر المنصة الإلكترونية <https://ar.unesco.org/futuresofeducation> والمتاحة

⁹¹ - https://www.un.org/en/ga/search/view_doc.asp?symbol=A/RES/73/25&Lang=A (Accessed 24/01/2020)

⁹² - <https://ar.unesco.org/futuresofeducation/> (Accessed 24/01/2020)

بلغات متعددة. علاقة بموضوع بحثنا حددت هذه المنصة من بين أعظم التحديات بحلول 2050⁹³ العنف والتطرف والتحول التكنولوجي والهجرة أو حركية البشر.

في نفس الاتجاه، نظمت اليونسكو واليونسيف وهيئات دولية أخرى تابعة للأمم المتحدة منتدى عالميا للتربية سنة 2015 في انشيون بجمهورية كوريا الجنوبية "يبسر الحوار بين الثقافات ويشجع احترام التنوع الثقافي والديني واللغوي"⁹⁴ ويضع رؤية جديدة للسنوات الخمسة عشرة المقبلة، تتعامل مع التعليم بوصفه شاملا للجميع وأمرا أساسيا في تعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان وفي النهوض بالمواطنة العالمية والتسامح والالتزام المدني والتنمية المستدامة.

اعلان انشيون يرسم خارطة طريق السياسات الدولية في مجال التعليم ويدعو إلى ضمان اعتراف التعليم بالدور الهام للثقافة في تحقيق الاستدامة و"مراجعة المناهج الدراسية من أجل ضمان جودتها وجدواها بالنسبة إلى السياق المعني، بما في ذلك ما يتعلق بالمهارات والكفاءات والقيم والثقافة والمعارف"⁹⁵ و"تشجيع التعليم بلغتين والتعليم بعدة لغات في السياقات المتعددة اللغات وذلك ابتداء بالتعلم المبكر باللغة الأولى للطفل أو بلغته الأم"⁹⁶ وتوفير "التعليم في مجال المواطنة العالمية على جميع مستويات التعليم وفي كل أشكاله بما في ذلك من خلال التعليم والتدريب في مجال حقوق الانسان وتشجيع ثقافة السلام واللاعنف"⁹⁷. هذه الأبعاد العالمية للتعليم انطلقت منذ إعلان ماستريخت للتعليم العالمي سنة 2002 من أجل "تعليم يفتح عيون الناس وعقولهم على حقائق العولمة ويوقظهم لتحقيق عالم من العدالة والمساواة وحقوق الإنسان للجميع. وهي تشمل التعليم

⁹³ - <https://en.unesco.org/futuresofeducation/get-involved/top-3-challenges-and-purposes-education> (Accessed 24/01/2020)

⁹⁴ - اليونسكو وآخرون، التعليم حتى عام 2030، إعلان انشيون، نحو التعليم الجيد المنصف والشامل والتعلم مدى الحياة، 2015، ص 26.

⁹⁵ - المرجع نفسه، ص 38.

⁹⁶ - المرجع نفسه، ص 38.

⁹⁷ - المرجع نفسه، ص 50.

التنموي وتعليم حقوق الإنسان والتعليم من أجل الاستدامة والتعليم من أجل السلام ومنع نشوب النزاعات والتعليم المتعدد الثقافات"⁹⁸.

لعلنا أمام تعليم من أجل مجتمعات المعرفة والمواطنة العالمية، ذو مستقبل مشترك للبشرية يواجه اشكاليات وتوترات القرن الحادي والعشرين - الموما إليها في الإطار الاشكالي لموضوع بحثنا هذا- ويمنح الفاعلين والباحثين والمستفيدين من العملية التعليمية على حد سواء كفاءات معرفية عميقة حول قضايا الثقافات والقيم الإنسانية الكونية وفهم العالم والآخرين، وفق تصور منهجي متعدد المنظورات يعترف بالأبعاد والرؤى المختلفة ويضطلع بمهمة حماية التنوع الثقافي واللغوي وينمي مهارات الاتصال والتواصل والتفاعل مع أشخاص ذوي خلفيات وثقافات ومعتقدات مختلفة.

نحن إذن، أمام تعليم جديد يتجاوز حدود النهج المنفعي الضيق ليشمل أبعاد عديدة للوجود الانساني، ينمي فرص التواصل الحضاري بين الأفراد والثقافات والمجتمعات ويستدعي تساؤلات وأدوات جديدة للعمل، من قبيل: أي دور للتعليم في تكوين النشء للاستفادة من فرص العولمة وتجاوز اشكالاتها دون التفريط في الهوية الثقافية؟ كيف يمكن لمنظومة التربية والتعليم بالمغرب أن تتخطى في تواصل حضاري وتوصل لحوار الثقافات انطلاقا من المدرسة ومناهجها؟ أي معارف ومهارات وقيم، أو بالأحرى أي كفايات ثقافية وتواصلية تلزمننا، ويمكن الرهان عليها لمواجهة اشكالات التعدد الثقافي وتوتراته في عالم يزداد تعقيدا وتحولا يوما بعد يوم؟ بمعنى آخر كيف ننمي لدى الطفل - عبر مداخل وآليات تربوية وبيداغوجية - تعلم التواصل الحضاري وإغناء تجربة الحوار والتثاقف وقبول الاختلاف الثقافي والعيش المشترك؟ انطلاقا من الأربع ركائز الواردة سلفا: تعلم التعرف وتعلم لتعمل وتعلم لتكون وتعلم لتعيش مع الآخرين ومن فرضية تزعم

⁹⁸ - https://www.coe.int/ar_JO/web/compass/approaches-to-human-rights-education-in-compass (Accessed 24/01/2020)

أن إصلاح العالم أو تغييره يمر حتما من إصلاح التعليم وتجديده وتطويره وفق نموذج بيداغوجي، لكن بأي مواصفات؟

المبحث الثالث: نحو نموذج بيداغوجي يدعم التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

بعد الحديث عن دلالات وخلفيات الثقافة والحضارة والتواصل الحضاري وحوار الثقافات والحضارات وحدود وأبعاد علاقات التربية والتعليم والثقافة ومستويات التفاعل بينها وموقع الآخر وأشكالاته في المعادلة الثقافية حسب متغيرين حضاريين هما الشرق والغرب، لمواجهة اشكاليات وتوترات القرن الواحد والعشرون أفق المستقبل أدعى إلى التوافق والانسجام منه إلى الاختلاف والخلاف، لذلك نطالب بفتح نوافذ وإقامة جسور التواصل بين أفراد وجماعات المجتمع الإنساني، في إطار حوار "يشكل البلمس الشافي للصراع الجاثم بين أصحاب التوجهات والمشارب المختلفة الذين يتبادلون الأحكام المعلبة والمستنسخات الجاهزة والوصفات المعدة مسبقا، التي تُلصق بهذا الطرف أو ذاك لتشيويه صورته وتخریبها أمام الآخرين"⁹⁹، لتؤسس ثقافة القطيعة واللاحوار متجهة إلى العنف والصدام، وتتأكد لنا الحاجة إلى التربية والتعليم كمدخل فعال للتواصل الحضاري وحوار الثقافات يدفعنا لسبر أغوار العلاقة بين التواصل والحوار من جهة والتربية والتعليم من جهة أخرى والبحث في امتدادات الحوار الذي تبدو له أهميته قصوى، داخل مؤسسات التربية والتعليم وخارج فضائيهما في الحياة العامة، داخل نفس الباحة الثقافية وخارجها.

بالموازاة مع سياق تربية حديثة وتعليم القرن الحادي والعشرين، على حد سواء، كل منهما يؤمن بالفرد كهدف للتنمية بشتى أشكالها، لا يقيد عقول الأفراد أو يحبس حريتهم ويحد من إبداعهم، يمثل فيهما الحوار لبنة لترسيخ العلاقة التربوية الديمقراطية بين أقطاب الفعل التربوي - البيداغوجي (الأب؛ الأم؛ الطفل؛ الممارس البيداغوجي؛

⁹⁹ - محمد آيت حمو، أفق الحوار في الفكر العربي الإسلامي، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2012، ص 273.

الفاعلون التربويون..)، كما يمكن أن يسهم في تطهير الوسط التربوي والتعليمي من الصراعات السوسيو- ثقافية عبر فهم وتقبل وجهة نظر الآخرين وتقديرها والتعود على طرح الرأي والرد على رأي آخر وإقامة الحجة على صحته أو عدم صوابه، وذلك بواسطة ما يوفره التواصل الفعال والحوار الهادف من قنوات وصيغ مختلفة للتفاعل التربوي الإيجابي، تضمن تربية الطفل على إدارة الاختلاف في مجتمع المعرفة بروح المبادرة والاكتشاف وتوصل تكوين وتبني اتجاهات إيجابية وقيم إنسانية نبيلة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الكرامة؛ الحرية؛ المساواة؛ التضامن؛ التسامح؛ التعايش؛ الديمقراطية؛ الأمن الإنساني؛ السلم.

رغبة في استكمال مكونات الجهاز المفاهيمي لهذا العمل، نود في هذا المبحث إضاءة قضايا التواصل والحوار في منظومة التربية والتعليم من حيث مبررات ترسيخ ثقافة التواصل والحوار وأهميتها ومقومات توظيفها، مع التنكير بمخاطر غياب التواصل والحوار على الأفراد والمجتمعات. وفق التساؤلات التالية: ما دواعي ومبررات ترسيخ التواصل والحوار في عالم متعدد الثقافات؟ كيف تبدو الحاجة ملحة للتوصل بحقلي التربية والتعليم للإسهام في التواصل الحضاري وحوار الثقافات؟ ما أهمية وإسهامات تأصيل ثقافة التواصل والحوار في بناء شخصية الطفل؟ أي أفق وامتدادات للتربية على الحوار، مقابل ما نوعية المخاطر المحتملة لغيابه؟

أولاً: الحاجة إلى التربية والتعليم من أجل التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

التواصل مشروع لتشكيل الوعي الحضاري وقد يسهم لا محالة في تطوير مشاريع أخرى، تكتسب هذه الفرضية وجاهتها فيما يحفل به التاريخ من أوجه التبادل والتلاقح والتفاعل قادها الوعي الإنساني للتجربة الحضارية في زمن السلم وزمن الحرب.

لا نحتاج للتذكير بأن البشرية فرادى وجماعات وأمم ومعها الثقافات والحضارات الإنسانية عرفت، في جميع مراحل التاريخ، تواصلًا، إرسالًا واستقبالًا، اقتباسًا وتلقيًا، نسجت من خلاله وعبره منجزها الفكري والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ومع تيارات العولمة بأشكالها المختلفة كقفزة حضارية ذات الإيقاع السريع في الانتشار وغزو كل الآفاق، أضحى العالم أفقا رحبا للتواصل والتبادل والتعارف واختلاط الأجناس والإغراءات التي لا تقاوم، وبدأت "وسائل الاتصال العالمية تعمل على تقريب الناس من بعضهم بعضا وكلما اقتربنا أكثر، نصبح أكثر ملاحظة لاختلافاتنا. ووسائل الاتصال تفسد التفاعل. فمعظم التفاعل لا يأتي من حوار ذكي ذي اتجاهين؛ بل يأتي من إعلانات هوليوود التجارية أو حملات العلاقات العامة المصممة لبيع المنتجات"¹⁰⁰، مما راكم المشكلات ذات الطبيعة الثقافية وظهرت التوترات المهددة لحاضر ومستقبل الإنسانية. كما بدت "فكرة العالم «قرية عالمية» فكرة مضللة. في القرية يتشاطر الجميع ثقافة مشتركة والعالم المكتنف بالأسلاك ليس موحدًا: مجتمعات عالمية عديدة ذات أنظمة إيمانية متنافرة توجد جنبًا إلى جنب".¹⁰¹

إن غزو العولمة لحقلي الاتصال والثقافة أدى إلى إحداث خلخلة في الأنظمة والقنوات التي تسهم في تكوين الأفراد وبناء الشخصية الوطنية والهوية الثقافية، وهي الأنظمة التعليمية والتربوية ومؤسسات التنشئة الاجتماعية والثقافية لأجيال الغد والتي لم تعد قادرة على مسايرة التنافسية ومواجهة قولبة الأذواق والأفكار والاتجاهات والقيم التي تغذيها العولمة. إعادة الاعتبار لهذه الأنظمة يمر في نظرنا من إعادة رسم فلسفتها وغايتها في سياق التحولات المتسارعة التي يشهدها عالم اليوم نحو الهيمنة والاستيعاب والمجال لا زال مفتوحا لمشروع التواصل الحضاري وحوار الثقافات كآلية لاستيعاب منجزات حضارات الكون وليس الحضارة الغربية فقط، والتعرف على مختلف الثقافات

¹⁰⁰ - جيمس مارتين، معنى القرن الحادي والعشرين، مرجع سابق، ص 346.
¹⁰¹ - جيمس مارتين، معنى القرن الحادي والعشرين، مرجع سابق، ص 345.

بما تحتويه من قيم إنسانية وحضارية ومخزون معرفي ومعالم حضارية، بدونه قد تتحول الاختلافات الثقافية إلى منشأ للتعصب وبؤرة للصدام والصراع. من جهة أخرى التربية والتعليم والثقافة قلاع حصينة للخصوصية والتعبير عن الاختلاف وأنساق تؤدي إلى التواصل لا إلى الانغلاق والعزلة، كل إقصاء أو تكريس للاختلاف لا يعبر عن ضمير الإنسانية وسيؤدي لا محالة إلى تفاقم العداء والكراهية والتطرف.

يعد التواصل من المفاهيم المتعددة الدلالات والعبارة للتخصصات العلمية والحقول المعرفية، يوظفه كل متخصص وفق منطلقاته الفكرية وحاجاته البحثية. إنه فعل انساني يحمل رغبة الفرد في التفاعل مع الآخر الذي يشاركه الحس الإنساني والمصير المشترك ويتقاسم معه كوكب واحد بأشراقاته واشكالاته، في دينامية تتجاوز الأنا لاكتشاف الآخر، كما سبقت الإشارة إلى ذلك سلفاً. يقدم التواصل، إذن، على أنه "فعل واع وإرادي يتوقف على رغبة الفرد في إيصال معلومات محددة إلى الآخر المنزوي في عزلة في الاتجاه المقابل يعتبر كل فعل أو قول مادته"¹⁰².

التواصل لا يعني الاتصال، التواصل يدل على اشتراك طرفين أو أكثر (تتدخل فيه أطراف متعددة) في إطار علاقة - وجدانية تفاعلية وتبادلية - تتطور لإنجاز الفعل وبناء العلاقات الإنسانية. التواصل ميكانيزم يؤثر في العلاقات الإنسانية والاتجاهات والقيم وأنماط السلوك والتفكير، ويأتي بعد أن يتم الاتصال ولا يتحقق بدونه ولا يقتصر ذلك على الجانب اللفظي فقط بل يتضمن الإشارات والإيماءات وأوضاع الجسد والقيم الإنسانية. بينما الاتصال لا يفيد الاشتراك لأن الفاعل طرف واحد. جمة هي الوضعيات والمواقف التي يمكن أن يتحقق فيها الاتصال دون أن يتحقق التواصل بفعل التشويش أو المعوقات التواصلية التي تتأثر بها عناصر العملية التواصلية.

¹⁰² - لا وعي التواصل، حسن مستر، سلسلة فكر ونقد، التواصل نظريات وتطبيقات، الكتاب الثالث، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، 2010، ص 12-13.

تتضمن العملية التواصلية رهانات ومفارقات تتجاوز الارسال والاستقبال والخطاب المنقول أو الموجه، الذي يعطي أهمية للرسالة بطبيعة رؤية كل فرد للآخر والمتأثرة تجاوزا بالرؤية التلغرافية للتواصل إلى استبدالها برؤية أكثر إنسانية تضع الأفراد المنخرطين كذوات حاملة لتصورات وتمثيلات ومفاهيم وعادات وتقالييد وقيم وتطلعات وآمال في فعل التواصل كموضوع أول وأساس لهذا الفعل. يتوافق ويتعاقد أطراف هذه العلاقة التواصلية على أساس التفاوض المتجدد باستمرار والذي لا يتأتى إلا بعد أخذ ورد على شكل حوار واع في مكان ما في زمن معين. التواصل لا يتضمن فعل الاخبار فقط ولا يهدف إلى الإجماع بل يبحث سبل التأثير في الآخر وإقناعه سواء تعلق الأمر بالحوار أو بالمناظرة الفكرية، بفضلته ننتقل من سوء الفهم إلى الفهم والتفاهم.

في اتجاهين، اقتباس مفاهيم معرفية وأفكار نظرية من الثقافات والحضارات الأخرى أو اقتباس منجز حضاري جاهز من الثقافات الأخرى، التواصل الحضاري الذي نقصده في بحثنا هذا، هو مد الجسور وبث الدينامية في العلاقات الانسانية والحضارية من خلال الاتصال المبدئي واللقاء والاحتكاك والتداول المفضي الى التبادل والتفاعل والتلاقح وصولا الى التحالف، حيث تتلاقى الأفكار والفنون والآداب ويتعارف حاملو المعتقدات والتقاليد والقناعات والتجارب الإنسانية بشكل عام، في محاولة انفتاح شامل بكل ألوانها واختلافاتها وتنوعها عبر وسائط لفظية وغير لفظية في سبيل مشترك كوني إنساني يشكل النواة الصلبة لتواصل وتفاعل الثقافات مع بعضها وأرضية إطار لحوار ثقافي يستدعي ويوجه طاقات معمري كوكب الأرض نحو التفاهم والتعاون والتضامن والتبادل والتحالف والاستقرار الآمن.

التواصل الحضاري لن يكون ذا جدوى اذا لم يكن هناك نية الانفتاح ومشروع للنهضة يتم عبر جملة من الجسور والمداخل والأطر الفكرية كالتربية والتعليم والبحث العلمي والترجمة والأدب التفاعلي وأدب الرحلة والمنفى والهجرة ووسائل الاعلام

والاتصال بمختلف أنواعهما، يقول المهدي المنجرة "أن يتعلم المرء حضارته، هذا لا يكفي، على البشر المجتمعين في إطار أمة أن يتعلموا الحضارات الأخرى أيضا، وهذا ما فعله الإنسان منذ أن انسلخ من حيوانيته. إن قيمة الحضارة الإنسانية التي تتبلور أمام أعيننا هي حصيلة جميع الحضارات المختلفة والتي ساهمت فيها جميع القارات وجميع الأجناس وجميع الأمم. إنها حضارة تلاقح ليس بيولوجيا فحسب، ولكن أيضا وخصوصا ثقافيا"¹⁰³.

يُعبّر التواصل الحضاري عبر الوسائط الممكنة ومنها المنظومة التعليمية، عن حالة الانفتاح الواعي على حضارة الآخر والحوار الخلاق معها، دون تكريس حالة الاختراق أو الاستيلاء والذوبان في ثقافة الآخر ويفضي هذا الانفتاح إلى التجديد والإبداع وامتلاك الحس النقدي وإنتاج رؤى واتجاهات مضيئة تتجاوز التبعية لنموذج واحد واستهلاك الخطاب الثقافي للآخر أو مرجعيته الفكرية أو الدينية، تبنيها كليا بشكل أعمى.

من جانب آخر، عمليات التفاعل الاجتماعي من مثل التعاون والمبادرة والتنافس والتوافق والتضامن... تتم عبر الفعل التواصلية كما أن الثقافة وباعتبارها أحد أبرز العوامل في تشكيل البنيات الاجتماعية والهوية الوطنية المرتبطة بتراث ثقافي معين تتأثر بعامل التواصل والعمليات التواصلية التي تقود إلى فهم أفضل للعلاقات الاجتماعية وتحقيق التفاهم كغاية مثلى للفعل التواصلية، الأمر الذي يتطلب سيرورة/ جولات من الحوار الثقافي.

لذا نعتقد أن من أبرز آفات التواصل الحضاري وأخطرها جهل البنية المعرفية لخطاب الآخر ونقل المقولات أو المقاربات الفكرية والنظرية، من ثقافتها الأصل إلى ثقافة وبيئة أخرى، من دون فهمها أو تكييفها مع البيئة المحلية والخصوصية الثقافية الجديدة

¹⁰³ - المهدي المنجرة، من المهد إلى اللحد: التعلم وتحديات المستقبل، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 2003، ص 7.

عبر مصفاة وفتوات منظومة التعليم والبحث العلمي التي تمارس بناء الوعي والنقد والتبصر.

يرعى التعليم تنمية القدرات العقلية والمهارات الفكرية ويحاول تطوير المعرفة والكفاءة في مختلف موضوعات اللغات والعلوم والآداب والفنون وتسعى التربية في تكامل مع التعليم إلى زرع وتنمية المعرفة والقيم الانسانية في أذهان وسلوك وممارسات الناشئة. التدريب الذي يبدأ منذ التربية ما قبل المدرسية ويستمر مدى الحياة. في هذا الصدد، يهيئ ويحقق حقل التربية والتعليم للفرد والمجتمع، في مؤسساته وفضاءاته وأسلابه ومناهجه ووسائله، المعارف والمهارات والقدرات والكفايات المنهجية والاستراتيجية والثقافية والتواصلية والتكنولوجية الكفيلة ببناء الإنسان الحامل للقيم والمواقف الايجابية الموجهة للتصورات اتجاه الأفراد والجماعات والآخر والعالم عموما وإحداث اتصال وتواصل يعمق الحوار الثقافي ويدبره نظريا وعمليا عن إدراك وفهم مؤطر بانفتاح يبدد سوء الفهم وعدم التفاهم ويمنح معرفة وفهم تاريخ وخلفيات ثقافة الآخر، بدون تلقين جاف للثقافات الأجنبية، في نفس المقام الذي يدرس ويفهم تاريخ وخلفية ثقافته.

دون إغفال الدور الذي يؤديه فعل التواصل نفسه في تيسير وضعية التعلم وتنظيم التعليم لقواعد عملية التواصل وإخضاعها لقيم وآداب المجاملة ضمنا للاستمرارية وتنمينا للروابط الوجدانية التي تجمع بين المرسل والمتلقي وتدریس الحاج كأداة ضرورية في العملية التواصلية لتأكيد الذات والتأثير في الآخر، رغم أن التواصل الذي تقوم به المدرسة والخطاب التعليمي بين ثقافتين ليس مباشرا ولا مستمرا، يلامس الجانب المعرفي والفني والجمالي دون الوظيفي أو العملي المباشر من خلال الوثائق والدعامات الديدانكتيكية المتعددة والمتنوعة والمعارف التي يقدمها المدرس والمدرسة ويُعرض من خلالها التشابهات والاختلافات بين الثقافات، هكذا يستكشف المتعلم والمتعلمة ثقافة أو ثقافات ما في العالم مختلفة عن ثقافته ويقارن ويميز ويلائم بين سلوكه وبين نماذج أخرى من

السلوك، بين قيمه وقيم الثقافات الأخرى ويتعرف القيم وأنماط العيش والتمثلات الرمزية أو المعتقدات التي تتخذها كل ثقافة مرجعا لها في علاقاتها مع الآخرين وفي إدراكها للعالم.

في عالم اليوم، المليء بالعنف والصخب، التربوية هي "الوسيلة الأكثر قوة لتخفيف «تصادم الحضارات» إلى أدنى حد والتعليم يجب أن يتفادى التشديد المفرط على حسنات حضارة معينة واحدة ويجب أن يغذي أملا. فالشباب يجب أن يتعلموا ضرر الشوفينية والدعاية ضد الديانات الأخرى. كما يجب أن يتعلموا حتمية الاعتماد المتبادل بين شعوب العالم وأن يتفادى فكرة أن حضارة واحدة هي حضارة «مختارة» وتكرر بكرم معرفتها إلى الآخرين"¹⁰⁴.

نعم، يمكن للتربية والتعليم أن يعدا أجيالا من المتعلمين والمتعلمات تواقعة إلى البحث والتقصي بعقلانية وإبداع وابتكار، لها الرغبة في التعلم وتطوير مهارات التواصل لاستكشاف المجهول والآخر بعقول منفتحة ومستعدة للعيش المشترك والتعاون عبر الحدود الافتراضية والجغرافية وصولا لتطوير العلاقات التفاعلية التي تمتلكها كل ثقافة مع مختلف الثقافات. منذ 1992، شدد تقرير جاك ديلور¹⁰⁵، على أن تلاميذ اليوم الذين سيصبحون مواطنين في الغد يجب أن يتعلموا كيف يتعلمون معا ويعملون ويعيشون معا كجزء لا يتجزأ من مشروع يعنى بتعلم العيش معا وبتطوير المناهج الدراسية، إذ لم يكن التعليم النظامي سابقا يشدد على مفهوم تعلم العيش معا في تصميم المناهج الدراسية وتطويرها.

¹⁰⁴ - جيمس مارتين، معنى القرن الحادي والعشرين، مرجع سابق، ص 356.

¹⁰⁵ - اليونسكو، «التعلم: ذلك الكنز المكنون»، تقرير دابلور، مرجع سابق

https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000109590_ara/PDF/109590arab.pdf.multi (Accessed 24 /01/2020)

في التجربة المغربية، على سبيل المثال لا الحصر، في المناهج التربوية ما قبل المدرسية، استدمج حديثا مجال "بناء القيم والعيش المشترك"¹⁰⁶ في الإطار المنهاجي للتعليم الأولي ومجالان للتعليم في السنة السادسة من التعليم الابتدائي المجال الأول تحت عنوان حضارات كونية، يروج: "ما المقصود بحضارات كونية؟ أهمية التلاقح الحضاري؛ خصائص ومظاهر من الحضارة الكونية؛ أمثلة لحضارات قديمة؛ اسهامات الحضارات الكونية،..."¹⁰⁷ والمجال الثاني يخص تحديات العالم المعاصر، من بينها: "نماذج من التحديات التي يواجهها الفرد في العصر الحديث: ظاهرة العنف والارهاب"¹⁰⁸ وتعددت النصوص والأسناد البيداغوجية الحاملة لثقافات بعينها في عدد من المواد الدراسية بالتعليم المدرسي بأسلاكه الثلاث واعتبرت التربية على الاختيار والتربية على القيم من مداخل المنهاج التربوي المغربي في الخطاب الرسمي ليبقى البحث جاريا حول مدى استجابة مدخلات ومخرجات وسيرورات العمل التربوي للحاجة الى التواصل الحضاري وحوار الثقافات وإبراز قيمة الآخر وحوار الثقافات والحضارات بأبعاده الدينية والفكرية والثقافية والتساؤل من جهة أخرى: إلى أي حد، يطور المنهاج التربوي المغربي استراتيجيات التواصل والحوار بشكل عام واستراتيجيات التواصل الحضاري وحوار الثقافات بشكل خاص في إطار برنامج تعليمي يضع بين غاياته التربوية وصلا بين موضوع التربية والثقافة والحوار بين الثقافات وذوي الأديان؟

تحت أضواء عصر العولمة وإدراكا لواجبه الإنساني والانمائي، يجب إيلاء التعليم بكافة مستوياته ومراحل اهتماما كبيرا. المنظومة التربوية التقليدية لا يمكنها الاستمرار في مواجهة التحديات الجديدة بمعارف قديمة وإعادة إنتاج نفس الموصفات في تكوين شخصية المواطن والمحافظة على هويته الثقافية. تتطلب الظرفية الراهنة تهيئ أجيال

¹⁰⁶ - وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي والتكوين المهني، مديرية المناهج، يوليوز 2018، ص 42.
¹⁰⁷ - وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي والتكوين المهني، مديرية المناهج، مستجدات المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي، غشت 2020، ص 118.
¹⁰⁸ - المرجع نفسه، ص 118.

المستقبل لتقبل متغيرات ومستجدات عالم اليوم وخلق مناعة ثقافية ضد رياح العولمة الثقافية، ومن ثم ينبغي إعادة النظر في منظومة التربية والتعليم، في غاياتها الفلسفية وأهدافها ووظائفها ومناهجها ومقاربتها البيداغوجية، ولا يمكن إنجاز ذلك إلا بعد تهيئ أرضية ملائمة تنطلق من مساءلة الخطاب والممارسة التربوية السائدة وتغليب الأبعاد التربوية والثقافية - الكفايات المنهجية والثقافية والاستراتيجية- على حساب الأبعاد التعليمية الجافة ورسم رؤية بيداغوجية تسهم بدور إيجابي في تحقيق التقارب والتواصل والتفاعل بين الثقافات، تعزز القيم الإنسانية المشتركة ومبادئ الحق والسلام والتقدير والاحترام المتبادل.

كما أسلفنا الحديث في مقدمة هذا المبحث، تدفعنا الحاجة إلى التربية والتعليم من أجل التواصل الحضاري وحوار الثقافات، إلى سبر أغوار العلاقة القوية بين التواصل والحوار من جهة ومجال التربية والتعليم من جهة أخرى. كيف ذلك؟

ثانيا: دواعي وأهمية ترسيخ التواصل والحوار في مجال التربية والتعليم.

التربية كعملية تنمية وتغيير هي عملية حوار بين الأب والأم والراشد والطفل والمدرس والمتدريس، بين كل أطراف الفعل التربوي، والتربية على التواصل والحوار هي عملية مستمرة ومميزة لتنمية الفرد وبناء العلاقات الإنسانية بين الأفراد والجماعات والثقافات والأديان، في إطار مجموعة من التصورات والممارسات والأساليب التي تهدف إلى ترسيخ دلالة وثقافة ومنهج التواصل والحوار في حياة الأطفال، يتم تطبيقها داخل مؤسسات التربية والتعليم عبر مناهج تعليمية تضم مضامين معرفية معززة بمهارات وتكوين اتجاهات إيجابية اتجاه مبادئ وقيم تبدأ بالقبول بالآخر والتعايش معه والتسامح وتنتهي بقناعات تنبذ العنف والتطرف وتمتثل لمبدأ الحق في الاختلاف الثقافي. فما دامت "مظاهر الاختلاف قد تعددت في الوقت الحاضر لتشمل ما هو سياسي وديني وثقافي

واجتماعي، فإن أنجع وسيلة لتدبير هذه الاختلافات يكمن في البدء بالاعتراف المتبادل، الذي لن يتحقق إلا بترسيخ الحوار أسلوباً لتدبر أمورنا"¹⁰⁹ منذ المراحل الأولى لتشكيل الشخصية الإنسانية.

ونحن في عالم تضاءلت فيه مساحات التسامح وتراجعت معه قيم السلام في مواجهة التحديات المعاصرة وتعذرت الإجابة أحيانا عن أسئلة مقلقة تطرح حول المستقبل، تصبح التربية كتنمية مستمرة للأفراد والجماعات رصيذا لا غنى عنه لتحقيق قيم الحوار والعدالة من أجل عالم أكثر انسجاما وحسا إنسانيا، وتصبح باعتبارها نشاطا "يهدف إلى إخراج الفرد من حالة الطبيعة إلى حالة الثقافة"¹¹⁰ بساطا آمنا، وعامل "وقاية ضد انحرافات التعصب بكل أشكاله ونوعا من التطعيم الذي يكون له مفعول على المدى البعيد ضد مخاطر السقوط في التطرف والإرهاب"¹¹¹.

لن تتحقق هذه التوجهات إلا بتربية أجيال الغد على فضيلة القبول بالآخر واحترامه وتقديره، وتخطيط سياسة تعليمية من مبادئها الكبرى "تنمية القدرة على الاتصال بالآخرين والحوار معهم الذي يجد له سندا في السعي إلى احترام جميع الشعوب وثقافتهم وحضاراتهم وقيمهم وأساليب حياتهم"¹¹².

يجد الحوار مشروعيته وحتمية وجوده عند بحث ومساءلة كل الصور النمطية وتجاوز التوترات بين ما هو محلي وعالمي، بين ما هو كوني وخصوصي، بين ما هو تقليدي وحداثي، بين الحاجة إلى التنافس والحرص على تكافؤ الفرص، مما يتطلب تعليما "يتجاوب مع همومنا العصرية، ويضيف إلى أسئلتنا نحو المستقبل شهوة التغيير والتمرد على الثابت الجامد، فيما يمكن أن ينتقل بالإنسان من قيد التقليد إلى فاعلية الاجتهاد، ومن

¹⁰⁹ - حسان باهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ب.ط، 2004، ص 13.

¹¹⁰ - أوليفي روبول، لغة التربية، ترجمة عمر اوكان، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002، ص 176.

¹¹¹ - توفيق بن عامر، التراث العربي والحوار الثقافي، أعمال ندوة حول حوار الثقافات مطبوعة فن الطباعة، تونس، 2007، ص 37.

¹¹² - <http://www.unesco.org/new/ar/education/standards-and-norms/key-international-instruments-by-theme/international-understanding-and-peace/> (Accessed 24/01/2020).

الانغلاق على النفس إلى الانفتاح على الآخر"¹¹³. تتأسس مناهج هذا التعليم على "الرؤية الفلسفية للنزعة الإنسانية التي تسهم في السعي المشترك لإقامة حوار بين الأمم والجماعات البشرية، وتعزز تربية أخلاقية وتصور إنساني للفرد"¹¹⁴، وفي نفس الاتجاه تتحمل هذه المناهج مسؤولية تجاوز مخاطر الصدام بين الحضارات والصراع بين الثقافات في سعيها إلى صياغة جديدة مبدعة للفكر والوجدان والاحترام المتبادل بين بني البشر.

تلتقي هذه النزعة الإنسانية في المناهج التعليمية مع مرامي البيداغوجيا المعاصرة التي "تراهن على إشراك التلاميذ في بناء المعارف المدرسية وتكميل خبراتهم ومساعدتهم على تنظيمها وتوظيفها في حل المشاكل بوعي"¹¹⁵ يمكن أن يكون ثقافيا بالدرجة الأولى لتجعل التربية على الحوار - بثقافته ومهاراته وقيمه - مهمة من صميم عمل التربية والتعليم، تضطلع بها كل بيئات ومؤسسات وهياكل منظومة التربية والتعليم.

من جانب آخر، تبرز دواعي ومبررات ترسيخ ثقافة التواصل الحضاري وحوار الثقافات في مجال التربية والتعليم انطلاقاً من التحديات التي أصبحت تواجه مؤسسات التربية والتعليم، فالتدفق الإعلامي والتكنولوجي للمعلومات والمعارف المدعومة بوسائل التواصل المعاصرة التي تطرحها نظم العولمة وسيادة ثقافة الفضاء المفتوح وسيطرة سلطة الصورة على سلطة المعرفة قد سبب في اختراق ثقافي وانتشار ثقافة الاستهلاك وجعل التربية تتأثر بالصراعات والتوترات وأصبح من الصعوبة بمكان أن تفرض مؤسسات الأسرة أو المدرسة أو التنشئة الاجتماعية أفكارها في تربية وتعليم الناشئة بنفس الشكل التقليدي المعتاد منذ زمن بعيد، ولعل تراجع هذه المؤسسات عن أداء دورها الثقافي والتربوي المأمول منها وبقائها غائبة عن التغيرات الثقافية والتحولات المتسارعة

¹¹³ - حسن شحاته، تصميم المناهج وقيم التقدم في العالم العربي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 2008، ص 337.

¹¹⁴ - حسن شحاته، المرجع نفسه، ص 340.

¹¹⁵ - عبد الحق منصف، رهانات البيداغوجيا المعاصرة، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007، ص 32.

والطارئة عالميا، واقتصارها على تقديم خدمات التعليم والتكوين بمحتوى كمي وبرامج دراسية لا تراعي تنوع واختلاف الهويات الثقافية كروافد للحضارة الإنسانية جمعاء، عمق عزلتها عن محيطها وسبب في تراجع دورها الريادي في البناء الحضاري.

إن الشكل التقليدي للتربية العربية ومظاهر السلطوية في بنيتها وأساليبها وتوجهاتها التي تقيد الإبداع والفكر الحر وتعكس "الشدة والعقاب وإلقاء الأوامر والتهديد والتوبيخ والإحراج والعنف والتمييز والحرمان من الحقوق والفرض بالقوة ومصادرة الحركة وعدم مراعاة إنسانية الإنسان"¹¹⁶، في زمن تعرف فيه المنطقة العربية ربيعاً حقوقياً تتعالى فيها أصوات تدعو إلى زيادة جرعة الحرية والكرامة وتطالب بالتححرر من كل أشكال التسلط والقهر والعنف الذي انتشر في الوسط المدرسي وخارجه وامتدت آثاره إلى كل أطراف الفعل التربوي، كلها دواعي ومبررات تدفع في اتجاه النهوض بثقافة الحوار كمهمة تربوية مطروحة بالإحاح على المجتمعات المعاصرة، والاضطلاع بها يسائل بالدرجة الأولى المنظومة التربوية ويجعل مسؤوليتها مركزية ودورها حاسماً وراهنياً.

ومن تم فالمدرسة مدعوة، على سبيل المثال، قبل غيرها لأن تكون سباقة إلى إرساء منظومة حوار ذات قيم وأخلاق متكاملة تزوج بين التشبع بقيم التواصل والتعايش والتسامح والسلام والمساواة والعدالة والتمتع بالحقوق الثقافية الأساسية والالتزام بالواجبات الأخلاقية اتجاه قضايا الكوكب، بدل أن يكون "النظام التعليمي أوسع فضاء اجتماعي للتنافس والصراع بين القوى الاجتماعية"¹¹⁷ وإعادة إنتاج نفس التقاليد والعادات والمعارف المتقدمة. يبقى رهان التربية على الحوار هو تجسيده التزاماً وممارسة، عن طريق الانفتاح على باقي الثقافات والابداع والابتكار في المناهج والبرامج الدراسية والارتقاء بالحياة المدرسية وجعلها مثلاً حياً وفضاء حقيقياً لتجسيد التصريف الديمقراطي للاختلاف والتنوع الثقافي. إن النهوض بثقافة الحوار مسؤولية مجتمعية متقاسمة تتولاها

¹¹⁶ - يزيد عيسى السورطي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 362، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009، ص 9.
¹¹⁷ - حامد عمار، مواجهة العولمة في التعليم والثقافة، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000، ص 84.

منظومة التربية والتكوين إلى جانب الأسرة ووسائل الإعلام وكذلك المؤسسات ذات الوظائف التربوية والثقافية تحقيقا لمواصفات مواطن عالمي ونبذا لكل عزلة قد تنحو بنا نحو التعصب والعنف.

في نفس المسار، تتناسق أهمية الحوار وتنظم في مجال التربية والتعليم وفق مستويات فردية وجماعية، تؤثثها مقاربات تعليمية وبيداغوجية ومعرفية واجتماعية وسيكولوجية، في فضاءات وتنظيمات متنوعة بين مؤسسات رسمية (مدرسة؛ معهد؛ جامعة) وغير رسمية (أسرة؛ جماعة؛ أجهزة الإعلام؛ دور العبادة)، هي بمثابة مؤسسات اجتماعية تربوية، تكمن أهميتها فيما تقدمه من أساليب وطرائق تنمي ثقافة الحوار في الناشئة.

في الفضاء المدرسي، مثلا، صنف المغامسي¹¹⁸ فوائد الحوار في فوائد تتحقق بين من يدير الفعل التربوي والمستهدف منه كتنظيم العمل وتطبيق النظام، تبادل الخبرات والمعلومات وحل المشكلات وفوائد بين المعلم والمتعلم كتنمية العلاقات الاجتماعية وتنمية التفكير والمهارات والتعليم والتثقيف، والأمر ينطبق كذلك على الأسرة كأول محضن للتربية والتنشئة الاجتماعية.

إلا أننا سنتناول أهمية الحوار وفق مداخل ومقاربات، بغض النظر عن المؤسسة التربوية التي تصرفه، فتعليميا، الفرد لا ينتج المعرفة إلا باللقاء والتفاعل الاجتماعي الخلاق مع الآخر، إذ به تتولد الأفكار في ذهن المتكلم، وبه تنتضح المعاني وتغنى المفاهيم، ليصبح الحوار أحد وسائل نقل وتبادل المعرفة وأسلوب للتعليم والتعلم والتأثير في الآخرين، فهو ينمي القدرات العقلية واللغوية والإبداعية ويسهم في تنمية ملكات التعبير والتفكير والفهم والمساعدة على تشكيل أفكار جديدة وتصحيح المغلوطة أو المشوه منها،

¹¹⁸ - خالد بن محمد المغامسي، الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، 2004، ص

فوضع الطفل في مواقف حوارية يؤدي به إلى الارتقاء بمستويات تفكيره عبر أنشطة كلامية تولد الأفكار وتحفز التفكير الناقد وتعلم أساليب النقد والقدرة على إعادة صياغة أفكار الآخرين وخلق بيئة تعليمية ملائمة ومشجعة لممارسة تربوية ناجحة في اكتساب الكفايات والقدرات التواصلية داخل الفضاء التربوي.

أما بيداغوجيا، فأهمية الحوار تكمن أساسا في كونه أداة بيداغوجية ناجعة تؤثر تأثيرا إيجابيا في بناء المفاهيم وعلاج التعثرات، فالحوار يساعد الممارس البيداغوجي على تدريس التعلّيمات وفق سيرورة منهجية تنطلق من وضعية مشكلة، يجري حوار بشأنها ينقل الأطفال من حالة اللاتوازن والاستفزاز المعرفي إلى التوافق والاستيعاب، ومن ثم تجاوز الحوار في المسألة التعليمية إشكالات ونقائص البيداغوجيا التقليدية التي اعتمدت على التلقين والشحن.

معرفيا، تؤثر الحوارات المستخدمة سواء في المواقف التربوية أو التعليمية الصفية في تشكيل بنية معرفية (تذكر؛ فهم؛ تطبيق؛ استدلال؛ تحليل؛ تركيب؛ تقويم) مرصعة بخبرات ومهارات ومواقف ورؤى جديدة، تنمي العلاقة وتحقق الدافعية نحو التواصل اللغوي، الأمر الذي يرفع لا محالة من مؤشرات التحصيل المعرفي حول الآخر - في زمن العولمة- داخل المجتمع وخارجه.

اجتماعيا، الحوار وسيلة لإشباع الحاجات الاجتماعية من مشاركة واندماج، يتحقق معها بناء شخصية الطفل كفاعل اجتماعي يكتسب في الوضعيات والمواقف الخاصة بالعلاقات التربوية (طفل/مربي؛ متعلم؛ معلم؛...) مهارات الاتصال والإنصات وخلق التفاعل الدائم بينه وبين محيطه وتطوير القدرة على الاندماج وتبادل الرأي مع الآخرين وتقديرهم واحترامهم ومشاركتهم مشاعرهم وأحاسيسهم وعاداتهم وتقاليدهم، فإشاعة روح

الحوار والتشبع به عبر مشاتل التربية كأولوية إنسانية واجتماعية وحضارية تجفف مصادر العنف الاجتماعي وتحد من مسبباته وتحقق الغايات النبيلة للتربية.

سيكولوجيا، الحوار يدعم سيكولوجية الطفل عن طريق تنمية الاستعداد النفسي الايجابي لقبول أفكار الآخرين ومعتقداتهم والتعبير عن الذات وتقديرها وضبط الانفعالات والتخفيف من مشاعر العدوانية لدى الطفل والتعامل بدون خجل أو خوف، مع تطوير المشاعر الإيجابية من استقلالية وثقة بالنفس واعتزاز بمكتسباتها في مقابل تعديل السلوكات السلبية، وتكوين اتجاهات إيجابية نحو القضايا الإنسانية وتطوير روح الجماعة والتعاون والتضامن والتعايش والتسامح وإبعاد الطفل عن أيديولوجيا التعصب والعنف أو التطرف، لذلك يجب أن يزود بمعرفة عالمة ومهارات وقيم تكفل له ممارسة التسامح والإيمان بقيم الحوار.

إضافة لما سبق، تكمن أهمية الحوار في المجال التربوي والتعليمي، أيضا في تزويد الطفل بمهارات كلامية وفنون التواصل اللغوي وخبرات التفاوض والتناظر وجعل مؤسسات التربية فضاءات للإنصاف لا القمع والإقصاء.

ومن تم، يتوجب على المربين وصناع السياسة التعليمية، العمل معا على تعزيز استراتيجيات متقدمة لترسيخ دعائم الحوار في عالم يفيض بالتنوع والاختلاف والتركيز على بث قيم الحوار والتدريب على المهارات الضرورية لهذه الغاية، يبرز معها التربية والتعليم بمثابة السفينة الضامنة لحياة إنسانية تقوم على الأمن والسلام والقبول بالاختلاف والحقوق الإنسانية المشتركة. إن تصورنا لدواعي ومبررات وأهمية الحوار في المسيرة التربوية للبشرية، يجعلنا نتساءل عن أفق التربية على الحوار وامتداداتها، مقابل التعرف، من باب الفضول المعرفي، على الثمن الذي يكلفنا غياب التواصل والحوار. فماذا عن ذلك؟

ثالثاً: أفق التربية على الحوار ومخاطر اللا حوار على الأفراد والمجتمعات الإنسانية.

للتربية على الحوار، كفلسفة تربوية حقوقية عابرة للأديان والثقافات، أفق وامتدادات نحو التربية على السلام والتسامح والالتزام الجماعي بقيم المواطنة وقبول الاختلافات الثقافية وحل المشكلات ضمن منظور إنساني شامل، على أساس القبول والتعددية والاعتراف الضمني بمشروعية الاختلاف ونسبية الحقيقة وإمكانية التصويب أو المراجعة الفكرية. بالمقابل، يمكن فهم إيجابيات الحوار وامتداداته فهما عميقاً، عند مواجهة خطر اللا حوار. فماذا نعني بأفق التربية على الحوار وأي خطر يمكن أن يشكله غيابها؟

كل التوجهات الدينية والفلسفية والدولية تؤكد أن هناك حاجة إلى تثقيف وتعليم الأطفال قيمة السلم من أجل مقارعة ثقافة العنف، ومنح المجتمعات الإنسانية استقراراً اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، ولا يمكن أن نحقق السلم إلا بالاعتراف بوجود الآخر كخطوة أولى نحو عقد اجتماعي وثقافي وأخلاقي، لذلك فإن إعداد الأطفال للعيش في مجتمع يستطيعون فهمه وتطويره برؤى متشعبة بقيم الحوار يُعد من أكبر الواجبات الملقة على المربين والمدرسين، لأن ذلك من شأنه أن ينزع الميول العدوانية، ويرسخ القيم الموجهة نحو احترام الآخر والتسامح معه، وهي القيم نفسها التي من شأنها إرساء ثقافة السلام المرتكز على التعددية وحوار بين الثقافات. جاء في ديباجة ميثاق اليونسكو التأسيسي "إنه لما كانت الحروب تتولد في عقول البشر، ففي عقولهم يجب أن تُبنى حصون السلام"¹¹⁹ ولكي يقام سلام دائم يقبل به الجميع، تعلن الديباجة أن الدول الموقعة على الميثاق التأسيسي مطالبة بتأمين فرص التعليم تأميناً كاملاً، وضمان التبادل الحر للأفكار والمعارف.

تلتقي التربية على الحوار مع التربية من أجل السلام في ثلاثة محاور، المحور الأول معرفي تُقدم فيه للطفل حقائق ومفاهيم ومعلومات غرضها توسيع مداركه حول إيجابيات السلام وأخطار العنف وأشكاله ونتائجه السلبية على الفرد والمجتمع والعالم، أما

¹¹⁹ - <http://www.unesco.org/new/ar/unesco/about-us/who-we-are/history/constitution> (Accessed 24 /01/2020).

المحور الثاني فيركز على تنمية قدرات ومهارات الطفل على استخدام وتطبيق الاستراتيجيات والأساليب التي تساعد في حل الخلافات والمحور الثالث تجنب العنف، مع التأكيد أن تعزيز المحاور الثلاث في سلوك الأطفال يتطلب من المربين والمدرسين، على السواء، استثمار المثل الدينية والثقافية والإنسانية المؤيدة للسلام والنابهة للعنف في تشكيل شخصية تعيش بسلام حقيقي مع ذاتها ومجتمعها المحلي والعالمي، لكن بشرط التسامح، فلماذا؟

التسامح سؤال كوني ومطلب ثقافي تاريخي، شرط ضروري للسلام وإشاعة روح التضامن بين الشعوب، المقصود بقيمة التسامح "احترام وقبول وتثمين غنى الثقافات وتنوعها في عالمنا، وأنماط التبليغ وأساليب التعبير عن نوعية كينونتنا الإنسانية"¹²⁰، أما عن آلية تعزيز هذه القيمة فقد أشارت اليونسكو في تصريح المبادئ حول التسامح الصادر سنة 1995 - السنة الدولية من أجل التسامح- إلى أهمية المعرفة وتفتح العقل والنزوع إلى التواصل والاعتراف بالآخر.

يتيح التسامح تعلم العيش مع الجماعة ومع الآخرين المختلفين عنا، يمنح الآخر حق التعبير عن أفكار وقناعات قد تتناقض مع ما لدينا من آراء أو أفكار وقناعات قد تستند إلى قيم السلم والحرية ومبدأ المساواة والمشاركة والعدالة، هي بدورها متلازمات ضرورية للمواطنة. الحوار، سواء كان عملاً حركياً أو تفكيراً أو أداء لغوياً، أو مشاعر وانفعالات مرتبط بثقافة المواطنة من خلال التصريف الديمقراطي لكل أوجه الاختلاف، يعزز الاندماج الاجتماعي للطفل في المدرسة والمحيط الثقافي، ويخطط لاستراتيجيات ثقافية تساعد على الحوار مع الآخر وتخلق أجواء التواصل والتعايش، وترتبط بين التسامح وحقوق الإنسان والديمقراطية والسلم.

إن رهان العاملين في المجال التربوي والتعليمي بكل مكوناته هو توظيف أنساق معرفية وتربوية تعمل على بناء اتجاهات إيجابية لدى الأطفال نحو الآخر، وتشكيل ثقافة تعترف بأن نقيض فكرة ما هو فكرة أخرى من نفس العمق، وتخطيط أنشطة تعليمية تطبيقية تمكن الأطفال من الانخراط الفعلي في ثقافة السلام والحوار والتسامح وقبول

¹²⁰ - محمد القباج، التربية على المواطنة والحوار وقبول الآخر في التعليم الثانوي، مجلة علوم التربية، الرباط، العدد 32، 2006، ص 143.

التنوع الثقافي وتقبل النقد، والإقرار بحق الاختلاف من خلال تهيئة البيئة الملائمة لتأصيل ثقافة التسامح في الفضاء التربوي. ماذا عن مخاطر غياب أو تغييب الحوار؟

لا ريب في أن غياب الحوار يشكل خطراً يكمن في تكوين وإصدار أحكام مسبقة على الآخرين تشكل صور نمطية جامدة وراكدة تتم من خلال عملية التنميط تلك تصور الفرد للآخر بنوع من الإسقاط وبطريقة متشابهة، غير مبال بالفروق الفردية والخصوصيات الثقافية أو غيرها. غياب الحوار يؤسس للريبة المتبادلة والتوتر والقلق... فالذات التي لا ترى إلا نفسها وتلغى ماعداها هي المقدمة النظرية للسلوك العدواني تجاه الآخر المختلف معها، فهي لا ترى إلا أفكارها ومن تم تعمل على التخلص ممن يخالفها في الموقف أو الرأي، فتغيب المثاقفة لتثبت مقولة الصدام والصراع بين الثقافات، وتغيب قيم الحرية والتسامح والانفتاح والتواصل، رغم أن عملية التفاعل مع الآخر الحضاري "لا تعني الذوبان أو الانسلاخ من المدى الثقافي الأصيل، والانتقال أو القفز إلى المدى الثقافي المضاد، المهيمن، المسيطر، الغالب... وإنما التفاعل هو عبارة عن حركة داخلية تجري في عروق المجتمع وتمتلك الاستعداد النفسي الكافي لتكوين حالة تتأقّف أو تفاعل مع الجانب الحضاري الآخر"¹²¹.

وإجمالاً، إذا سلمنا أن مخاطر اللا حوار - أو غياب الحوار داخل المجتمعات أو في ما بينها- تتجلى في غياب الحرية والحق في التعبير عن الأفكار والآراء وسيادة السلطوية والحكم المطلق ونبذ الآخر وإقصائه كمستوى من مستويات الكراهية التي تزرع الاستقرار المجتمعي، فإن النتيجة حتما ستكون لصالح أفكار ونزعات التطرف والتعصب التي تؤدي إلى العنف والصدام بين الأفراد، من جهة وبين الثقافات من جهة أخرى. لكن ما التعصب وما أثره السلبي على العلاقات الإنسانية؟ وأي صدام يمكن أن ينتجه التعصب بسبب غياب الحوار؟

¹²¹ - مريم آيت أحمد وعلي، جدلية الحوار، قراءة في الخطاب الإسلامي المعاصر، مجلة علوم التربية، الرباط، 2011، ص 98.

التعصب اتجاه نفسي لدى الفرد يجعله يدرك فرداً معيناً أو جماعة أو موضوعاً إدراكاً إيجابياً أو سلبياً، دون أن يكون لذلك ما يبرره، "يكون مصحوباً بالحماس"¹²² لعقيدة أو رأي أو مشاعر زائدة نحو شيء ما، لا يدع مكاناً للحوار وقد يؤدي إلى العنف. اتجاهات الأطفال التعصبية تكون عادةً قريبة من اتجاهات المربين، الذين يعملون على تكوين صورة ذهنية سلبية لدى الأطفال عن بعض الأفراد أو المجتمعات، ممّا يجعلهم يعتقدون أنّهم أقلّ منزلة، ومن ثمّ يجنحون نحو عدم التعامل معهم أو الاحتكاك بهم، خاصةً في ظلّ انفتاح الفضاء وامتلاك الأطفال لوسائل التكنولوجيا الحديثة بشتى أنواعها. لقد "أوضحت بعض الدراسات أن التعصب العنصري لدى الأطفال لم يكن دالاً على خبراتهم مع موضوعات التعصب بقدر ما كان دالاً على ما يسود ثقافتهم من قيم معينة"¹²³.

التعصب أنواع عديدة، منها التعصب الفكري، الذي يتجلى في التفكير بطريقة ترتكز على إلغاء الرأي الآخر ورفض محاورته والتفكير بطريقة أحادية، والتعصب الاجتماعي الذي يجد في الطبقية التي تفرزها علاقات الإنتاج، مشتملاً لتفاعلات اجتماعية سلبية، إضافة إلى التعصب الديني والطائفي والعنصري والثقافي ويمكن الحديث حالياً بكل أسف عن التعصب الرياضي.

تنمو جذور التعصب في غياب أسلوب الحوار وفرص التواصل، داخل الأسرة والمدرسة والفضاء العام في أرضية الجهل والانغلاق، حيث تتأسس القنوات وتتخذ المواقف بناءً على تصورات خاطئة وتمثيلات منمطة ونظرات ناقصة في أجواء انفعالية، من خلال تحذيرات وإيماءات حول مواقف معينة أو جماعات أو اتجاهات أو قيم بعينها، إلى جانب تضخيم الأنا لدى الطفل منذ نعومة أظفاره، فجهل الطفل بالآخر وعدم التواصل معه يهيئ الفرصة لعدم فهم سلوك الآخر بصورة إيجابية وتكوين قناعات سلبية

¹²² - اندريه هابنيل وآخرون، 1995، سيكولوجية التعصب، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الساقى، الطبعة الأولى، لندن، ص 60.
¹²³ - معتز سيد عبد الله، الاتجاهات التعصبية، سلسلة علم المعرفة، العدد 137، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص 28.

نحوه، مما يجعل عملية تغيير الاتجاهات التعصبية في جزء منها مجرد "إعادة تنظيم لنسق القيم"¹²⁴ فقط وهو نسق القيم الكونية الإنسانية العابرة للأديان والثقافات.

إننا نعيش اليوم تحديات ورهانات على مستوى العقيدة والمعرفة والثقافة وأنماط الحياة، لا يمكن تدبيرها إلا إذا سادت أجواء ديمقراطية تسود فيها الحرية والحوار والمشاركة، يشكل فيها مدخل التربية على الحوار رهان يشمل كل معاني وأبعاد الحوار الديني والثقافي واللغوي في البرامج والمناهج التربوية ويعرف الناشئة بأهمية ثقافة الآخر والإسهامات الإبداعية لمختلف الشعوب والأمم، لذلك ينبغي إعطاء الأولوية لتعلم قيم التعايش من خلال معرفة أفضل بالآخر، توفرها المناهج التعليمية عبر مختلف المضامين المعرفية والحوامل والمعينات البيداغوجية، الورقية والرقمية، يقدمها ممارسون تربويون متشبعون بقيم وثقافة الحوار أيضا، ويكون التواصل الحضاري والتعرف على الثقافات الإنسانية - المحلية والإقليمية والعالمية - أحد دعائمها.

لحوصلة ما تقدم ذكره، السلام والتسامح أفق للحوار والعدوانية والتعصب والتطرف العنيف مخاطر اللا حوار وكلما عمقنا ثقافة وقيم الحوار في فضاءاتنا انتهينا إلى تكوين بنية فكرية وثقافية ممتدة في البنية الاجتماعية، ينتج عنها خصوصية متطابقة لمرجعيات متنوعة، أيا كانت طبيعتها وماهيتها، تجعل من العقد الاجتماعي في المجتمع الحديث امتدادا للعقد البيداغوجي في مؤسساتنا التربوية، في المقابل يجب تقدير مخاطر اللا حوار لأن "غياب الحوار يساهم بشكل كبير في تطوير صورة جاهزة عن الآخر وإرساء جو من الريبة المتبادلة والتوتر والقلق ... ويمكن لفشل الحوار داخل المجتمع الواحد بين الأفراد أو في ما بين المجتمعات أن يشكل أرضا خصبة لظهور التطرف"¹²⁵.

¹²⁴ - معتز سيد عبد الله، الاتجاهات التعصبية، مرجع سابق، ص 28.
¹²⁵ - مجلس أوروبا، الكتاب الأبيض حول حوار الثقافات، مرجع سابق، ص 19.

في حين، يمكن أن يشكل مجال العمل التربوي أحد جسور الحوار الثقافي في العالم ومدخل للتعاون والتخفيف من موجبات الصراع أو الصدام، فالمناهج المدرسية كمعينات بيداغوجية وحوامل لوظائف ثقافية واجتماعية يمكن أن تكون بمثابة بذور للتعرف والتفاهم والحوار بين الجماعات الإنسانية، من خلال التقديم الصحيح للحقائق والمعلومات ويمكن أن يؤسس لسوء التفاهم والكراهية والازدراء اتجاه أنماط من الثقافات.

ختاماً، بعد عرض مفصل لثلاثة مباحث، تهاهى الفصل الأول مع أول خطوات البحث العلمي وواجب الباحث في تحديد ما يتكلم في شأنه من مصطلحات ومفاهيم وطبيعة العلاقة التي تجمعها بموضوع البحث، ومدى إسهامها في فهم أفضل لإشكالية البحث وفرضياته، تغني المتلقي عن التأويل الخاطئ أو الوقوع في الالتباس.

استناداً إلى قراءتنا في دلالات وخلفيات وأهمية التواصل الحضاري وحوار الثقافات والحضارات وعلاقات التربية والتعليم والثقافة بالتواصل والحوار، استنتجنا:

■ تميز الثقافة بخصائص الاستمرارية والاكتساب والتركيب والتعدد والتطور والتنوع والاختلاف من مجتمع لآخر والانفتاح والانغلاق والانتقال بين الأفراد والأجيال والمجتمعات. تخضع الثقافة لتفاعل وتلاقح وتحولات مستمرة داخلية وخارجية ومتغيرة تحولت إلى سلعة تتوجه نحو الربح المادي، بل صناعة واسعة النطاق ووجه جديد لعولمة تجعلنا أكثر تشبهاً بالهوية.

■ الثقافة مفتاح لفهم وتحليل العلاقات الدولية وحلبة صراع، الذود فيها عن القيم الثقافية يأجج النزاعات وينشر التعصب ويفضي إلى صدامات وتطرف عنيف وأمسى للثقافات دور حاسم في تحقيق السلام والتعايش والتسامح بين الشعوب والأمم.

■ الحوار سلوك حضاري تاريخي راسخ في التراث الإنساني وضروري لكل ثقافة وبين الثقافات، للتخلي عن أي تصنيف نمطي للثقافات أو هيمنة ثقافة على أخرى، مارسه الأنبياء والفلاسفة والحكماء والمفكرون والمربون وقادة السياسة ونادت به نصوص دينية وفلسفية وفكرية.

■ حوار الثقافات كفكرة تبلورت في أروقة المؤسسات الدولية: منظمة الأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو تحديداً، هي إطار عمل لتبادل وجهات النظر بانفتاح واحترام وتفاهم وتسامح بين الأفراد والجماعات ذات الخلفيات الثقافية والدينية المختلفة، في رحلة للوعي بتاريخ الآخر ودينه وثقافته وفكره ولغته واكتشاف قيم العيش المشترك بين الثقافات والأديان.

■ تطور مفهوم حوار الثقافات وانفتح على مفاهيم جديدة من مثل «التقارب بين الثقافات» و«تعارف الحضارات» و«تحالف الحضارات» و«الحوار بين الثقافات والأديان» وارتبط بجملة اشكاليات تتعلق بالهوية الثقافية وتفاعل الثقافات والعولمة الثقافية وصراع الثقافات والهيمنة وتنميط الثقافات والتنوع الثقافي.

■ الحضارة حصيلة تفاعلات سياسية واجتماعية وعلمية وتكنولوجية واقتصادية وفنية وأدبية ودينية، قامت بمشاركة أجناس متعددة وتلاقحت مع حضارات متعاقبة أفرزت منجزات واكتشافات واختراعات - العلم والفن مكونان متميزان ومتكاملان فيها - وشكلت تاريخياً ذاكرة جماعية لمجتمعات ووعاء لثقافات متنوعة في فضاء متصل بجغرافيا وحدود ثقافية، لها مظهر لغوي ورؤية للإنسان والكون. لكل حضارة طابعها المميز ومن الصعب تصنيف الحضارات حسب عامل واحد وأبرز تصنيف حديث للحضارات يرجع لعالم السياسة الأمريكي صمويل هنتجتون.

■ حوار الحضارات بديل فكري لمقولة صدام الحضارات المثيرة للجدل، يروم تنظيم ممثلي الحضارات المختلفة لقاءات تعاون وتفاعل للإنصات وتبليغ الرسالة الحضارية للآخر، واكتشاف ما هو مشترك إنساني وما هو مختلف فيه. تتبنى الجمعية العامة للأمم المتحدة مفهوم حوار الحضارات منذ سنة 2001 وعقدت ندوات ومؤتمرات في إطار برنامج عالمي للحوار بين الحضارات. تتعدد الهيئات التي تهتم وتندرس هذا المفهوم ومضامينه، من هيئات عالمية وإقليمية ومنظمات غير حكومية: الأمم المتحدة ومجلس أوروبا واليونسكو والاييسيسكو والايكسو، مؤسسة أناليند لحوار الثقافات الأوروبية.

■ «تعارف الحضارات» ذو المرجعية الدينية و«مبادرة تحالف الحضارات» ذات الخلفية المؤسسية الدولية، مفهومان داعمان لمفهوم حوار الحضارات.

- يتم توظيف حوار الثقافات وحوار الحضارات بنفس المعنى وبشكل مترادف في خطاب الدراسات العلمية والتقارير والوثائق الدولية، الرسمية وغير الرسمية.
- لا حوار بين الثقافات بدون سلام بين ذوي الأديان ولا سلام بدون حوار. إنما الصراع في جوهره صراع بين معتقدات وقيم مختلفة. أهم عنصر في الثقافة وأهم سمة محددة للحضارات هو الدين، رغم حضوره المتفاوت بين حضارة وأخرى.
- نعيش حضارة إنسانية واحدة بثقافات متعددة ويكفيها أفرادا وجماعات التواصل اعتمادا على الآليات التقليدية والحديثة، المباشرة وغير المباشرة، التي ما فتئت تتطور يوما بعد يوم، لنخلص إلى حوار الثقافات كسبيل وجسر للتواصل الحضاري.
- التواصل الحضاري هو مد الجسور لتبادل الأفكار وتقوية الروابط وتقاسم الآراء والبحث المشترك عن الحلول وتخفيف التوتر بين الثقافات والشعوب، من خلال الاتصال المبدئي واللقاء والاحتكاك والتداول المفضي الى التبادل والتفاعل والتلاقح وصولا الى التحالف وتوجيه الفكر البشري نحو التعاون والتضامن والاستقرار الآمن.
- على مر العصور التاريخية التي خلت والتي نعيشها، التراكم المعرفي والعلمي والتكنولوجي والمنجزات الحضارية ما كانت لتتم بدون التواصل كتصور ومنهج وممارسة. التواصل الحضاري الذي يكتسي سمة الحتمية والضرورة، يمكن أن يتم عبر التعليم واللغات والرحلات والبعثات العلمية والترجمة والتبادل الثقافي.
- مع تعاظم مظاهر التنوع والتعدد في المعتقدات والأفكار والثقافات، ما زلنا بحاجة إلى تواصل إنساني كطريق وحيد لنعرف الآخر ونكتشفه أكثر ونواجه القلق الذي يطبع العلاقة معه والتي تأرجحت تاريخيا بين التكامل والتأثير والتأثر والصراع، كذلك الايمان بالحوار هو السبيل الوحيد للتعافى والتقارب والتعايش معه. لنخلص أن الحوار بين الثقافات والأديان والحضارات أرقى صيغ التواصل والحوار مع الآخر، أفرادا وجماعات.
- التواصل لا يعني الاتصال، الذي يمكن أن يتحقق دون أن يتحقق التواصل. هذا الأخير، فعل انساني يحمل الرغبة في التفاعل مع الآخر والمشاركة والتقاسم وتجاوز الأنا لاكتشاف الآخر، لا يتضمن فعل الاخبار ولا يهدف إلى الإجماع بل يبحث سبل التأثير وتبديد سوء الفهم.

■ رغم اكتساحها لحقلي الاتصال والثقافة وأضحت تشكل خطراً على التنوع الثقافي وتخلخل الأنظمة والقنوات التي تكون الشخصية الوطنية والهوية الثقافية، العولمة التي يسهلها التطور السريع لتكنولوجيات الإعلام والاتصال تهيئ الظروف الملائمة لإقامة تواصل وحوار مجددين فيما بين الثقافات والحضارات، فالعالم لا زال أفقا رحبا للتواصل والتبادل والتعارف واختلاط الأجناس، مفتوحا لمشروع التواصل الحضاري وحوار الثقافات كآلية للتعرف على مختلف الثقافات، بدونه قد تتحول الاختلافات الثقافية إلى منشأ للتعصب وبؤرة للتطرف العنيف.

■ الحاجة إلى نموذج بيداغوجي منفتح يُثمن الاختلاف بين الثقافات ويقبل بفكرة التنوع واحترامه، يستثمر الرصيد الثقافي الإنساني والقيم والمبادئ المشتركة بين الثقافات والحضارات، يعزز المشترك ويدبر المختلف فيه باحترام ويبني قدرات عقلية وقناعات شخصية تتطلع إلى الوعي بوحدة الجنس البشري واكتشاف الذات والآخر، وصولا لتنمية المبادلات بين الثقافات والتسامح والحوار والتعاون في جو من الثقة والتفاهم.

■ منظومة التربية والتعليم تتحمل مسؤولية تكوين الفرد وتأطير المجتمع لا يمكنها أن تبقى معزولة عن السياقات الثقافية المحلية والعالمية والانشغالات التواصلية للفرد والجماعة وتظل بمنأى عن تحولات العالم وتأثيرات العولمة والتدفق المعرفي والتطور المتسارع والمقلق لتكنولوجيات الإعلام والاتصال والذكاء الاصطناعي. من اللازم استبدال مهمة تكوين اليد العاملة للعصر الصناعي بمهمة مواكبة التحولات المذهلة والمتسارعة في القرن الحادي والعشرين والتي لم يعد في استطاعة الخيال أن يلاحقها.

■ انتقال تحديات التعليم في عالمنا المعاصر من هاجس تعميم التعليم إلى هاجس التمكين من مفاتيح المعرفة والابتكار والابداع والاكتشاف والتعلم مدى الحياة وتعلم العيش المشترك ورسم معالم مستقبل موسوم بالسلام والتسامح والفرص، من جهة والعنف والتطرف والتحول التكنولوجي والهجرة من جهة أخرى كأعظم التحديات بحلول 2050 حسب استشارة لليونسكو في إطار إعادة التفكير في دور التعليم ومستقبل التربية والتعليم بأبعادهما العالمية.

■ المدرسة بهذا الأفق جسر متين لنقل الرصيد الثقافي لأي مجتمع وبناء المشروع الثقافي المجتمعي وترسيخ الهوية الثقافية وحمايتها من أي تشويه أو استلاب وفضاء

لتعزيز التقارب الثقافي والانفتاح على ثقافات أخرى. إنها مدعوة، قبل غيرها من المؤسسات لأن تكون قاطرة لحوار يزواج بين التشبع بقيم التواصل والتعايش والتسامح والسلام والمساواة والعدالة والتمتع بالحقوق الثقافية والالتزام بالواجبات الأخلاقية اتجاه الآخر.

■ دعوة المنتدى العالمي للتربية سنة 2015 إلى رسم خارطة طريق في مجال التعليم، تيسر الحوار بين الثقافات وتشجع احترام التنوع الثقافي والديني واللغوي وتضمن اعتراف التعليم بالدور الهام للثقافة في تحقيق الاستدامة ومراجعة المناهج الدراسية وتشجيع التعليم بعدة لغات والتربية على المواطنة العالمية وتشجيع ثقافة السلام واللاعنف.

■ تكمن أهمية الحوار في المجال التربوي والتعليمي، بيداغوجيا، في كونه أداة بيداغوجية ناجعة لبناء المفاهيم وتربية الطفل على إدارة الاختلاف وتنمية العلاقة التربوية والدافعية نحو التعلم، إضافة إلى تزويد الطفل بمهارات وفنون التواصل اللغوي وخبرات التفاوض والتناظر. أما معرفيا، تؤثر حوارات المواقف التربوية أو التعليمية في التدريب على الاستدلال والتحليل والتركيب والتقويم وتأسيس الاتجاهات الإيجابية والقيم الإنسانية النبيلة.

■ سيكولوجيا، ينمي الحوار سيكولوجية الطفل من حيث الاستعداد النفسي وضبط الانفعالات والتعبير عن الذات والثقة بالنفس وتقديرها وقبول الآخر والتخفيف من مشاعر العدوانية اتجاهه والتعامل بدون خجل أو خوف أو تعصب، أما سوسيولوجيا، فالحوار وسيلة لإشباع الحاجات الاجتماعية من مشاركة وانتماء ومبادرة، يتحقق معها تدريب الطفل كفاعل اجتماعي يتميز بمهارات الاتصال والإنصات والقدرة على الاندماج والتفاعل مع محيطه.

■ للتربية على الحوار أفق وامتدادات تطل التربية على السلام والتسامح والالتزام الجماعي بقيم المواطنة العالمية وقبول الاختلافات الثقافية وحل المشكلات ضمن منظور إنساني شامل، يقوم على أساس الاعتراف الضمني بمشروعية الاختلاف ونسبية الحقيقة وإمكانية التصويب بالمقابل، تغيب الحوار مؤشر على غياب الحرية ووجود التوتر وإقصاء الآخر وسبب للكراهية وظهور التطرف الذي يؤدي إلى العنف والصدام بين الأفراد، من جهة وبين الثقافات من جهة أخرى.

بعد إضاءة مفاهيم البحث، ارتأينا الانطلاق في اتجاه ثلاثة مسارات متوازية، تتنوع بين طرح الاشكاليات المتفرعة عن قضية التواصل الحضاري وحوار الثقافات وسبر أبعادها وامتداداتها في إطار مضامين الفصل الثاني من هذا العمل.

الفصل الثاني

الحضارات والثقافات بين الحوار والصراع والتواصل:

اشكاليات وأبعاد

اكتسبت حالة العلاقة بين الحضارات - هل هي حوار أم صراع أم توازن مصالح؟- زخما كبيرا مع تصور صامويل هنتجتون لمستقبل العلاقات في القرن الحادي والعشرين، ثم بلغ ذروته مع أحداث 11 سبتمبر الشهيرة وما تلاها من تداعيات وصولا إلى أزمة الرسوم الكاريكاتورية الدانماركية وأحداث شارلي ابيدو ومجزرة مسجد نيوزيلاندا.

فكرة عالم السياسة الأمريكي التي أثارت جدلا واسعا على المستوى العالمي، تفيد أن صراع ما بعد «الحرب الباردة» ستكون الاختلافات الثقافية محركه الأساس والقوي وسنشهد صراعا حادا بين الحضارات وخصوصا بين الحضارة الغربية وحضارات أخرى قديمة على رأسها الحضارة الإسلامية. بالمقابل، برزت فكرة مضادة واكبت ظاهرة العولمة في تسعينات القرن الماضي، تدحض نظرية صدام الحضارات وتتحدث عن حوار الثقافات والحضارات على أساس البحث عن أرضية مشتركة للقاء والتفاهم والتعايش، الأطروحة التي لقيت تجاوبا عالميا وتأصيلا نظريا في الغرب كما في الشرق، ثم ظهر اتجاه آخر من داخل أروقة الأمم المتحدة - كثمرة وخلاصة لجهود الحوار - أطلق مبادرة تحالف الحضارات وفق إطار عمل لتعزيز ثقافة التواصل والحوار بين جميع الأمم والثقافات ونفي التمييز بين الثقافات ومواجهة الفهم الخاطئ والمواقف السلبية والصراع العنيف بين الحضارات. ومن ثم سنقارب في هذا الفصل سياق ومنشأ ومبررات أطروحتي الصدام والحوار بالموازاة مع عينة من قراءات نقدية لهما، في ظل هيمنة

غربية بادية للعيان تتغير شعاراتها بين الفينة والأخرى وعولمة رياحها عاتية تكسر زجاج نوافذ كل الثقافات الإنسانية. هنا نستحضر بتأثر بالغ قولة الماهتما غاندي: "إنني لا أريد أن ترتفع الجدران من كل جانب حول بيتي ولا أن يحكم لإغلاق نوافذي. إنني أريد أن تهب ثقافة كل أرض حول بيتي بأقصى قدر من الحري، ولكن أرفض أن تقتلني ربح أي منها من جذوري"¹²⁶.

ليتحقق حوار أو تحالف الحضارات وتكاملها بالخلفيات الثقافية والدينية المتباينة، يحتاج الشركاء المتحالفون للتواصل الفعال كمطلب حضاري يستدعيه بقوة مستقبل حضارات العالم، من جهة، كما تستدعيه أيضاً أهمية اكتشاف الثقافات الإنسانية المتنوعة والمختلفة والمصالح المشتركة بينها، من جهة أخرى. وعليه، نجزم بالقول: إن التواصل كضرورة حضارية لا بد أن يشمل الايمان بالتنوع والانفتاح على الآخر والتمكن من اللغات، بل والمعتقدات والديانات، التي تعد أحد مداخل الصراع.

من أجل رؤية واضحة للموضوع حصرنا أربع اشكاليات ذات العلاقة بمسألة التواصل الحضاري وحوار الثقافات تتمحور حول قضايا حضارية راهنة وتثير السجال واحتمالات تطوره. نجل هذه القضايا في الهوية والخصوصية الثقافية مقابل العولمة والمركزية الغربية، اللغات حيث الصلة بين اللغة والحضارة لا تتكرر، جدلية علاقة الاسلام والغرب بتداعياتها التاريخية وتضاريسها الصعبة وافرازاتها المفضية إلى التطرف والعنف.

دفعتنا هذه الاشكالات إلى التفكير في عرض أبعاد التواصل الحضاري وحوار الثقافات، لنحصرها في أربعة أبعاد: البعد الثقافي؛ البعد اللغوي؛ البعد الفكري؛ البعد الإنساني. أولها القبول بالتنوع الثقافي والافرار به في خلق التواصل والحوار بين الحضارات والثقافات وفي بلوغ تبادل الاحترام والتفاهم وثانيها التعدد اللغوي بمثابة مطلب حضاري للتواصل والحوار في عالم متعدد اللغات وثالثها الترجمة كضرورة تواصلية ونافذة على الثقافات والحضارات الإنسانية ورابعها المشترك الإنساني كقاعدة للانطلاق نحو التواصل والحوار.

¹²⁶ - خالد محمد عثمان، تفاعلنا الراشد مع الغرب حضاريا وتربويا، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2013، ص 13.

المبحث الأول: مستقبل العلاقة بين الحضارات والثقافات، حوار أم صدام أم

توازن.

عند النظر، عبر التاريخ، في تجارب ومخرجات الاحتكاك بين الحضارات وتفاعلها يتبين أنها جلبت تراكمات عظيمة للإنسان والإنسانية ونتوقف بإمعان أيضا أمام ما عرفته البشرية من صدمات وصراعات كبرى تؤكد حقيقة اختلاف الحضارات والثقافات.

في درس التاريخ، انتشار الإسلام وَضَعَ المسلمين بحضارتهم وثقافتهم ومكونها الرئيس الدين الإسلامي في لقاء واحتكاك مباشر وغير مباشر - وأحيانا عدااء - مع أجناس وشعوب وحضارات وثقافات من مختلف أصقاع الأرض، بينما يقوم النسيج الحضاري الغربي على التراث الاغريقي والروماني والدين المسيحي والفكر العقلاني والعلمانية والنزعة الفردية واللغات الأوروبية كمكونات ثقافية يمتاز بها الغرب ويتباهى بها كنموذج يجب أن يحتذى به ويعمم على باقي الحضارات الإنسانية، نموذج يسعى - في رؤيته للعالم - إلى إلغاء الآخر والهيمنة على العالم، مروجاً لمقولتي «نهاية التاريخ» و«صدام الحضارات».

لا نسعى في هذا المقام، إلى القيام بمسح شامل للأدبيات العالمية المرتبطة بحوار الحضارات أو صدامها كعمل يمكن أن يقوم به الباحثون في العلوم السياسية، سيما لارتباطه الوثيق بالعلاقات الدولية والتطورات التاريخية والسياسية العالمية وتشعب اشكالاته وتعدد النظر إليه. إنما نود مقارنة تساؤلات من قبيل: هل الحضارات والثقافات في وضع صدام أم حوار؟ هل الاختلافات في الدين والثقافة والحضارة هي عوامل ومبررات تقود بالضرورة للصراع والصدام؟ ما هي البؤر المولدة للصراع وأي امكانات للحوار؟ وأي دور للسياقات التاريخية في بلورة حوار الحضارات وصدامها؟ في سياق العولمة ونهاية عصر الاستقطاب، هل من قراءات نقدية لهذين المفهومين يمكن أن تشكل مشروعا حضاريا بديلا وكونيا؟

أولاً: أطروحة صدام الحضارات: المنشأ والمبررات.

في إطار قراءة تحليلية تستند إلى النموذج الحضاري للتنبؤ بما سيحدث في المستقبل، كان براديجم الدرس الحضاري نموذج ملهم لفهم أحداث تاريخية حدثت وستحدث في العالم. المفكر المغربي المهدي المنجرة من أوائل الأكاديميين الذين أبرزوا الدور المركزي للهوية الثقافية، في تحديد أشكال ومصادر الصراعات الدولية في القرن الحادي والعشرين وذلك أثناء مشاركته في إعداد تقرير روما عام 1979 تحت عنوان «من المهد إلى اللحد» دون أن يغيب عنا إسهامات المفكر الجزائري ابن نبي والمفكر المصري أنور عبد المالك حول جدلية الحضارات.

لكن الجدل أثير أو أريد له أن يثار بحدة، منذ نشر مقال «صدام بين الحضارات» في دورية Foreign Affairs صيف 1993 وتوسيع الفكرة في كتاب ترجم إلى 39 لغة، لصمويل هنتنغتون S.Huntington، أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية والذي نشر مقالة أخرى في العدد السنوي لمجلة النيوزويك في دجنبر 2001، بعد هجمات 11 شتبر 2001، بعنوان عصر حروب المسلمين مؤكدا رؤيته لمستقبل الحضارات التي سبق أن طرحها في كتابه، بما يفيد أن نظريته قد تحققت وأن حروب المسلمين ستشكل الملمح الرئيس للقرن الحادي والعشرين. وفق اعتقاد بأن صراع الحضارات لن يكون أيديولوجيا أو اقتصاديا بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، بل سيكون حضاريا، بنفس ثقافي وديني، وعلى وجه التحديد بين الحضارات الغربية والإسلامية والصينية. إنه التنبؤ الصريح لأطروحة صدام وصراع ستوجه مستقبل العلاقات الدولية، جوهره هو القول بأن صدامات المستقبل ستكون حضارية.

يعتبر هانتنغتون الحضارة¹²⁷ - المتغير الجديد - كيانا ثقافيا واسعا وأعلى تجمع ثقافي من البشر وأوسع مستوى من الهوية الثقافية. ومن تم فهو لا يميز ولا يفصل بين مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة ويستعملهما في كثير من الأحيان كمرادفين. قسم الحضارات الكبرى الحالية إلى ثماني حضارات، هي على التوالي: الحضارة الغربية والحضارة

¹²⁷ - صامويل انتجتون، صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، مرجع سابق، ص 71.

الصينية والحضارة اليابانية والحضارة الإسلامية والحضارة الهندية والحضارة الأرثوذكسية والحضارة الأمريكية اللاتينية والحضارة الإفريقية وحدد خصائص كل حضارة على حدى.

الصراع بين الحضارات عند هنتغتون هو محور السياسات العالمية وهو المتحكم في مجريات العلاقات الدولية في القرن الحادي والعشرين، حيث يطرح العامل الثقافي كمبدأ محرك للجيوستراتيجية العالمية وموازن القوى الجديدة. يتخذ هذا الصراع مستويين اثنين: المستوى الجزئي الإقليمي، فأكثر خطوط الصدع تكون بين الإسلام وجيرانه الأرثوذكس والهندوس والأفارقة والمسيحيين والغرب. والمستوى الكلي العام يكون بين الغرب والشرق أي بين الحضارات الغربية والحضارات غير الغربية، خاصة الإسلامية والصينية. الانقسام الحضاري يعتبره هنتغتون عاملا مهما في تحديد طبيعة النزاعات القادمة ويورد مجموعة من العوامل التي تبرر أسباب وبواعث هذا الصدام، من بينها:

■ الاختلافات الحقيقية بين الحضارات وهي أكثر حدة من الاختلافات الإيديولوجية والسياسية.

■ كثافة التفاعلات والاحتكاكات بين الحضارات التي أدت إلى تنامي الوعي الحضاري وإدراك الاختلافات العميقة والشعور بالانتماء الحضاري المشترك.

■ دعم الوعي الحضاري بصعود النزعة الإقليمية الاقتصادية، على شكل كتل اقتصادية جهوية (الاتحاد الأوروبي نموذجا) أكثر فعالية كلما كان هناك تقارب ثقافي أكبر، فالعلاقة تفاعلية بين الاندماج الاقتصادي والانسجام الثقافي.

■ عامل الدين "القوة الرئيسية التي تحرك وتعبئ الشعوب"¹²⁸ ودوره المؤثر في الصراع العالمي، لأن التأثير المتزايد للأديان العالمية سيكون لاعبا أساسيا في القرن الواحد والعشرين، حيث "الدين هو أهم عامل بين العوامل الموضوعية التي تعرف الحضارات... والحضارات الرئيسية في التاريخ الانساني كانت دائما متوحددة ومتطابقة مع ديانات العالم الكبرى وبدرجة كبيرة"¹²⁹.

¹²⁸ - صامويل انتجتون، صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، مرجع سابق، ص 144.

¹²⁹ - المرجع نفسه، ص 70.

اعتمد هنتغتون على البعد الثقافي لتحليل الدور الأساسي للثقافات والمعتقدات في فهم التحولات الجيوسياسية العالمية واعتبر الحضارة الغربية حضارة فريدة وليست كونية ولإدراك هذا الخلل يدعو إلى ضرورة تحقيق الانسجام بين مختلف الحضارات والعمل على نشر الثقافة الغربية، ما دامت المميزات والاختلافات الثقافية عند هنتغتون غير قابلة للتغيير والتحول وغير قابلة أيضا للتسويات على عكس الاختلافات السياسية والايديولوجية التي سبقت.

إجمالاً، يمكن تلخيص الانتقادات الموجهة لأطروحة هنتغتون في:

- غياب المنهجية العلمية في تصنيف الحضارات، فلم يلتزم هنتغتون في تصنيف الحضارات على معيار واحد فتارة نجده يقيم تصنيفه على أساس جغرافي - الحضارة الغربية- وتارة على أساس ديني- الحضارة الإسلامية- وتارة أخرى على أساس اسم البلد كالحضارة اليابانية.
- عدم الاهتمام الكافي بالعلاقة بين صدام الحضارات والعولمة، ومدى التأثير المتبادل بينهما خاصة أن العولمة وما نتج عنها من إظهار للهوية الثقافية للشعوب، تبدو وكأنها تشكل مع أطروحة صدام الحضارات وجهين لعملة واحدة.
- تجاهل وجود العالم العربي، فالحضارة الإسلامية، من منظوره، تتكون من حضارات تحتية، هي: الإيرانية والتركية والعربية والملاوية وتتأسى الاختلافات بين هذه المكونات ومضامين هذه الاختلافات.
- احتواء مفهوم الحضارة الغربية لنطاقات جغرافية واسعة في الشرق كأستراليا ونيوزلندا وأخرى كانت إلى عهد قريب خارجه (روسيا وأمريكا الجنوبية).
- ترشيح هانتجتون للحدود الإسلامية باعتبارها حدوداً دموية يتمحور حولها الصراع تجسيد للإسلام باعتباره عدو المستقبل بالنسبة للغرب. بمعنى أن هنتجتون يبشر "بحضارة غربية تقيم هويتها على أساس مواجهة خصم ديني (الإسلام) وهذا لا يكون إلا إذا كانت تلك الحضارة نفسها تقوم على أساس ديني أو هي شديدة الوعي والحساسية بدور الدين ووضعه كمقوم للحضارة والهوية والكيان"¹³⁰.

¹³⁰ - صراع الحضارات مرة أخرى، محمد يحيى، مجلة البيان، العدد 162، ص 96.

■ عدم الاكتراث لأثر حروب على العالمين العربي والإسلامي في العراق وأفغانستان و...، لا زالت وثيرتها تزيد ورقعتها الجغرافية تكبر. ويبقى النقد الأساسي الذي يمكن توجيهه لأطروحة هنتجتون هو استعمال الدين كمقياس للتمييز بين الحضارات فقط مع الدين الإسلامي، أما الحضارات الأخرى فهو ينسبها إلى مقاييس أخرى غير الدين، إلا أنه ليس العامل الوحيد الذي تتشكل منه الحضارات ولا هو بالعامل النهائي والمحدد لحدوث الصراعات.

عامة، التنظير الحضاري في النصف الثاني من القرن العشرين "تمحور بالأساس حول فكرة الصراع. فهو تنظير ألهم بتنظير الصراع الطبقي وأيضاً بالصراع الذي حدث في فترة الحرب الباردة"¹³¹، فالحضارة الغربية تميل إلى التعرف على ذاتها من خلال الصراع، فتاريخها هو دائماً تاريخ الصراع مع الآخر، تأكيداً لذلك حركة الاستعمار الأوروبي في النصف الأول من القرن العشرين وتبنت الحضارة الغربية الصراع، أيضاً، مع الكتلة الشرقية أو الحضارة الشرقية وتحقق لها الانتصار بانهيار الكتلة الشرقية وفي أواخر القرن العشرين اتجهت الحضارة الغربية الرأسمالية إلى تأسيس صراع جديد مع الحضارة الإسلامية والاستعداد لصراع الألفية الثالثة مع الحضارة الصينية.

ختاماً، نتساءل: هل تتحقق نبوءات صامويل هنتجتون؟ وإلى أي حد يمكن لمنظومة التعليم الاسهام في عدم تحقق هذه النبوءات والاشتغال على مكونات الصراع وإثارة التواصل الحضاري وممارسة دورها في التنوير والتقارب والحوار وتبديد سوء الفهم؟. أما فكراً، وفي نفس المقامات العلمية، أثارت أطروحة هنتجتون ردود فعل متباينة، كان أبرزها أطروحة مضادة موسومة بحوار الحضارات. ماذا عن هذه الأطروحة وإلى أي حد يمكنها مواجهة فكرة أو مقولة صدام الحضارات؟

¹³¹ - علي ليلة، تفاعل الحضارات بين امكانيات الالتقاء واحتمالات الصراع، دار شركة الحريري للطباعة، 2006، ص 84

ثانياً: أطروحة حوار الحضارات، السياق والمبادئ والتصورات.

شهدت البشرية على مدار التاريخ حروب وإبادات وتهجير وبالمقابل مبادرات سلام وتواصل وتلاحق لصياغة علاقة بين الشعوب والحضارات على أساس التعاون والحوار بدلاً من التناحر والصراع.

ونحن نسلم بالحوار ضرورة حتمية وواجب إنساني وشرط مؤكد للتعارف والعيش المشترك بين البشر، فإن الحوار بين الحضارات حاجة إنسانية تقتضيها القضايا الخلافية والتحديات المتسارعة التي يعرفها العالم وخيار استراتيجي تفرضه التحديات الكبرى التي تواجه المجتمع الدولي في عصرنا هذا وتؤدي إلى نشوب نزاعات وأزمات دولية وإقليمية. من الإسهامات الفكرية في هذا المبتغى، طرح المفكر الفرنسي روجيه جارودي في كتابه «في سبيل الحوار بين الحضارات» أواخر سبعينيات القرن العشرين دعوة للحوار بين الحضارة الغربية وبقية حضارات العالم للاستفادة من التنوع الحضاري الهائل، بدلاً من نزعة التعالي الحضاري التي تقوّت إمكانية التعلم من غنى ثقافات العالم.

في أوائل تسعينيات القرن العشرين وفي سياق تاريخي عالمي عرف نهاية الصراع الأيديولوجي بسقوط المعسكر الشرقي وانهيار الشيوعية، العدو المشترك للغرب والاسلام، بالموازاة مع صعود دور الأديان وثورة معلوماتية وتكنولوجية سريعة الخطى، أُعيد طرح الدعوة للحوار بين الحضارات كرد فعل على أطروحة صمويل هنتجتون حول صراع الحضارات وتبلورت الدعوة إلى الحوار بين الحضارات في الفكر المؤسسي الدولي وتطورت حتى أصبحت مسألة دولية وموضوعاً "في جدول أعمال الكثير من الملتقيات والمؤتمرات والندوات الدولية والإقليمية، لاسيما بعدما اعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الثالثة والخمسين قراراً رقم 22/53 بتاريخ 16 نونبر 1998 يقضي باعتماد سنة 2001 سنة للحوار بين الحضارات¹³² وهي دعوة للمجتمع الدولي لنشر ثقافة السلام والحوار بين الحضارات واحترام الإنسان على اختلاف المعتقدات والثقافات واللغات والإقرار بغنى جميع الحضارات واحترامها وتحفيز البحث عن القواسم المشتركة بينها

¹³² - <https://www.un.org/arabic/documents/GARes/53/index.html> (Accessed 29/08/2019)

لمواجهة التهديدات التي يتعرض لها السلام العالمي والتحديات المشتركة للقيم والمنجزات البشرية.

تعزيزاً لهذا القرار الدولي، بعد ثلاثة عشر يوماً من أحداث 11 سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية، صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها السادسة والخمسين، قراراً بتاريخ 24 سبتمبر 2001، في شأن برنامج عالمي للحوار بين الحضارات، على أساس أن تقوم الدول الأعضاء والمنظمات الدولية والإقليمية ومنظمات المجتمع المدني بإبلاغ الأمين العام بما تضطلع به من أنشطة لتطوير الوسائل الملائمة لمواصلة تشجيع الحوار والتفاهم بين الحضارات عبر تنظيم أنشطة من قبيل الرحلات الدراسية والمهرجانات الثقافية وبرامج التبادل التعليمي والبحوث والمشاريع والمؤتمرات العلمية المشتركة¹³³.

للقيام بأنشطة ملموسة تتصل بالحوار بين الحضارات، على أعلى المستويات السياسية والثقافية والفكرية، عقدت ندوات ومؤتمرات إقليمية ودولية وصيغت مبادرة جديدة مشتركة بين منظمات متعددة بعنوان تعزيز الحوار فيما بين الثقافات والحضارات من خلال العمل الملموس والمستمر بين اليونسكو والمنظمة الإسلامية للتربية والعلم والثقافة والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة للجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والمركز الدانمركي للثقافة والتنمية، كوبنهاغن ومؤسسة أناليند لمنطقة أوروبا والبحر الأبيض المتوسط من أجل الحوار بين الثقافات.

توجت المشاركة المغربية بعقد مؤتمر دولي بالعاصمة الرباط في الفترة الممتدة من 14 إلى 16 يونيو 2005 حضره مربون وصحفيون وفنانون وكتاب ومنظمات غير حكومية وزعماء دينيون وعلماء ومهندسون وخبراء فنيون من مختلف التخصصات ووضع المؤتمر "خطة عمل لتنفيذ عملية الحوار من خلال التربية والثقافة والعلوم والاتصال والإعلام ضمن إطار خطط العمل العادية للمنظمات المعنية"¹³⁴.

¹³³ - <https://www.un.org/ar/ga/60/list60-3.htm> (Accessed 29/08/2019)

¹³⁴ - ibid.

مع التداول الواسع لمفهوم حوار الحضارات بدأ النقد يتجه لهذا المفهوم، ويتعدد في جهات مختلفة، منها ما يتصل بالدلالة التركيبية للمفهوم وصياغته ومنها ما يتصل بإمكانية تطبيقه والالتزام به فعلياً، ومنها ما يتصل بطبيعة الأرضيات والسياقات الموضوعية المرتبطة به. ليبقى المفهوم والتساؤلات والاشكاليات المرتبطة به رهائن ندوات ومناظرات أكاديمية تظهر تنوع الثقافات وغنى الحضارات ومؤتمرات حوار الأديان يقصدها رجال الدين لإظهار حجم التسامح في الأديان أو المشترك الديني بين الأديان، في غياب استراتيجية طويلة المدى محددة المعالم تتسم بالاستمرارية والتواصل وقياس الأثر، تحدد قضايا الحوار التي تتبع من الدوافع الانسانية والمعتقدات الراسخة في عقولنا وتلبي حاجات مستقبل الإنسانية جمعاء، تنطلق من الوعي بالذات والآخر.

إن الحديث عن الحضارات بصيغة الجمع هو نفي للحضارة النموذج أو المثال الذي يجب أن يحتذى، فالدراسات والأبحاث التاريخية والأنثروبولوجية التي بحثت مقارنة الحضارات ومختلف أشكال وصور العلاقات بين الحضارات، لم تستعمل مصطلح أو تسمية حوار الحضارات، بل استعملت تسميات أخرى، كتعاون الثقافات عند شتراوس وتفاعل الحضارات عند قسطنطين زريق وتعارف الحضارات عند زكي الميلاد وتحالف الحضارات، المبادرة الاسبانية - التركية والتواصل الحضاري، إلى غير ذلك من التسميات، الأمر الذي يدعو إلى مساعلة رصينة لمشروع حوار الحضارات.

وما دامت النزاعات والأزمات لا زالت تتفاقم وتتصاعد معها لغة القوة العسكرية وأعمال العنف في مناطق عديدة من العالم وسيادة مفهوم الدولة وليس مفهوم الحضارة، حيث العلاقات الدولية هي علاقات بين دول وليست بين حضارات، يجوز لنا إذن، الحديث عن أثر ونتائج الملتقيات الدولية لحوار الحضارات والتساؤل بقوة عن مصداقية الحديث عن حوار حضاري أو حوار بين الحضارات أو الثقافات أو الأديان - حسب ما أسلفنا الحديث عنه في الفصل الأول - ومن يحاور من؟ وما هي القضايا والإشكالات الرئيسية التي يجب أن يركز عليها الحوار؟ وهل أصبحت الرؤية واضحة لماهية الحوار ومضمونه الحقيقي، هل هو حوار حضارات أم حوار ثقافات أم حوار أديان أم بالأحرى

تواصل حضاري؟ وكيف نحقق حوار الحضارات تربويا وتعليميا ونعمق البحث العلمي في الثقافات الإنسانية؟

المفكر المغربي طه عبد الرحمن اعتبر مفهوم حوار الحضارات غير ذي موضوع لأن الحوار لا يمكن أن يكون بين جانبيين أحدهما حضارة غربية قائمة بفعل عمراني وآخر تاريخي مشهود والثاني حضارات غائبة وأصبحت من الماضي، واقترح استبدال حوار الحضارات بحوار الحضارة الغربية مع الثقافات الأخرى، باعتبارها ذاكرة، وتساءل "كيف يمكن أن يحصل الحوار في عالم تسود فيه حضارة واحدة أو قل حضارة فردية؟"¹³⁵ واقتنع أن "لا حوار مع التفرد الحضاري لأن التفرد نفي للآخر ونفي الغير نهاية للحوار"¹³⁶، من جانب آخر، يحق التساؤل: "هل يسمح الغرب لنفسه بأن يدخل في حوار مع حضارات لا يجد فيها التكافؤ معه، وهو المحكوم بعقلية التوازنات المادية! وهل الحضارات الأخرى كالحضارة الإسلامية ... وحضارات العالم الثالث أخذت توازنها في البناء الحضاري واستعادت مقوماتها وقدراتها بما يؤهلها إلى حوار مع الحضارات الكبرى والمتقدمة في العالم بصورة متكافئة؟"¹³⁷.

يبقى موضوع حوار الحضارات ليس رفاهية تنظيرية فكرية بل موضوع على قدر من الأهمية، ويبدو أنه مشروع سياسي بنفس ثقافي وبأبعاد تستدعي الدين والخصوصية الثقافية بالدرجة الأولى، من أجل حوار بين أولئك الذين يرون في التنوع خطرا يتهددهم وأولئك الذين يرون فيه سبيلا للارتقاء، بين الحضارة الغربية التي تعتبر نفسها المركز وباقي الحضارات محيط وهامش. فكرة حوار الحضارات مشروع لهدم الجدار العازل بين الحضارات والذي يولد التعصب والصدام المفضي إلى العنف أحيانا.

¹³⁵ - طح عبد الرحمن، الحوار أفقا للفكر، مرجع سابق، ص 182.

¹³⁶ - المرجع نفسه، ص 183.

¹³⁷ - زكي الميلاد، المسألة الحضارية كيف نبني مستقبلنا في عالم متغير؟، مرجع سابق، ص 69.

ثالثاً: قراءات نقدية للأطروحتين: الحضارات في صدام أم حوار أم توازن

وتواصل؟

يعد الاهتمام بدراسة المفاهيم وتقعيدها ضروريا سواء من الناحية الإبستيمية أو من الناحية الديداكتيكية/التربوية خاصة إذا تعلق الأمر بمفاهيم أعطيت لهما دلالات وتعريف مختلفة وأحيانا متضاربة، تبعا للمرجعية والخلفية المعرفية أو المدرسة الفكرية التي توظفها في تحليلها وأبحاثها العلمية.

فيما يخص موضوع بحثنا، تنوعت الأطروحات التنظيرية حول الحضارة الإنسانية، بصيغ المفرد والجمع، وتعددت التصورات بين حوار الحضارات وتعارفها وتحالفها وصدامها وصراعها ونهاية التاريخ والنظام العالمي الجديد، كل اتجاه يحاول البرهنة على صحة ووجاهة أطروحته بأدلة وأمثلة تتأرجح ما بين الموضوعية والإيديولوجية، بينما لم تنشأ الحضارات معزولة عن بعضها البعض، بل كانت هنالك تفاعلات وتبادلات ثقافية ودينية وسياسية. أفضت إلى حقيقة مفادها أن كل حضارة هي متوالية تاريخية من التأثير والتأثر بمكونات الحضارات الأخرى حسب الظروف التاريخية العالمية والموقع الجغرافي لكل حضارة والرصيد العام للبشرية.

أخذ هنتجتون للعامل الحضاري محركا للصدام يعتبر تغييرا جوهريا في المنطلقات النظرية وترشيحه للحدود الإسلامية باعتبارها حدودا دموية وتجسيد الإسلام باعتباره عدو المستقبل بالنسبة للغرب، رؤية تفسيرية ينبغي مساءلة مبرراتها والتساؤل عما له الحق في بلورة القيم الحضارية والكونية؟ الشرق أم الغرب؟ الشمال أم الجنوب؟ أم هما معا؟ هل العلاقة بين الحضارات ترسمها الحضارة الأقوى؟ هل الصراع أبدي وحتمي بين الشرق والغرب وبين الحضارات؟ هل توجد امكانية لتفادي ذلك وبلورة قيم كونية مقبولة من قبل جميع بناء الحضارات؟ ما القراءات الأخرى التي ترنو في فلك الأطروحتين الشهيرتين؟

ارتأينا تقديم قراءتين نقدتين لأطروحتي حوار الحضارات وصادماها، انطلاقاً من مواقع أو فضاءات فكرية عالمية ومختلفة، مغربية وعربية وإسلامية وغربية، يمثلها المفكرين والأكاديميين المهدي المنجرة وروجيه غارودي.

بداية، يمكن الحديث عن فكرة حوار الحضارات في النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين، حينما تبنى هذه الدعوة المفكر الفرنسي روجيه غارودي، المنفتح على الثقافات والحضارات غير الأوروبية، وتحمس لها في كتابه من أجل حوار بين الحضارات، الصادر سنة 1977، الكتاب الذي يمكن وصفه بمثابة مرافعة مُحكَّمة في الدفاع عن قضية حوار الحضارات وبخطاب موثق بالشهادات والوقائع والحقائق والصور الفعلية التي تجسد حوار الحضارات وتستعيز عن هيمنة الغرب الثقافية المفروضة خلال أربعة قرون من الاستعمار بتجربة سمفونية هي تجربة الثقافة العالمية الشاملة. أشار غارودي في مدخل كتابه أن الهدف من حوار الحضارات هو أن يخترع الجميع مستقبل الجميع.

هذه الدعوة في أطروحة غارودي، جسدت شخصية غارودي الفكرية في انتقالاته وعבורه بين الأيديولوجيات - كان غارودي مفكراً في الحزب الشيوعي الفرنسي - والأديان، بحثاً عن الحوار بين الماركسية والمسيحية ثم بين الغرب والإسلام، الدعوة التي ظهرت واضحة ومتجلية في مؤلفين أصدرهما روجيه غارودي سنة 1981 هما: «وعود الإسلام»¹³⁸ و«الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة العالم والفكر»¹³⁹.

اكتشف غارودي بفكره النقدي وانفتاحه على الثقافات غير الأوروبية وجود أزمة حضارية عميقة في الغرب والحضارة الغربية لا سبيل لتجاوز هذه الأزمة وتداركها في نظره إلا بالانفتاح على الحضارات الأخرى غير الأوروبية والتحاور معها والتعلم منها، لاكتشاف ما يسميه بالفرص المفقودة والأبعاد الإنسانية والأخلاقية المطلوبة، التي نمت في الحضارات والثقافات غير الأوروبية.

¹³⁸ - روجيه غارودي، وعود الإسلام، ترجمة ذوقان قرقوط، دار الرقي، بيروت، الطبعة الثانية، 1985.
¹³⁹ - روجيه غارودي، الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة العالم والفكر، ترجمة ذوقان قرقوط، دار دمشق، دمشق، الطبعة الأولى، 1995.

حسب غارودي، الأزمة التي يعيشها الغرب في الربع الأخير من القرن العشرين إنما ترجع في جذورها إلى عصر النهضة، الذي ولدت معه الرأسمالية والاستعمار معاً، وما صاحبه من تنكّر وهدم لجميع الثقافات غير الأوروبية ويعتقد أن الحضارة الغربية مؤهلة للانتحار. اتبعت في نموها وتقدمها من القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن العشرين، طريقة أوصلتها إلى أزمة داخلية عميقة حددها في ثلاثة أبعاد رئيسية هي: ترجيح جوانب الفعل والعمل والعقل ومعيّار الكم، يصبح معها الإنسان مجرد آلة تنتج وتستهلك ويفقد جوهره المعنوي والأخلاقي وقدرة السيطرة على الوسائل .

وعلى ضوء هذا التحليل لأزمة الثقافة والحضارة الغربية، بلور غارودي نظريته لحوار الحضارات وتشكلت على أساس المرتكزات التالية:

- الاهتمام بالحضارات اللاغربية في مجال البحث العلمي إسوة بأهمية الثقافة الغربية.
- الاشتغال على مبحث الجمال، لمنزلته التي تعادل أهمية تعليم العلوم والتقنيات.
- جعل الاهتمام بالمستقبل، يعادل في أهميته من حيث التفكير والغايات والأهداف أهمية التاريخ وعلم التاريخ.

خاطب غارودي الغرب بصورة أساسية بقوله أن "حوار الحضارات أصبح ضرورة عاجلة لا سبيل لردها، إنه قضية بقاء، لقد بلغنا حد الخطر، بل لعلنا تجاوزناه، إن مهمتنا بعد الفرص التاريخية الضائعة، وضياح أبعاد الرجل الغربي، هي استئناف حوار حضارات الشرق والغرب، من أجل وضع حد لحوار الذات الغربي الانتحاري.. إدراك هذا النقص، وإدراك ما ندين به للثقافات والحضارات غير الغربية، هو اليوم على ما نظن السبيل الوحيد الذي بقي مفتوحاً أمامنا خارج مآزق الموت"¹⁴⁰.

إلى يومنا هذا، لم تتبلور نظرية أكثر دعوة للانفتاح والتواصل الفكري والمعرفي مع الثقافات والحضارات الأخرى غير الأوروبية في مستوى نظرية غارودي وتجربته

¹⁴⁰ - روجيه غارودي، حوار الحضارات، مرجع سابق، ص 23.

الفكرية التي مر بها من المسيحية إلى الماركسية، ومن ثم إلى الإسلام. أراد من الغرب مراجعة ذاته وتراثه وتاريخه، ليغير من نظرتة إلى العالم.

لكن هذه الدعوة بقيت مجرد تنظير لم تلج فضاءات المؤسسات الدولية ذات الصلة بحوار الحضارات أو المنابر الفكرية والأكاديمية للتداول، رغم محاولته لإنشاء معهد دولي لحوار الحضارات سنة 1976 وإحياء مشروع قرطبة كمركز إشعاعي حضاري جديد في الغرب، ربما بسبب النقد الذي وجهه غارودي للغرب وأراد منه مراجعة ذاته وتراثه وتاريخه وأن يغير من نظرتة إلى العالم، ويدخل في مصالحة مع الحضارات غير الغربية والاستفادة والتعلم منها واكتشاف مستقبله المشترك مع بقية العالم، ليس مستقبلة الذي لا يرى فيه إلا ذاته، إلا أن هذه الأفكار بقيت مجرد طموحات توالى بعدها القراءات النقدية لأطروحة الصدام.

يقول هنتنغتون في الفصل العاشر من مؤلفه المثير للجدل: "وصف المفكر المغربي البارز مهدي المنجرة حرب الخليج بينما كانت دائرة بأنها أول حرب حضارات، والحقيقة أنها كانت الثانية، الأولى كانت الحرب السوفييتية الأفغانية في 1979-1989"¹⁴¹، بمعنى أن مهدي المنجرة كان سابقا في توظيف مفهوم صدام الحضارات تحت مسمى الحرب الحضارية في مؤلفه الموسوم بالحرب الحضارية الأولى، سنة 1991 واعتبر "أكبر عرقلة سياسية حقيقية بين الشمال والجنوب هي الحضارة وهي بالخصوص الاتصال الحضاري"¹⁴² وهدف الحرب الحضارية الأولى - حرب الخليج - من منظوره هو تحطيم ذاكرة حضارية، حصيلة 2000 سنة منذ عصر الكتابة والحضارة السومرية وكل الحضارات السابقة والمقصود هو "أن الهيمنة الغربية في الميدان الحضاري هي تحطيم هذه الذاكرة العالمية الحقيقية"¹⁴³.

كلا المشروعين يستند على إشكالية انتقال منطلقات الصراعات من نطاق المصالح المادية والسياسية والاقتصادية إلى نطاق آخر يتمثل في المصالح الحضارية الكبرى، بينما يختلف مشروع هنتنغتون الذي يركز على التناقض الثقافي أو الحضاري بين الغرب

¹⁴¹ - صامويل أنتجتون، صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، مرجع سابق، ص 399.

¹⁴² - المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى، مرجع سابق، ص 54.

¹⁴³ - المرجع نفسه، ص 53.

والعالم الاسلامي ويجعل الحضارة الغربية بدياناتها المسيحية واليهودية في حالة حرب مع الحضارة الاسلامية والحضارة الصينية الكونفوشستية، عن مشروع المنجرة ذو الطابع الوقائي، غاياته خلق حالة من السلام العالمي وتفادي الصراعات بين الشعوب والدول ونشر قيم السلام والأمن والعدالة الإنسانية وضمان استمرارها في كافة المجتمعات، يدعو إلى خلق حوار حضاري بين الشمال والجنوب، الحوار الذي يتطلب تحسين التواصل ولاسيما التواصل الثقافي، مادام المصدر الرئيسي للنزاع في العالم الجديد لن يكون اقتصاديا أو إيديولوجيا بل ثقافيا بالأساس.

يتساءل المنجرة: مم يتخوف الغرب؟ ويجب أنه "يتخوف أولا من من الديموغرافية لأن الغرب الذي يمثل اليوم 20% من سكان العالم يحتكر حوالي 80% من المنافع المادية للكرة الأرضية... والسبب الثاني لمصدر الخوف يرتبط بالمستوى الثقافي والحضاري... وبخاصة الدول ذات الحضارة غير اليهودية والمسيحية"¹⁴⁴.

توصل المنجرة عند تحليله علاقة الغرب بالحضارات والثقافات الأخرى بأن الغرب غير مستعد للتعايش مع حضارات أو ثقافات غير الثقافة الغربية ويسعى إلى السيطرة والهيمنة وحماية مصالحه، ولو بالحروب كحروب الخليج وذهب المنجرة إلى أن "العالم اليوم يعيش حرب قيم ومن يستطيع أن يفرض قيمه يكن الأقوى حضاريا"¹⁴⁵ وينفي أن يكون الصراع بين القيم هو حرب بين الديانات لكنه يعتبر القيم أساس الثقافة، حيث "لا توجد ثقافة بدون منظومة القيم"¹⁴⁶ كما لا يعتقد بوجود "ثقافة كونية منسجمة، لأنها ستكون نهاية الثقافة ونهاية الكون. ما هو أكثر كونية فيما يخص الثقافة، هو التنوع واولا التنوع داخل نفس الثقافة"¹⁴⁷ ويرى أن "مستقبل الإنسانية سيكون رهينا بالثمن المخصص للحياة البشرية بدون تمييز والاحترام المتبادل للقيم"¹⁴⁸. إنه نمط تفكير يقوم على القيم التي تعد من أهم عناصر التعلم والتربية بمناهجها المواكبة للتحويلات التي تفرضها الديموغرافيا، من أجل بناء الانسان "في أراض تعبر حدودها التيارات الثقافية

¹⁴⁴ - المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى، مرجع سابق، ص 68.

¹⁴⁵ - المهدي المنجرة، عولمة العولمة، من أجل التنوع الحضاري، منشورات الزمن، الطبعة الثانية، 2011، ص 68.

¹⁴⁶ - المهدي المنجرة، قيمة القيم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2007، ص 173.

¹⁴⁷ - المرجع نفسه، ص 171.

¹⁴⁸ - المرجع نفسه، ص 15.

والحضارية ... تتطلب من التعلم نمطا لا يعنى بالحفاظ على القيم بقدر ما يعنى بابتداعها وابتكارها. ولا يجوز أن يكون في البحث عن قيم عالمية مشتركة أساسية، إهدار لما في الثقافات من تنوع وحيوية وخصائص ذاتية، تتعلق بنظمها القيمية"¹⁴⁹. تصور يعتبر "كل تعلم وسائله هي اللغة والأدوات والقيم والعلاقات الإنسانية والتصورات"¹⁵⁰ وليس خلق حالة من الذعر والتوتر في الحضارات غير الغربية وتخويف الشعوب من الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص بزعم نهاية التاريخ وسيادة الديمقراطية الغربية بنموذجها الثقافي¹⁵¹ والنظام الليبرالي بمثابة الأفق الأعلى للتاريخ الإنساني بعد سقوط الانظمة الفاشية والنازية والشيوعية.

إذا سلمنا باختلاف الأفراد والجماعات والأمم وتنوع الرؤى والتصورات والمفاهيم وصناعة الجميع لمستقبل الجميع في عالم آمن، لا مناص من التواصل الحضاري والاهتداء إلى حوار يقود إلى التحالف حول مشترك إنساني عام، إسهاما في إعادة بناء وترميم ما دمرته الحروب والصراعات وتحقيق التوازن المفقود في الماضي والحاضر.

ولا يمكن، كذلك، أن نتطلع إلى حوار يتضمن معاني التعدد والاعتراف بالآخر والتواصل خارج نطاق القيم الإنسانية الخالصة والانفتاح على الآخر بدون تمييز عرقي أو ديني أو مذهبي ولا حوار في ظل تسلط أو قهر يمارسه المحاور على الآخر ولا حوار يمكن أن ينشأ بين طرفين اثنين، سواء كانا ثقافتان أو حضارتان أو دولتان أو كيانان ما لم يكن بينهما أساس مشترك أو هدف مشترك أو مصلحة مشتركة أو غياب التكافؤ بين أطراف الحوار.

تظل الأنبياء تتواتر بلا انقطاع عن مؤتمرات وندوات ولقاءات ومناظرات، على المستوى الوطني والإقليمي والعالمي، وعلى الأصعدة الرسمية وغير الرسمية، على نحو يثير التساؤل عن مدى وجود استراتيجية كبرى لتعظيم نتائج هذه الملتقيات؟ أم أن هذه الملتقيات أضحت غاية في حد ذاتها؟ ومجرد استجابة غير منظمة، لحملة العدوان

¹⁴⁹ - المرجع نفسه، ص 37 .

¹⁵⁰ - المرجع نفسه، ص 39.

¹⁵¹ - فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ ودراسات أخرى، ترجمة: يوسف جهمني طه، دار الحضارة الجديدة، بيروت 1993، ص 13.

المتصاعدة ضد العرب والمسلمين والمرجعية الإسلامية من ناحية، ولحالات العنف التي تهدم أمن العالم من ناحية أخرى؟

في سياق إقليمي وعالمي متدهور، تكثر التساؤلات حول مدى وجود استراتيجية كبرى لتعظيم نتائج المؤتمرات والندوات والمناظرات، أم أنها أضحت غاية في حد ذاتها ومجرد استجابة لحملة العدوان المتصاعدة ضد العرب والمسلمين والمرجعية الإسلامية من ناحية، ولحالات العنف التي تهدم أمن العالم من ناحية أخرى، كما تثار مصداقية الحديث عن تواصل حضاري أو حوار بين الحضارات أو الثقافات أو الأديان، في زمن تتصاعد فيه لغة القوة العسكرية وينحصر الحوار في مناظرات أكاديمية تظهر إيجابيات الثقافات ومؤتمرات يؤمها رجال الدين لإظهار حجم التسامح في الأديان، لا بد من وجود استراتيجية طويلة المدى محددة المعالم تتسم بالجدية والتواصل، وتحدد قضايا الحوار التي تتبع من دوافعنا وتلبي حاجات العيش المشترك وتتطلق من الوعي الذي يتشكل في بدايات حياتنا بالتربية والتعليم ويجب عن سؤال: كيف يصبح التواصل الحضاري وحوار الثقافات ممكناً؟ مادامت "حضارة المستقبل تعتمد بشكل أساسي على الإنسان وليس على المزرعة ولا على المصنع، إنها حضارة المعرفة والبحث والمعلومات والتقنيات"¹⁵². الحديث عن طبيعة علاقة الحضارات ببعضها البعض والايان بأهمية التواصل الحضاري وحوار الثقافات، يحيلنا على اشكالات وأبعاد وامتدادات الموضوع. كيف ذلك؟

المبحث الثاني: اشكاليات التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

في عصر حققت فيه الإنسانية ثورة معرفية ووسائل الاتصال والتواصل وآليات وفضاءات التعارف والتقارب، ما لم يسبق له نظير في التاريخ وتوالت ملتقيات وندوات ومؤتمرات التواصل الحضاري وحوار الثقافات، يحق لنا أن نتساءل عن المعوقات التي حالت أو تحول دون ترجمة مبادرات الحوار إلى ثقافة يومية وسلوك عام يمارسه الأفراد والجماعات على حد سواء.

¹⁵² - المهدي المنجرة، عولمة العولمة، من أجل التنوع الحضاري، مرجع سابق، ص 100.

إن التساؤل حول إمكانات التواصل يدفعنا للبحث في إشكاليات التواصل الحضاري وحوار الثقافات التي تتعدد وتتداخل باعتبار التعقيد الذي يطبع التفاعل بين الثقافات والحضارات في جوانب عقائدية وإيديولوجية وفكرية وسياسية وثقافية لم يتم الفصل فيها عبر التاريخ الإنساني، وتتنظم في قضايا دينية ومعرفية وفكرية وتاريخية تنبثق عنها، في نظرنا، أربع إشكاليات فرعية: الإشكالية الأولى تنبثق في الهوية والخصوصية الثقافية مقابل عولمة ثقافية تثير مخاوف مشروعة بسعيها إلى إعادة تشكيل الفرد وفق ثقافة منمطة عالميا يفرضها طرف واحد. الإشكالية الثانية تلامس الهيمنة اللغوية التي تتأرجح بين نفوذ لغة المستعمر واللغة الانجليزية التي تعد اليوم لغة كونية بامتياز. الإشكالية الثالثة ترتبط بألوان العلاقة بين الإسلام والغرب التي تموجت بين التلاحق تارة في الأندلس نموذجاً والتصادم تارة أخرى في منهاتن كمثل سيء على «الشر القادم من الشرق» بدون الخوض في الجذور التاريخية لهذه العلاقة والاقتصار على إضاءة تأثير تداعياتها على التواصل الحضاري وحوار الثقافات. الإشكالية الرابعة التي تتنازل من سابقتها موسومة بالتطرف والعنف، رغم ما أنجز من حوارات يتواصل العنف بكل مستوياته وتنتمى ظواهر التطرف والإرهاب كمؤشرات للانغلاق على الذات وإقصاء الآخر وعدم التسامح.

قد تشكل الإشكاليات الأربعة مؤشرات راهنة للصراع الحضاري في زمننا المعاصر ومفترق طرق الثقافات وتؤثر في خلق صور سلبية أو ايجابية اتجاه الآخر، تنطلق من الجهل بالذات وبالآخر لغة وثقافة ودينا، في الاتجاهين - إذ لا تقل خطورة جهلنا بالآخر عن جهل الآخرين بنا- فنحن لا نعرف عن ثقافة الآخر بكل تجلياتها اللغوية والفكرية والإبداعية والفنية والدينية والاجتماعية إلا ما نذر وكذلك ما يعرفه الآخر عن ثقافتنا. ومن ثم يصير الآخر شبحاً لنا أو العكس بمعنى سلبي يصعب التواصل معه أو التوجه إليه بالدعوة إلى حوار مخرجاته فهم المنظومة الفكرية الناتجة عن السياق الثقافي والحضاري والتاريخي لنا والآخر.

أولاً: تشظي الهوية والخصوصية الثقافية في مواجهة العولمة والمركزية الغربية.

الإشكالية الأولى تتمثل في تسليط الضوء على معادلة صيغتها فكرية تمكن من استيعاب عولمة ثقافية تحاصرنا من كل جهة بوسائل تقنية متعددة وإمكان الحفاظ على الهوية والخصوصية الثقافية، إنها إشكالية رئيسة في التواصل الحضاري والحوار الثقافي مع الآخر، ما دامت الحضارة الغربية تفرض نفسها كحضارة عالمية وتترك مشاعر الإحباط والتهميش لدى الآخر خصوصاً في العالمين العربي والإسلامي.

لنتساءل: ما الهوية وما علاقتها بالتواصل والثقافة؟ كيف يمكن الحفاظ على الهوية الثقافية في زمن التواصل المصحوب بالتأثير السلبي للعولمة التي تبسط نفوذها على جميع الهويات؟ هل العولمة ذات الطابع القسري سبيل لسيطرة حضارة مركزية واحدة، هي الحضارة الغربية أم تهيب الظروف الملائمة لإقامة حوار مجدد فيما بين الثقافات والحضارات؟ أي دور لمنظومة التربية والتعليم في مواجهة تداعيات العولمة والحفاظ - أو التربية - على الهوية والخصوصية الثقافية؟

الهوية من المفاهيم التي يصعب تحديدها، باعتبار طابعها الإشكالي المتسم بتعدد الأبعاد والمتناثر بين ضفاف مجالات وحقول معرفية مختلفة -تتجاوز الفلسفة وعلم البيولوجيا وعلم الانتروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي-، مفهوم يحيل على الثابت والمتغير والمتعدد والخاص المشترك ويحيل أيضاً على الفردي والجماعي والعلاقة مع الآخر، حيث "ليس هناك وجود لشيء مثل فرد قائم اجتماعياً من دون هوية. فالمجتمعات والأفراد لا تتواجد بشكل مستقل بعضها عن بعض... فالهويات ليست توسطاً بين الفرد والمجتمع بقدر ما هي مكونة لتلك العلاقة"¹⁵³.

بعيدا عن الغوص في معاني ودلالات الهوية وانطلاقاً من حاجة منهجية، سنبتعد عن الزخم الهائل من التصورات والنظريات حول الهوية ونقتصر في هذا المقام على تحديد اجرائي أولي يعتبر الهوية موضوع كوني إنساني خالص، خاصة بالإنسان

¹⁵³ - سايمون ديورنغ، الدراسات الثقافية: مقدمة نقدية، ترجمة ممدوح يوسف عمران، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 425، 2015، ص 240.

والمجتمع، هي الانتماء المشترك في سيرورة جماعية وفردية في آن واحد، تحمل تماثل الصفات والمقومات الموحدة بمثابة ثوابت -تتجدد وقد تتغير- وأبعاد ومصادر يمكن تجميعها في الدين والطائفة والعرق واللغة والثقافة والاجتماع الانساني. تتفاعل الهوية مع المتغيرات والثقافات ولا يعنى الحفاظ عليها الانطواء على الذات. إنها شفرة يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته بالجماعة التي ينتمي إليها وعن طريقها يتعرف عليه الآخرون ويمكنه أن يمتلك انتماءات (هويات) عديدة تنقسم فيها ذاته على نفسها وتتحول الهوية من - حالة مثالية- إلى اغتراب - حالة واقعية- تؤدي إلى العزلة أو الانطواء أو العنف.

تُحدد الهوية، إذن، بشعور الانتماء المشترك وقد "نجد اللاشعور الثقافي مشتركاً"¹⁵⁴ وبطبيعة العلاقة بين الذات والآخر، كأفراد أو كجماعات، لنكون أمام هويات جماعية وأخرى فردية. تتطلق من "مما هو خاص جداً الأسرة/البنوة إلى ما هو عام جداً الأمة/الحضارة، مروراً بالوطن والجنسية والهويات الشخصية العابرة المؤطرة بالمكان الذي تتواجد به الذات"¹⁵⁵. الهوية أصيلة في الوجود الإنساني تتحقق في أشكال عديدة قسمها كلود دوبار في مؤلفه الصادر باللغة الفرنسية *La crise des identités* إلى أشكال جماعية وأخرى تطوعية. أشكال الهوية الأولى القديمة تفترض "الإيمان بوجود تجمعات تسمى جماعات... تعيد إنتاج المماثل عبر الأجيال سواء تعلق الأمر بـ«ثقافات» أو بـ«أمم» أو بـ«إثنيات» أو بـ«اتحادات» تعتبر السلطات والأشخاص أنفسهم مجموعات الانتماء هذه مصادر جوهرية للهوية"¹⁵⁶. أما أشكال الهوية الثانية وهي أكثر حداثة تفترض "وجود هيئات متعددة ومتبدلة وزائلة، ينتمي إليها الأفراد لفترات محدودة وتقدم لهم مصادر مماثلة يديرونها بأسلوب متنوع ومؤقت"¹⁵⁷.

تساءل المفكر حسن حنفي: هل يمكن تحديد الهوية؟ ومم تنشأ؟ هل تنشأ الهوية من العرق؟ هل تنشأ الهوية من من الطائفة؟ هل تنشأ الهوية من الدين؟ هل تنشأ الهوية من

¹⁵⁴ - سعيد يقطين، الديمقراطية ... في قاعة الانتظار، إكراهات التحول الاجتماعي المغربي، منشورات الزمن، العدد 47، دجنبر 2014، ص

49.

¹⁵⁵ - المرجع نفسه، ص 49.

¹⁵⁶ - كلود دوبار، أزمة الهويات، تفسير تحول، ترجمة رندة بعث، المكتبة الشرقية، بيروت، الطبعة الأولى، 2008، ص 21.

¹⁵⁷ - المرجع نفسه، ص 22.

اللغة؟ هل تنشأ الهوية من الثقافة؟ وخلص إلى القول أن "الهوية إنسانية تتجاوز الحدود الجغرافية والعرقية واللغوية والثقافية ... هي التي تسمح بتأسيس المنظمات الدولية لحقوق الإنسان والطفل والمرأة. وقد ظهرت هذه الهوية الإنسانية في كل حضارة، عند كونفوشيوس في الصين وبوذا في الهند وسقراط عند اليونان والمعري عند العرب وشكسبير وغوته في الغرب... هي الهوية التي تصبح فيها الإنسانية هوية واحدة لا تميز فيها بين أجناس أو لغات أو ثقافات أو أوطان"¹⁵⁸.

الهوية ليست شخصية فحسب (ترتكز على الخصائص الفردية وتبرز خلال تعامل الأفراد معا) بل اجتماعية (هوية الأفراد الاجتماعية مرادفة للانتماء إلى فئة ملائمة اجتماعيا لدى أفرادها وعي جماعي وشعور مشترك بالانتماء. ترتكز على العلاقات الاجتماعية وتبرز عندما تتفاعل الجماعات معا) وثقافية (المظاهر الثقافية المشتركة بين أعضاء جماعة يتم إبرازها وتأكيدا لتمييزها عن غيرها من الجماعات) يتبناها الفرد، كانت ثقافته أصيلة أو دخيلة، هي إثبات لخصوصية ثقافية وعامل ثقافي في تصنيف الأفراد والأمم والمجتمعات.

يتعذر الفصل بين الهوية والثقافة، ما من هوية إلا وتختزل ثقافة وقد تتعدد الثقافات في الهوية الواحدة. مثلا، الهوية الإسلامية تتشكل من ثقافات الأفراد والأمم الذين اعتنقوا الإسلام والهوية الوطنية المغربية تتميز بتنوع ثقافات المغاربة أجمعين. لدراسة الهوية الثقافية اختار عدد من الباحثين مداخل ذات أهمية: اللغة والدين والثقافة، باعتبار المدخل الأول نسقا للإدراك والفهم والتفاعل مع المحيط الخارجي والمدخل الثاني مُنتجا للمعتقدات والقيم والمدخل الثالث الرحم الذي تتشكل فيه الهوية. ونظرا للطبيعة المركبة للمفهوم نرى مدخل الثقافة أرحب لفهم الهوية بما أنها "تطرح مشكلة ثقافية في إطار سياسي وعلى نحو قابل للجدال، إن الهوية، قبل كل شيء آخر، موجودة، حيث تنظم الثقافة إلى المجتمع والسياسة"¹⁵⁹. في نفس المنحى الذي نلاحظ فيه الحفاظ على حدود الهوية الثقافية أصبح هاجسا لدى الأكاديميين والباحثين، المقيمين والمهاجرين وتنامى الإحساس بالاختراق

¹⁵⁸ - حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2012، ص ص 73-74.

¹⁵⁹ - سايمون ديورنغ، الدراسات الثقافية: مقدمة نقدية، مرجع سابق، ص 250.

والاغتراب والانشطار بفعل تأثير العولمة على الهوية الثقافية أبرز تحد يحاول بناء هوية كونية عالمية ويقود إلى الصدام بدل الحوار.

من المطبعة إلى التلفاز وجهاز الحاسوب والطفرة التكنولوجية ومن الأقمار الصناعية إلى شبكة الانترنت وثورة الاتصالات، من القوافل التجارية إلى التجارة العالمية، غدا العالم قرية كونية وصار سوقا واحدة من الامبريالية إلى الميغا امبريالية¹⁶⁰. إنها العولمة المفهوم المقلق والجذاب والغني، الذي يرتبط ذكره بالتوجس والريبة. مفهوم "استحدث في سبعينات القرن الماضي للتعبير عن تدويل الأسواق، لا سيما الأسواق المالية"¹⁶¹. ولكن تدويل الأسواق والأشخاص والأفكار والثقافات ليس أمرا جديدا يقول هارولد جيمس المؤرخ بصندوق النقد الدولي وأستاذ التاريخ والشؤون الدولية بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية.

يرى فيها المؤيدون الحلقة الأخيرة من نظام عالمي يسهل حركة وتدفق الرأسمال والناس والأموال والمعلومات على نطاق واسع، تطور نوعي وتراكمي في التاريخ الإنساني يقوم على الثورة المعلوماتية والابداع التقني والكثافة المتزايدة للتدفقات المعرفية العالمية عبر الحدود الجغرافية كمزايا مهمة تحققها العولمة، إذ خلص تقرير آفاق الاقتصاد العالمي لصندوق النقد الدولي في فصله الرابع، عدد أبريل 2018 إلى أن "انتشار المعرفة والتكنولوجيا عبر الحدود أصبح أكثر كثافة بسبب العولمة"¹⁶² وتحفيزها لهذا الانتشار ساعد على زيادة الإنتاجية والنمو الممكن في كثير من البلدان على مستوى العالم وهناك من يعتبرها رافدا للتضامن الإنساني على صعيد الكرة الأرضية، حيث "بتنا نشهد تضامنا إنسانيا متكاملا. فالحدث الذي يحصل على جزء من الكرة الأرضية يمكن أن يؤثر في كل الناس وبإمكانه أيضا من الناحية التقنية وبفضل وسائل الإعلام أن يدرك من قبل الإنسانية جمعاء. لقد صار كل حدث حدثا عالميا بالقوة ولم يعد حدثا محليا"¹⁶³.

¹⁶⁰ - المهدي المنجرة، الإهانة في عهد اليغا امبريالية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة، 2007، ص 97.

¹⁶¹ - هارولد جيمس، مفهوم جديد وواقع قديم، التمويل والتنمية، مجلة فصلية، صندوق النقد الدولي، العدد 53، دجنبر 2016، ص 18.

¹⁶² - <https://www.imf.org/ar/News/Articles/globalization-helps-spread-knowledge-and-technology-across-borders> (Accessed 20/01/2020)

¹⁶³ - جيرار ليكلرك، العولمة الثقافية الحضارات على المحك، مرجع سابق، ص 476.

ويرى فيها المناوئون لها أخطر مراحل الاستعمار وأشكال الهيمنة الغربية، أيديولوجية تقوم على فكرة انتصار الحضارة الغربية و"أحد الأسباب الأساسية في صعود العنف وتنازل النزعات التي نلاحظها على المستوى الكوني"¹⁶⁴. تسعى العولمة إلى تمييط المجتمعات الإنسانية وفق نموذج حضاري ينحو في اتجاه بوصلة الغرب، يسلب الخصوصية الثقافية ويهمش الثقافة المحلية والوطنية ويشوش على القيم الدينية والوطنية ويفرض القيم الغربية، مكرسا لنمط من الاستهلاك والذوق والسيطرة على الرأي والسلوك البشري. يعتبر المفكر المغربي محمد عابد الجابري العولمة عالما بدون دولة وأمة ووطن، عالم المؤسسات والشبكات العالمية "نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى ويدفع للتفتيت والتشتيت، ليربط الناس بعالم اللاوطن والأمة واللدولة... وبالتالي إفراغ الهوية الثقافية من كل محتوى"¹⁶⁵.

تستخدم العولمة التشكيل الثقافي والحضاري الغربي والفضاء الرقمي خاصة شبكات التواصل الاجتماعي ومحركات البحث العالمية والاعلام والسينما والسلع الثقافية والمنتجات السمعية البصرية لاختراق الهويات الوطنية والمحلية الثقافية وتزيد بشكل كبير من "أهمية القيم الثقافية في العلاقات الدولية، كما زادت بشكل مواز حدة مخاطر المواجهة"¹⁶⁶ وتفاقم صدام الحضارات حسب هنتنغتون "لأن التفاعل الثقافي الناتج عن عمليات العولمة يزيد من الوعي بالفروق والاختلافات بين الثقافات ويستثير التشبث بالخصوصيات الثقافية ويعمق الانشقاقات الحضارية"¹⁶⁷، ليصبح التساؤل مشروعا عن "كيف نتحاور في ظل الحضارة المتوحدة أو قل الحضارة المتفردة؟"¹⁶⁸. الحضارة نفسها لدول الغرب التي ظهرت فيها تساؤلات عن هوياتها الثقافية نتيجة تداعيات الهجرة وتواجد مواطنين أجانب بهويات ثقافية متعددة تتواصل وتتصادم أحيانا مع هوية المجتمع المستقبل (اشكالية الحجاب في فرنسا نموذجا).

¹⁶⁴ - المهدي المنجرة، عولمة العولمة، من أجل التنوع الحضاري، منشورات الزمن، العدد 18، مطبعة لنجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2011، ص 33.

¹⁶⁵ - <https://hekma.org> (Accessed 20/01/2020) الهوية- الثقافية- والعولمة- 10- أطروحات -

¹⁶⁶ - المهدي المنجرة، عولمة العولمة، مرجع سابق، ص 28.

¹⁶⁷ - صامويل أنتجتون، صدام الحضارات، مرجع سابق، ص 63.

¹⁶⁸ - طه عبد الرحمان، الحوار افقا للفكر، مرجع سابق، ص 183.

لتطوّر إشكالية الخصوصية الثقافية والعولمة في التواصل الحضاري، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وتصبح معها الحاجة ملحة على ما يبدو إلى عولمة في صالح الجميع والعالم وطناً يسع الجميع والناس فيه شركاء في المواطنة العالمية. إزالة الحواجز واجتياز الحدود بين أجزاء الكرة الأرضية لا يعني الانتقال دون عودة إلى الثقافة الأصل بل يعني اكتشاف الآخر وقبول ثقافته حتماً والضرورة، كذلك، ملحة لتواصل ثقافي يستغل التدفق المعرفي والطفرة التكنولوجية والهجرة لتوطيد التنوع الثقافي وتنمية القدرة على الإيمان بالآخر والاختلاف معه في بيت واحد هو كوكب الأرض، منظوماته التربوية والتعليمية الدولية والوطنية يمكن أن تشكل علامة حدود بين الحاضر والمستقبل، بين تحقيق الذات واكتشاف الآخر، بين الهوية والكونية وبين المحلية والعالمية. وما نحسبه إلا دوراً نبيلاً في مواجهة تداعيات العولمة على الهوية الثقافية وجواباً على تساؤل "إلى أي حد يمكن اعتبار المؤسسات التربوية التقليدية جبهة ممانعة ثقافية لتحسين الذات العربية ضد آليات العولمة والتنميط الثقافي؟"¹⁶⁹.

وفق هذا التصور، نرى دوراً فاعلاً وريادياً للتربية والتعليم لمواجهة العولمة في جانبها الثقافي والاستفادة من إغائها الحدود والحواجز من جهة ومقاومة تشظي الهوية والحفاظ عليها من جهة أخرى. وتأسيساً على هذا الموقف تكمن أهمية الاستراتيجيات التربوية والثقافية من أجل تعزيز الهوية الثقافية والاجتماعية واستغلال فرص العولمة في إقامة تواصل وحوار حقيقيين بين الثقافات والنهل من عناصر التميز والقوة في ثقافة الآخر دون انبهار أو ذوبان. مثالنا في ذلك النهوض باللغة الأم التي تمثل وتحمّل الذاكرة الثقافية للأمة والوطن وتعليم اللغات للاتصال والتواصل وفهم ثقافات الآخر.

وهكذا تتحول غايات منظومة التربية والتعليم إلى النهل من التواصل الحضاري والحفاظ على الهوية الثقافية في نفس الآن وتقديم إجابة وتفسيرات مقنعة لسؤال الهوية وتشغل على أسئلة أخرى من قبيل: من نحن ومن هو الآخر؟ كيف نحن وكيف هو الآخر؟ أي إنسان نريد للمستقبل؟ في إطار مناهج تواكب التحولات العالمية والثورة المعرفية تبرز في برامجها المدرسية الهوية الثقافية للمجتمع بالموازاة مع ثقافات العالم

¹⁶⁹ - محمد فاضل رضوان، نحن والعولمة، مأزق مفهوم ومحنة هوية، مجلة رؤى تربوية، مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، فلسطين، العدد 20، ص 8.

وليس الانغلاق على الذات ورفض الآخر وتكسير حدة الانبهار بالعلم والتحصيل العلمي،
مناهج أكثر إثارة للتفكير النقدي والبحث، غاياتها مجتمع المعرفة والتعلم مدى الحياة
والحفاظ على جودة التعليم.

لا سبيل لسد الفجوة الحضارية إلا بالتفوق في المجال العلمي والتكنولوجي خاصة
وتشجيع الابتكار والإبداع والمهارات والمواهب. يقول المهدي المنجرة مجيباً عن سؤال
حول نقطة البداية لدخول المستقبل "نقطة البداية هي التعليم والاهتمام بالعنصر البشري
ورفع الكفاءة العقلية والمعرفية عند الطلاب الجدد ليكونوا مبدعين لا متلقين فقط، وأكاد
أقول إن نظم التعليم في أغلب الدول العربية لا تصلح لإعداد عقول مبدعة،... وإذا كان
التعليم ضرورة من حيث كونه عدالة اجتماعية، فإن المعرفة هي أيضاً حق اجتماعي
وضرورة حضارية"¹⁷⁰. ضمن سياق العولمة يلوح الآن في الأفق تحفيز إمكانات التعلم
الذاتي وإعادة هيكلة التعليم عبر خدمات فروع الجامعات الدولية المنتشرة في العالم وتبني
التعليم المفتوح والتعليم عن بعد كمصدران مختلفان للمعرفة وتدرّيس اللغات كأدوات للتعلم
والتفكير والاتصال والتواصل والتأوب اللغوي في تدرّيس العلوم، البكالوريا الدولية
نموذجاً.

إنه رهان تعليم متعدد الثقافات كوسيط كوني من شأنه الحفاظ على الهويات الثقافية
لجميع الثقافات بما فيها من تنوع خصب، يبرز ما بينها من تباين وتأثير متبادل، يعمق
التواصل ويدير الحوار بين الأجيال، فبدلاً من أن نفزع أمام عولمة تهدد الهوية وتؤدي
إلى اندثار الخصوصيات الثقافية بغزو ثقافي يشكل عائقاً أمام حوار ثقافي وحضاري غير
متكافئ، يجعل التواصل الحضاري غير منصف، يطبعه التلقي السلبي والاستلاب والتبعية
العمياء، نقترح التحليل النقدي الهادئ المنبثق عن البحث العلمي الرصين في حقول
منظومة تعليمية متجددة ومنفتحة وإلا سيبقى "المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب في
شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"¹⁷¹.

¹⁷⁰ - المهدي المنجرة، عولمة العولمة، مرجع سابق، ص 106.

¹⁷¹ - ابن خلدون، المقدمة، القاهرة، د.ب، ص 147.

ثانيا: اللغات موقد صراع وامبريالية لغوية جديدة أم سبيل للتواصل والحوار.

في كوكب تتعدد وتختلف فيه اللغات كما تختلط وتختلف الثقافات، تتعايش وتتصارع، نتابع من يضمحل منها ومن يهيمن،... ليتأثر المشهوان الثقافي واللغوي، العالمي والوطني، بالتحويلات والتجاذبات وكذلك الإنجازات العلمية والمعرفية العالمية ولما لا تعدد اللغات سبب في حروبها فهناك من يعتقد أن "حرب اللغات إنما هو نتيجة لوجود التعدد اللغوي ذلك أن عالما ليس فيه إلا لغة واحدة، لا يكون فيه هذا النوع من النزاع"¹⁷².

الإشكالية الثانية التي تجعلنا نبادر إلى التساؤل: هل التعدد اللغوي تكامل ثقافي أم موقد صراع وأزمة هوية؟ هل هناك صراع بين اللغات على غرار صراع الحضارات؟ هل يعرف العالم حربا للغات وامبريالية لغوية أم استيطان لغوي وامتصاص لغات لأخرها؟ لماذا اللغة محور للصراع بدل أن تكون نبراسا للتواصل وسندا له؟ ألا توجد أوطان عديدة تتعايش فيها جماعات تتحدث بأكثر من لسان، وتوجد دول أخرى تمزقها الحروب الأهلية رغم كونها موحدة لغويا؟ كيف يمكن للغات في تعددها أن تشكل أداة للتواصل الحضاري وحوار الثقافات ودرء الصراعات اللغوية؟ على أي أساس يتم اختيار لغة ما للتواصل العالمي، على أساس حضاري تاريخي أم هوياتي- ثقافي أم وظيفي نفعي؟ أي جوانب حضارية في اللغة وأي تأثير للغات في صياغة تواصل حضاري متوازن وحوار ثقافي بناء؟

في عالم مليئ بالصراعات، الدينية والسياسية والاقتصادية والعرقية والطائفية أحيانا، اللغات جبهة غير مستثناة من الصراع والتدافع والمنافسة، داخل نفس الوطن بين لغتين أو أكثر وخارجيا بين لغات وطنية وأخرى أجنبية، نخص بالذكر منها: الإنجليزية والإسبانية والصينية والعربية والفرنسية والألمانية، ويمكن الجزم حيثما وجدت الثقافات في أماكن متفرقة من العالم توجد صراعات لغوية ونشهد استيطانا لغويا وهيمنة لغات

¹⁷² - لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى،

بعينها عالميا وأثرا لنزاعات خلفتها الامبراطوريات الاستعمارية قديما والطفرة المعرفية والتكنولوجية والعولمة حديثا، من الطبيعي أن تكون لها تداعيات على التنوع الثقافي واللغات الأم.

اخترنا الحديث في هذه الإشكالية انطلاقا من قضتين ذات أبعاد متعددة ومتداخلة تاريخيا وجغرافيا، سياسيا واقتصاديا. الأولى ترتبط بالفرنكوفونية، هل هي تحد ثقافي ايدولوجي وسلطوي أو أفق لحوار الحضارات؟ والثانية ترتبط بالأنغلو سكسونية ممثلة في ما يعرف بلغة الكوكب والعلم، اللغة الإنجليزية وأثرها على التعدد اللغوي بصفة خاصة والتواصل الحضاري وحوار الثقافات بصفة عامة. بداية، ماذا عن الفرنكوفونية؟

أنشئت مؤسسة الفرنكوفونية سنة 1970 في نيامي بمبادرة من مجموعة الآباء المؤسسين، في مقدمتهم التونسي الحبيب بورقيبة والسينغالي Léopold Sédar Senghor والكمبودي Norodom Sihanouk والنيجيرامي Hamani Diori والكندي الكيبكي Jean Marc Léger بموازاة إنشاء وكالة التعاون الثقافي والتقني التي أصبحت الوكالة الحكومية الدولية للفرنكوفونية سنة 1998 ثم المنظمة الدولية للفرنكوفونية سنة 2005، التي تتخذ من باريس مقرا لها وتنتهج فرنسا سياسة فاعلة لتطويرها.

الفرنكوفونية منظومة مؤسساتية تنظم العلاقات بين البلدان التي تتقاسم اللغة الفرنسية، سواء كلغة أم أو كلغة ثانية، تضم 54 دولة وحكومة عضوا ومكلفة بأربع مهام رئيسية، هي:

- ترويج اللغة الفرنسية وتعزيز التنوع الثقافي واللغوي على الصعيد الدولي وفي البلدان الأعضاء من خلال برامج تعاون.
- تعزيز السلام والديموقراطية وحقوق الإنسان.
- توطيد التعاون لخدمة التنمية المستدامة.
- دعم التعليم والتدريب المهني (تدريب المدرسين والتعليم الثنائي اللغة).

تثير الفرنكوفونية صوت التنوع¹⁷³ كما يشير موقعها الالكتروني واحصائيات تقرير المنظمة الدولية للفرنكوفونية 2019¹⁷⁴:

■ اللغة الفرنسية في المرتبة الخامسة بعد المندرينية والانجليزية والاسبانية والعربية.

■ اللغة الثانية الأكثر تعلما في العالم بـ 132 مليون تلميذ ونصف مليون مدرس لغة فرنسية خارج فرنسا. عدد الفرنكوفونيين يتجاوز عتبة 300 مليون شخص في العالم معظمهم لم يتجاوز الثلاثين من عمرهم.

■ تسجل افريقيا أعلى نسبة ازدياد في تداول الفرنسية بنسبة % 17، حيث يعيش 59% من الفرنكوفونيين الذين ينطقون يوميا بالفرنسية في القارة الأفريقية.

بهذا الخيار الثقافي الاستعماري "نجحت فرنسا في مسح الشخصية الثقافية واللغوية للمجتمعات الأفريقية التي استعمرتها. ويكاد لا يوجد اليوم مجتمع افريقي من مستعمرات فرنسا السابقة - باستثناء المغرب العربي - لا تمثل اللغة الفرنسية لغته الوطنية الجامعة"¹⁷⁵.

الفرنكوفونية كتحد ثقافي - لغوي طرحت جدلا بين الأكاديميين، من جهة هناك من يجد في اعتبارها ايدولوجيا تسرعا، لأنها تقتصر لمنظومة مفاهيم نظرية تسمح لها بتفسير العالم ولا تعدو كونها مفهوما ومشروعا ثقافيا يطبعه التردد ولازال في وضعية تفكير متواصل لصوغ خطابه المتعدد "فمن «الاستثناء الثقافي» إلى «التنوع الثقافي» وصولا إلى «حوار الثقافات» مشته الفرنكوفونية في مسارات متعرجة لبناء خطاب... فمن منطلق طرحها كمنظومة تجمع إثنيات وقوميات وحضارات مختلفة، لا تتجاوز الفرنكوفونية كونها مكانا ل «حوار الحضارات» قد يؤدي إلى إنتاج نظرة جديدة للعلاقات بين جميع مكوناتها... الفرنكوفونية كإطار ل «حوار الحضارات» (أو الثقافات) كان بالضبط عنوان المؤتمر الذي عقد في بيروت خلال العام 2002"¹⁷⁶. بمعنى الفرنكوفونية استراتيجية

¹⁷³ - <http://mediatheque.francophonie.org/Arabe.html> (Accessed 14/02/2020)

¹⁷⁴ - https://www.diplomatie.gouv.fr/IMG/pdf/infographie_le_francais_5eme_langue_mondiale_2019_version_arabe_cle8a66f8.pdf (Mise à jour : mars 2019) (Accessed 07/03/2020)

¹⁷⁵ - عبد الاله بلقزيز، الفرنكوفونية ايدولوجيا، تحد ثقافي- لغوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2011، ص 20.

¹⁷⁶ - عبد الاله بلقزيز، الفرنكوفونية ايدولوجيا، تحد ثقافي- لغوي، مرجع سابق، ص 68.

عمل حكومات ودول من أجل العمل على تعزيز ثقافة الحوار وحوار الثقافات وقيم التعارف بين الشعوب، من خلال لغة مشتركة، لها تاريخها الحضاري.

ومن جهة أخرى، هناك من يعتبرها منظومة استعمارية ثقافية - ما بعد الاستعمار العسكري- تحول دون النهوض باللغة الوطنية الرسمية والتعددية اللغوية المتزنة، بل "تقف حاجزا في وجه التحرر الثقافي واللغوي والعلمي ... وتنفي الرشد اللغوي عن شعوب البلدان المنضوية في مؤسساتها السياسية والاقتصادية... وتذكي بخسا وعداء للغة والثقافة الوطنية، مقرونا باختلالات في التربية والتكوين"¹⁷⁷ وفق منظور المفكر المغربي عبد القادر الفاسي الفهري.

لعل الانتماء إلى العالم الفرنكفوني سياسيا وثقافيا حجر لغوي واختراق ثقافي حل اليوم محل الصراع الأيديولوجي، حيث "كان الصراع الأيديولوجي وما يزال، يستهدف تشكيل الوعي، تزييفه أو تصحيحه... أما «الاختراق الثقافي» فهو يستهدف السيطرة على الإدراك، اختطافه وتوجيهه"¹⁷⁸ وسواء كانت الفرنكوفونية إطارا تواصليا ونافذة على الثقافة العالمية وقيمة مضافة في الحضارة الإنسانية أو تجمع مصدره ثقافي لغوي ومشروع هدفه اقصائي يسعى لإرساء قطبية ثقافية تنفي التعددية اللغوية كواقع وتمارس الوصاية على الثقافات الأخرى، نرى أنها في تراجع وتعاني بدورها من المد الأنجلوسكسوني. إن جولة سياحية واحدة في باريس أو جولة افتراضية في المواقع الإلكترونية للجامعات الفرنسية ومراكز البحث العلمي على الشبكة العنكبوتية تكتشف فيها انفتاح سريع لأهل لغة موليير على الإنجليزية في تهديد لأمنهم اللغوي، يُترجم، على سبيل المثال لا الحصر، في تنظيم مؤتمرات علمية على أرض فرنسا ووضع برامج دراسية كاملة لمعاهد ومدارس فرنسية بلغة شكسبير. هل يتعلق الأمر باستيطان لغوي أو امتصاص وتدافع اللغات؟

نقد ومساءلة الفرنكوفونية، يدفعنا للتساؤل والبحث فيما يعرف في الأدبيات اللغوية بالأنجلوفونية أو الانجلوسكسونية، كمن تساءل من قبل: "من ذا الذي يستطيع أن يتعامى

¹⁷⁷ - المرجع نفسه، ص 74.

¹⁷⁸ - محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، 1999، ص 191.

اليوم عن التهديد الذي يواجهه العالم الذي تغزوه بالتدريج ثقافة واحدة، ثقافة أنجلوساكسونية تتحرك تحت غطاء الليبرالية الاقتصادية؟"¹⁷⁹، انطلاقاً من مهدها الجغرافي وتوسعها السياسي الموسوم بالكومنولث. ما هو مشروع الكومنولث؟ لماذا أضحت اللغة الانجليزية لغة الكوكب والتواصل العالمي؟ وأي أثر لذلك على التعددية الثقافية للمجتمع العالمي والتواصل الحضاري؟

الكومنولث أو رابطة شعوب بريطانيا واحدة من أقدم الاتحادات السياسية في العالم، تتكون من 53 دولة موجودة في 6 قارات، القاسم المشترك ما بين هذه الدول خضوعها لحكم الإمبراطورية البريطانية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. يبلغ عدد سكان الكومنولث 2.4 مليار نسمة يتوزعون على دول من بينها كندا وأستراليا ونيجييريا والهند والكثير من دول الكاريبي وتضم دول الكومنولث "نحو ثلث سكان العالم، و40% من سكان العالم تحت سن الثلاثين"¹⁸⁰، هدفها تقوية الروابط الاقتصادية والثقافية والسياسية بين الدول الأعضاء. يوجد مقرها الرئيسي بالعاصمة البريطانية لندن وتقوم هيكلتها على الأمانة العامة وقمة الكومنولث وكومنولث التعليم ومقرها فانكوفر بكندا.

حالياً، لا يختلف اثنان حول كون لغة التواصل في العالم هي اللغة الإنجليزية، لغة مشتركة للمجتمع العالمي والمعولم، كأن العولمة الثقافية وجدت لغة عالمية على طبق - استعماري قديم - من ذهب، فاللغة الإنجليزية فرضت حضورها العالمي بفضل إسهاماتها العلمية والفكرية في الحضارة الإنسانية المعاصرة وإحداثها الفجوة الحضارية التي تفصل عالمين أحدهما متقدم والآخر تابع، بالرغم من أنها لا تمثل لغة الكتلة السكانية الأكبر في العالم.

لا شك أن اللغة الإنجليزية هي أكثر اللغات انتشاراً وهيمنة وتأثيراً على تعدد اللغات، ممثلة في كل قارات العالم. يمكن تقدير حوالي ملياراً و500 مليون متحدث بالإنجليزية حول العالم ومن بين حوالي 195 دولة في العالم، هناك 67 دولة تستخدم اللغة الإنجليزية كلغة رئيسية بالإضافة إلى أن 27 دولة يتم التحدث فيها باللغة الإنجليزية

¹⁷⁹ - عبد المجيد عمراني، نداء إلى حضارة واحدة لعالم واحد، دروب للنشر والتوزيع، الأردن، 2016، ص 176.

¹⁸⁰ - <https://www.bbc.com/arabic/business> (Accessed 07/03/2020)

كلغة رسمية ثانوية¹⁸¹. مما يجعلنا نجزم أن عدد الناطقين باللغة الإنجليزية كلغة أجنبية سيفوق عدد الناطقين بها كلغة أم لا محالة.

اعتبار اللغة الإنجليزية لغة التواصل عالميا دون غيرها من اللغات سببان أحدهما تاريخي جغرافي يرجع لأزمة الحملات الاستكشافية للعالم والتوسعات الاستعمارية للإمبراطورية البريطانية، في نصفي الكرة الأرضية شمالا وجنوبا، شرق وغربا والسبب الثاني اجتماعي ثقافي أضحت فيه لغة التداول الأولى في الفضاء الرقمي ومجالات التكنولوجيا والتجارة الدولية وريادة الأعمال، ولغة غالبية الأبحاث العلمية والشركات المتعددة الجنسيات. في أوروبا، مثلا، يعتقد "ثلثا الأوروبيين 67% أن اللغة الإنجليزية هي واحدة من اللغتين الأكثر فائدة ومن المرجح أن تعتبر مفيدة للتطوير الشخصي أكثر من أي لغة أخرى... كما أن الأوروبيين يؤيدون على نطاق واسع أن يكون الأشخاص في الاتحاد الأوروبي قادرين على التحدث بلغة مشتركة"¹⁸².

مع العلم أن الاتحاد الأوروبي الذي يضم حاليا 27 دولة تعد اللغات الأجنبية الثلاثة الأكثر انتشارا في دوله هي "الإنجليزية (38%) والفرنسية (12%) والألمانية (11%)"¹⁸³. مما يفيد يقينا أن اللغة الإنجليزية تبرز اليوم بالفعل لغة مشتركة وحجمها وتأثيرها لم يسبق لهما مثيل في تاريخ العالم ويجب مواجهة عولمة اللغة الإنجليزية كلغة دولية اليوم بتعلمها أولا ثم الدفاع عبرها عن اللغات الوطنية والمحلية، لأن اختفاء لغة من اللغات يؤدي أيضاً إلى اختفاء العديد من أشكال التراث الثقافي غير المادي، لاسيما ذلك التراث الثمين القائم على التقاليد المجتمعية وعلى أشكال التعبير الشفهي من قصائد وأدب وأمثال لدى المجتمعات التي تتداولها. كما أن فقدان اللغات يتم على حساب الخصوصية الثقافية وهوية الشعوب والعلاقة التي يقيمها الإنسان مع الآخر، باعتبارها تتقل في الحقيقة الكثير من المعارف عن الإنسان والكون ورؤى العالم.

¹⁸¹ - <http://www.stgeorges.co.uk/learn-english/how-many-people-in-the-world-speak-english> (Accessed 31/01/2020)

¹⁸² - European Commission, Directorate-General for Education and Culture, Special Eurobarometer 386, europeans and their languages, report, June 2012, p : 69.

¹⁸³ - <https://www.europarl.europa.eu/news/fr/headlines/society/20170705STO79028/infographie-le-multilinguisme-en-europe> (Accessed 05/02/2020)

لعل هذه الامبريالية اللغوية علامة من علامات امبريالية أخرى ثقافية وخلف كل سيطرة لغوية سيطرة ثقافية من نوع آخر والمنظومتان الثقافتان الاستعماريّتان - السالفتان الذكر - كلاهما أدوات إيديولوجية للهيمنة وإعادة إنتاج علاقات التبعية الثقافية، تستثمر الموروث اللغوي الاستعماري وتتقاذف العالم العربي مغربا ومشرقاً، ولا حل في الأفق المنظور لمساواة لغوية أو تفاعل لغوي حضاري عادل ينطلق من اللغة التي تقرب الأفكار وتعكس روح الود والتفاهم وتقدم صورة حقيقة عن الآخر في كل فرص الحوار.

من أجل مشروع متبصر يرفض الانغلاق ويستفيد من فرص العولمة، المطلوب هو التوازن بعيداً عن السيطرة والاضطاع، ببناء حيز خاص باللغة العربية - لغة وثقافة وهوية - بدل الاصطفاف والتبعية في حلبة الصراع الكوني، مع الفرنكوفونية التي تسعى لإيجاد موقع لها في مواجهة الطرف الأنغلو سكسوني المهيمن عالمياً أو العكس. اللغة عمق الخصوصية والهوية الثقافية الوطنية ومنظور للعالم في نفس الآن. لم تمنع لغات بعينها أمّا من التقدم ولم تمنع اللغة الروسية أو اللغة الصينية روسيا أو الصين من الانتماء إلى العالمية، إلا أن قوة الكلام من قوة المتكلم. لكن من أين لنا القوة بدون علم ومعرفة؟

على سبيل الختم، المدخل اللغوي محور من محاور التواصل الحضاري وحوار الثقافات. من غير الممكن أن نتواصل ونتحاور مع الآخر ونحن لا نجيد إلى لغتنا، من الضروري التمكن من لغة أو لغتين للتواصل والحوار، الانفتاح على اللغات الأجنبية مصدر غنى وإثراء لغوي ومعرفي وثقافي، تزداد أهميتها في السنوات الأخيرة، خاصة مع حركية الهجرة والطلب على الكفاءات المتعددة اللغات وعدم تجانس المجتمعات على المستوى الثقافي، شَرَطَ التشبع بهوية الثقافة الأصل، يقول الملك محمد السادس: "الانفتاح والتواصل لا يعني الاستلاب أو الانجرار وراء الآخر، كما لا ينبغي أن يكون مدعاة للترمت والانغلاق"¹⁸⁴ وهي الميزة التي يتحلى بها المواطن المغربي، ميله الطبيعي للانفتاح وإقباله على اللغات الأجنبية وقبوله بالثقافات وفق ما هو ثابت في تصدير

¹⁸⁴ - <http://www.maroc.ma/ar/> (Accessed 31/03/2020)

الدستور المغربي، أي "تشبث الشعب المغربي بقيم الانفتاح والاعتدال والتسامح والحوار والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية جمعاء"¹⁸⁵.

في نظرنا، لما كان التشبث بالهوية الثقافية من تداعيات العولمة ومؤسساتها العابرة للحدود، يتعين وضع الحلول الاستباقية للملاءمة بين ما هو ذو طابع كوني وما هو وطني، للانخراط في الركب الحضاري مع الحفاظ على الخصوصيات والثوابت الوطنية ويتعين الدعوة لتجاوز المعوقات النفسية والمعرفية للتواصل وتعلم وفهم لغات الآخرين، كما أننا مطالبون بتطوير لغتنا وتحسين صورتها لدى الآخر، الأمر الذي لن يتم إلا بمنهاج تعليمي متعدد اللغات يعزز الوعي بالثقافات ويكون مواطنا عالميا يتحدث بلغات وليس لغة ويقدر التنوع الثقافي ويتعايش مع الآخرين ويواكب التحولات العميقة التي يمر بها الفكر الإنساني في لحظته التاريخية المعاصرة.

ثالثا: تفاهم خطر الكراهية للإسلام الشغل الشاغل للغرب.

الإسلام كدين يعتنقه حوالي مليار ونصف من البشر، أي ما يناهز 20% من سكان الكوكب، أحد العوامل الفاعلة والمؤثرة في الأحداث التي جرت ولا زالت تجري في العالم إلى يومنا هذا، على جميع الأصعدة. اقتصاديا يمتلك العالم الإسلامي أضخم مخزونات الطاقة وجغرافيا يتواجد على خط التماس مع حضارات مختلفة ومتنوعة وتاريخيا حقق انتشارا في كافة بقاع المعمور من الأندلس إلى شرق آسيا حيث ما زالت شواهد عظيمة من الآثار شامخة في سرقسطة واشبيلية وجامع قرطبة الكبير والحمراء بغرناطة بمجموعة من الإنجازات في شتى المستويات الفكرية من فلسفة وفلك وفن وطب و... على المستوى الديني، يعتبر الإسلام هو النهاية والدين الخاتم، لكن من الناحية التاريخية يمكن اعتباره بداية، فقد كان تأسيسا لدين جديد وحضارة جديدة.

بالمقابل وبدون الحفر في طبقات المفهوم وتاريخ استعمالاته، يحيل الغرب على أساس جغرافي كجهة مماثلة للشرق ضمن كيان جغرافي يضم ثلاث قارات: أوروبا أولا

¹⁸⁵ - الدستور، ظهير شريف رقم 1.11.91 صادر في 29 يوليوز 2011 بتنفيذ نص الدستور، الجريدة الرسمية عدد 5964 مكرر بتاريخ 30 يوليوز 2011

وأمریکا ثانيا وأستراليا ثالثا بفلسفة التتوير وديانة المسيحية والعرق الأبيض والنظام الاقتصادي الرأسمالي في إطار نموذج حضاري متفوق علميا وصناعيا وتجاريا وإعلاميا.. كما يحيلنا الغرب المتعدد المعاني كفكرة على وعي يضم رؤيته الخاصة للعالم - ليس من المفترض أن ينضبط إليه بقية العالم سواء كان شرقا أو غربا آخر- ومفهوم جيو سياسي ذو مضمون ثقافي وديني وسياسي يوظف في مقابل الشرق والإسلام والجنوب، يمكن أن "يوحي بالهيمنة والاستعمار والاستعلاء والقوة وهذا لا ينفي وجود غرب آخر يمكن نعتة بالغرب الحضاري الإنساني، الذي يقدم للإنسان شتى القيم الإيجابية والانجازات المفيدة"¹⁸⁶ التي ذهل بها المثقفون العرب والمسلمون من زمن رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني إبان رحلاتهم لأوروبا إلى يومنا هذا.

الإسلام والغرب أو "الهويات العملاقة «méga-identités»"¹⁸⁷ محور تساؤلات عديدة بل وحتى موضوع اتهامات ومخاوف وذعر أحيانا. الإسلام أحد أهم مركبات الثقافة الإسلامية - العربية وغير العربية- والرافد الأول لها في الشرق والمقلق الأساس لها في الغرب، العلاقات بين ذوي الأديان تتخذ أبعادا وتنتج توترا أحيانا، رغم أن التواصل والخطاب الحوارى لا يتعلق بالمعتقدات والمرجعيات الدينية وإنما بآثرها في حسن التصرف ونوع السلوك الإنساني الذي تنتجه في وضعيات العيش المشترك بين الأفراد والجماعات المتباينة عقديا ودينيا.

يقول محمد أركون "استقطبت كلمتا الإسلام والغرب عملا مكثفا من أجل بناء تخيلي للآخر: على تهمة الشيطنة التي أطلقت من مواقع إسلامية وعربية إسلامية على الغرب (بعنوانه الفكرى والثقافى)، رد الغرب من جهته، عبر جدلية جدالية (dialectique polémique)، ببناء متخيل للعدو الإسلامى"¹⁸⁸.

الإسلام بحدوده المجاورة لحضارات أخرى وثقافات المسلمات والمسلمين، المختلفة عرقا ولغة وموطنا وبيئة ليست كلا متجانسا وكذلك الغرب المتعدد لغة وثقافة ودينا

¹⁸⁶ - التجاني بولعوالي، المسلمون في الغرب، بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل، إفريقيا الشرق، 2010، ص 41
¹⁸⁷ - جورج قرم، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، ترجمة رلى ذبيان، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 2011، ص 15.
¹⁸⁸ - من منتهاتن إلى بغداد، ما وراء الخير والشر، محمد أركون وجوزيف مايل، ترجمة عقيل الشيخ حسين، دار الساقي، الطبعة الأولى، 2008، ص 25.

وسياسة لا يمكن اعتباره كيانا واحدا موحدًا. وحيث يصعب حصر الدراسات الأكاديمية التي اشتغلت على طبيعة علاقة الاسلام بالغرب والمراحل التاريخية التي مرت بها ومميزات صورة أحدهما لدى الآخر - سيما أن الموضوع له بعد تاريخي يمتد لقرون زمنية وعصور بشرية- نجد في عصرنا هذا الترويج لمقولة الإسلام والغرب، وفق منظور يُوَظَر لصراع حضاري بارد يثبت أن "الكلمتين المتقابلتين اسلام وغرب توأسلان حمل الموروثات الخبيثة لذلك التاريخ الذي لا يكتب حتى الآن وفق مناهج وتسؤلات انتروبولوجية الماضي وعلم آثار الحياة اليومية التي يمكنها أن تعيد أساسها المشترك إلى المجتمعات التي فصلت بعضها عن بعض تمثلات ومعتقدات متخيلة"¹⁸⁹. في مفارقة واضحة بين الغرب بما يعنيه ككيان جغرافي بمكونات سياسية وثقافية وحضارية أو كحلف أطلسي يدافع عن المصالح الأوروبية - الأمريكية والإسلام كدين يتمثل في مختلف المذاهب والفرق التي ظهرت في تاريخ الإسلام. هذا "الإسلام في الغرب قد حمل إلى قرطبة أروع ثماره"¹⁹⁰ وكان له دور في بناء الحضارة الإنسانية والمساهمة في التراث الفكري العالمي والاكتشافات العلمية.

لينبثق التساؤل لدى كل دارس مبتدئ حول جدوى الخلط بين الغرب بقطيبيته ومركزيته الثقافية والحضارية والإسلام كدين ومقاربة هذه القضية وفق منظور يجعل الإسلام الشغل الشاغل للغرب وليس المسيحية أو اليهودية أو البوذية أو الهندوسية أو أي دين آخر، تغطية لمصالح جيوسياسية معينة تنعكس على الشعور الديني للمسلمين بكونهم مستهدفين بسبب دينهم وخيرات بلادهم، على افتراض أن "لعبة التصادم بين الشرق والغرب هذه هي لعبة تخيلية ولعبة مرايا خطيرة أطلقتها الثقافة الأوروبية الاستعمارية لتبرير سياسة القوة والسيطرة على مقدرات العالم"¹⁹¹.

يبدو أن التناقض الكوني بين الغرب والشرق وصورة الإسلام في الغرب ليست صناعة حديثة، بل تمتد إلى جذور تاريخية وفكرية عميقة. لقد "أثر عن الشاعر الإنجليزي روديارد كيبلينغ Rudyard Kipling أنه قال الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان"¹⁹²

¹⁸⁹ - المرجع نفسه، ص 44.

¹⁹⁰ - روجيه غارودي، الإسلام في الغرب، قرطبة عاصمة العالم والفكر، مرجع سابق، ص 7.

¹⁹¹ - جورج قرم، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، مرجع سابق، ص 8.

¹⁹² - أبو الحسن علي الحسيني الندوي، حديث مع الغرب، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1967، ص 14.

وتبنى عبر عصور زمنية المستشرقون ورجال الدين والصليبيون والمفكرون والسياسيون والإعلاميون والسينمائيون والجامعيون في مراكز الدراسات صنع ملامح ومحددات هذه الصورة والترويج لها سلباً في الدوائر الغربية والعالمية.

في الغرب دراسات تؤسس لفكرة الغرب والآخرين، خاصة الإسلام الذي "غالبا ما يشكل في الغرب محور نقاشات وتساؤلات عديدة، بل وحتى مخاوف غير منطقية"¹⁹³. أشهر هذه الدراسات في القرن العشرين قام بها قيود المستشرقين الغربيين برنارد لويس¹⁹⁴ وعالم السياسة الأمريكي صمويل هنتيغتون، الأولى في مقالة موسومة بجذور الغضب الإسلامي في أيلول 1990 في مجلة Atlantic Monthly والتي حلّ فيها الأسباب الموجبة للغضب على الغرب عامةً والولايات المتحدة خاصةً، محاولاً أن يفسرها بجذور الكراهية والصراع بين الإسلام والمسيحية والدراسة الثانية المثيرة للجدل، تعتبر المصدر الأساسي للنزاع في العالم الجديد والانقسامات الكبرى بين البشرية لن يكون سياسياً أو إيديولوجياً أو اقتصادياً، بل ثقافياً ودينيّاً والمصدر الأكثر تأثيراً وتأثراً في أطروحاته هو الإسلام باعتبار حدوده الدموية ولعل "تأصل هذه الفكرة في الذهنية الغربية قد أوجد سيكولوجية عامة كارهة للإسلام وأهله، تراه عدواً لا سبيل إلى التعامل معه، باعتباره دين عنف وقسوة ودموية"¹⁹⁵.

وإذا سلمنا أن الصراع الأيديولوجي الذي كان قائماً إبان الحرب الباردة صار صراعاً دينياً وأن الهوية المرشحة للتصادم مع هوية الغرب هي الهوية الحضارية الإسلامية لأسباب قد ترجع إلى الجوار الجغرافي والتنافس التاريخي واختلاف نظام القيم، فإن الأمن العالمي في القرن الحادي والعشرين سيكون رهينة للصراع الذي بدت ملامحه مع مطلع الألفية الثالثة وأصبح أكثر انتشاراً وتمدداً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 ولم يستقر تداول هذه الصورة، وعيا وممارسة، بين الخوف والعداء أحياناً،

¹⁹³ - شارل سان برو، نظرة الغرب إلى الإسلام ومستقبل الإسلام السلفي، سلسلة محاضرات الإمارات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث

الاستراتيجية، الطبعة الأولى 2009، ص 4

¹⁹⁴ - برنارد لويس برنارد لويس (1916-2018)، مؤرخ أمريكي بريطاني، حصل على الجنسية الأمريكية سنة 1982، أستاذ فخري في دراسات الشرق الأوسط في جامعة برنستون. تخصص في تاريخ الإسلام والتفاعل بين الإسلام والغرب وحاز على العديد من الجوائز من قبل مؤسسات تعليمية أمريكية لكتبه ومقالاته في مجال الإنسانيات ويعد من نخبة الباحثين التاريخيين وقادة الفكر الاستراتيجي في الولايات المتحدة، من مؤلفاته: "أصول الإسماعيلية" (1940) و"عودة الإسلام" (1985) و"مستقبل الشرق الأوسط" (1997)، و"أزمة الإسلام" (2003).
¹⁹⁵ - أليكس جورافسكي، المسيحية والإسلام، ترجمة خلف محمد الجواد، سلسلة عالم المعرفة، طبعة 1996، الكويت، ص 87.

بل تطور مع أزمة الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة لرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام وقضايا الحجاب في أوروبا وأمريكا والتضييق على بناء المساجد وإشكالات المهاجرين المسلمين في الغرب مجسدة في خطاب عنصري يغذي الحقد والكراهية وما تلى ذلك من ردود فعل غاضبة في جغرافية العالم العربي وخارجه كشفت عن حجم الصراع وتحدي الحوار ومعيقاته وإكراهاته.

في نفس الاتجاه، تتعرض صورة الإسلام في البرامج المدرسية الغربية للتشهير والتشويه وتركيز صور سلبية عن الدين الإسلامي ورموزه لدى الناشئة، مما يتعذر معرفة حقيقة الإسلام ورسم صورة منصفة تبرز غاياته الإنسانية. لا تذكر المناهج الدراسية الغربية الإنجازات الحضارية للإسلام وتتجاهل وجود المسلمين في هذا العالم ومنها ما يلتزم بالحياد والعلمانية ولا يسمح لمؤلفي الكتب المدرسية التهجم أو نشر أحكاما في حق أي دين أو عقيدة بما في ذلك الإسلام ولا يقتصر الأمر على البرامج الدراسية بل يتجاوزه إلى مجال استراتيجي لا يقل خطورة في التأثير وصناعة الرأي العام، إنها وسائل الإعلام على اختلاف وسائلها التي تربط الإسلام في الوطن العربي خاصة بالعنف والإرهاب ورفض الاندماج وتعدد الزوجات، يحرم الفن ويضطهد المرأة ويفرض عليها قيوداً. لو أننا حاولنا التعرف على ما يعنيه الإسلام في الخطاب الإعلامي الأوروبي المعاصر فسنجد أنفسنا أمام عبارات سلبية تقدم الإسلام كخصم أو عدو غير مرغوب فيه. يقول عابد الجابري: يلاحظ المنتبع لتجليات صورة الاسلام وتقلباتها في وسائل الإعلام الغربية أهي صورة متحركة مصنوعة، تتغير فيها الألوان وتتبادل عناصرها المواقع حسب الظروف والأحوال. وفي الطرف الراهن تبدو هذه الصورة ذات ثلاثة مناظر أو أبعاد هي: العرب والهجرة والإرهاب¹⁹⁶. إنها صورة مخيفة تختزل الإسلام كدين ضد حرية الاعتقاد، انتشر بالسيف ولا مجال فيه للإقناع والعقل، ضد السامية وذلك من خلال الآيات التي تتناول قضية اليهود.

صورة الإسلام في الغرب كما تروجها المناهج المدرسية والقنوات الاعلامية تصل أحيانا إلى نعت «الإرهاب الإسلامي» وتنتج إشكالية الإسلاموفوبيا أو الرهاب

¹⁹⁶ - محمد عابد الجابري، مسألة الهوية: العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2008، ص ص 178-179.

الإسلامي وثنائية الحوار والصراع الحضاري على أساس ديني تجاوزت الاعلام والمناهج التعليمية إلى بعد آخر لا يقل أهمية في التعبير عن الثقافات والحضارات، إنه الفن السابع، عبر عدد من الأفلام المسيئة، حيث تتضح السينما الأمريكية على وجه الخصوص بخطاب ديني محتقن بالعداء للإسلام كرمز للإرهاب والتطرف ومصدر للفجوة والصدام الحضاري، نمثل لذلك بفيلمي أكاذيب حقيقية True Lies وقوة دلتا DeltaForce وفيلم براءة المسلمين Innocence of muslims الذي تعرض للحياة الخاصة لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم بشكل مغرض، بالمقابل يجسد الفيلم الهندي My name is Khan الذي أنتج عام 2010 وترجم إلى عدد من اللغات، حوارا ثقافيا وحضاريا مع غير المسلمين، عبر رحلة بطل الفيلم المسلم رضوان خان لمقابلة رئيس الولايات المتحدة لإخباره بأن المسلمين ليسوا إرهابيين وإثبات العكس من خلال مقولة "أنا مسلم، أنا لست إرهابياً" ويتعرض بطل الفيلم رضوان لمواقف مختلفة تكشف نظرة عدد من الأمريكيين للإسلام ومعاناة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية إبان أحداث 11 سبتمبر 2001.

تأسيسا على حكمة تقول الإنسان عدو ما يجهل، يمكن الجزم أن الاسلام والغرب ثنائية مغلوطة والصورة النمطية للإسلام والمسلمين في الغرب وانعكاساتها في الصدام أو التواصل الحضاري وحوار الثقافات، لا تنطلق من جهل ولد الأحكام الجاهزة، لأن الغرب يدعي دراسة الشرق ومعرفته عبر دراسات المستشرقين وسياسة الاستعمار ويعتمد الجهل بالإسلام ويتخيل خطره على حضارة الغرب، مشكلة تنعكس رهبا في التعليم والاعلام والفن على وجه الخصوص وتفرز خطاب الكراهية وقلق الآخر المختلف.

من الصعب الصمت كما يقول الفيلسوف النمساوي هانس كوكلر "عن محاولة طلاء حائط صراع الشرق الأوسط من الجانب بطلاء ديني وخلق بؤر صراع وهمية جانبية قد تنسّى في المشكل الرئيس والنداء الأجوف إلى العلمانية وإلى حوار الأديان في بداية هذا القرن، خدمة للهيمنة الغربية"¹⁹⁷ التي تواجه تساؤلات صريحة ومباشرة ومقلقة، من مثل: ما يمنع وجود مآذن المساجد في المدن الغربية مثلما نجد الكنائس في تطوان والدار البيضاء وتونس والقاهرة ودمشق وبغداد و...؟ وما يمنع أن يكون المسلم الأمريكي

¹⁹⁷ - هانس كوكلر، تشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين ... الأسباب والحلول، تعريب حميد لشهب، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، الطبعة الأولى، 2013، ص 16.

أو الفرنسي أو الانجليزي يتمتع بحقوق المواطنة كاملة في الغرب مثل أي مواطن آخر يتبع الدين المسيحي أو اليهودي؟ ولماذا لا تتشغل المناهج التربوية في الغرب وبلاد الإسلام ببناء علاقات إنسانية يطبعها التعدد والتنوع والايان بالآخر الإسلامي والثقة فيه، من أجل مستقبل آمن للجميع؟ هل يوجد مشروع حضاري إسلامي تتطرق أسسه ومرتكزاته وثوابته من الإسلام كمرجعية، مستوعبا للعصر وحاجاته ومتطلباته الآتية والمستقبلية؟ وكيف يمكن للعالم الإسلامي بمفكره وإعلاميه وسياسيه أي يعمل على تصحيح صورة الإسلام في الغرب عامة والمناهج الدراسية خاصة وإيجاد سبل وآليات لتحقيق ذلك من مثل بناء اتجاه فكري مع مفكرين غربيين من طينة هانس كوكلر وإدوارد سعيد وروجيه غارودي ونعوم شومسكي..

إن الغرب في حاجة إلى الشرق والشرق في حاجة إلى الغرب. لذلك ينبغي وضع الإسلام كدين منفصل عن تصرفات المسلمين شرقا وغربا في مقابل الغرب ككيان جيو-سياسي بالدرجة الأولى. لنخلص إلى أنه، من جهة، "على الغرب أن يتصالح مع مبادئه في تعامله مع الآخرين"¹⁹⁸ وفق تصريح الكاتب اللبناني أمين معلوف ومن جهة أخرى "لا بد للمسلمين أنفسهم من أن يعيدوا من داخل التراث الإسلامي، لكلمة إسلام قوتها الروحية والدينية على مستوى الخطاب القرآني لكن باستخدام أدوات فكرية واستراتيجيات معرفية حديثة"¹⁹⁹ تدرس وتمحص في حضارات العالم، من أجل اكتشاف المشترك الذي يمكن أن يشكل قاعدة لتواصل حضاري أفضل يؤدي إلى تفاهم وتعاون وتضامن بدل تشتت في الرؤى يؤدي إلى التنافر والصدام وتوسيع الهوة المهددة بخطر صراع كوني أكبر بين العالمين الإسلامي والغربي. في الإطار الديني على ما يبدو "تظهر الحدود التي توضع على تطور علاقات التواصل، هنا يبدو غموض الآخر والسمة القاطعة للفوارق الثقافية. فقد يمكن لأفضل طرق التواصل بين الناس وبين الثقافات أن توصل إلى سوء فهم حاد"²⁰⁰ يستمد وقوده "من تفسيرين للتاريخ تبلورا حول مفهومين ل «العدو». فبعضهم يرى الإسلام أظهر عجزه عن تبني القيم المسكونية التي ينادي بها الغرب ويرى

¹⁹⁸ - <https://arabic.euronews.com/2010/10/21/amin-maalouf-world-economy-is-not-a-casino> (Accessed 13/01/2020)

¹⁹⁹ - من منهاتن إلى بغداد، مرجع سابق، ص 28.

²⁰⁰ - جيرار ليكلرك، العولمة الثقافية الحضارات على المحك، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 2004، ص 491.

البعض الآخر أن الغرب يطمح خصوصاً إلى السيطرة العالمية يجهد المسلمون لأجل مقاومتها بما بقي لديهم من وسائل محدودة"²⁰¹.

منظور يحتم على كل ذي عقل التفكير في الرهانات الكبرى حول عدم التفاهم الذي يقود إلى تحليلات معينة -كتحليل صمويل هنتجتون- وضرورة التحصيل العلمي وتطوير التعليم والتشجيع على معرفة أفضل بالفكر الإسلامي والتعريف بحقيقة الدين الإسلامي، تعليمياً وإعلامياً، لتصل صورة الإسلام الصحيحة إلى الإنسان الغربي وبناء استراتيجيات تواصل الجاليات المسلمة في الغرب تحسن من كيفية التعامل مع الصورة النمطية حول الإسلام في المجتمعات الغربية، والتغلب على آثارها سيما وأن وجود المسلمين في الغرب ليس أمراً طارئاً أو عابراً بل وجوداً نوعياً سوف يمتد ويترسخ مع الأجيال الصاعدة التي ولدت في بلاد الغرب، سيصبح الإسلام ممثلاً بها في العقود المقبلة يوماً ما بدل أن "تساهم زمرة من المسلمين الموجودين في الغرب، بسبب سوء معاملتهم، في تنفير الآخر من الإسلام وهذا لا يخدم هذا الدين في شيء، عدا زيادة الخوف منه وفهمه على أنه ضرب من التطرف والتزمت"²⁰².

نختم بالوعي أن العلاقة بين الإسلام والغرب علاقة غير متكافئة، رهينة لعبة النظرات المتبادلة وأوسع من أن تعرض في فقرات موجزة، لأنها إشكالية معقدة يتشابك فيها ويتداخل ما هو سياسي وديني وثقافي. نظرة الغرب للإسلام عقبة رئيسية في وجه حوار الحضارات كما يذهب إلى ذلك غارودي في النقد الذي وجهه للغرب، وأراد منه أن يدفعه لمراجعة ذاته وتراثه وتاريخه، وأن يغير من نظرتة إلى العالم، ويدرس الحضارات غير الغربية والاستفادة والتعلم منها لاكتشاف مستقبله المشترك مع بقية العالم، وليس مستقبله الذي لا يرى فيه إلا ذاته ولا حاجة له في ثقافات الإسلام. الغرب الآن يقيس مدى تقدم الأمم بقدر قربها من ثقافته التي يعتبرها مركزية، راغباً بالقوة في "إعادة تحديد الإسلام أو طبع العالم الإسلامي بتصورات قيمية غربية... وبهذا تظهر الحرب من جديد كوسيلة لإعادة التربية الحضارية كما يتضح ذلك في أفغانستان والعراق"²⁰³. إعادة التربية

²⁰¹ - أمين معلوف، اختلال العالم، ترجمة ميشال كرم، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 2009، ص 29.

²⁰² - التجاني بولعوالي، المسلمون في الغرب، مرجع سابق، ص 90.

²⁰³ - هانس كوكلر، تشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين ... الأسباب والحلول، مرجع سابق، ص 153.

في سياق العولمة ستتزع السياج الثقافي الذي يشكل هوية الفرد المسلم وينتج عنها ردود فعل تفاقم خطر تصادم الثقافات، لتتناسل الاشكالية الرابعة المرتبطة بالتطرف والعنف.

رابعاً: التطرف والعنف المعولم مؤشرات الصدام الحضاري في زمننا المعاصر.

من الثابت أننا لن نحقق تواسلاً كان ثقافياً أو حضارياً، لحظياً أو استراتيجياً، بالعنف والتطرف في الآراء والمعتقدات. تكفي نظرة خاطفة على حجم الأنشطة الفكرية والثقافية والفنية والمؤتمرات والندوات والملتقيات الوطنية والإقليمية والدولية التي عُقدت في فلك موضوع التواصل الحضاري وحوار الحضارات والثقافات للاطمئنان بوجود بيئة كونية آمنة. لكن واقع الحال يحيلنا على العكس تماماً فقد زادت الصورة سوءاً بعد أحداث الحادي عشر من شتبر وما تلاها من أحداث عنف جابت العالم بقاراته الخمسة، غرباً وشرقاً، شمالاً وجنوباً، في بالي (اكتوبر 2002) والدار البيضاء (ماي 2003) ومدرید (مارس 2004) وعمان (نوبر 2005) وشرم الشيخ (يوليوز 2005) والرياض (ماي ونوبر 2003 وابريل 2004) وباريس (يناير وفبرابر 2015) وبرلين (دجنبر 2016) ونيس (يوليوز 2016) واسطنبول (يناير 2016 و 2017) وسانت بطرسبرغ (أبريل 2017) ولندن (يونيو 2017) وهجوم مسجد كرايست تشيرش بنيوزيلاندا (مارس 2019) الذي بثه القاتل مباشرة عبر مواقع التواصل الاجتماعي وسيرلانكا (أبريل 2019) ... وحروب في أفغانستان والعراق وغزة والأعمال العسكرية المتفرقة في شتى أصقاع الأرض؛ على سبيل المثال لا الحصر.

رب سائل يقول: "كيف نتحاور في ظل الارهاب المتعدد؟"²⁰⁴ وهل معنى أصداء الحادي عشر من شتبر استمرت في التجاوب؟ من وجهة نظر جوزيف مايل الحدث "ينشط طوفان ذاكرة الشرق التي لا تتوقف عن إعادة الماضي بزخم إلى الراهن. كما أنه يفاقم ضعف ذاكرة الغرب العاجز عن أن يفهم ما راكمته صراعات كتلك التي تحدثم في

²⁰⁴ - طه عبد الرحمان، الحوار افقا للفكر، مرجع سابق، ص 183.

فلسطين أو العراق من أشكال سوء التفاهم والعدائية والريبة والكيد"²⁰⁵. دلالة أحداث نيويورك ومنهاتن كظاهرة عنف غير مسبوقة في التاريخ، من حيث عدد الضحايا ورمزية المكان، مركز التجارة العالمي ورمز القوة المالية الليبرالية العالمية "طرحنا نفسها منذ البداية على وعي جاهز لفهم شحنة العنف التي يحملها وقادر على وضعها في إطار استمرارية توجيه الضربات وتلقيها وذلك لشدة ما يعيشه العالم العربي والإسلامي في ظل الشعور بالموالفة مع الغرب"²⁰⁶. وبات الإرهاب شبحاً يلاحق النظام العالمي، الظاهرة المتطرفة والأكثر عنفاً من العنف. إنه لأول مرة في التاريخ الأمريكي ومنذ أكثر من مائتي عام "يتم توجيه ضربة فضائية موجعة إلى الرأس كما عبر دريدا عن ذلك، ضربة لا تخل بمفهوم التوازن الاستراتيجي من الداخل، بل تكشف عن وهم التوازن"²⁰⁷. قال الرئيس بوش الابن في خطاب بالكونغرس في العشرين من شتبر 2001: "إنهم يكرهوننا إنهم يكرهون حرياتنا: حريتنا الدينية، حريتنا في التعبير وحقنا في التصويت والتجمع والتعبير عن خلافاتنا ... هؤلاء الإرهابيون يريدون ضرب نمط عيشنا"²⁰⁸.

إنه مأزق لكل باحث أكاديمي وكل مفكر في أنحاء المعمور أن يتساءل السؤال المقلق تاريخياً وفكرياً، لماذا تقع أحداث العنف بتلك الفظاعة؟ وكيف يمكن أن نعود بعدها آمينين إلى الاندماج في الإنسانية المشتركة والطريق المشترك؟ مادام المقام لا يقتضي قراءات تفاعلية تنحو إلى الوراثة لتفسير حركة نشوء العنف والتطرف أو التعصب من كل الأطراف، لدراسة كيفية مواجهة الخطر المحقق بالإنسانية مستقبلاً، مسترشدين بتبصر العقل وحكمة التواصل والحوار. يقول المهدي المنجرة "ليس ثمة من ثقافة تولد أصلاً عدوانية أو لتصارع ثقافة أخرى. وقد علمنا التاريخ بأن ثقافة ما حين تأخذ مقاليد السلطة تسعى إلى فرض نظام قيمها على ما عداها. وهنا يكمن موطن النزاع. لكن إذا ما تم

²⁰⁵ - محمد أركون وجوزيف مايل، من منهاتن إلى بغداد، ما وراء الخير والشر، ترجمة عقيل الشيخ حسين، دار الساقي، الطبعة الأولى، ص

114.

²⁰⁶ - محمد أركون وجوزيف مايل، من منهاتن إلى بغداد، ما وراء الخير والشر، ترجمة عقيل الشيخ حسين، دار الساقي، الطبعة الأولى، 2008،

ص 101.

²⁰⁷ - ادغار موران وجان بودريارد، عنف العالم، ترجمة عزيز توما، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الأولى، 2005، ص 12.

²⁰⁸ - محمد أركون وجوزيف مايل، من منهاتن إلى بغداد، ما وراء الخير والشر، ترجمة عقيل الشيخ حسين، دار الساقي، الطبعة الأولى، 2008،

ص 50

احترام القواعد الأساس للتواصل الثقافي والتنوع فأنا أعتقد بأن أسباب النزاعات ستقل²⁰⁹.

سواء كان العنف - والمصطلحات المحيطة به²¹⁰ - الممارس على امتداد التاريخ البشري ضد الرموز الحضارية والثقافية للآخرين، لفظيا أو معنويا، ماديا أو رمزيا، غريزة فطرية أو سلوك مكتسب متعدد الوجوه والأبعاد والامتدادات، يبدأ في الخطاب وقبله وينتهي بالتفجيرات والعمليات القتالية والحروب، هو مرض ووباء ينتج عن اضطراب في التواصل الإنساني، يهدم أمن العالم ويكبد المجتمعات خسائر مادية ونفسية كبيرة وكأنه ثقافة موازية مضمرة تطورت مع التطور الحضاري وعجز العقل البشري على القضاء عليها - في الوعي البشري ولا وعيه - وبناء السلام في عقول البشر..

يولد العنف عنفا آخر ينتهك حقوق الإنسان ويرسخ التعصب والتطرف ويغذي الكراهية وإنكار الآخر المختلف ثقافيا، ونزع الثقة فيه، لتذهب سدى كل محاولات التفاهم والتواصل والحوار البناء والعثور على حل مشترك، يضيق مساحات التسامح والتعايش. فلا تواصل ولا حوار بين الأفراد أو الثقافات ولا عيش مشترك ولا تسامح وتعايش مع عائق العنف. إننا أمام جهل لا يضع استفهامات تنحو نحو شغف البحث بل يعيش وهما وسوء الفهم تشتد خطورته ويصعب التنبؤ بنتائجه وهذا النوع من الجهل الجديد هو "التدمير الذاتي العالمي للثقافة ونتيجته الطبيعية هي العنف، ذلك بأن بديل العقل الأول/ العنف محتّم. وليست هناك طريقة إلا الثقافة أو العنف ... وعندما يغيب العقل الأول ينمو العنف"²¹¹. بالعقل نتواصل ونتحاور ونرسم المستقبل المشترك وبالعنف نهدم كل شيء ونترك الآلام والأحقاد عبر التاريخ البشري.

قد يقول قائل، على الرغم من التعاليم الدينية السمحة أفعال التطرف والتحريض والعنصرية والعنف يمكن أن تمارس باسم الدين وأن تستند إلى المبادئ الدينية، ما دام

209 - المهدي المنجرة، الإهانة في عهد البغا امبريالية، مرجع سابق، ص 28.

210 - يُعتبر المصطلحات المحيطة بمفهوم التطرف العنيف معقدة وما زالت تشكل موضع جدال إلى حد كبير، يُعزى ذلك إلى أسباب متعددة، أبرزها أن الكثير من المصطلحات المستخدمة في هذا الميدان لا ترتبط بتعريفات متعارف عليها عالميا.

211 - توماس دو كورنانك، الجهل الجديد ومشكلة الثقافة، ترجمة منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2004، ص 7.

الدين هو المميز بين الشعوب والتفريق الحضاري بين الأمم، إلا أن الأيديولوجية الدينية ليست وحدها المسؤولة عن تشدد الأفراد وتطرفهم العنيف، قد تتداخل وتتفاعل ظروف اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو عوامل نفسية، وقد لا يعدو الأمر مجرد قراءات معينة للنصوص الدينية وتأويل خاص لها، فالأديان السماوية بكل خطاباتها التي تدعو إلى السلم والمحبة والتعايش لا يمكن أن تكون سببا في القتل الممنهج والدين الاسلامي كخاتم لا ينكر الأديان الأخرى بل يشجع التعايش معها في أمن وسلام وعقد الرسول صلى الله عليه وسلم العهود والمواثيق مع اليهود لوضع أسس العيش المشترك مثالا شاهدا والانجيل بدوره يزخر بالتعاليم التي تلزم المسيحيين بالتعامل مع بقية أبناء الأديان الأخرى بالمحبة والتسامح وعدم نبذ الآخر المختلف عقيدة. على الصعيد التشريعي الدولي يعترف قرار مجلس حقوق الإنسان 15/30 بأنه لا يمكن بل لا ينبغي ربط التطرف العنيف بأي دين أو جنسية أو حضارة أو جماعة إثنية، فهي مشكلة عالمية وعابرة للحدود الوطنية وتتخذ أشكالا عديدة.

وسائل الاتصال وقنوات التواصل الاجتماعي في الشبكة العنكبوتية المعول عليها في ربط جسور التواصل والحوار والتفاهم وخروج الأفراد والجماعات والنزاعات من نطاق العزلة وجعل العالم أصغر حجما، أسهمت في تمدد رقعة التطرف والعنف وسرعة انتشارهما، إلى درجة "الادلاء بتصريح أرعن عند الظهر قد يكون ذريعة لحصول مذبحه مساء اليوم ذاته وعلى بعد عشرات آلاف كيلومتر من هناك. وفي بعض الأحيان تكون شائعة باطلة تنشر عن سوء نية أو بسبب سوء فهم"²¹² وما يحق لنا أن نشكو منه ونأسف له، في نفس اللحظة، هو الهوة المتزايدة عمقا التي أحدثتها الطفرة التقنية والتقدم التكنولوجي وأخرجت ثقافات وهويات من عزلة كانت هوة محفوفة بالأخطار وغير مُصاحبة أو مواكبة بوعي وقيم يمكنان من تأمين حماية الناس وحقهم في الاختلاف ومواجهة العواقب المفجعة وهذا يستلزم ثورة في تعليمنا وتربيتنا لاستدراكه. يقول محمد أركون: "الكارثة وقعت وزعزعت كل الضمائر وأدت إلى دمار واسع وأنذرتنا، بما هي كذلك، بأن نفكر ونعمل في سبيل أن يتمكن العالم من عدم التعرض لصدمات مماثلة من

²¹² - أمين معلوف، اختلال العالم، مرجع سابق، ص 81.

شأنها أن تلقي به في دوامة العنف الدائم"²¹³ ونقول تجاوبا لا ردا، كيف يمكن تحقيق ذلك؟ بأية وسائل وآليات يمكن تطبيقها على الصعيد الدولي، شرقا وغربا، في دار الاسلام وعند الغرب؟

في تصورنا، يمكن للتعليم تحمل المسؤولية شبه كاملة والمعلمون يمثلون الخط الأمامي لنظام التعليم في منع التطرف العنيف ومكافحته. توصية الاستثمار في التعليم والدور المهم الذي قد يؤديه في تعزيز مناعة الشباب منذ مرحلة الطفولة المبكرة - بما في ذلك التنقيف والتدريب في مجال حقوق الإنسان - وتوفير التعليم الجيد النوعية للجميع واحترام حرية الدين والتحصين ضد التعصب والتطرف والتحريض على الكراهية لدى فئة الشباب خاصة، من بين خلاصات نتائج حلقة النقاش المتعلقة بأبعاد حقوق الانسان في سياق منع التطرف العنيف ومكافحته خلال الدورة الثالثة والثلاثون لمجلس حقوق الإنسان بالجمعية العامة للأمم المتحدة²¹⁴.

في هذا الصدد، يقدم منشور اليونسكو دليل المعلم حول منع التطرف العنيف "المشورة العملية للمعلمين بشأن الكشف عن دوافع التطرف العنيف ومناقشتها وتنظيم فصول دراسية شاملة يتم فيه تعزيز الحوار القائم على الاحترام والتفكير النقدي. يسلط الدليل الضوء على علامات الإنذار المبكر مثل حالات القطيعة المفاجئة مع العائلة والأصدقاء أو زيادة السلوك المعادي للمجتمع"²¹⁵ ويعد منشور آخر معنون بمنع التطرف العنيف من خلال التعليم: دليل لصانعي السياسات مكمل للمنشور السابق ويمثل في جوهره "أداة لمساعدة صانعي السياسات والمديرين على تهيئة بيئات تعليمية آمنة وشاملة تعزز قدرة المتعلمين على التصدي والمشاركة بشكل مسؤول في شؤون المجتمع"²¹⁶. يراهن مهندسو الدليل على أن للمنهج التربوي دورا أساسيا في صياغة فهم المتعلمين لأنفسهم والعالم من حولهم وتطوير "مزايا هي في صميم التعليم حول المواطنة العالمية

²¹³ - محمد أركون وجوزيف مايل، من منهاتن إلى بغداد، مرجع سابق، ص 13.

²¹⁴ - <https://www.refworld.org> (Accessed 21/01/2020)

²¹⁵ - الأمم المتحدة، مكتب مكافحة الإرهاب، دليل مرجعي، وضع خطط العمل الوطنية والإقليمية لمنع التطرف العنيف، الطبعة الأولى، ص 37.

²¹⁶ - المرجع نفسه، ص 39.

أولا مطلعون وملمون بطريقة ناقدة، ثانيا منفتحون اجتماعيا ويحترمون التنوع، ثالثا مسؤولون أخلاقيا ومنحرفون" ²¹⁷ من خلال طرائق ومقاربات مقترحة حول المنهاج.

كما وضعت الأمم المتحدة ممثلة في مكتب مكافحة الارهاب دليلا مرجعيا لخطط العمل الوطنية والإقليمية لمنع التطرف العنيف، يتضمن سبع مجالات من بينها تمكين الشباب والتعليم والاتصالات الاستراتيجية عبر "إنشاء آليات لإشراك الشباب في الترويج لثقافة السلام والتسامح والحوار بين الثقافات وبين الأديان وأن تعمل حسب الاقتضاء على بلورة فهم لاحترام كرامة الإنسان والتعددية والتنوع، بسبل منها برامج التعليم التي يمكن أن تشيهم عن المشاركة في أعمال إرهابية والتطرف العنيف المفضي إلى الارهاب والعنف وكراهية الأجانب" ²¹⁸.

تمثلت المشاركة المغربية في خطة فاس بشأن دور الزعماء الدينيين في منع التحريض على العنف الذي يمكن أن يؤدي إلى ارتكاب جرائم وحشية والتي تقوم على "تسخير التأثير الفريد للقادة الدينيين من خلال التشاور معهم في وضع مبادئ واستراتيجيات يمكن أن يسترشد بها الزعماء الدينيين من كافة العقائد في اتخاذ إجراءات فعالة لمنع التطرف ومكافحة التحريض عليه...فضلا عن دعم الحوار بين الأديان والتنقيف" ²¹⁹.

ختاما، لم يراكم أي عصر معارف عن الإنسان والحياة والكون ولم ينجح أي عصر في جعل المعرفة سهلة المنال مثل عصرنا هذا ومع ذلك يؤشر العنف لجهل من نوع خاص وتكمن "الغربة في بعض الحالات، في أن نفهم الحضارات البعيدة أو الغريبة أكثر من حضارات جيراننا الخاصة أو أسرتنا، لأن سوء التفاهم سببه أصلا نحن. نحن لا نمثلك وعيا بالمواطنة المشتركة التي ينبغي أن تصنع من مواطني الأرض - الوطن" ²²⁰.

²¹⁷ - اليونسكو، منع التطرف العنيف من خلال التعليم، دليل لصانعي السياسات، 2018، ص 59.

²¹⁸ - الأمم المتحدة، دليل مرجعي، مرجع سابق، ص 30.

²¹⁹ - المرجع نفسه، ص 20.

²²⁰ - ادغار موران وجان بودريارد، عنف العالم، مرجع سابق، ص 86.

إلى جانب الاشكاليات السالفة الذكر والتي تشكل مجتمعة حاجزا منيعا أمام أي تواصل أو حوار بين الثقافات، نعيش يوميا الفجوة الحضارية وعدم التوازن بين الشرق والغرب وسيادة الحضارة الغربية - بأدوات تكنولوجية- مقابل غياب مشروع حضاري شرقي، يعاني من صعوبات معرفية تعترض التواصل الحضاري وحوار الثقافات من مثل عدم تعلم اللغات الأجنبية والقدرة على توظيفها في التواصل والحوار والاطلاع على المنظومات الفكرية والارث الإنساني للثقافات الأخرى والنأي عن فهم ديانات سماوية أخرى بدعوى أنها مزورة حيث نجح الغرب إلى حد ما في تأسيس تقليد عقلي جامعي يهتم بحضارة المسلمين ولم نجد لمثل هذا الاهتمام نظير في الجامعات العربية والاسلامية لدراسة وفهم الغرب المتعدد تاريخا وفكرا ودينا وثقافة ماعدا تعليم وتعلم بعض من لغاته.

بدورها تراكمات البعد التاريخي للعلاقات الحضارية - القابعة في اللاوعي الجمعي للأفراد- منذ زمن المد الإسلامي والنزاعات التاريخية بين الإسلام والمسيحية والحروب الصليبية كذكرى سيئة واستعمار الدول العربية والاسلامية بكل تجلياته العسكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية وما سلبه من ثروات وما خلفه من صور محزنة ما زالت جاثمة في مخيلتنا والدور السلبي للإعلام في تهميط صور بعينها عن الإنسان العربي المسلم والتوظيف غير الناجع للانترنت ذات المحتويات الرقمية المتناثرة والمتباينة والمتناقضة أحيانا وغير الخاضعة للتنقيح.

تحيلنا اشكاليات التواصل الحضاري وحوار الثقافات المرصودة في هذا العمل على أبعاد وامتدادات متعددة ستساعدنا في تفكيك عناصر الموضوع ومساءلتها مساءلة علمية موضوعية. فما هي يا ترى هذه الأبعاد؟

المبحث الثالث: أبعاد وامتدادات التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

اقتضى الحديث عن أبعاد وامتدادات التواصل الحضاري وحوار الثقافات الوعي المركب بقضايا فكرية وثقافية وحضارية ودينية، توزعت بين التنوع الثقافي والتعدد اللغوي والترجمة والمشارك الإنساني.

التنوع الثقافي، من الموضوعات التي حظيت باهتمام كبير في الكتابات الثقافية الحديثة والتي تثير رفضها القاطع لمقولة حتمية النزاعات بين الثقافات واقتناعها بأن الحوار بين الثقافات هو أفضل ضمان للسلام. الحوار الذي لن يتم بدون تعدد لغوي، ما دمنا في عالم متعدد الثقافات، فهو عالم متعدد اللغات يتميز بفسيفساء لغوية واسعة ذات أبعاد محلية وإقليمية ودولية تضمّر التساؤل: أليس التحدث بأكثر من لغة يزيد من القدرات المعرفية وكفاءة الذاكرة والتواصل بسهولة مع الآخرين والإبداع والتكيف مع ثقافة أخرى وحل مشكلات يومية ناجمة عن عدم فهم أو عدم التحدث بلغة معينة؟

وليكون هناك حوار مع الآخر المختلف ثقافيا ودينيا ولغويا، لابد من فتح النوافذ على الثقافات الأخرى ولابد أن تكون هناك ترجمة وافية، باعتبارها ضرورة تواصلية ونافذة للتعرف على الآخر وفهمه فهما عميقا والاستفادة من معارفه وثقافته، ومن ثم تعبر الثقافات والحضارات لبعضها البعض وتتلاقى وتتلاقح ونرى أننا نتشارك وحدة المصير وأن عالمية الاشكالات والأزمات تفرض وعيا بعالمية الحل المشترك ومد الجسور عبر الحدود وأنها بحاجة إلى حكمة تنطلق في البحث عن المشترك الإنساني لتصل للإجماع الأخلاقي بين الثقافات وتحقيق مبدأ الأخوة الإنسانية والعيش المشترك بسلام.

أولا: تعزيز التنوع الثقافي قوة محركة للتواصل الحضاري وحوار الثقافات.

تتميز المجتمعات وتختلف بعضها عن بعض وتتنوع نتيجة لذلك ثقافتها ذات الأبعاد الإنسانية. نقول ثقافات وليس ثقافة، بمعنى أن التنوع سمة مميزة للجنس البشري، ضروري ضرورة التنوع البيولوجي في الطبيعة وملح من ملامح الثقافات وخاصة ملازمة لها، يستتبت في حقل للديموقراطية وحقوق الانسان، خاصة الحقوق الثقافية.

يقصد بعبارة التنوع الثقافي "تعدد الأشكال التي تعبر بها الجماعات والمجتمعات عن ثقافتها وأشكال التعبير هذه يتم تناقلها داخل الجماعات والمجتمعات وفيما بينها"²²¹ ويعرفها الموقع الالكتروني للدبلوماسية الفرنسية: "الاتصال بين الثقافات المختلفة التي

²²¹ - اليونسكو، اتفاقية حماية وتعزيز تنوع أشكال التعبير الثقافي، باريس، 2005، ص 4.

عليها أن تتعايش في نفس الرقعة الجغرافية"²²². تنطوي أشكال التعبير الثقافي على إبداع الأفراد والجماعات لمضامين وقيم ثقافية وجمالية شكلت عبر التاريخ البشري تقاليد ورموز ومواقف وفنون وأبعاد اجتماعية. تتوع الثقافات أحد محركات التداخل والتفاعل تارة والتصادم تارة أخرى، تظهر أهميته في اللغات والتعليم والاتصال والإبداع، المداخل التي تعد أساسية لصون التنوع الثقافي وتنميته، كما تزداد أهميته كبعد من أبعاد حوار الثقافات وتواصل الحضارات.

ساهم تطور المد الحقوقي على الصعيد العالمي، في ظهور مؤسسات دولية، منها ما هو تابع للأمم المتحدة، تدافع عن إرساء سياسات دولية ووطنية وإقليمية ترمي إلى صون فسيفساء الثقافات وإبراز الاختلافات الثقافية ومعارضة تمركز وسيادة ثقافة بعينها. هذه المؤسسات بمثابة منصة للتفاوض والحوار وتبادل وجهات النظر، بمساعدة آليات الاتصال والتواصل التقليدية والحديثة، التي سمحت لكل الثقافات أن تعرف وتعبر عن نفسها وتصل للعالمية والبشرية جمعاء، من دون مواجهة أو صراع فكري أو دموي، بل في إطار تعدد ثقافي كرد فعل سياسي على واقع التنوع الثقافي.

على ضوء ما تقدم وضمنا لوجود ثقافي فاعل ومتوازن واستمرارية للتنوع، أي مشروع أو تصور للتواصل الحضاري أو الحوار بين الثقافات في عالم متغير يتطلب الإقرار بواقع ومبدأ التنوع الثقافي واستيعاب المتغيرات الجذرية العالمية، باعتبارهما سبيلاً للحفاظ على الخصوصية من جهة وبناء التعايش والتسامح والسلام الدولي بين بني البشر من جهة أخرى ويجعلنا نتساءل، أيضاً، عن مفهوم التنوع الثقافي ودوره في تعزيز التواصل الحضاري وحوار الثقافات وكيف يمكن لمنظومة التربية والتعليم إبراز التنوع الثقافي وصونه من خطر العولمة؟ في منحى تعليمي يتكامل فيه الثقافي والتربوي، الأول بتنوعه والثاني بأهمية أفقه المعرفي وقيمه وأدواره الاستراتيجية.

²²² - <https://www.diplomatie.gouv.fr/ar/politique-etrangere-de-la-france/article/comprendre-la-diversite-culturelle> (Accessed 04/04/2020)

في إطار المهمة المحددة التي عهدت إليها لصون وتعزيز التنوع المثمر للثقافات، أقرت منظمة اليونسكو إعلاناً عالمياً للتنوع الثقافي²²³، اعتمد في مؤتمرها العام - الدورة الحادية والثلاثين - بباريس، يوم 2 نوفمبر 2001، ووصف التنوع الثقافي تراثاً مشتركاً للإنسانية وعاملاً محركاً للتنمية ومصدراً للإبداع وحفا من الحقوق الثقافية، لا يمكن فصله عن وجود إطار ديموقراطي للتعددية الثقافية يمكن أن يكون مسوغاً وحافزاً لقيام حوار حقيقي بين الثقافات.

تشير المادة الأولى²²⁴ من هذا الإعلان أن الثقافة تتخذ أشكالاً متنوعة عبر المكان والزمان ويتجلى هذا التنوع في أصالة وتعدد الهويات المميزة للمجموعات والمجتمعات التي تتألف منها الإنسانية. ومن ثم فالتنوع الثقافي ضروري للجنس البشري ضرورة التنوع البيولوجي بالنسبة للكائنات الحية، يلزم الاعتراف به والتأكيد عليه كمصدر للتبادل والتجديد لصالح أجيال الحاضر والمستقبل وجعله متاحاً للجميع بضمانات متعددة، نجملها في التداول الحر للأفكار عن طريق الكلمة والصورة وتمكين كل الثقافات من التعريف بنفسها والمساواة في فرص الوصول إلى أشكال التعبير الفني والمعارف العلمية والتكنولوجية ووسائل التعبير والنشر، بما فيها الرقمية.

ثمة تقارب واضح بين التنوع الثقافي والابداع بوصف الأول ملهماً للثاني ودافعاً للاستثمار فيه، حيث "كل إبداع ينهل من منابع التقاليد الثقافية ولكنه يزدهر بالاتصال مع الثقافات الأخرى، لذلك لا بد من صون التراث ونقله إلى الأجيال القادمة كشاهد على تجارب الإنسان"²²⁵ ومشروع لإحداث التحول في المجتمعات المعاصرة التي تنوق إلى الممارسات الفنية القادمة من خارج جغرافيتها والتي تزيل بدورها حدود الفن بين الثقافات.

²²³ - <https://www.un.org/ar/events/iyl/resources/127160m.pdf> (Accessed 02/04/2020)

²²⁴ - اليونسكو، إعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي، باريس، 2001، ص 4 .

²²⁵ - المرجع نفسه، ص 5.

نَسُوقُ نموذجاً عظيماً لهذه الفكرة من القيمة الفنية والحضارية للتراث الإسلامي في المتاحف الأوروبية، من مثل جناح الفن الإسلامي على الضفة اليمنى لنهر السين، في متحف اللوفر في فرنسا²²⁶، الذي يرتاده زهاء 9 ملايين زائر سنوياً²²⁷ والمعروف بأيقونة الهرم الزجاجي، من تصميم أحد المهندسين المعماريين الصينيين. القسم الإسلامي بهذه المعلمة الثقافية العالمية، يبهّر زواره في باريس وأبوظبي ويشمل اثنا عشر قرناً من التاريخ على امتداد جغرافية ثلاث قارات، من إسبانيا إلى الهند، ويعكس صورة الإسلام الحضارية والاعتراف بتنوعها البديع والخالق في آلاف القطع والأعمال الفنية - نحو 3000 عمل فني²²⁸ - تغطي أروع أشكال الفن في الحضارة الإسلامية التي تلاقت مع حضارات وثقافات من إسبانيا (الأندلس) إلى الهند، منها عدة تحف بالمعرض تحكي تاريخ من التعايش الإسلامي والمسيحي واليهودي.

بجانب التراث الروماني واليوناني، يضيف وجود تراث الشرق المسلم وكنوزه المبدعة - بقيمتها الفنية المبهرة - في متاحف الحضارة الغربية، رصيذاً للتواصل الحضاري والحوار بين الثقافات ويحول النظرة إلى العالم الإسلامي من المنظور الإثني إلى المنظور الثقافي ويجيب عن أسئلة للباحثين الغربيين حول فهم تاريخ الإسلام وأنماط الثقافة الإسلامية ودورها في ترسيخ الهوية الإسلامية لثقافات متعددة في إنجازات ثقافية، من سمرقند وقرطبة والقاهرة واسطنبول ودمشق وبغداد و.... أفرز تراثها الثقافي الإسلامي: مخطوطات قرآنية، مؤلفات فكرية في مجالات الطب والهندسة و...، كتب مترجمة، مجوهرات، مصابيح من مساجد إسلامية، رسومات هندسية على الخشب، تحف فنية، زخرفة معمارية.... وعكس هذا التراث تنوعاً ثقافياً وابداعاً تلاحق على مر التاريخ مع حضارات أخرى، يستحيل أنها لم تستلهم منه ما ينفعها.

²²⁶ - <https://www.louvre.fr/departments/arts-de-lislam> (Accessed 02/04/2020).

²²⁷ - <https://www.diplomatie.gouv.fr/ar/tourisme-en-france/culture/article/decouvrez-le-musee-du-louvre-a-paris> (Accessed 02/04/2020).

²²⁸ - ibid.

عندما نجد نسخة نادرة من المصحف الشريف أو محراب الصلاة أو قبة مسجد في متحف في الفضاء الأوروبي، وبغض النظر عن سر تواجدها، يهمننا في حاضرتنا هذا، أن التنوع الثقافي يبدو ظاهراً للعيان في الأعمال الكبرى التي خلفتها الأديان، داخل أماكن العبادة وفي نمط العيش البسيط وفي طريقة دفن الموتى. في عصرنا هذا، انظم إلى متلازمة التنوع والابداع تسليع الثقافة لإثبات ذاتها وتحويل الفعل الثقافي إلى قيمة سوقية، توطرها سياسات ثقافية تكفل الظروف المواتية لإنتاج ونشر وتسويق منتجات وخدمات ثقافية محلياً وعالمياً. النتيجة انفتاح الثقافة على السوق بما يفسح المجال للتواصل الحضاري وحوار الثقافات بالموازاة مع العائد المادي.

في نفس السياق، حددت اليونسكو سياسات وأهداف تراعي التنوع الثقافي وفق خطة عمل²²⁹ من عشرين تدبيراً تتطرق لتخطيط وتنفيذ برامج ثقافية وتعليمية ملائمة لتعزيز مفهوم الحوار، نذكر منها:

- الحث على تعلم عدة لغات منذ الطفولة المبكرة وتعزيز التنوع اللغوي في المجال الرقمي وشبكات الاتصال العالمية.
- العمل عن طريق التعليم على حفز الوعي بالقيمة الإيجابية للتنوع الثقافي والقيام لهذه الغاية بتحسين تصميم البرامج الدراسية وإعداد المعلمين.
- اتقان تكنولوجيات المعلومات والاتصال واعتبارها مواداً للتدريس وأدوات تعليمية داعمة للفعل التعليمي.
- التصدي للفجوة الرقمية وتسهيل التداول الرقمي للمنتجات الثقافية المحلية وتيسير الانتفاع بالموارد المتاحة على الصعيد العالمي في مجالات التربية والثقافة والعلوم.

واستناداً إلى الاعلان العالمي السالف الذكر واستجابة للنداءات والبيانات الصادرة عن ندوات ومؤتمرات الإيسيسكو، تبنت الدول الاعضاء في المؤتمر الإسلامي الرابع، سنة 2004 مبادئ وأهداف التنوع الثقافي في إعلان إسلامي²³⁰ يعتقد أن تنوع الثقافات

²²⁹ - اليونسكو، اعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي، مرجع سابق، ص 6.

²³⁰ - الإيسيسكو، الإعلان الإسلامي حول التنوع الثقافي، 2004، ص 4.

والحضارات نعمة من الله وأن المسلمين يضطلعون برسالة انسانية في تركيز أسس السلم العالمي، معتبرا التنوع الثقافي ثروة ينبغي أن لا تكون مصدرا للنزاع والتوتر ونبد الآخر، بل سبيلا إلى توسيع الأرضية المشتركة ودعم فرص التعاون البناء والحوار الحقيقي بين الثقافات والحضارات.

التصور الإسلامي الوراد في الاعلان يرى الحوار اختيارا استراتيجيا يفتح أمام الانسانية آفاقا واسعة لبناء عالم جديد يحترم أشكال التراث الثقافي، سواء كانت مادية أو غير مادية، لا بديل عن الحوار للمحافظة على التنوع الثقافي، كما أن لا مستقبل لحوار الثقافات والديانات إن لم ينهل من تعدد القنوات والروى الثقافية، في زمن شكلت فيه العولمة تحديا للموروث الإنساني المشترك وتتلقى الاتهامات بالدفع بقوة في اتجاه اذكاء الصراع واضعاف ثقافة الحوار والتفاهم مما يتعارض مع روح القانون الدولي والمعاهدات التي تقر بالخصوصيات الثقافية والحضارية للأمم والشعوب.

عودة لأهمية التنوع الثقافي كعامل من عوامل التنمية ودافع لتشجيع الانتاج الثقافي والسياحة الثقافية، يمكن للثقافة الاسلامية الاسهام في اغناء التنوع الثقافي بالتواصل مع العالم من خلال المراكز الثقافية الإسلامية بالخارج والعمل على دعم مراكز البحوث الدولية التي تتناول القضايا الاسلامية بموضوعية وإقامة الندوات المشتركة وتنظيم المعارض الثقافية وتشجيع دور النشر العالمية على ترجمة روائع الدراسات الإسلامية إلى اللغات العالمية، لكن القضية لا تتوقف عند هذه الأبعاد فقط، فالتنوع الثقافي ليس أصولا ثقافية - بتجلياتها المادية وغير المادية- ينبغي الحفاظ عليها، بل موارد ومعالن وفنون يجب التعريف بها وتطويرها وتنميتها والمبادرة للتواصل والحوار بشأنها عالميا، وكأنها مشروعا للمستقبل وليس إرثا من الماضي خاضعا للإتجار، إذ يحظر ويمنع، بموجب اتفاقيات دولية، استيراد وتصدير ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بطرق غير مشروعة.

التواصل الحضاري والحوار الثقافي، على الصعيد العالمي والوطني والاقليمي، سبيل لتعزيز التنوع الثقافي وتحفيز التفكير في تحدياته، فالتواصل سيجعل من التنوع الوجه الإنساني للعولمة في "فهم الرباط الذي تقيمه إشكالية التنوع الثقافي مع الديموقراطية

في سياق العولمة²³¹ ويخفف الارتباط بين الثقافة وموقعها الجغرافي من خلال الترويج لها على نطاق واسع، فعوض أن تبقى منكشحة على ذاتها، يتزايد معرفة وفهم الممارسات الثقافية المتباينة، مستفيدة من مزايا التكنولوجيات الرقمية وفرص السياحة الدولية التي تضاعف التواصل والتبادلات الثقافية.

لقد غدا التواصل الصوت الوحيد القادر على توحيد عالم فوارقه الثقافية سبب صراع وصدام يهدد مصير الإنسان على هذا الكوكب وخط الأمان الوحيد ضد التجانس أو التتميط الثقافي الذي تفرضه الامبريالية الثقافية، كما يعرفها عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو ولويك واكانت "عنف رمزي يستند إلى علاقة تواصلية اكرائية لاغتصاب الخضوع وتكمن خصوصيته في أنه يعولم الخصوصيات المتعلقة بتجربة تاريخية فريدة والاعتراف بها بوصفها عالمية"²³².

التنوع في حاجة إلى قوة دافعة بمنظور فكري ناظم، أدواته عملية ومبتكرة. إنها قوة التواصل بمنظور تربوي راهنا عليه. التنوع الثقافي بدلالاته ومدخلاته التي سبق الخوض فيها، يدعونا إلى تأملات تربوية تتطرق من سؤال مركزي: هل يمكننا الاستثمار في التنوع الثقافي انطلاقاً من التعليم المنصة العالمية للمعرفة وركيزة الحضارة؟ أجل، يمكن. الجواب في تصريح السيدة ايرينا بوكوفا، المديرة العامة السابقة لليونسكو، بمناسبة اليوم العالمي للتنوع الثقافي من أجل الحوار والتنمية بتاريخ 21 ماي 2014: "علينا أن نطور لدى الشباب، من خلال التعليم، كفاءات التفاعل بين الثقافات لإحياء تنوع عالمنا ولتعلم العمل معاً، في بيئة يسودها تنوع لغاتنا وثقافتنا وأدياننا، من أجل إحداث التغيير"²³³.

اعتباراً لتلازم التعليم والثقافة ودقة المرحلة النمائية التي تعيشها الطفولة في الفصول الدراسية وأثر هذه المرحلة في حاضرها ومستقبلها، يتعين أن يحتل التنوع

²³¹ - أرمان ماتنار، التنوع الثقافي والعولمة، ترجمة خليل احمد خليل، دار الفارابي، لبنان، الطبعة الاولى، 2008، ص 211.

²³² - أرمان ماتنار، التنوع الثقافي والعولمة، مرجع سابق، ص 104.

²³³ - <http://www.unesco.org/new/ar/unesco/events/prizes-and-celebrations/celebrations/international-days/world-day-for-cultural-diversity-for-dialogue-and-development/> (Accessed 04/04/2020)

الثقافي مكانة في قلب كل منظومة للتربية والتكوين ليستكشف رواده مفهوم التنوع الثقافي السائد في المجتمع وما يتضمنه من أوجه التشابه والفوارق الثقافية - جذور العديد من الصراعات- والتداخل والتشابك بين الثقافات. التعليم هو المنبر الذي يؤمن لكل الثقافات فرصة للتعبير عن نفسها والتعارف فيما بينها. لذا تغدو الأهمية لإدماج مختلف التعبيرات الثقافية وأشكال التراث العالمي في مكونات المنهاج التربوي وفق منظور «التعلم من أجل العيش المشترك» وتطوير قدرات التعامل مع الثقافات واستكشاف ما هو مختلف أو مجهول وتشكيل الأذواق الفنية والقيم الانسانية ورؤى العالم وخلق أشكال جديدة من الاجتماع البشري.

يكمن التحدي الثقافي لكل منظومة تعليمية في المجتمع متعدد الثقافات، اعترافها وتقبلها المساواة بين الثقافات، في إطار مشروع تربوي يضفي الايجابية على الفروق الثقافية والأشكال المتنوعة من المعارف وطرائق التعبير والتقاليد وأنماط السلوكات والمعتقدات الدينية المرتبطة بالثقافات السائدة في المجتمع ويؤكد القيم المشتركة بين الثقافات المحلية ونظيرتها العالمية ويخفف التوترات ونزاعات الماضي المتبقية في الذاكرة الجماعية.

التفكير في إدارة وتدبير التنوع الثقافي تعليميا يخفف التغيرات الثقافية، من هجنة أو استلاب أو ازدواجية سبق أن أحدثتها الصلات بين الثقافات بسبب آثار شبكات الاتصال والمعلومات العالمية ونمو الهجرة الدولية والسياحة على التنوع الثقافي وفي نفس الآن، يمنح أمصلا للثقافات المحلية ويحقق توازنا واعيا وتفاعلا وتبادلا بين الثقافات، داخل المجتمع الواحد وما بين المجتمعات.

نعول على التعليم ومؤسساته، كذلك، لتنمية الابداع والانتاج الثقافي في حقول معرفية عديدة في ضوء التنوع الثقافي الحاصل في المجتمع نظرا لما يوفر التعليم من بيئة وفضاءات أرحب للتعبير الحر والتساؤل والتفكير المستقل والاستكشاف وتحقيق الذات وتطوير امكانات الفرد وصقل الميولات وتوليد الأفكار المبدعة والارتقاء بها منذ زمن مبكر. لذلك، نرى من المُلح، تطعيم المناهج الدراسية بالحق في التنوع الثقافي وتقدير مقومات ومعالم الثقافات واحترام الشعائر الدينية باعتبارها أصولا لديانات سماوية، من

شأن التعرف عليها بتبديد سوء الفهم وإدراج مضامين ثقافية ضمن مجالات التعلم في مختلف البرامج الدراسية والحوامل التعليمية، كجزء من تقدير التنوع واحترامه قبل أي تواصل أو حوار ممكن.

يمكن قياس مدى التنوع الثقافي في مجتمع ومنظومة تعليمية معينة بحيوية التنوع اللغوي فيهما، نظرا لوظيفة اللغات التواصلية وسلطتها في الجذب - اللغات المهيمنة تمارس سلطة جذب - ودورها في نقل جوانب مهمة من نسيج التعبيرات الثقافية بين ثنايا المؤلفات وفي رسم الحدود أو إزالتها بين الجماعات الثقافية. لنعيد التأكيد أن إدماج اللغات في المنظومة التعليمية كأداة استراتيجية للتنوع اللغوي وليس أدوات الإعلام. إن الحاجة ملحة لحماية التنوع اللغوي كأحد مستلزمات التنوع الثقافي وحوار الثقافات، سيما مع تزايد القلق حول اختفاء المزيد من اللغات على الصعيد العالمي "كل أسبوعين تختفي لغة لتأخذ معها تراثا ثقافيا وفكريا كاملا"²³⁴.

يتطلب الأمر كذلك، توفير الفضاءات التربوية والآليات التواصلية المناسبة لخلق سياق ثقافي للحرية الثقافية والحوار وتسليط الضوء على القوالب النمطية الثقافية التي تضع الحدود الفاصلة بين جماعة ما والآخر الغريب عن ثقافتها وتحمل معها خطر اللاحوار أو تعثر التواصل. إنها المهمة التي تتطلب تحفيز البحث العلمي حول المعالم الثقافية التاريخية وأشكال التراث الثقافي المحلي وإعادة دراسته دراسة نقدية وتشجيع الدور التواصلية لترجمة مزيد من الأعمال الأدبية العالمية إلى اللغة العربية وإقامة شراكات تعليمية وبحثية حول موضوعات ثقافية تعزز المشترك الإنساني والحوار وتنبذ الصراع.

نختصر مما تقدم، في عالم مشبع بشتى أنواع الصراعات والتوترات وموجات العنصرية والكراهية والتطرف، ما فتئت تضيّع الفرص أمام الإنسانية للاستفادة من التنوع الثقافي ولا تزال الثقافات تفتح نوافذها لنور الشمس أملا في حد أدنى من الوجود والتعايش الثقافي ويستمر التحدي قائما بين الاعتزاز بالانتماء لثقافتنا والانفتاح على الأخرى، التحدي الذي يجب رفعه بالمعرفة والفهم أولا والتواصل ثم الحوار ثانيا في

²³⁴ - <https://www.un.org/ar/observances/mother-language-day> (Accessed 04/04/2020)

مشائل وحقول التربية والتعليم، ونحن نعمل معاً، أفراداً ومؤسسات، من أجل حماية التنوع الثقافي.

تكامل ما هو تعليمي مع ما هو ثقافي، يقتضي تكاملاً آخر للتنوع الثقافي مع مسار العولمة وتهديداتها لمصير الثقافات، من موقعها كدافع إيجابي للتعارف والتبادل ومدعاة للتقارب بين أشكال التعبير الثقافي. كما يقتضي تعزيز حقوق الإنسان واستفادة جميع الثقافات في حقها في الوجود على قدم المساواة والانفتاح عليها في الخطاب الاعلامي العالمي.

الحال، إذن أن المشهد الثقافي العالمي، بالرغم من عدم تناسقه وانسجامه، لن يكون يوماً خاضعاً لنمط ثقافي واحد مهيمن على باقي الثقافات أو أنماط ثقافية منغلقة ترفض التعايش والانفتاح والتواصل، بل مشهد يستفيد من ثراء التنوع والاختلافات الثقافية التي يعج بها، قائم على فكر إنساني ذي جوهر أخلاقي مشترك بين الإنسانية، يحميه من حمى الايديولوجيات ونزعات السيطرة. يكمن الجمال في الألوان مجتمعة وليس في لون واحد.

من المؤكد أن قضايا التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات وتعزيز التعليم للجميع تمثل محاور مركزية في عمل منظمات دولية - اليونسكو مثلاً - وإقليمية عديدة، ولكن يستحيل السير قدماً في هذه المجالات بدون التزام دولي يحدد مؤشرات ومجالات التنوع الثقافي في مرصد عالمي ومساهمة الدول والمنظمات الدولية في بلورة استراتيجية ثقافية للعالم الاسلامي المصنف في أسفل السلم الحضاري، يستهلك المنتجات الثقافية الغربية ولا يوفر غير مصادر الطاقة للحضارة الغربية.

ليبقى التساؤل مفتوحاً في وجه رواد البحث العلمي: كيف يمكن للمنظومة التربوية عامة والمغربية خاصة إبراز التنوع الثقافي وصونه من خطر العولمة؟ في تعليم متعدد الثقافات يعكس التنوع ويشجع على فهم الثقافات وأساليب الحياة المتنوعة، تصور يوفر فرص عادلة لجميع الأطفال ذوي الخلفيات الثقافية المختلفة وتمكينهم في الوقت نفسه من

التفاعل مع أقرانهم في مجتمع ذي خلفيات ثقافية متنوعة. لعل البداية من تبني خيارات لغوية وليس خيارا لغويا وحيدا، فماذا عن التعدد اللغوي؟

ثانيا: التعدد اللغوي مطلب حضاري للتواصل والحوار في عالم متعدد اللغات.

اختلف الباحثون في تعريف اللغة وتحديد مفهومها ولا يعني موضوع بحثنا تتبع هذا الاختلاف بقدر ما يهمنا أن لا مجال لفهم الأفكار والأحداث والعواطف والتواصل والحوار دون نسق رمزي ونظام لفظي ودلالي، هو اللغة موطن التفكير والتصورات الثقافية والاجتماعية و...، حاضنة الفكر الإنساني والبعد الثقافي لكل مجموعة بشرية وناقلة للحضارة من جيل إلى جيل، لذلك يقال "لا يتم اجتماع بشري بغير لغة وهي رابطة العقد لخريطة المعرفة الإنسانية وركيزة التواصل الثقافي الفعال تعليما وإعلاما وحوارا وتراسلا"²³⁵ كمنظار يرى فيه الفرد العالم من حوله وجسر لفهم الماضي والعبور من الحاضر للمستقبل من خلال "نظام من الرموز التقليدية المنطوقة أو اليدوية أو المكتوبة التي يعبر عن طريقها البشر، كأعضاء في مجموعة اجتماعية ومشاركين في ثقافتها. تشمل وظائف اللغة الاتصال والتعبير عن الهوية واللعب والتعبير الخيالي والعاطفي"²³⁶.

تعد اللغة في المقام الأول من أيسر الوسائل المستخدمة للتبليغ عن الحاجات والرغبات والمواقف والاكتساب وأداة للتخاطب والتواصل والاندماج والتفاهم والتبادل والمحاجة وبناء العلاقة مع الآخر، تأثيرا وتأثرا. بما يجعلها "منظومة معقدة لها وظائف تواصلية ودلالية ورمزية وإنتاجية للمعارف، تخضع للتفاعل الموجود في المجتمع"²³⁷ وترتبط بأبعاد تاريخية وثقافية وسياسية واقتصادية تحدد مكانتها وكذلك بمكونات سوسيو-ثقافية محلية للمجتمعات والأفراد الناطقين بها والذين لا يستقيم لهم وجود حضاري وانتماء لثقافة معينة دون لغة للتواصل مع الذات الجماعية والآخر المختلف وموطن لتنمية وإثارة الأفكار والإبداع.

²³⁵ - عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، الطبعة الأولى، 2014، ص 80.

²³⁶ - <https://www.britannica.com/topic/language> (Accessed 25 /01/2020).

²³⁷ - رحمة بورقية، التعدد اللغوي بين المجتمعي والسياسي، مجلة المدرسة المغربية، المجلس الأعلى للتعليم، العدد 3، اللغات في المدرسة المغربية، مارس 2011، ص 15.

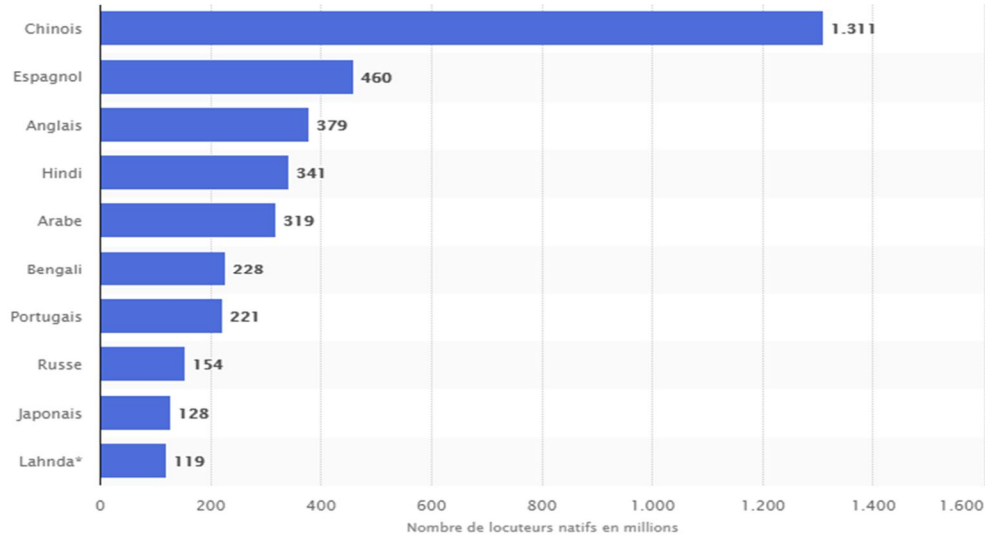
إذا سلمنا بالوظيفة التواصلية للغة وكونها من المقومات الجوهرية للهوية والخصوصية الثقافية للفرد، لا يمكنه التعبير عن كينونته وانتمائه إلا برموز لغته، كمصدر حي للمعرفة والقيم والمقومات الحضارية التي تميز مجتمعا أو ثقافة معينة عن غيرها من الثقافات، وجب تعلم اللغة أو اللغات الوطنية أولا كحاجز دفاع هوياتي يضمن للفرد خصوصيته الثقافية واستقلاله الفكري، ثم خوض غمار خبرة تعلم لغات أخرى ليتمكن من التعارف والتواصل الحضاري مع الآخر والتعرف على ثقافات مختلفة في وضعيات تواصلية. خصوصا إذا اتخذ هذا التعارف طابعا علميا رصينا، إذ من الثابت في البحث العلمي أن يكون الباحث الأكاديمي عارفا بلغات متعددة لكي يتسنى له الاطلاع على المصادر والمعلومات بلغتها الأصلية، كما أن التراكم المعرفي اللغوي هو حصيلة لإسهامات جميع الحضارات بمختلف اللغات، مقارنة وبحثا وتعلّما. في هذا الصدد، اللغات كالثقافات سواء. لا توجد لغة عليا ولغة دنيا، إلا بمقدار وظيفيتها التواصلية وقيمتها التداولية وإنتاجها للمعرفة.

الأفراد وخصوصا الأطفال واليا فعين والباحثين "أينما كانوا وأيا ما كانت اللغة الأولى التي سمعوها أو تعلموها، فإنهم يلاقون لغات أخرى في كل يوم فيفهمونها أو لا يفهمون ويتعرفون عليها أو لا يتعرفون ويحبونها أو لا يحبون وتحكمهم أو يحكمونها: فالعالم متعدد اللغات، تلك حقيقة واقعة والتاريخ اللغوي الذي هو مظهر من مظاهر تاريخ العالم ليس في جزء كبير منه سوى إدارة لهذا التعدد اللغوي"²³⁸ الذي يبدو من منظورنا الخاص وغير الملزم أنه حتمية في القرية الكونية التي نسكنها ونتحمل مسؤوليتها جميعا، إلى جانب "منحنا الشعور الحاسم بالهوية والانتماء، فإن اللغة والثقافة هي في الحقيقة ملح أرضنا. أليس هذا التنوع هو الذي يدفع التجارة والسياحة؟"²³⁹.

في العالم، هناك ما يتراوح بين 5000 و7000 لغة، يتم التحدث بها في حوالي 200 دولة وتوجد لغات حاملة لثقافات ملايين البشر بغض النظر عن انتشارها العالمي، كما يوضح ذلك الجدول أسفله:

²³⁸ - لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2008، ص

²³⁹ - <https://unchronicle.un.org/article/safeguarding-cultural-and-linguistic-diversity-context-global-citizenship>



ترتيب اللغات الأكثر استخداماً على نطاق واسع في العالم، وفقاً لعدد الناطقين بها في 2019²⁴⁰

التحدث بلغات مختلفة في بلد واحد ظاهرة شائعة جداً ومن الصعب العثور على بلد أحادي اللغة تماماً لأن تعددية اللغات هي القاعدة في جميع أنحاء العالم "الهند وحدها، على سبيل المثال، لديها 19 لغة رسمية، في حين أن جنوب أفريقيا لديها 11"²⁴¹. بغض النظر عن منح الحكومات اعترافاً رسمياً لواحدة فقط أو بعض اللغات التي يتم تداولها في مؤسسات الدولة وفي العديد من الدول تستخدم اللغات الرسمية وبعض اللغات الأجنبية - الأكثر تداولاً - في التعليم.

في خضم هذا الوعي بالتعدد اللغوي، تتبثق تساؤلات من قبيل: ما رهانات التعدد اللغوي وما هي مزاياه؟ هل التحدث بأكثر من لغة يلبي احتياجات التواصل الحضاري في جميع أنحاء العالم أم ظاهرة سلبية تضرب الهوية والخصوصية في مقتل؟ هل يؤثر الإقرار بالتعدد اللغوي سلبيًا على الهويات الثقافية ويؤدي إلى صراع في القيم أم يشكل قيمة مضافة وإغناء يؤدي إلى انفتاح وغنى؟ هل ينبغي النظر إلى إشكالية تعدد اللغات من زوايا التواصل والحوار مع الآخر أم من زاوية ذاتية وحيدة؟ وأي دور للتعليم والمناهج الدراسية في تدبير التعدد اللغوي في عالم معولم؟ من يحرص على العدالة اللغوية عالمياً ويدير التعدد اللغوي في ظل انتشار سريع للغة الانجليزية كلغة للكوكب؟

²⁴⁰ - <https://fr.statista.com/statistiques/565467/langues-les-plus-parlees-dans-le-monde/>

²⁴¹ - Education in a multilingual world, UNESCO 2003, p : 13.

يحيل التعدد اللغوي إلى وضع لغوي يستوعب ويستعمل فيه شخص ما أو جماعة بشرية معينة أو مؤسسة أكثر من لغة في التحدث والفهم وأداء جميع الوظائف التواصلية. يقول لويس جون كالفي «Louis Jean Calvet»: التعددية اللغوية هي قدرة الفرد على استخدام أكثر من لغتين²⁴²، بمعنى يحتوي التعدد اللغوي الثنائية اللغوية والازدواجية اللغوية ويفتح أبواب التواصل الحضاري وحوار الثقافات، في خضم التحولات التي يعرفها العالم اليوم.

رغم سهولة تعريف وتفسير التعدد اللغوي، المفهوم مثير للجدل في عالمنا المعاصر ويمكن مقاربته من زوايا مختلفة وفق مسوغات سياسية وتاريخية وجغرافية واقتصادية واجتماعية، كالاستعمار والتجارة الدولية وموجات الهجرة والجوار والاعلام والتعليم. على سبيل المثال لا الحصر، قامت بعض الدول والامبراطوريات بنقل لغتها إلى أجزاء أخرى من العالم، فانتشرت اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية واللغة الإسبانية في جغرافيا العالم كإحدى نتائج الاستعمار واستقطبت الثورة الصناعية وانتشار الشركات المتعددة الجنسيات عبر دول العالم الكفاءات التي تتقن أكثر من لغة وأسهمت حركة الهجرات في تضخيم التعدد الثقافي واللغوي في المجتمعات المعاصرة. أضف إلى ذلك تسويق الصحافة العالمية والإعلام المرئي والمسموع والمكتوب وتكنولوجيا الاتصالات والمنظمات الدولية الرسمية خدماتها بلغات معينة.

إن التعددية اللغوية ليست مشكلة، إنما هدية لها العديد من الفوائد في حياتنا المعاصرة وليست وضعا خاصا هنا أو هناك، يثير اشكالا أو يستجيب لحاجة تواصلية ضيقة مع الآخر، مقصورا على مجموعة بشرية دون أخرى. بل طريقا نحو المعرفة الإنسانية الشاملة وركيزة أساسية للمعارف على اختلاف أنواعها، فالمعرفة يتم إنتاجها ونقلها وتسخيرها والوصول إليها عبر الإلمام الجيد بعدة لغات وبالتالي فإن مكانة اللغات في انفتاح الفرد والمجتمع على عوالم المعرفة حاسمة ولا يمكن تصور مجتمع المعرفة بدون لغات بصيغة الجمع وبمعادلة تضم اللغة الأم واللغات الأجنبية.

²⁴² - لويس جون كالفي، حرب اللغات والسياسة اللغوية، ترجمة حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2008، ص

لعل أول ما ينبغي إبرازه في فضيلة التعدد اللغوي هو ثراء الحصيلة اللغوية للفرد وخصوصا الأطفال - الذين يملكون قدرات على اكتساب اللغات مؤكدة علميا- من حيث زيادة ومضاعفة الخبرات والمعارف والمهارات اللغوية التي يكتسبها بالتنوع اللغوي والثقافي المصاحب لها في فهم تاريخ أي أمة أو حضارة، زد على ذلك، انفتاح شخصية الفرد على ما يحيط به من أفكار وإبداع الثقافات الأخرى، من يمتلك ناصية اللغات يمتلك القدرة على التواصل وبناء الروابط مع الآخرين. في سياق العولمة وتحت تأثير الوسائط الالكترونية للتواصل، لم يعد بالإمكان الانغلاق في لغة محلية أو وطنية أو رسمية بل الانفتاح على اللغات بوصفها وسيلة المعرفة الأولى ووسيلة لإبراز الخصوصية الثقافية وإيصال صوت الثقافة المحلية إلى العالم في زمن "حولت العولمة اللغات القادمة من الدول المتقدمة التي احتلت مركز العالم المعرفي وعلى رأسها اللغة الانجليزية إلى لغات مهيمنة وحولت اللغات الواقعة في محيط العالم إلى لغات ثانوية رغم قدمها وعراقتها. وأصبحت اللغات في العديد من الدول النامية واللغة العربية منها في وضع الدفاع عن النفس"²⁴³.

في مسار آخر، لتعدد اللغات أيضا دورا أساسيا في الترجمة، كشكل من أشكال التواصل الحضاري وحوار الحضارات وجسر ثقافي يتيح التواصل واللقاء بين الثقافات، نتوسل بها لننتقل من حضارة لأخرى أو ننقل قضية أو فكرة أو نفهم ثقافة أخرى بمعتقداتها وقيمها وأدبها وفنونها. الترجمة بدورها تتطلب قارئاً استثنائياً يتقن أكثر من لغة، فاستبدال لغة النص المصدر بنص اللغة المستهدفة ليس بالأمر الهين لأنه يتم نقل لغة وثقافة من نص لآخر. بمساعدة الترجمة سنحكي التنوع الثقافي للكوكب كأحد أكثر التحديات إلحاحاً تواجه عالمنا.

الفضاء السيبرني، من موقعه، واجهة للتراث الإنساني المتعدد الثقافات والتقدم المذهل في تكنولوجيا الاتصالات فتح أفقا ومجالا رحبا للتعدد اللغوي والتواصل بين الثقافات، عبرولوج متعدد اللغات إلى الموارد الرقمية في الفضاء الإلكتروني، حيث تعج الشبكة العنكبوتية بكم هائل من المواقع التي تُعرف وتنتشر محتويات متعددة اللغات، رغم

²⁴³ - اليونسكو، بناء مجتمعات المعرفة في المنطقة العربية، اللغة العربية بوابة للمعرفة، ملخص تنفيذي، القاهرة، 2019، ص 2.

التفاوت الواضح بين اللغات المنتشرة أو المهيمنة عالميا وباقي لغات العالم. تؤكد الدراسات المنجزة في هذا المجال غلبة اللغة الانجليزية "في الوقت الذي تشغل فيه 68% من نسبة المحتوى العالمي على الشبكة، فإن اللغة العربية لا تشغل إلا نحو 3%، يضاف إلى ذلك عدم دقة المحتوى الرقمي العربي وضعف تصميم مواقعه"²⁴⁴.

بالرغم من ذلك يسود الاعتقاد أنه بإمكان "تكنولوجيات المعلومات والاتصال أن تفتح آفاقا جديدة للتنوع الثقافي والتقدم الإنساني وأن بإمكانها ممارسة دور مهم في صون التعدد اللغوي وتوسيع نطاقه"²⁴⁵. في مشروع توصية بشأن تعزيز التعدد اللغوي واستخدامه في المجال السيبرني نجد التدبير 11 من التدابير الموصى بها من قبل المؤتمر العام لليونسكو في الدورة الواحدة والثلاثين بباريس سنة 2001 والذي يدعو إلى أن "يسعى منتجو مضامين الانترنت إلى زيادة التنوع اللغوي في المجال السيبرني عن طريق إنتاج مضامين بكافة اللغات الواسعة الانتشار وتوفير سبل العثور عليها والانتفاع بها ومعالجتها، بالإضافة إلى لغات أخرى مستخدمة على الأصعدة المحلية والوطنية والإقليمية، بما في ذلك اللغات الأقل استعمالا"²⁴⁶ وإنتاج برامج تعليمية أصبحت متاحة على الانترنت بلغات السكان الأصليين ولغات الاقليات واللغات الأجنبية مجانا²⁴⁷.

رغم ذلك، منذ أكثر من عقد من الزمن، سنة 2009، نبه أطلس لغات العالم إلى اللغات المهددة بالاندثار²⁴⁸، خاصة الهند والولايات المتحدة والبرازيل واندونيسيا والمكسيك، البلدان التي تعرف بتعدد اللغوي والأكثر احتواء للغات المعرضة للخطر. أما فرنسا، فتضم 26 لغة مهددة، 13 منها عرضة لخطر كبير و5 منها لغات هشة.

وعيا بهذا القلق، يكتسي الحفاظ على تعدد اللغات، بوصفه عنصرا أساسيا في الاتصال المتناسق بين الشعوب أهمية خاصة جدا بالنسبة لمنظمة الأمم المتحدة، حيث خصصت الجمعية العامة سنة 2008 سنة دولية للغات وسنة 2019 سنة دولية للغات

²⁴⁴ - اليونسكو، بناء مجتمعات المعرفة في المنطقة العربية، مرجع سابق، ص ص 8-9.

²⁴⁵ - https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000123274_ara.page=21 (Accessed 25/01/2020).

²⁴⁶ - https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000123274_ara.page=21 (Accessed 02/02/2020).

²⁴⁷ - اليونسكو، التقرير الجامع الثالث بشأن تطبيق التوصية المتعلقة بتعزيز التعدد اللغوي واستخدامه وتعميم الانتفاع بالمجال السيبرني لعام 2003، المؤتمر العام، الدورة الثامنة والثلاثون، باريس 2015، ص 3.

²⁴⁸ - http://www.unesco.org/new/ar/media-services/single-view/news/new_edition_of_unescos_atlas_of_the_worlds_languages_in/ (Accessed 25/01/2020).

الشعوب الأصلية "لتوجيه الانتباه إلى الخسارة الحرجة للغات الشعوب الأصلية والحاجة الملحة إلى الحفاظ عليها وإحيائها وتعزيزها"²⁴⁹ وجعلت لبعض اللغات أياما دولية للاحتفاء بها²⁵⁰:

■ اللغة العربية يوم 18 دجنبر وهو تاريخ اعتماد اللغة العربية لغة رسمية في الأمم المتحدة.

■ اللغة الفرنسية يوم 20 مارس وهو اليوم العالمي للفرانكفونية.

■ اللغة الصينية يوم 20 أبريل تخليدا لذكرى سانغ جيه مؤسس الأبجدية الصينية.

■ اللغة الإنجليزية يوم 23 أبريل تخليدا للذكرى السنوية لوفاة الكاتب الإنجليزي ويليام شيكسبير.

■ اللغة الروسية يوم 6 يونيو تخليدا للذكرى السنوية لميلاد الشاعر الروسي ألكساندر بوشكين.

■ اللغة الإسبانية يوم 23 أبريل وهو يوم الثقافة الإسبانية.

في 1 شتبر 2019 عين الأمين العام للأمم المتحدة السيد موفسيس أبلان²⁵¹، الذي يحمل الجنسيين الأرمنية والجورجية، وكيلا ومنسقا لشؤون تعدد اللغات تنفيذًا لقرار الجمعية العامة 250/69²⁵² ويضطلع السيد أبلان في هذا المنصب بمسؤولية تنسيق التنفيذ العام لمبدأ تعدد اللغات على نطاق الأمانة العامة وصياغة تقرير الأمين العام عن تعدد اللغات وزيادة الجهود الرامية إلى تبادل أفضل الممارسات والحلول المبتكرة من أجل دعم تعميم تعدد اللغات. إضافة إلى الجهود التي تبذلها منظمات دولية كاليونسكو وأخرى إقليمية ومحلية يصعب حصرها في هذا العمل البحثي.

نخلص أن التعدد اللغوي أحد أهم مداخل التواصل الحضاري وحوار الثقافات وحالة ايجابية للفرد والمجتمعات المعاصرة والمفتوحة نوافذها على العالم. اللغات ليست

²⁴⁹ - <https://undocs.org/ar/A/RES/71/178> (Accessed 02 /02/ 2020).

²⁵⁰ - <https://www.un.org/ar/sections/observances/celebrating-multilingualism/index.html> (Accessed 02 /02/ 2020).

²⁵¹ - <https://www.un.org/sg/ar/multilingualism/index.shtml> (Accessed 02 /02/2020).

²⁵² - <https://undocs.org/ar/a/res/69/250> (Accessed 02 /02/2020).

مجرد رموز وأصوات وألفاظ بقدر ما هي مطية لنقل الثقافات والإسهامات الحضارية. إنها صدى الحضارات الإنسانية ومرآة للثقافات بعينها تعكس دينامية ديموقراطية لتعدد الثقافات الإنسانية واختلافها، لذلك قد تتخذ العلاقة بين اللغات منحيين، التلاقح والتفاعل في ظل التواصل الحضاري وحوار الثقافات أو الهيمنة والاكتساح مقابل الاندثار والتخلف في ظل صدام الحضارات وصراع الثقافات.

وما الدفاع عن تعدد اللغات إلا دفاع عن تعدد الثقافات وعن نظرات مختلفة إلى العالم والدور الذي يمكن أن تضطلع به اللغات في تأصيل الهوية الحضارية للأفراد والأمم وفتح قنوات التواصل والحوار مع الآخر في ظل التزام دولي بالتنوع اللغوي وتعدد اللغات في مشهد لغوي عالمي يطغى عليه اللاتكافؤ الممثل بوجود لغات مهيمنة - الأنجليزية نموذجاً - وأخرى مهددة بالاندثار.

والبديل الذي نراه مناسباً هو تبني سياسة لغوية واضحة تدبر حقل التعدد وتترجم في تخطيط لغوي يتجاوز الصراعات والتوتر بين صانعي السياسات والمطالبين بالحقوق اللغوية والثقافية. تصور وطني يحظى بالتوافق ويتم تصريفه في التعليم والاعلام ومجالات التواصل والأبحاث والمؤسسات الرسمية يأخذ على عاتقه تطوير اللغة أو اللغات الوطنية والحفاظ عليها محلياً وإقليمياً وتسويقها عالمياً، بالموازاة مع تشجيع تحصيل اللغات الأجنبية واستعمالها في مجالات البحث والترجمة والانتفاع من إسهاماتها في تحقيق التنمية الثقافية والطفرة المعرفية والتعارف والتواصل والتعايش والحوار، تجاوزاً لأي استلاب أو انغلاق في لحظة تاريخية نعيشها غنية بالتحويلات الصادمة...

الأطروحة الجوهرية التي حاولنا إبرازها في هذا البعد الثاني هي أن التعدد اللغوي لا يشكل توتراً إذا تم تجريد اللغة من هواجس الهوية والنزعات العاطفية ومن أيديولوجية معينة واخضاع الموضوع لفاعلية فكرية - ثقافية ووعي جمعي يفتح تساؤلات ويحاول مقاربتها، وفق منظور يؤمن أن "اللغة هي مرآة تنعكس فيها أحوال الثقافة والحضارة فمشكل اللغة هو مشكل التخلف. لا يُتصور تقدم حضاري، يبقى معه المشكل اللغوي قائماً على الحالة التي نعيشها اليوم: إما يحل وإما يهمل نهائياً"²⁵³، كما يؤكد "التعدد أو

²⁵³ - عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، 1997، ص 209.

الازدواجية قوة للمعرفة والتسامح، عندما يكون لها مركز ثقل محدد للهوية، وتكون تعبيراً عن الاجماع فيما تتحول إلى عامل من عوامل ضياع الطاقات وانكفاء المجموعة حين يتم اخفاؤها أو انكارها"²⁵⁴.

في المغرب، يمكننا الجزم بدون مجازفة، أن المجتمع المغربي متعدد اللغات، الأفراد يتكلمون أكثر من لغة وأحياناً أكثر من لغتين، العربية والأمازيغية، العربية والفرنسية والانجليزية، الأمازيغية والإسبانية، العربية والفرنسية، العربية والأمازيغية والفرنسية، أضف لذلك لهجات متنوعة ومتفرقة على امتداد مناطق وجغرافية المغرب.

ما يوجد على المحك والمفارقات، وضع اللغة العربية بوصفها لغة رسمية للبلاد وواقع تداولها واستعمالها في التعليم والإدارة وأقرب إلى التهميش في الاعلام والاقتصاد، مقابل استعمال واسع وأحياناً مفرط للغة الفرنسية سيما في الاقتصاد والمعاملات المالية والاعلام وانفتاح محدود على اللغات الأجنبية كالإسبانية - بحكم الجوار والبعد التاريخي الاستعماري- والانجليزية لغة العلم والمعرفة والاقتصاد العالمي.

رسمياً ومن أجل اكسابها الطابع التشريعي القانوني، كرس إصدار دستور 2011 تعددية للهوية المغربية الموحدة واعترف باللغة الأمازيغية كلغة رسمية وحدد مبادئ الانفتاح اللغوي في اللغات الأكثر تداولاً، في سياق معلوم واستجابة لطلب اجتماعي - ثقافي واقتصادي يتزايد على اللغات العالمية، بالموازاة مع الوجود التاريخي للتنوع اللغوي والثقافي المغربي الذي يشكل الهوية الوطنية المغربية. لكن بدون تعددية لغوية مندمجة ومخطط لها معرفياً وبيداغوجياً ومادياً لا يمكن بناء قدرات مواطنين متعددين اللغات ومستوعبين للثقافة المحلية والعالمية.

التخطيط اللغوي الذي نقصده ضرورة يقتضيها دور الدولة في تحديد مكانة كل لغة وأدوارها في منظومة التربية والتعليم ومدى تماسك ورصانة التدبير البيداغوجي للتعدد اللغوي. من أجل ذلك، نتساءل مع واضعي السياسات العمومية في شقها الثقافي واللغوي تحديداً: هل تملك المملكة سياسة لغوية منسجمة وواضحة؟ وإلى أي حد ستسهم الجهوية

²⁵⁴ - عبد الكبير الخطيبي، المغرب العربي وقضايا الحداثة، ترجمة أدونيس وآخرون، منشورات الجمل، بيروت، 2009، ص 19.

المتقدمة والمجلس الوطني للغات والثقافة المغربية في إبراز وتدبير غنى التنوع اللغوي والخصوصيات الثقافية الجهوية لهوية مغربية بمكونات متنوعة؟ في مواجهة عولمة كاسحة بلغة وثقافة واحدة منمطة و مترجمة إلى باقي لغات وثقافات العالم.

ثالثاً: الترجمة نافذة على الثقافات ورأسمال ثقافي في التواصل الحضاري.

الترجمة عملية نقل الفكر الانساني من لسان إلى آخر أو بمعنى آخر من لغة إلى أخرى، العملية التي أصبحت أشد إلحاحاً في عصرنا هذا، ليست مجرد إجراء لغوي يُعنى بنقل نص من نسق لغوي إلى آخر وتوطينه، بقدر ما هو أفق معرفي يسعى إلى امتصاص الانتاج المعرفي العالمي واستيعابه، هي أيضاً فعل ثقافي، ينقل تراث وخبرات وآداب ثقافة وحضارة إلى أخرى، متجاوزة أفقها الفكري الابداعي نحو الآفاق الثقافية والحضارية. يتساءل واسيني الأعرج: "ما قيمة ترجمة لا تصب في العالمية كأفق إنساني ينقلنا من التربية المحلية إلى العالمية؟"²⁵⁵

بفضل وساطة الترجمة تعارفت الحضارات والأمم وضمنت المعرفة البقاء والسفر، حافظت على التراث الإنساني وأتاحت إمكانية تقاسم المعرفة الإنسانية والنهل منها رغم حاجز اللغة. رفعت الترجمة تحدي نقل المعارف والمفاهيم والأفكار بين الثقافات المختلفة وأصبحت شكلاً من أشكال إنتاج معرفة جديدة وترويجها انطلاقاً من ممارسة الحق في المعرفة والفكر والبحث والإبداع. إنها الأداة التي تمكننا من مواكبة الحركة الثقافية والفكرية لحضارات العالم، كل نهضة فكرية عرفتها الأمم سبقها نشاط للترجمة واستيعاب للكلم الهائل من المواد الفكرية والفنية والأدبية.

التجربة التاريخية تثبت أن الترجمة سر من أسرار إنتاج المعرفة، أدرك قيمتها المسلمون في القرن الثالث الهجري، إذ يعد تأسيس بيت الحكمة في بغداد مشروعاً ثقافياً لجمع المخطوطات والتراث اليوناني والمناظرة ومركزاً للبحث العلمي ومسرحاً للحوار

²⁵⁵ - واسيني الأعرج، الأدب العربي في المهجر الفرنسي من ضيق المحلية إلى الترجمة وأفق العالمية، الكتاب العربي، الثقافة العربية في المهجر، الجزء الثاني، وزارة الاعلام، مجلة العربي، الكويت، الطبعة الأولى، 2013، ص 37.

بين حضارات الشرق والغرب، الحضارة العربية الإسلامية والحضارات اليونانية (الإغريقية) والفارسية والسريانية والهندية.... تبادلت العلوم والآداب والمناهج والابداعات في مختلف المجالات التي شكلت تراثاً للإنسانية جمعاء. لقد اعتبرت خطوة الخليفة العباسي المأمون للحصول على الكتب اليونانية واهتمامه بالترجمة والتأليف "انفتاحاً على الثقافة الأجنبية وهي لذلك تعد مثلاً ممتازاً على ما نسميه اليوم بحوار الحضارات أو الثقافات الداعي إلى تعايش الأمم ... وتبادل المعرفة واحترام آراء ومعتقدات الطرف الآخر"²⁵⁶.

لا شك أن الحوار بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة اليونانية كان عاملاً من عوامل نهضة المسلمين العلمية والفكرية والإبداعية. آنذاك استوعب العلماء المسلمون التراث اليوناني ومارسوا عليه النقد الذي جعل اللغة العربية لغة فكر، إن "توفر كنوز الفلسفة اليونانية باللغة العربية قد وسع نشاط الفكر والمفكرين وأصبح واضحاً في كل ما كتبه المفكرون العرب بعد ذلك أثر الفلسفة اليونانية"²⁵⁷ وفي نفس الآن أنقذت الحضارة العربية الإسلامية التراث اليوناني القديم من الفناء والحرب التي كانت تشن عليه الكنيسة في الغرب الأوربي، ليجده جاهزاً في زمن نهضته عند المفكرين العرب الذين توجههم ابن رشد. التدفق المعرفي الذي استمر لأكثر من أربعة قرون، وغزا أوروبا عبر الأندلس، نُقل ونُشر ونُظم بعدة وسائل من بينها الترجمة التي يشهد لها، تاريخياً بمحاولات "نقل رأس المال الثقافي على نطاق واسع، كما حدث فيما يسمى مدارس الترجمة في طليطلة أو في بغداد ومثل سياسات محمد علي الرامية إلى إدخال العلوم والفنون والآداب والتكنولوجيا الفرنسية في مصر في القرن التاسع عشر"²⁵⁸.

يحدد واسيني الأعرج نصوصاً أنجزتها العبقريّة في ثقافتنا العربية ودخلت في النسيج الثقافي العالمي من علاقاته المتشابكة مع الفعل الإنساني وساهمت في تحويله في

²⁵⁶ - حيدر قاسم التميمي، بيت الحكمة العباسي ودوره في ظهور مراكز الحكمة في العالم الإسلامي، دار زهران للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2011، ص 15.

²⁵⁷ - حسن إبراهيم أحمد، استمرارية التاريخ ما بين صدام المصالح وحوار الحضارات، دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر، 2016، ص

221.

²⁵⁸ - سوزان باسينت واندريه ليفيفير، بناء الثقافات، مقالات في الترجمة الأدبية، ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2015، ص 94.

العمق، من بينها "فصل المقال لابن رشد الذي ساهم في النقاش الإنساني الدائر حول دور الأديان وموقعها في تسيير المدنية وألف ليلة وليلة التي صبغت خيال العالم بقصصها وإلى حد ما رسالة الغفران لأنها تختبئ في أعماق أهم مرجع ثقافي أوروبي: الكوميديا الإلهية لدانتي الليغري الذي وضع الثقافة الغربية في أفق الحداثة"²⁵⁹. على ضوء هذا التاريخ: ألا يمكن أن يستعيد العرب المسلمون مجد الترجمة كمقدمة للتواصل الحضاري وحوار الثقافات ويشكلون بيت الحكمة من جديد، كنموذج يحتذى واستراتيجية لما ينبغي أن يكون عليه حوار الحضارات في عصرنا؟

وعلى صفحات التاريخ أيضاً، نشطت حركة الترجمة مع البعثات العلمية التي أرسلت إلى الغرب للتعلم والنهل من علمه، ورأينا كيف تأثرت وانبهرت بحضارة الغرب في مؤلفاتها، إلا أننا اخلفنا فرصة الاستفادة من علوم الغرب في النهضة العربية الحديثة. طريق الترجمة نفسها سلكتها اليابان التي بعثت أواخر القرن التاسع عشر بعثات طلابية إلى أوروبا وواكبتها حركة ترجمة للأعمال الفكرية والعلمية الأوروبية وعقد اتفاقيات "مع كبرى دور النشر العالمية لإصدار طبعة باللغة اليابانية من إصداراتها العلمية حال صدورها بلغتها الأصلية"²⁶⁰، أسهمت في نهضة حضارية صناعية تنافس الغرب حالياً وتؤشر إلى أن الحضارات لم تتأخر في اكتشاف الترجمة كطريق للتواصل ورافد ثقافي للبناء الحضاري. ما العلاقة إذن بين الترجمة والتواصل والثقافة؟ وبأية أبعاد حضارية؟

الترجمة نابعة من الحاجة إلى التواصل باعتباره ضرورة ونافذة لمعرفة وفهم الآخر فهما عميقاً، إضافة إلى الاستفادة من حصيلة علومه ومعارفه وفكره، ومما لا شك فيه معرفة الآخر تقود إلى معرفة الذات والنتيجة أن الترجمة جسر تعبر من خلاله الثقافات والحضارات لبعضها البعض، تعزّز التلاقي والتلاقح وتديم التقارب الثقافي بين الشعوب. هذه الفاعلية في الانفتاح على الآخر وثقافات العالم لعل أولى مهامها التي تحول فرضية الصدام إلى تواصل وحوار وأخذ وعطاء.

²⁵⁹ - واسيني الأعرج، الأدب العربي في المهجر الفرنسي من ضيق المحلية إلى الترجمة وأفق العالمية، مرجع سابق، ص 37-38.

²⁶⁰ - الأمم المتحدة، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية، 2003، ص 66.

وحيث اللغة والثقافة لا ينفصلان، دور الترجمة لا يقتصر على بناء جسور التواصل بين الثقافات فقط، بل يمتد ليشكل رافدا من روافد الثقافة وإثراء لها، تحرص على الخصوصية الثقافية بكل أشكالها وتظل قناة مفتوحة على مורות الثقافات، بتقاليدها وقيمها ومعتقداتها وتفسيراتها. بمعنى آخر تصبح عناصر ثقافة ما متاحة لثقافة أخرى، أبسط مثال على ذلك، تسرب وتوطين مفردات وفنون العيش ومناهج النقد بين الحضارات عبر التاريخ، بين الحضارة الإسلامية والحضارة اليونانية والحضارة الفارسية والحضارة الغربية الحديثة.

بخلاف العولمة التي تمحو الخطوط الفاصلة بين «الأنا» و«الآخر» وتتحو نحو الاستلاب الثقافي، تبرز الترجمة التعددية اللغوية والثقافية وتمنح وقفة تأمل من ذهب لـ«الأنا» حتى يخترق الحدود ويقف على حجم الاختلاف الثقافي بخروجه من دائرته الضيقة للاحتكاك بثقافة الآخر في دائرة أرحب، كذلك تُعرف الترجمة الآخر بأدبنا وإبداعاتنا بشكل مباشر وبواقعنا الثقافي بشكل غير مباشر، فالترجمات العالمية لكليلا ودمنة وألف ليلة وليلة وروايات وأعمال مسرحية من الشرق والغرب تعد تجارب رائدة تركت أثرا في الأدب العالمي، تزر بها رفوف المكتبات وتحتل مكانة خاصة لدى القارئ لأنها تقدم له عالما مختلفا يسعى للتعرف عليه. يقول الباحث وانغ يونغ من جامعة شنغاي للدراسات الدولية: "أدخلت الترجمة الصينية الأدب العربي إلى عصر ذهبي غير مسبوق، تمت فيه ترجمة أكثر من مائة عمل أدبي عربي، منها أعمال أدبية مصرية لنجيب محفوظ واحسان عبد القدوس وتوفيق الحكيم ويوسف السباعي وأعمال أدبية لبنانية لجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأعمال أدبية سورية لحنا مينا ونزار قباني وأعمال أدبية كويتية لسعاد الصباح وأعمال أدبية سودانية للطيب صالح وفي نفس الوقت تعمقت الدراسة الصينية للأدب العربي"²⁶¹.

كان للترجمة الفضل، إذن، في وضع الأدب العربي في مصاف الآداب العالمية، حيث "ساعدت الأعمال المترجمة لنجيب محفوظ على التعريف بأدبه وبالتالي حصوله

²⁶¹ - وانغ يونغ، حضور الثقافات العربية في الصين قديما وحديثا، الكتاب العربي، الثقافة العربية في المهجر، مرجع سابق، ص ص 65- 66.

على جائزة نوبل²⁶² مما انعكس على الاهتمام بالأدب العربي بشكل عام وخلخلة نظرة القارئ الغربي عن ما هو عربي بشكل خاص. أما خارج السياق العربي، فقد نقل باحثان في مجال الترجمة عن الروائي الروسي ليو تولستوي قوله "حتى نهاية القرن الثامن عشر، لم يكن شكسبير قد ظفر بأي صيت خاص في إنجلترا، بل إن الانجليز كانوا يرونه أقل قيمة من معاصريه... وقد نشأت شهرته في ألمانيا، ثم نقلت منها إلى إنجلترا"²⁶³ أي أن الانجليز تعرفوا على عبقرية شكسبير بطريقة غير مباشرة، أكدت الدور الذي تقوم به الترجمة بين المحلي والعالمي.

في المشهد الأدبي الإيطالي، نعث على متقنين عربيين يمكن اعتبارهما جسرا بين الثقافتين الإيطالية والعربية. الأول هو الكاتب الجزائري عمارة لخص "الذي كتب أعماله باللغتين العربية والإيطالية وترجمت لعدة لغات وحقق لخص نجاحا كبيرا منذ روايته الأولى وهي «نزاع بين ثقافات في مصعد بساحة فيتوريو» وساحة فيتوريو هي بالفعل نقطة التقاء لأشخاص من مختلف الثقافات في إيطاليا. وقد تطرق الكاتب إلى هذه النزاعات وصورها بطريقة واعية"²⁶⁴ والثاني هو الأديب العراقي يونس توفيق "واحد من أبرز المتقنين العرب في إيطاليا... وهو معروف برواياته العديدة وخاصة روايته الأولى بعنوان «الغريبة» التي نال عنها العديد من الجوائز الأدبية الإيطالية المهمة"²⁶⁵.

الترجمة بهذا الأفق في تبادل الأفكار وتدفق المعارف خارج ثربتها الأصلية، تصبح أحد محركات التفاعل الثقافي وحقل معرفي لدراسته، نظرا لما تتيحه من نقل عبر الثقافات وتشابك وتلاقح وتأثير وتأثر. ترجمة الأعمال الأدبية مساحة للتواصل والحوار بين الثقافات حول العالم العربي والإسلامي، تحرك الصور النمطية بشهادة كتاب وأدباء ومفكرين ورحالة، فالأدب مرآة للعلاقات الاجتماعية والمعالم الثقافية لكل مجتمع ومن الأدوات المهمة للغاية في النهوض بالتواصل الحضاري والحوار الثقافي.

²⁶² - نادية جمال الدين، واقع ترجمة الأدب العربي المعاصر إلى الإسبانية، الكتاب العربي، الثقافة العربية في المهجر، مرجع سابق، ص 9.

²⁶³ - سوزان باسينت واندريه ليفيفير، بناء الثقافات، مقالات في الترجمة الأدبية، مرجع سابق، ص 112.

²⁶⁴ - إيزابيلا كاميرا دافليتو، نماذج لبعض الكتاب العرب في روما، الكتاب العربي، الثقافة العربية في المهجر، مرجع سابق، ص 27.

²⁶⁵ - المرجع نفسه، ص 27.

في غمار الترجمة، يمثل المترجم حلقة اتصال حيوية ووسيطاً بين ثقافات العالم، مهمته جسيمة في معرفة ثقافة النص الاصلي وثقافة النص المترجم وتقدير مدى التجانس والاختلاف بينهما. في الثقافة العربية الإسلامية، هناك كلمات مثل «مفتي» و«زكاة» و«عدة» ليس لها ما يقابلها في اللغات الأجنبية، بالمقابل في الثقافة الأوروبية مفاهيم غير موجودة في الثقافة والبيئة العربية من مثل boy friend، jacket وpullover. أما المصطلحات العلمية والتقنية فيتم تداولها باللغة التي أنتجتها بدون عناء البحث أو اصدار مقابل لها في اللغة المستقبلية.

اللغة والثقافة كلاهما يجب أن يؤخذا بعين الاعتبار عند القيام بالترجمة. الألفاظ والمفردات ومختلف الأشكال التعبيرية التي تكتسب هويتها داخل نظام ثقافي، لا يمكن فهمها وترجمتها بدون الاطلاع عليه وحيثما تقاربت اللغات بالترجمة تقاربت الثقافات، من خلال التقريب بين طرائق التعبير والأساليب اللغوية والمصطلحات العلمية، فاللغة بوابة لثقافتها وحضارتها وتحمل امكانات مواجهة الهيمنة. لذلك فالمترجم مطالب بإتقان اللغتين المترجم منها والمترجم إليها وإبراز البعد الإبداعي والجمالي في ترجمة الأجناس الأدبية تارة والتعريف بالمصطلحات العلمية في المنجزات والاكتشافات المستجدة، تارة أخرى.

وتظل الترجمة والمترجم في المواجهة مع إشكالية إعادة صياغة المعنى وترجمة النصوص التي تحمل خصوصية ثقافية ومضمون ديني، إضافة إلى إشكالية ترجمة المصطلح العلمي وسؤال قدرة اللغة العربية في تعريب العلوم وتوظيفها في مجالات الطب والهندسة والتكنولوجيا الدقيقة الدعامة الأساس في قوة الحضارة المعاصرة.

ختاماً، قد تكون الترجمة عملاً فردياً في مشروع إبداعي أو بحثي لمترجم يحمل رؤية فكرية ما تدفعه إلى الانخراط في أعمال الترجمة أو عملاً مؤسسياً يشغل أكاديمياً وثقافياً، ينطلق من أفق معرفي عميق أو من خلال الجامعات والمؤسسات الأكاديمية والثقافية كالمنظمة العربية للترجمة²⁶⁶ أو عملاً تقنياً آلياً كمواقع الترجمة الالكترونية²⁶⁷

²⁶⁶ - تأسست المنظمة العربية للترجمة سنة 1999 كمنظمة دولية متخصصة غير حكومية، مستقلة، مركزها بيروت. من أهدافها المساهمة في إدخال العلوم في الثقافة العربية المعاصرة وتنشيط الطلب على الكتاب المترجم. تعتمد المنظمة مفهوم الترجمة - البحث الذي يتضمن الجهد العلمي في نقل المعارف نقلاً مسنوداً بالبحث في المصطلحات والمقدمات والهوامش الشارحة المفيدة. موقعها الالكتروني <http://www.aot.org.lb/>

ومجلات²⁶⁸ متخصصة في الترجمة التحريرية والفورية، إلا أن فاعليتها لا تقاس بعدد الأعمال الأدبية والمنشورات العلمية التي ترجمت من لغة إلى أخرى ولكنها تقاس أيضا بعدد الاعمال التي انتجت باللغة الأصل للقارئ الآخر.

في عصرنا هذا، الترجمة من العربية تنحصر في أعمال أدبية معدودة، في انتظار إنتاج معرفي يحظى باهتمام العالم ولن يتحقق بدون بحث وإنتاج ونشر علمي وابتكارات تقنية. لذلك، نقترح وضع خطة استراتيجية عربية للنهوض بالترجمة تسهم فيها مناهج التعليم بمشروع ثقافي كوني يستهدف التعارف بين الشعوب منذ المراحل الأولى للتعليم، يشجع على الترجمة والدراسات الثقافية ويضم نصوصا من ثقافات عالمية تصد التيار الثقافي للعولمة.

يعد اهمال هذا الموضوع مدعاة للقلق لأن فجوة المعرفة قد اتسعت بين العرب والعالم، سنجد أنفسنا أمام لغة عربية غير صالحة للاستعمال العلمي، تنتج وضعاً يغذي التفاوت الحضاري وأسباب النزاع، أكثر مما تقود إلى الحوار والتواصل. أمتنا تعاني حضارياً أزمة علم ... ولن يخرجها من أزمة العلم إلا العلم، علم بالذات وعلم بالآخر وعلم بالماضي وعلم بالحاضر وعلم بالمستقبل وعلم بالمشارك الإنساني. فماذا عن أهميته في التواصل الحضاري وحوار الثقافات؟

رابعاً: المشترك الإنساني والمشارك الديني خطوة نحو التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

رغم طابع السجال والصراع الذي وسم البشرية في فترات من التاريخ، الوجود البشري على الأرض - الكوكب الوحيد للحياة - له صفات كثيرة ومتعددة في الشرق أو

²⁶⁷ - على سبيل المثال لا الحصر: خدمة الترجمة التي تُقدّمها شركة «google» وموقع «Bing» التابع لشركة مايكروسوفت وموقع «Reverso» الذي يقدم خدمة الترجمة الفورية من وإلى 13 لغة مختلفة من بينها العربية والإنجليزية والألمانية والروسية والإيطالية واليابانية والعبرية والصينية والبرتغالية .

²⁶⁸ - مثل مجلة Meta وهي مجلة علمية دولية تنشر مقالات بحثية في الترجمة والمصطلحات والتفسير. تنشر المجلة عددين عاديين وإصدار خاص واحد لكل مجلد، مع عشرة إلى اثني عشر مقالة لكل إصدار. يتم قبول ثلاث لغات: الفرنسية والإنجليزية والإسبانية. في بعض القضايا المخصصة للغات وثقافات معينة يتم قبول لغات أخرى، مثل الألمانية والتركية. يستهدف Meta بشكل أكثر الباحثين وجميع المهتمين بالظواهر اللغوية المتعلقة بالتواصل بين الثقافات. (موقعها الإلكتروني <https://www.erudit.org/fr/revues/meta/>)

الغرب، في الشمال أو الجنوب، في القارّات الخمس أو في القطبين. بين البشر ما لا يُحصى من المشتركات، ابتداء من وحدة الأصل البشري (الخلق البيولوجي) وانتهاء بوحدة المصير رغم الاختلافات في الدين والعرق والجنس واللغة و..... لما وقع ضرر بيئي أثر على البشرية جمعاء ولما انتشر فيروس في مدينة صينية انتقل إلى أصقاع الكوكب وعولم الخوف والانتظار.

بالمقابل، هذه الاختلافات تجعل التعارف والتواصل ضرورة والبحث عن المشتركات الإنسانية حاجة لتعميق معرفة الآخر وقيمه وثقافته، خاصة في السياق التاريخي للنظريات والدراسات التي تسعى لإثبات أن هذا الاختلاف الموسوم ثقافيا يجعل الصراع حتميا ويؤصل للكراهية والعنف. نظريات أصبح معها الإنسان في مفترق الطرق، إما التعارف والتواصل والحوار أو الصدام والنزاع الذي سيقود العالم نحو الهاوية. إذن، لماذا لا نسعى لاكتشاف ما نشترك فيه مع غيرنا، ومن ثمّ اكتشاف ما يُمكن أن نتعارف ونتواصل بشأنه؟ ما معنى المشترك الانساني؟ وأي تأسيس ديني لهذا المشترك؟ بمعنى آخر، كيف تسهم الأديان باعتبار وحدة أصلها ووحدة غاياتها في بناء مشترك إنساني عالمي؟ هل توجد موانع لاستثمار المشترك الإنساني في تدبير المختلف فيه؟ ما إمكانات التواصل والحوار المتاحة لبناء المشترك في الدين والعلم والقيم الإنسانية جمعاء؟ في ظلال مشترك علمي ومعرفي وتقني يتداوله الشرق والغرب والفارسي والعربي والأوروبي والأسوي والأفريقي والأمريكي والمسلم والمسيحي واليهودي والبوذي والهندوسي.

عندما نصف شخصا قام بفعل أخلاقي أو تصرف نبيل، نقول عنه هذا إنسان أو هذه إنسانية نابعة منه وعندما يحدث العكس ويرتكب الشخص جرما بشيعا أو همجيا نقول هذا ليس إنسانا من دون أن ننفي أو نستحضر الأصل البيولوجي، انطلاقا من قناعة مفادها "لا يمكن اعتبار الإنسان إنسانا إذا لم يملك روحا حساسة تشعر وتشفق وتشارك ما يحسه الآخرين، تأبى الضيم وترفض اللامبالاة وتقر الحق وترفض الباطل"²⁶⁹. بمعنى أن

²⁶⁹ - بيير سيزار بوري وسافيريو مارشينيولي، أخلاق كونية لثقافات متعددة، ترجمة احمد عدوس، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ص 69.

للإنسان شروطاً يجب أن يستوفيها والإنسانية رصيد الإنسان من المعايير والقيم النبيلة، تخدم الصالح العام، متجاوزة النزعة الفردية ويشترك فيها كل إنسان في كل حضارة.

نقصد بالمشترك الإنساني، مجموع القواسم الكبرى بين البشر بغض النظر عن اللون والعرق والجنس والمعتقد. هذا المشترك بين البشر قائم منذ وجود الإنسان، على مستويات عدة، أهمها كونية المعرفة والقيم الإنسانية التي تتقاسمها الأديان والحضارات ويؤمن بها كل إنسان على وجه الكوكب. الغاية من بناء المشترك الإنساني هو البحث عن عناصر الاتفاق ومواطن اللقاء، لتُشكّل سنداً للتعارف والتواصل والحوار والسلام مع ما يقتضي ذلك من اعتراف واحترام وعدم فرض الوصاية أو السيطرة. لعلنا أمام مشتركات إنسانية عابرة للثقافات والحضارات المتعاقبة، خلّصَ اجتهادنا وقراءتنا في هذا الموضوع إلى أربعة منها مثينة وهي: الكرامة والحرية والعقل والعلم.

فلكل إنسان إحساس داخلي بقيمة الذات يرغب في أن يحترم لذاته ويعامل بطريقة أخلاقية. ما من إنسان يقبل بالإذلال أو الإهانة، الكرامة الإنسانية مبدأ ثابت ومتأصل لجميع البشر وأساس لكافة حقوقه، تكفلها كل الشرائع السماوية والقوانين الدولية، لا يوجد معتقد أو ثقافة أو حضارة على مر العصور تجعل الكرامة على هامشها بل بسبب انتهاكها نشبت صراعات وثورات. من المنظور التاريخي أو الثقافي نجد من اضطر إلى القول أن "الكرامة الإنسانية ليست واحدة بل كرامات متعددة بقدر تعدد الجماعات البشرية. والجماعات البشرية تتعدد بطرائق شتى: شعوبا وقبائل وأعراقا وديانات ولغات"²⁷⁰.

التعاليم الدينية والمواثيق والقوانين الدولية والتيارات الفلسفية، على تمايز خلفياتها، تعترف جميعها بأن للشخص كرامة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بإنسانيته في كل زمان ومكان، ما يجعل الكرامة مشترك إنساني عام. في المنظور الإسلامي مفهوم الكرامة الإنسانية شامل وعام لبني البشر، بصرف النظر عن الأصل أو العقيدة أو الثروة أو... قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ

²⁷⁰ - رجا بهلول، خطاب الكرامة وحقوق الإنسان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، الطبعة الأولى، 2017، ص 27.

كثير مِّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا²⁷¹ والتعبير القرآني «بني آدم» يماثل عبارة «الأسرة البشرية» الواردة في ديباجة الوثيقة التاريخية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تعترف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة كأساس للحرية والعدل والسلام في العالم. تشير المادة الأولى من الإعلان إلى أنه "يولد جميع الناس أحراراً ومتساوين في الكرامة والحقوق"²⁷² ومعلوم أن هذا الإعلان صدر بعد الحرب العالمية الثانية وما خلفته من مآسي وكوارث بشرية.

احساس المرء بكرامته وقيمة ذاته يتلازم مع حقوق لا يمكن سلبها وواجبات، منها مسؤولية الاعتراف بأصالة كرامة الآخر وعدم استعباده والتواصل والتفاهم معه، لذلك وجب حيابة الكرامة كمشارك ومقدمة لمطلب إنساني ملح هو الحرية، فالعلاقة بينها متلازمة، لا يمكن للإنسان غير الحر أن يعيش بكرامة ولا يمكن أن تنهض حضارة وأفرادها مستعبدون، فالحرية من الحقوق الفطرية للإنسان وأعلى ما يملك في حياته، سبيل لإعمال العقل والتفكير السليم.

الإنسان على مر العصور والحضارات يتوق إلى الحرية بأنواعها، حرية الرأي والتعبير، الحرية الفكرية، الحرية السياسية، لا يريد قيوداً تحول بينه وبين ما يمل به عليه نضجه العقلي وحكمته التي اهتدى إليها فكره، أنجبت الحرية عدداً من الفلاسفة والعلماء والأدباء والمهندسين والرحالة وأسهمت لامحالة في البناء والتجديد منذ البدايات الأولى للحضارة الإنسانية. من جانب آخر، لا يمكن تصور تواصل حضاري فاعل وحوار للثقافات من غير حيز للإنسان وقدرة على الاختيار بين بدائل مختلفة.

هذا الاختيار يطال الموضوع المثير للجدل حرية العقيدة - حيث لا يوجد إنسان بدون معتقدات دينية أو غير دينية - كشأن إنساني خالص لا يجوز إكراه أي إنسان على تبني أي معتقد ولا يمكن عقلاً تكليف أي إنسان بأفعال يراد لها أن تكون إرادية وهو غير

²⁷¹ - سورة الاسراء، الآية 70.

²⁷² - الأمم المتحدة، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، المادة 1، 1948.

<https://www.un.org/ar/universal-declaration-human-rights/> (Accessed 07/05/2020)

حر. تتلاقى في ذلك، المواثيق الدولية النابعة من روح الحضارة الغربية حيث تنص على أن الناس يولدون أحراراً، "لكل شخص حق في حرية الفكر والوجدان والدين"²⁷³ والنص القرآني في الثقافة العربية الإسلامية في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾²⁷⁴ لأنه قد تبين الرشد وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾²⁷⁵ بما يفيد نفي إجبار الناس على الاعتقاد أو الإيمان، فمبدأ الإكراه لا يُنتج اعتقاداً صحيحاً وإيماناً صادقاً وعملاً ملتزماً. تبقى خصوصية من كان مسلماً وارتد عن الإسلام مُعادياً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾²⁷⁶.

الإقرار بالحرية عامة والفكرية خاصة تحيلنا على أهمية العقل كمشارك إنساني موجود في كل إنسان بالفطرة، يتميز به عن الحيوان. في هذا الشأن، تتفق نصوص الأديان السماوية وعلماء الشرق والغرب على أن العقل مناط تكليف الإنسان وسر وجوده، تعددت الآيات والأحاديث النبوية التي تعلي من شأن العقل والتدبر والتفكير. قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾²⁷⁷ وفي سفر الأمثال "العقل يحفظك والفهم ينصرك"²⁷⁸. أما ديكارت فربط وجود الإنسان بالعقل والتفكير في قولته الشهيرة «أنا أفكر إذا أنا موجود». لنخلص أن ما دام العقل مشتركاً بين البشر والحكمة ضالة المؤمن، حتماً سيتم التدبير العقلاني للتواصل والحوار بين الثقافات بسعة أفق وفي احترام للرأي والتعبير والفكر والعلم. فماذا عن العلم؟

لا يمكن الجدل حول المعرفة العلمية - سواء التي تتخذ من ظواهر الطبيعة أو من الإنسان موضوعاً لها - بنظرياتها ومناهجها وتجاربها ونتائجها لأنها تراثاً مشتركاً للبشرية، يستثمرها ويستفيد من ثمارها كل إنسان. لقد أنتج العلم الحديث ثورة علمية بدءاً

²⁷³ - الأمم المتحدة، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، المادة 18، 1948.

<https://www.un.org/ar/universal-declaration-human-rights/index.html> (Accessed 07/05/2020)

²⁷⁴ - سورة البقرة، الآية 256.

²⁷⁵ - سورة يونس، الآية 99.

²⁷⁶ - سورة البقرة، الآية 217.

²⁷⁷ - سورة الزمر، الآية 9.

²⁷⁸ - سفر الأمثال، مرجع سابق، 11/2.

من القرن السابع عشر الميلادي، راكمت رصيдаً من المعارف والأفكار والاكتشافات العلمية سواء في العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية في مجالات الفكر والطب والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والطيران والاتصالات والتكنولوجيا والفضاء...، ضمت معرفة موضوعية ومحايدة لا تختلف من إنسان لآخر أو من مجتمع لآخر أو من ثقافة لأخرى، عادت بالنفع على عموم البشرية رغم التفاوت في تعميمها وملابسات إنتاجها. هذه المنظومة المعرفية العالمية أسهم في تكوينها العلماء والمخترعون ورجال الفكر وذوي الكفاءات العلمية والفنية من شتى الثقافات والحضارات في أصقاع الكرة الأرضية. لم نسمع يوماً بإنجاز علمي أو براءة اختراع خضعا للحظر بسبب دين أو عرق أو ثقافة حامله أو ارتبط بحضارة معينة دون غيرها من الحضارات.

ثمة، أيضاً، منظومة قيم وأخلاق مشتركة بين كل الثقافات والحضارات والديانات السماوية ينبغي استثمارها كمشارك إنساني، من قبيل: المحبة والسلام والتضامن والرحمة هي جزء من إنسانية كل إنسان. يقول المفكر طه عبد الرحمان: "إن الإنسان، بقدر ما يزداد أخلاقية، يزداد إنسانية"²⁷⁹، فنحن كذلك بحاجة إلى الأخلاق لتأطير تواصلنا وحواراتنا والآخر.

صنف راغب السرجاني المشترك الإنساني إلى مجموعات أربعة "سيكون لها أثراً كبيراً في فهم طبيعة هذه المشاركات وأثرها في التعارف والتواصل"²⁸⁰ هي: مجموعة المشترك الأسمى، ومجموعة المشاركات الإنسانية العامة ومجموعة المشاركات الإنسانية الخاصة وأخيراً مجموعة المشاركات الإنسانية الداعمة. المجموعة الأولى تضم مشتركاً واحداً وأسمى بين كل البشر يتجاوز الزمان والمكان هو العقيدة²⁸¹، فليس هناك إنسان بلا معتقدات دينية راسخة سواء كانت أدياناً سماوية أو وضعية أو تصوراً وفلسفة يفسر بها ما يعتقد. نحافظ على هذا المعتقد بعدم التعرض أو التهجم بأي شكل من الأشكال على عقيدة

²⁷⁹ - طه عبد الرحمان، الحوار أفق للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2013، ص 58.

²⁸⁰ - راغب السرجاني، المشترك الإنساني نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى،

2011، ص 146.

²⁸¹ - المرجع نفسه، ص 147.

الآخرين والعمل بمبدأ لكم دينكم ولي دين. المجموعة الثانية²⁸² هي العقل والأخلاق الأساسية (الصدق والأمانة والعدل) والتملك والكرامة والحرية والعلم والعمل، من الثوابت التي لا يستطيع إنسان العيش بدونها. هي مجال للتعارف وفتح الآفاق للتواصل بين الشعوب. أما المجموعة الثالثة²⁸³ فتضم الثقافة والأرض والعرق والتاريخ المشترك واللغة والعادات والتقاليد والقانون والأخلاق السامية (العفو والحلم والكرم والمروءة والشجاعة...) التي تصبغ الهويات وتتجدد وتتغير وتتطور حسب السياقات وظروف البيئة والحياة ويختم بمجموعة رابعة تنفتح على الفنون والرياضة والسياحة²⁸⁴ والتي يتذوق الجميع جمالها وتدعم بقوة التعارف والتواصل بين البشر والثقافات.

تطبيق الطرح النظري لراغب السرجاني حول المشترك الإنساني، يحتاج وفق تعبيره "إلى تفعيل بوضع ورش عمل ولجان ومناهج تربوية"²⁸⁵ ويحتاج من وجهة نظرنا - إلى جانب ما ذكره - مراعاة موانع تحول دون استثمار المشترك الإنساني وتنظم في ثلاثة اتجاهات، الاتجاه الأول له بعد تاريخي تمثل في كتابات الاستشراق المنحازة ومخلفات استعمار الغرب للشرق واستنزاف خيراته، مما راكم نوعا من ردود الأفعال وشعورا بالاستياء والإحباط والكرهية.

الاتجاه الثاني له بعد فكري تنقاسمه إشكاليتان، الإشكالية الأولى تتعلق بمدى التكامل المعرفي بين الفكر الديني والفلسفي في النظرة إلى العالم والكون والحياة ووظيفة الإنسان وظهور مذهب فلسفي أخلاقي سياسي، على حد تعبير المفكر المغربي طه عبد الرحمان، يقول بـ «مبدأ تصادم القيم» أحاطت بظهوره ظروف خاصة هي "أولا ظرف الحداثة الذي قام على مبدأ التعارض بين العقل والدين وقد كان هذا التعارض سببا في تسبب عقلي صريح وثانيا ظرف «الليبرالية» الذي قام على مبدأ التعارض بين السياسة والأخلاق وقد كان هذا التعارض سببا في تسلط سياسي شامل وثالثا ظرف صدام الحضارات الذي قام على مبدأ التطابق بين الثقافة والأخلاق وقد كان هذا التطابق سببا في

²⁸² - المرجع نفسه، ص 153.

²⁸³ - المرجع نفسه، ص 166.

²⁸⁴ - المرجع نفسه، 182.

²⁸⁵ - المرجع نفسه، ص 757.

تطرف ثقافي بعيد²⁸⁶. الاشكالية الثانية ترتبط بالكتابات الفكرية عن التفرد الغربي أو المركزية الغربية وتفوق الحضارة الغربية على باقي الحضارات المعاصرة لها- كنموذج لنهاية التاريخ- معززة بخطاب إعلامي نافذ، في مقابل تقصير الفكر الغربي في معرفة الدين الاسلامي وتشتت التفكير الإسلامي في خطاب ديني متضارب أحياناً. الاتجاه الثالث له بعد حقوقي وسياسي إذ لا يمكن الحديث عن المشتركات الإنسانية بدون بيئة يسودها الايمان بالسلام والذي إذا ضاع تفقد البشرية أمنها وأمانها شرقاً وغرباً.

علاقة بنفس الموضوع وببعد أكثر أهمية وعمقا، يؤسس الدين الإسلامي للمشارك الإنساني بصيغة الجمع فيؤول الحديث عن مشتركات، مشترك في وحدة الأصل البشري (الخلق البيولوجي) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾²⁸⁷ وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾²⁸⁸. هذه الوحدة لا تنفي الحق في الاختلاف، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾²⁸⁹ وقوله ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾²⁹⁰. التسليم بوحدة الأصل والاختلاف كحقيقة إنسانية يقتضي الايمان بالتعارف، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾²⁹¹ ويقتضي أيضا عمارة كوكب الأرض باعتبارها مسؤولية الانسان، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾²⁹² وضمان الحق في الحياة، قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾²⁹³ والحرية وصون الكرامة الانسانية.

286- طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2005، ص 77.

287- سورة النساء، الآية 1.

288- سورة الاحقاف، ص 12.

289- سورة يونس، الآية 19.

290- سورة المائدة، الآية 48.

291- سورة الحجرات، الآية 13.

292- سورة هود، الآية 61.

293- سورة المائدة، الآية 32.

في نفس الحقل الديني، عند الاطلاع على الوصايا العشر الواردة في سفر الخروج²⁹⁴، أحد الأسفار المقدسة لدى الديانة اليهودية والمسيحية نجد: لَا يَكُنْ لَكَ إِلَهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي، لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْتَالًا مَنَحُوتًا، وَلَا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ، لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدُهُنَّ، لَا تَتَّقِ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِكَ بَاطِلًا، اذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِنَقْدَسِهِ، أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمِّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ، لَا تَقْتُلْ، لَا تَزْنِ، لَا تَسْرِقْ، لَا تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةً زُورَ، لَا تَشْتَهَ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لَا تَشْتَهَ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلَا عَبْدَهُ، وَلَا أَمَتَهُ، وَلَا ثَوْرَهُ، وَلَا حِمَارَهُ، وَلَا شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ. المقابل لها في الشريعة الإسلامية مقاصد الدين المتمثلة في حفظ الكليات الخمس (الدين والنفس والعرض والعقل والمال) وقد "ثبت أن مدار الشريعة كلها أو معظمها على هذه الأمور الخمسة"²⁹⁵ وأن "هذه الأصول الخمسة محفوظة في جميع الملل... لا يتصور في أي شريعة تأتي لمصلحة العباد أن تخلو من حفظ هذه الضروريات ومن حفظ هذه الأمور الخمسة"²⁹⁶.

ليس عجبا أن يكون من مقاصد الشريعة حفظ المشتركات الإنسانية، فالعامل الديني مكون تاريخي في الذاكرة الجماعية للإنسان، تستقي منه قيمها الروحية ورمز موحّد لها تحت مظلة واحدة، إذ "يسهم في تأسيس المثل العليا للضمير الإنساني كالعادلة والخير والتعاطف مع الآخرين"²⁹⁷، لذلك يظل الاطلاع على الفكر الديني والفلسفي للآخر في مظانه من بديهيات العيش المشترك ودافعا وجبها لعلم مقارنة الأديان على الرغم مما خلفه الأثر السيء لانفصال العلم عن الدين في الحياة الغربية.

كما تظل الجوانب المشتركة بين الأديان أرضية للاتفاق ومنطلقا للتواصل والتفاهم والبحث على أساس القيم الدينية التي تحت على العدل والسلام والتسامح والرحمة والتعايش وقبول الآخر ونبذ الصراعات وكل أشكال اللاتسامح والعنف التي تتعارض مع رسالة وجوهر الدين مقابل تأكيد القيم الأخلاقية المشتركة بين الأديان التوحيدية لأن "الدين

²⁹⁴ - سفر الخروج، مرجع سابق.

²⁹⁵ - أحمد الريسوني، محاضرات في مقاصد الشريعة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2014، ص 161.

²⁹⁶ - المرجع نفسه، ص 160.

²⁹⁷ - صلاح سالم، حور الأديان .. رؤية اسلامية، كراسات مستقبلية، المكتبة الاكاديمية، 2009، ص 9.

التوحيدي هو الأقرب منطقيا وفعليا إلى إنجاز تعايش حقيقي بين البشر، لأن وحدة الإله تفرض وحدة الإنسانية ومساواة البشر جميعا وما يترتب على الألوهية المطلقة من وجود بعث وحساب إنما يفترض حضور أخلاقي فعال"²⁹⁸.

مسار هذا البحث في عالم تسوده معتقدات متعددة وثقافات متداخلة، هو حوار موسع بين أصحاب القناعات والمعتقدات الدينية "يبحث عن نقاط الاتفاق والتلاقى بين الأديان وهو يشمل الحوار الأخلاقي ويتعداه بالبحث عن المشترك بين العقائد والشرائع والعبادات أيضا، معتمدا أساسا على مستنتجات علم مقارنة الأديان"²⁹⁹ ويمكن أن يُنتج أخلاقا عالمية وتعايشا وتسامحا "يحيل على اعتراف كل طرف للآخر بحقه في التمسك بقناعاته ومعتقداته وممارسة شعائره الدينية"³⁰⁰ ويقبل وجود المختلف دون ضغط أو تمييز.

لقد انعقدت لقاءات ومؤتمرات بين معتقلي الأديان المختلفة، أفرادا ومؤسسات، وأقيمت دراسات عدة حول قضايا الحوار هيمن عليها الحوار الاسلامي المسيحي، حيث "يؤكد الطرف المسيحي هو الآخر من خلال أصوله اللاهوتية على تحريم الفرقة على اعتبار أن البشر جميعا هم أبناء الله وأن كل من يسعى للتفرقة يتغرب عن الله، لأنه يتغرب عن أخيه"³⁰¹ ويروم أفق هذا الحوار البحث في مشترك حضاري لكون العقيدة جزء من الثقافة وجوهر الحضارة، لذلك يصبح حوار الأديان جزء من حوار الثقافات والحضارات بل محركه النابض وأحد جوامع المشترك الديني والإنساني، في إطار دولي معزز بإعلان بالي في شأن الوئام بين الأديان الذي دعا إلى "تشجيع البحوث من خلال تنظيم الحلقات الدراسية/ حلقات عمل وغيرها من الأنشطة لتجديد المناهج التعليمية التي تنهض بالحوار بين الأديان وتعزيزه"³⁰² وفعاليات أخرى من قبيل اعتماد أسبوع الوئام

²⁹⁸ - صلاح سالم، حوار الأديان .. رؤية اسلامية، مرجع سابق، ص 13.

²⁹⁹ - سومية حجاج، المشترك الديني بين الأديان السماوية والعالمية (دراسة مقارنة)، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2017، ص 321.

³⁰⁰ - عبد الحليم آيت امجوض، حوار الأديان نشأته وأصوله وتطوره، دار الامان للنشر والتوزيع، المغرب، الطبعة الأولى، 2012، ص 87.

³⁰¹ - المرجع نفسه، ص 392.

³⁰² - الأمم المتحدة، إعلان بالي بشأن الوئام بين الأديان في إطار المجتمع الدولي (A/60/254)، 2005.

<https://undocs.org/ar/A/60/254>

العالمي بين الأديان³⁰³ الذي اقترحه ملك الأردن عبد الله الثاني في الأمم المتحدة سنة 2010 لتعزيز السلام الثقافي ونبذ العنف وتبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة معلنة الاحتفاء بالأسبوع الأول من شهر فبراير بوصفه أسبوعا عالميا للوئام بين الأديان، ودعت الحكومات والمؤسسات والمجتمع المدني إلى الاحتفاء به بمختلف البرامج والمبادرات التي من شأنها تعزيز غايات الحوار وقد تقرر أن يكون موضوع الاحتفال بهذه المناسبة لسنة 2019 هو التنمية المستدامة من خلال الوئام بين الأديان.

إن عالمنا بثرء حضاراته وثقافته، بتنوعه وغناه يعاني من استمرار الصراعات واشتداد موجات التعصب ويعيش على بوار كوارث كونية مدمرة وهو ما يؤكد الحاجة إلى التوجيه الروحي ومضاعفة الجهود لنشر رسالة الحوار القائمة على الإنسانية المشتركة، وهي رسالة أصيلة تتشاركها جميع الديانات، لا نرى سبيلا لها إلا بمزيد من التواصل والحوار، لتأسيس علاقات إنسانية مبنية على حفظ المصالح المشترك والتكامل المعرفي والحوار والتسامح، سيما أن العالم اليوم يعيش توترا وأنانية ستقود الجميع نحو الهاوية.

ويبدو أن الحديث عن المشترك الإنساني والديني سيغدو بدون فائدة إذا لم يصاحبه جهد فكري وبحث علمي في دراسات الأديان والحضارات، تنتقل بالعالم من فلسفة الصدام إلى فلسفة المشترك. بمناهج ومؤسسات التربية والتعليم، يمكنهما أن يشيدا نموذجا معرفيا في هذا الصدد والذهاب أبعد من الوظيفة النفعية وخدمة الاقتصاد إلى الرؤية الإنسانية المشتركة بين الثقافات والحضارات، في إطار "منهاج مبني على تنشئة مشتركة بين الثقافات تراعي تعددية المجتمع وتضمن التوازن بين التعددية والقيم الشاملة"³⁰⁴ فالتعليم والمعرفة كلاهما صالحا مشتركا عالميا، يمكنهما الاستثمار في الإنسان بوصفه القيمة الثقافية الحقيقية والبحث عن البعد الإنساني في حياتنا المعاصرة من خلال مختبرات الأفكار وممارسات التربية والتعليم، هنا وهناك.

³⁰³ - <https://www.un.org/ar/observances/interfaith-harmony-week> (Accessed 07/05/2020)

³⁰⁴ - اليونسكو، إعادة التفكير في التربية والتعليم نحو صالح مشترك عالمي، منشورات اليونسكو، باريس، 2015، ص 41.

حاولنا في هذا الفصل إضاءة ثلاثة مباحث، الأول يبحث في طبيعة العلاقات الحضارية ومستقبلها من وجهة نظر مفكرين ومنظرين عالميين والثاني والثالث يقاربان إشكالات وأبعاد وامتدادات التواصل الحضاري وحوار الثقافات، فمذ العقد الأخير من القرن الماضي، مرت العلاقات بين الحضارات بثلاث مراحل أو لحظات تاريخية، اللحظة الأولى تم فيها الترويج إعلاميا وعلى مدى واسع لمقولتي نهاية التاريخ وصدام الحضارات كمحاولة لملء الفراغ بعد انهيار الكتلة الشرقية وتحول الآخر «الشيوعي» إلى الآخر «الإسلامي» واللحظة الثانية تمثلت في الدعوة إلى حوار الحضارات والثقافات كرد فعل على مقولة الصدام، في سياق تاريخي عرف أحداثا مروعة وبالغة الخطورة عاشها العالم في الولايات المتحدة الأمريكية والعراق وأفغانستان ثم اللحظة الثالثة -التي أعقبت تفجيرات مدريد 2004- على شكل مبادرة أممية موسومة بتحالف الحضارات لتحديد المصالح المشتركة ومواجهة التطرف العنيف والأفكار السيئة وزيادة المعرفة بالثقافات الإنسانية والديانات والحضارات عبر العالم، العملية التي لا تتوقف ويمكن للتعليم أن يشكل فيها دورا حاسما.

مستقبل الحضارات مرتبط بخيارات الرضوخ للهيمنة واکراهات منظومة العولمة في بعدها الثقافي والتي يبدو رفضها ليس حلا، نظرا لما حققته عولمة المعرفة والأفكار من منجزات علمية وتكنولوجية ساعدت البشرية جمعاء في الارتقاء والتطور، أو التشبث بمسار التواصل والحوار من أجل ايجاد أرضية ومصالح مشتركة نحافظ بها على خصوصياتنا وهوياتنا الثقافية.

لا يمكن أن تتطور وهي منغلقة ومنعزلة، الحضارات تغني بعضها البعض، وتتطور عبر الاتصال والتبادل والاحتكاك والتفاعل الذي يبرز جليا في عامل الاختلافات الثقافية. بمنظومتين دينيتين وفكريتين مختلفتين، الرؤية الحضارية الإسلامية تختلف عن نظيرتها الغربية، الأولى تعطي دورا للدين في البناء الحضاري، أسهمت تاريخيا بإنجازات في مجالات شتى، لا زالت شاهدة إلى عصرنا هذا والثانية رغم أنها ارتكزت في بداياتها على الديانة المسيحية فهي تعلي من شأن العلمانية والنزعة الفردية والإنجازات العلمية -خاصة التكنولوجية والتقنية- التي حققتها وأبهرت بها شعوبا وأما عبر أصقاع

الأرض وأضحت تعيش على وهم الهيمنة وعدم الاهتمام بالثقافات الأخرى. الحاصل أن لا مستقبل للحضارات إلا بالتواصل المفضي إلى التعارف والحوار والتقارب، هذا الخيار أو العمق الاستراتيجي رصدنا أربع إشكاليات كبرى تعترضه.

الإشكالية الأولى: التفاعل الثقافي الناتج عن عمليات العولمة يزيد من الوعي بالفروق والاختلافات الثقافية ويستثير التشبث بالخصوصيات الثقافية ويعمق الانشاقات الحضارية. أمام إشكالية مقاومة الخصوصية الثقافية للعولمة والمركزية الغربية، تصبح الحاجة ملحة على ما يبدو إلى عولمة في صالح الجميع والعالم وطنا للجميع فيه إطار مواطنة عالمية. إزالة الحواجز واجتياز الحدود لا يعني الانتقال دون عودة إلى الثقافة الأصل بل يعني الرغبة في اكتشاف الآخر وقبول التنوع وتنمية القدرة على الاختلاف الثقافي في بيت واحد هو كوكب الأرض. هنا تكمن أهمية الاستراتيجيات التربوية من أجل مواجهة ما تفرضه العولمة وتعزيز الهوية الثقافية في إقامة تواصل وحوار حقيقيين بين الثقافات الأخرى والنهل من عناصر التميز والقوة في ثقافة الآخر دون انبهار أو ذوبان.

الإشكالية الثانية: خلف كل سيطرة لغوية سيطرة ثقافية من نوع آخر والموروث اللغوي الاستعماري يحول دون النهوض باللغات الوطنية والتعددية اللغوية المتزنة، بل يقف حاجزا في وجه التحرر الثقافي واللغوي والعلمي ولعل هذا النوع من الامبريالية فرع من الامبريالية الثقافية وأداة إيديولوجية للهيمنة وإعادة إنتاج علاقات التبعية الثقافية والحضارية.

الإشكالية الثالثة: العلاقة بين الإسلام والغرب لا يطبعها التكافؤ، إشكالية معقدة يتشابك فيها ويتداخل ما هو سياسي وديني وثقافي، رهينة نظرات الخوف والعداء أحيانا. وهي بذلك، عقبة رئيسية في وجه التواصل الحضاري وحوار الثقافات. الغرب مدعو إلى مراجعة ذاته وتاريخه وتغيير نظرتة إلى العالم الإسلامي ومحاولة طبعه بنظام القيم الغربية، مدعو أيضا إلى أن يدرس باقي حضارات العالم -غير الغربية- والتعلم منها واكتشاف مستقبله المشترك معها.

الإشكالية الرابعة: أمن وأمان العالم في القرن الحادي والعشرين بدا رهينة للعنف الذي بدت ملامحه مع مطلع الألفية الثالثة بعد أحداث الحادي عشر من شتبر 2001 في الولايات المتحدة الأمريكية وأصبح أكثر تمداً عبر جغرافيا العالم، يرسخ التعصب والتطرف وإنكار الآخر ويطرح سؤالاً مقلقاً: كيف نتحاور في ظل الإرهاب المتعدد؟ كوباء ناتج عن عجز الإنسان في بناء السلام في عقول البشر. ليس ثمة ثقافة تولد عدوانية أو تولد لتصارع ثقافة أخرى وليس ثمة تواصل أو حوار أو تقارب بين الأفراد والثقافات مع عائق التطرف العنيف.

يرافق هذه الإشكاليات التي تشكل مجتمعة سداً منيعاً أمام أي تواصل أو حوار بين الثقافات، تراكمات تاريخية تسكن اللاوعي الجمعي للأفراد والثقافات في الشرق منذ زمن الحروب الصليبية والمخلفات السيئة للاستعمار والدور السلبي للإعلام الغربي في تقديم صورة صحيحة وموضوعية عن الإنسان العربي المسلم وترويج محتويات رقمية - تشويه ممنهج؛ تحريض؛ كراهية - في الشبكة العنكبوتية تسيئاً إلى الإسلام والمسلمين، أظف لكل هذا، الفجوة الحضارية وعدم التوازن بين الشرق والغرب وسيادة الحضارة الغربية، ثقافياً ولغوياً وتكنولوجياً واقتصادياً وعسكرياً و...، مقابل غياب مشروع حضاري في الشرق التائه.

نسند ما رصدناه من إشكاليات التواصل الحضاري وحوار الثقافات في هذا العمل بأبعاد وامتدادات من شأنها أن تسعفنا في مزيد من التحليل والتفكيك لعناصر موضوع البحث وتتمثل في: تعزيز التنوع الثقافي والتعدد اللغوي، الترجمة والمشارك الإنساني، من أجل عالم آمن، يحترم التنوع ويتحدث فيه كل شخص اللغة التي يختارها ويمارس معتقداته وثقافته بدون خوف، بل يرنو مؤكداً المشترك مع الآخر.

أولاً، في عالم معولم ومتخّم بالصراعات والتوترات وموجات الكراهية والتطرف، حيث الثقافات تفتح نوافذها يومياً لنور الشمس أملاً في البقاء، التنوع الثقافي ضروري للجنس البشري ضرورة التنوع البيولوجي، ثروة ينبغي أن لا تكون مصدراً للتوتر، بل سبيلاً لدعم فرص التواصل والتعاون والحوار الحقيقي بين الثقافات والحضارات.

في صالح أجيال الحاضر والمستقبل تمكين الثقافات والتعريف بها وتحقيق المساواة في فرص الوصول إلى مختلف أشكال التعبير الفني والمعارف ووسائل التعبير والنشر، بما فيها الرقمية. التحدي الذي يجب أن نرفعه بالمعرفة والفهم ثم التواصل والحوار في مشاغل وحقول التربية والتعليم، ونحن نعمل معاً، أفراداً ومؤسسات، من أجل حماية التنوع الثقافي. يجب على منظومة التربية والتعليم التوعية بالقيمة الإيجابية للتنوع الثقافي وتخطيط أنشطة وبرامج دراسية تبرزه وتيسر تداول المنتجات الثقافية المحلية في مجالات التربية والثقافة، دون إغفال تعزيز التنوع اللغوي منذ الطفولة المبكرة.

والحاصل أن لا مستقبل لأي تواصل حضاري وحوار الثقافات والأديان إن لم ينهل من تعدد القنوات والروى الثقافية، في زمن شكلت فيه العولمة تحدياً للموروث الإنساني المشترك وتتلقى الاتهامات بالهيمنة واذكاء الصراع واضعاف ثقافة الحوار والتفاهم.

ثانياً، ما دمنا في عالم متعدد الثقافات، فهو عالم متعدد اللغات وفسيفساء لغوية واسعة ذات أبعاد محلية إقليمية ودولية وكونية، فالمدخل اللغوي محور من محاور التواصل الحضاري وحوار الثقافات. من غير الممكن أن نتواصل ونتحاور مع الآخر ونحن لا نعيد إلا لغتنا. الانفتاح على اللغات انفتاح على ما يحيط بنا من أفكار وإبداع الثقافات الأخرى وإثراء معرفي وثقافي يعكس روح الود والتفاهم ويعزز فرص الحوار والتعارف والتواصل الحضاري مع الآخر.

إذا سلمنا بالوظيفة التواصلية للغة كمصدر حي للمعرفة والمقومات الحضارية التي تتميز مجتمعاً أو ثقافة معينة عن غيرها من الثقافات، وجب تعلم اللغة أو اللغات الوطنية أولاً كحاجز دفاع هوياتي يضمن للفرد خصوصيته الثقافية واستقلاله الفكري، ثم خوض غمار تجربة تعلم لغات أخرى. من يمتلك ناصية اللغات يمتلك القدرة على التواصل وبناء الروابط مع الآخر وثقافته.

المجتمع المغربي متعدد اللغات والمواطن المغربي يتميز بميله للانفتاح وإقباله على تعلم اللغات الأجنبية الأكثر تداولاً وانتشاراً في العالم. لكن بدون تعددية لغوية مندمجة

ومخطط لها تعليميا وبيداغوجيا لا يمكن بناء قدرات مواطن متعدد اللغات ومستوعب للثقافة المحلية والعالمية.

ثالثا، بفضل وساطة الترجمة تعارفت الحضارات والأمم وضمنت المعرفة البقاء والسفر، حركة الترجمة سر من أسرار إنتاج المعرفة وجسر تعبره النظريات والمفاهيم والأفكار ومن خلالها الثقافات والحضارات وتتقارب وتتلاقح. هذه الفاعلية في الانفتاح على الآخر وثقافات العالم تُحوّل فرضية الصدام إلى تواصل حضاري وحوار وتفاعل الحركات الثقافية والفكرية لحضارات العالم، مع إمكانية المحافظة على التراث الإنساني وتقاسم المعرفة الإنسانية رغم حاجز اللغة. الحاجز الذي تخترقه نافذة الترجمة من أجل حاجة التواصل مع الآخر وفهمه فهما عميقا، إضافة إلى الاستفادة من حصيلة علومه ومعارفه وفكره، ومما لا شك فيه معرفة الآخر ستقود إلى معرفة الذات وأعطابها.

رابعا، مع الاختلاف في الدين والثقافة واللغة و..... بين الأفراد ما لا يُعدُّ من القواسم المشتركة، ابتداء من وحدة الأصل البشري وانتهاء بوحدة المصير. هذا المشترك الإنساني على مستويات عدة، أهمها كونية المعرفة والقيم الإنسانية التي تتقاسمها الأديان والحضارات ويؤمن بها كل إنسان وتُشكّل سندا للتعارف والتواصل والحوار والسلام.

لعلنا أمام مشتركات إنسانية عابرة للثقافات والحضارات المتعاقبة، خلّص تحليلنا وقراءتنا إلى أربعة منها، هي: الكرامة والحرية والعقل والعلم، وثمة، أيضا، منظومة قيم وأخلاق مشتركة بين كل الثقافات والحضارات والديانات السماوية ينبغي استثمارها كمشارك إنساني وجزء من إنسانية كل إنسان، بقدر ما يزداد أخلاقا يزداد إنسانية. من مقاصد شريعة الأديان التوحيدية كذلك حفظ المشتركات الإنسانية، بمثابة قيم تستقى من الدين وتسهم في تأسيس المثل العليا للضمير الإنساني كالعادلة والتعاطف والتعاون والعدل والايمان بالسلام والتسامح والرحمة والتعايش وقبول الآخر.

يقتضي الأمر مراعاة موانع تحول دون استثمار المشترك الانساني، من قبيل إشكالية تصادم القيم والتكامل المعرفي بين الفكر الديني والفلسفي في النظرة إلى العالم

والكون ووظيفة الإنسان، إضافة إلى عقدة التفرد الغربي أو المركزية الغربية وتفوق الحضارة الغربية على باقي الحضارات المعاصرة لها، كنموذج لنهاية التاريخ.

الحديث عن المشترك الإنساني والديني سيغدو بلا أفق إذا لم يصاحبه جهد تربوي وتعليمي يستثمر في الإنسان وينتقل بالعالم من فلسفة الصدام إلى فلسفة المشترك، بمناهج ومؤسسات مبنية على رؤية إنسانية مشتركة بين الثقافات والحضارات، تراعي التعدد والتنوع والتكامل المعرفي وتبحث عن البعد الإنساني في حياتنا المعاصرة، تنشر رسالة الحوار القائمة على الإنسانية المشتركة. سيما أن العالم اليوم يعيش توترا وأناية قد تهوي بالعالم نحو الهاوية.

أخيرا، لا ندعي حوصلة موضوع البحث وحصره في عدد من الإشكالات والأبعاد ولكن هي بدايات الدراية الكافية بمدى تعقيد موضوع الدراسة وانفتاحه على موضوعات بحث أخرى ولأهل العلم والاختصاص من علماء وأكاديميين وتربويين تفكيك واستشراف مزيد من الأبعاد والامتدادات في ظلّ التحديات الحضارية المستجدة والأزمات العالمية المطروحة للمواجهة. بما أن القناة حاصلة على نطاق عالمي بأهمية حوار الحضارات والثقافات، سيما أن الدعوة إلى الحوار والتحالف انطلقت من أعلى منابر الأمم المتحدة، سنتساءل: كيف ينظر الفكر المؤسسي والوثائق والملتقيات والندوات الدولية - التي أخذت على عاتقها دعم مشروع ونظرية الحوار - إلى أهمية التربية والتعليم في تحقيق هذا المبتغى؟ بأية مداخل تعليمية وآليات بيداغوجية وتصورات أو توصيات عملية؟ وأي اسهامات مغربية في هذا المضمار؟ إنها انشغالات يحاول الفصل الثالث من هذا العمل مقاربتها.

الفصل الثالث
أدوار وأهمية التربية والتعليم
في تعزيز التواصل الحضاري وحوار الثقافات:
رؤى دولية وعربية إسلامية ووطنية

المؤسسات الدولية فرادى ومجتمعة لم تتأى بنفسها عن موضوع صدام الحضارات. عند تفكيك رزنامة مفاهيم البحث، تحدثنا عن تبلور مقولتي حوار الثقافات وحوار الحضارات في إطار أدبيات المؤسسات الدولية كمنظمة الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي ومنظمات دولية من مثل اليونسكو واليونسيف وأخرى إقليمية عربية وإسلامية كالإيسيسكو والاليكسو، بالموازاة مع تنشيط التعاون الدولي في ميادين التربية والثقافة وتحفيز حوار ثقافي تربوي متكافئ بين الثقافات والأديان.

مما حذى بنا التفكير والبحث في تصور هذه المؤسسات والمنظمات الدولية والاقليمية التي تعنى بالشأن الثقافي لأدوار وأهمية التربية والتعليم في ترسيخ وتعزيز تواصل حضاري وحوار الثقافات، انطلاقاً من وثائق وتوصيات وقرارات أو نداءات وبيانات تم إصدارها.

يتخطى هذا الفصل الحدود الجغرافية والوثائق الوطنية باحثاً ومتسائلاً عن أرضية فكرية أو خلفية مؤسساتية دولية لعمل التربية والتعليم وبأي آليات وأساليب ممكنة؟ في قرارات منظمة الأمم المتحدة منذ إعلانها سنة 2001 للحوار بين الحضارات وإنتاجات وأعمال منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة «UNESCO»، الوكالة الدولية المفوض لها تتبع مؤشرات التعليم على الصعيد العالمي وسياسات الاتحاد الأوروبي الثقافية ممثلة بالكتاب الأبيض حول حوار الثقافات ومؤتمر كوبنهاجن عن التعليم من أجل التفاهم والحوار بين الثقافات. من جانب آخر سنتطرق لأعمال منتديات تحالف الحضارات وبيانات وإعلانات مختلف الملتقيات والندوات الدولية ذات الصلة بموضوع بحثنا.

تقييدا لعملا ووفاء للعمل المؤسساتي المقصود في هذا الفصل، حصرنا الاسهامات العربية في إنجازات الجامعة العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أو ما يعرف اختصارا «ALECSO» والاسهامات الاسلامية في أعمال منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة أو ما يعرف اختصارا «ICESCO» والاسهامات المغربية في هذا المجال، الذي توليه المملكة المغربية حيزا مهما في سياستها الخارجية، انطلاقا من وثيقتي «مشروع تعهدات الرباط» و«نداء فاس لتعزيز الحوار بين الثقافات والأديان» في دورتي 2013 و2018.

المبحث الأول: التربية والتعليم وحوار الثقافات من منظور مؤسسات الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي.

طرح موضوع حوار الحضارات على الساحة الدولية جعلنا نركز في البداية على جهود ثلاثة جهات دولية، الجهة الأولى منظمة الأمم المتحدة الهيئة الدولية ذات البعد العالمي الحقيقي ومحفل مناقشة كل القضايا التي تتجاوز الحدود الوطنية، أُسست بعد أن جلبت الحرب مرتين على الإنسانية أحزاناً لا توصف وأضحت أجهزة هذه المؤسسة الدولية مرجعاً لتنسيق أعمال الأمم وتوجيه التعاون بين الدول، طال مهام الحفاظ على المدارس آمنة وبمنأى عن النزاعات والعنف.

والجهة الثانية هي اليونسكو الوكالة الدولية التي تضطلع بدور أساسي في تهيئة أطر العمل الدولية للسياسات والممارسات التعليمية في قضايا التربية والتعليم والثقافة، على ضوء مفهوم «التعليم يغيّر مسار حياة» الذي يشكل صلب رسالتها ودورها الجديد في «إطار العمل الخاص بالتعليم حتى العام 2030» ابتداءً من سنة 2015 من خلال قيادة جدول أعمال التعليم العالمي وضبطه ومراقبته عبر الشراكات والرصد والبحوث.

الجهة الثالثة هي الاتحاد الأوروبي الفضاء الذي يحفل بالتعبيرات الثقافية بجميع مستوياتها العرقية واللغوية والدينية... وفرص التبادل الثقافي والتقاسم والإبداع، شكل

عبر قرون خلت فسيفساء من التنوّع الثري والمبادلات بين مختلف الأمم والثقافات، وصلت إلى صناعات ثقافيّة وابداعيّة تنبض بالحويّة وتسهم بقوة في الحوار بين الثقافات.

أولاً: التربية والتعليم في عمل الأمم المتحدة لتشجيع الحوار بين الثقافات.

الأمم المتحدة³⁰⁵ منظمة دولية أنشئت في عام 1945، تتكون حتى الآن من 193 دولة عضو، أجهزتها الرئيسية هي: الجمعية العامة ومجلس الأمن والمجلس الاقتصادي والاجتماعي ومجلس الوصاية ومحكمة العدل الدولية والأمانة العامة للأمم المتحدة. تتمتع بطابع دولي فريد وتعمل على قضايا تواجه الإنسانية في القرن الحادي والعشرين، مثل "قضايا السلم والأمن وتغير المناخ والتنمية المستدامة وحقوق الإنسان ونزع السلاح والإرهاب وحالات الطوارئ الصحية والإنسانية والمساواة بين الجنسين والحوكمة"³⁰⁶.

بعد المبادرة العالمية «التعليم أولاً» التي اتخذها الأمين العام للأمم المتحدة، اعتمدت جميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة في عام 2015 أهداف التنمية المستدامة السبعة عشر لعام 2030 والتي تُعرف أيضاً باسم الأهداف العالمية، يعد التعليم الجيد الهدف الرابع فيها من خلال التعهد بعدم ترك أي شخص في الخلف. هدف من أهداف التنمية المستدامة يروم "ضمان التعليم الجيد المنصف والشامل للجميع وتعزيز فرص التعلّم مدى الحياة للجميع"³⁰⁷.

قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً رقم 275/74³⁰⁸ واعتماد التاسع من شتتبر من كل سنة يوماً عالمياً لحماية التعليم من الهجمات وضمان بيئة آمنة للأطفال لمواصلة تعليمهم واكتساب المهارات التي يحتاجونها للمستقبل، تأكيداً للمقاصد والمبادئ الواردة في ميثاقها التأسيسي، التي تدعو إلى بذل جهد جماعي لتعزيز العلاقات الودية بين الأمم، قررت الجمعية العامة بموجب قرارها 22/53 المؤرخ في 4 نوفمبر 1998 إعلان

³⁰⁵ - الرئيس الأمريكي فرانكلين دي روزفلت «Franklin Delano Roosevelt» هو أول من استخدم مصطلح «الأمم المتحدة» والإعلان عنها بعد ذلك في 1 يناير 1942 في خضم الحرب العالمية الثانية.

³⁰⁶ - <https://www.un.org/ar/sections/about-un/overview/index.html> (Accessed 13/08/2020).

³⁰⁷ - <https://www.arabstates.undp.org/content/rbas/ar/home/sustainable-development-goals.html> (Accessed 13/08/2020).

³⁰⁸ - <https://undocs.org/ar/a/74/l.66> (Accessed 13/08/2020).

سنة 2001 سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات³⁰⁹ وشرحت فيه رؤيتها ومنظورها المنطلق من الاقرار بالإنجازات الحضارية المتنوعة كإرث مشترك وتراث جماعي ومصدر إلهام للجنس البشري وضرورة بلورة تعددية ثقافية والتأكيد على أهمية التسامح في العلاقات الدولية والدور الرفيع للحوار بمثابة أداة للتفاهم وتعزيز التبادل بين الحضارات.

وبذلك، أعلنت الأمم المتحدة عن عزمها تسهيل وترويج الحوار بين الحضارات ودعت الحكومات ومنظومة الأمم المتحدة، بما في ذلك منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، وغيرها من المنظمات الدولية وغير الحكومية المعنية إلى تخطيط وتنفيذ برامج ثقافية وتعليمية واجتماعية ملائمة لتعزيز مفهوم الحوار بين الحضارات، بوسائل من بينها تنظيم المؤتمرات والحلقات الدراسية ونشر المعلومات والمواد الأكاديمية عن الموضوع.

في نفس الاتجاه، شجعت جميع الحكومات على توسيع مناهجها التعليمية المتصلة بتدريس احترام مختلف الثقافات والحضارات والتوعية بحقوق الإنسان وتعليم اللغات وتاريخ وفلسفة مختلف الحضارات وكذلك تبادل المعرفة والمعلومات .. لتعزيز تفهم أفضل لجميع الثقافات والحضارات، بالموازاة مع تعيين الممثل الشخصي للأمين العام لسنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات السيد Giandomenico Picco شكل الأمين العام للأمم المتحدة فريق الأشخاص البارزين³¹⁰ من مختلف الخلفيات الحضارية والثقافية لكي يتولى إعداد وصياغة وثيقة تكشف عن أهمية الحوار بين الحضارات وترسي له أسسا فكرية وسياسية ثابتة على نحو يكفل استمراره وتواصل حلقاته في دراسة مفصلة موسومة «Crossing the divide- Dialogue among Civilizations».

³⁰⁹ - الجمعية العامة للأمم المتحدة، قرار رقم A/RES/55/23 بتاريخ 13 نونبر 2001، الجلسة العامة 60، الدورة 55، البند 32 من جدول الأعمال.

³¹⁰ - المساهمون في كتاب «مد الجسور: الحوار بين الحضارات»

Crossing the Divide: Dialogue among Civilizations (South Orange, NJ: Seton Hall University School of Diplomacy and International Relations, 2001)

أ. كمال أبو المجد، لوردس أريزبي، حنان عشراوي، روث كاردوسو، جاك ديور، ليزلي جيلب، نادين غورديمير الأمير، الحسن بن طلال، سيرجي كابيتزا، هايوا كلواي، تومي كوه، هانز كونغ، غراسا ماشيل، أمارتيا سين، سونغ جيان ديك، سيرينعتو وايمينغ، ريتشارد فون فايزساكر، جواد ظريف، جيادو منيتشو بيتشو، الممثل الشخصي للأمين العام لسنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات.

نتويجا لهذا المسار، أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ 21 نونبر 2001

برنامجا عالميا للحوار بين الحضارات «Global Agenda for Dialogue among Civilizations» تناول الأهداف المنشودة والمبادئ التي ينهض بها الحوار واسهاماته الممكنة، وتوالت قرارات الجمعية العامة وتقارير الأمين العام للأمم المتحدة الصادرة في شأن تعزيز الحوار بين الحضارات وتشجيع ثقافة السلام والحوار بين الأديان والثقافات، متضمنة في مجملها خطوات تنفيذية محددة.

قدم الأمين العام للأمم المتحدة في الدورة التاسعة والستين، يوم 2 أكتوبر 2014، تقريراً عن الأنشطة التي اضطلعت بها كيانات الأمم المتحدة الرئيسية العاملة في مجال ثقافة السلام والحوار والتفاهم بين الأديان والثقافات. في المحور الخاص بتعزيز السلام والتفاهم المتبادل من خلال التعليم ركز التقرير على:

■ تشجيع اليونسكو القيم والمواقف وأنماط السلوك التي تعزز المواطنة العالمية المسؤولة، من خلال استجابات تعليمية فعالة، في انسجام مع أهداف المبادرة العالمية «التعليم أولاً» وإطار اليونسكو للتعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية، الإطار الذي يساعد الدول الأعضاء على دمج التعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية في النظم التعليمية الوطنية، عن طريق إقامة حوار مفتوح، مثل منتدى اليونسكو الأول حول التعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية (بانكوك، دجنبر 2013) وما ورد في منشورها المعنون «التعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية: إعداد المتعلمين لمواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين»، سنأتي على بسط الحديث فيه لاحقاً.

■ مساهمة اليونسكو في مراجعة أو تعديل المناهج الدراسية والكتب المدرسية وغيرها من المواد التعليمية لتخليصها من القوالب النمطية الثقافية والدينية والجنسانية. في هذا السياق، المنشور المعنون «دليل تنفيذ مشروع تعليم الاحترام للجميع» يشكل أداة مفيدة ويساعد على تقييم سياسات التعليم وحقائق واقع تعلم العيش معا من منظور إقليمي.

■ الاهتمام بتعليم اللغات بصفتها عامل تمكين في تحقيق التعليم للجميع، حيث تزداد القدرات اللغوية أهمية في عالم متسم بالعولمة والتنوع الثقافي.

في هذا الصدد، اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً رقم 140/69 بتاريخ 15 دجنبر 2014 في شأن تشجيع الحوار والتفاهم والتعاون بين الأديان والثقافات من أجل السلام، رحبت فيه بمبادرة التعليم من أجل السلام من خلال الحوار بين الأديان والثقافات في أفريقيا، وبعرض حكومة بنين استضافة ندوة دولية عن المبادرة في العاصمة الاقتصادية كوتونو، خلال النصف الأول من عام 2015³¹¹.

تظل الأمم المتحدة المقر الطبيعي للحوار فيما بين الحضارات وهي المنتدى الذي يمكن أن يزدهر فيه الحوار ويؤتي ثمره في كل ميدان من ميادين العمل الإنساني. ما فتئت منذ تأسيسها قبل سبعة عقود، تواجه تحديات جديدة من مثل تداعيات الهجرة والتطرف العنيف، فضلاً عن غايتها المتصلة بحماية السلام وحقوق الإنسان عبر العالم، بمساعدة عدد من وكالاتها الدولية من مثل: اليونسكو واليونسيف. فماذا عن حضورها واستراتيجياتها في مجال التواصل الحضاري وحوار الثقافات؟

ثانياً: اليونسكو واليونسيف، من الاستثمار في حوار الثقافات إلى العقد الدولي للتقارب بين الثقافات وتعلم العيش معاً.

تأسست منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة أو ما يعرف اختصاراً «UNESCO» سنة 1945 وهي وكالة الأمم المتحدة الوحيدة المفوضة لمتابعة مختلف شؤون التعليم وجوانبه، رسالتها إرساء السلام من خلال التعاون الدولي في مجال التربية والعلوم والثقافة، وحددت في ديباجة ميثاقها التأسيسي هدفاً طموحاً هو: "لما كانت الحروب تتولد في عقول البشر، ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام"³¹².

حالياً، تسهم برامجها في تحقيق أهداف خطة التنمية المستدامة لسنة 2030 المعتمدة من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة في سنة 2015، لكي تؤدي اليونسكو هذا الدور، فإنها تسعى إلى توفير قيادة عالمية وإقليمية في مجال التعليم وإلى تعزيز النظم التعليمية في شتى أنحاء العالم، فضلاً عن التصدي للتحديات العالمية المعاصرة من خلال

³¹¹ - الجمعية العامة للأمم المتحدة، قرار رقم 140/69 في 15 دجنبر 2014، الدورة 69، البند 14 من جدول الأعمال، رمز الوثيقة

A/RES/69/140

³¹² - <https://ar.unesco.org/about-us/introducing-unesco> (Accessed 13/08/2020).

التعليم وبما أنها الوكالة الوحيدة في منظومة الأمم المتحدة التي أُسندت إليها مهمة تشمل جميع جوانب التعليم، فإنها تستخدم قدرة التعليم على إحداث التحولات لتعميق المعرفة وتطوير كل أشكال التعليم بدءاً بالتعليم ما قبل المدرسي وانتهاءً بالتعليم العالي والتعليم غير النظامي ومحو الأمية، كما تسهم اليونسكو في مراجعة أو تعديل المناهج الدراسية والكتب المدرسية وغيرها من المواد التعليمية لتخليصها من القوالب النمطية الثقافية والدينية والجنسانية وتجزم نفس الوكالة الدولية بأن الحكومات تتحمل المسؤولية الأساسية للتنفيذ الناجح والمتابعة والمراجعة، بدعم من الشراكات المتعددة الجهات، فضلاً عن توفير التمويل اللازم.

يقع مفهوم «التعليم يغيّر مسار حياة» في صلب رسالة اليونسكو لبناء السلام، إذ تؤمن بأنّ التعليم حقّ من حقوق الإنسان لا بدّ من تأمينه مدى الحياة وبمعايير جيّدة. أُسندَ إليها هذا الدور الرائد في جدول أعمال التعليم العالميّ إلى غاية سنة 2030 عبر الهدف الرابع - التعليم الجيد- من أهداف التنمية المستدامة الذي يتضمن عشر غايات تشمل جوانب عديدة ومختلفة للتعليم تنقسم إلى سبع نتائج منشودة وثلاث وسائل لتنفيذها.

تتمثل النتيجة السابعة في "تعليم من أجل المواطنة العالمية وأن يكتسب جميع المتعلّمين المعارف والمهارات اللازمة لدعم التنمية المستدامة، بجملة من السُّبل من بينها التعليم لتحقيق التنمية المستدامة واتباع أساليب العيش المستدامة وحقوق الإنسان، والمساواة بين الجنسين والترويج لثقافة السلام ونبذ العنف والمواطنة العالمية وتقدير التنوع الثقافي وتقدير مساهمة الثقافة في التنمية المستدامة بحلول عام 2030"³¹³، أمّا خارطة الطريق نحو تحقيق هذا الهدف فتمرّ بإطار العمل الخاصّ بالتعليم حتّى سنة 2030 والذي يرى، بصورة عامة، أن التعليم "يعد أساسياً في تعزيز المواطنة العالمية والتسامح والالتزام المدني ... يسهل الحوار بين الثقافات والاعتراف بالتنوع الثقافي وهما أساسيان للتماسك الاجتماعي"³¹⁴.

³¹³ - <https://ar.unesco.org/node/266483> (Accessed 13/08/2020).

³¹⁴ - إطار عمل التعليم بحلول العام 2030، المنتدى العالمي للتربية 2015. (<http://www.unesco.org/new/fileadmin/MULTIMEDIA/FIELD/Doha/pdf/DraftFrameworkActionARA.pdf>)

تحرص اليونسكو على أن يعترف التعليم بالدور المحوري الذي تؤديه الثقافة في تحقيق الاستدامة مع مراعاة الظروف المحلية والتوعية على الثقافة والتراث وتنوعهما وضمان الانتفاع المنصف والشامل بالتعليم الجيد الذي ينمي المعارف والمهارات في مجالات من قبيل المواطنة العالمية ويروج لثقافة السلام واللاعنف والحوار والتفاهم بين الثقافات. من أجل ذلك تتعاون اليونسكو مع الحكومات ومع مجموعة واسعة من الشركاء لتعزيز فعالية النظم التعليمية عن طريق تغيير السياسات من خلال مشاريع دولية ذات إجراءات عملية.

اضطلعت اليونسكو - بالتعاون مع الدول الأعضاء والمنظمات الحكومية الدولية وغير الحكومية - بأنشطة متنوعة وجهود حثيثة تستهدف تعزيز السلام والتفاهم المتبادل من خلال التعليم مستفيدة من برنامج عملها المتعلق بثقافة السلام واللاعنف ومن خطة العمل المتعلقة بالعقد الدولي للتقارب بين الثقافات 2013-2022 عبر تشجيع القيم والمواقف وأنماط السلوك التي تعزز المواطنة العالمية المسؤولة، من خلال استجابات تعليمية فعالة للتحديات المعاصرة ويتم التركيز على البرامج والمشاريع من أجل المساعدة على غرس التسامح والتفاهم بين الجماعات والثقافات والأديان المختلفة، في انسجام مع أهداف المبادرة العالمية «التعليم أولاً» التي اتخذها الأمين العام للأمم المتحدة والتي تستضيف اليونسكو أمانتها ومن خلال إطار اليونسكو للتعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية، تساعد اليونسكو الدول الأعضاء فيها على دمج التعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية في النظم التعليمية الوطنية، عن طريق إقامة حوار مفتوح، مثل منتدى اليونسكو الأول حول التعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية في دجنبر 2013 ببانكوك، وفق ما ورد في منشورها الموسوم بالتعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية: إعداد المتعلمين لمواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين³¹⁵.

في هذا الصدد، تشير اليونسكو إلى أنّ "التعليم من أجل المواطنة العالمية يهدف إلى تمكين المتعلمين من تأدية دور فعال على الصعيدين المحلي والعالمي في مواجهة التحديات العالمية، وفي نهاية المطاف، الإسهام على نحو استباقي في إرساء عالم أكثر

³¹⁵ - تقرير الأمين العام حول تشجيع ثقافة السلام والحوار والتفاهم والتعاون بين الأديان والثقافات من أجل السلام في الدورة التاسعة والستون، البند الرابع عشر من جدول الأعمال: ثقافة السلام، أكتوبر 2014، رمز الوثيقة A/69/413.

عدلاً، وتسامحاً، وشمولية، وأمناً واستدامة"³¹⁶ ويؤدّي مشروع تشجيع التعليم المتعدّد اللغات، الذي انطلق منذ سنة 1999 ويشمل استخدام اللغة الأم ولغة إقليمية أو وطنية ولغة دولية، دوراً هاماً في هذا المجال، إذ يسهم هذا التنوع اللغوي والثقافي في الإبداع والابتكار والاندماج الاجتماعي.

ووعياً بأهمية الحوار بين الثقافات والأديان لمكافحة الأنماط الجديدة من العنصرية والتمييز والتعصب، من خلال إعلان مبادئ وتوجيهات لتتوير وإلهام المشروعات ذات الصلة بتقارب الثقافات، أقر المجلس التنفيذي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة في الدورة الرابعة والتسعين بعد المائة سنة 2014 خطة العمل للعقد الدولي للتقارب بين الثقافات 2013-2022، بهدف شامل يتمثل في تمكين الأجيال الحالية والمقبلة من المعارف والكفاءات والمهارات والأدوات الجديدة اللازمة للتبادل والتواصل والتعاون عبر الحدود الثقافية والدينية والوطنية بحيث يغدو أبنائها مواطنين عالميين مسؤولين، من خلال مبادرات ومشروعات التعليم والفنون والتراث والعلوم وتكنولوجيات المعلومات.

تقترح الخطة أربع موضوعات بارزة للعمل من بينها نشر المبادئ والأدوات اللازمة للحوار الثقافي عبر التعليم النظامي وغير النظامي، الجيد والمتحرر من التحيزات الثقافية والدينية والجنسانية والقوالب النمطية وكذلك عبر التعليم المعني بحقوق الإنسان والحوار بين الثقافات لتعزيز التعاون بين جامعات بلدان الجنوب وبين هذه الأخيرة من جهة وجامعات بلدان الشمال من جهة أخرى.

تضع الخطة على عاتق الجهات المعنية بذل جهود مشتركة لتمكين المدرسين والمتعلمين من المعارف والقدرات اللازمة للانفتاح وتقدير التنوع الثقافي. ويشمل ذلك تعديل مضامين المناهج والكتب المدرسية الوطنية، مع مراعاة أنماط التعلم المختلفة وخبرات التنوع الثقافي واللغوي التي تتضمن تعليم السلام والتعليم من أجل المواطنة

³¹⁶ -<http://www.unesco.org/new/en/unesco/events/prizes-and-celebrations/celebrations/international-days/international-mother-language-day-2014> (Accessed 13/08/2020).

العالمية والحوار الثقافي، كما ينبغي أن تُطلق المدارس والجامعات ومؤسسات التعليم والبحوث الأخرى مبادرات لترويج التقارب بين الثقافات. يعد العقد الدولي فرصة لتسليط الضوء على الحاجة لإدراج كفاءات جديدة متعددة الثقافات كجزء أصيل في كل المناهج الدراسية.

إجمالاً، يمكن تنفيذ العقد في المنظومة التعليمية من خلال الأنشطة والطرائق الآتية:

- تخطيط المواد التعليمية والبرامج والمشروعات التدريبية التعليمية التي تدعم اللاعنف والتسامح والفهم المتبادل والتعددية الثقافية والتعددية اللغوية والكفاءات المتعددة الثقافات والحوار بين الأديان.
- إجراء دراسات استقصائية للمناهج والكتب المدرسية والجامعية لتشجيع ومساندة الإصلاحات والتعديلات في السياسات التعليمية على المستوى الوطني.
- تأهيل المدرسين لتعزيز الوعي والقدرة المتعددة الثقافات لتعليم القيم وأنماط السلوك المفضية إلى التقارب بين الثقافات.
- إعداد منح للدراسات والبحوث وجوائز للأعمال البارزة في البحوث المتعددة الثقافات.

في عمل آخر أكثر نوعية، أصدرت اليونسكو تقريراً عالمياً معنون بالاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات وهو موجز تنفيذي في ثلاثة أجزاء وثمانية فصول يتحدث عن التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات في ظل الهويات الوطنية والدينية والثقافية المتعددة. يبسط التقرير إشكالية التفاعلات الثقافية والقوالب النمطية الثقافية والتعصب وتحديات الحوار في عالم متعدد الثقافات.

اعتبر التقرير اللغات ليست مجرد أداة للاتصال، بل تمثل نسيج التعبيرات الثقافية نفسه والحامل للهوية ورؤى العالم وضياح اللغة يعتبر شكلاً متأخراً من أشكال الاستنزاف الثقافي، لذلك فالسياسات اللغوية التي تساند تعددية اللغات وتعلم اللغات استراتيجيات لا غنى عنها لتحقيق استدامة التنوع الثقافي على المدى الطويل والمساهمة في الحفاظ على

اللغات المهددة. سجل التقرير، في نفس السياق، تراجع الترجمة الأدبية وخلا في تدفقات الترجمة بمختلف أنحاء العالم (55% من إجمالي ترجمة الكتب يتم من الانجليزية، مقارنة بترجمة 6.5% من الكتب إلى الانجليزية) فالترتيب الهرمي بين اللغات يحدد اتجاه تدفق الترجمة.

في تقريرها العالمي، ترى منظمة اليونسكو في المجتمعات المتعددة الثقافات التعليم وسياقات التعلم يجب أن يمكننا من اكتساب كفاءات التعامل بين الثقافات والعيش بسلام رغم الفوارق الثقافية في ظل المبادئ الأربعة التي حددتها اللجنة العالمية المعنية بالتعليم في القرن الواحد والعشرين وهي «التعلم من أجل أن تكون» و«التعلم من أجل أن تعرف» و«التعلم من أجل أن تفعل» و«التعلم من أجل العيش المشترك». الأمر الذي يتطلب مناهج متعددة الثقافات واللغات تستند إلى رؤية واحدة بأصوات متعددة.

من أجل التعلم للعيش معا وبدعم وتعاون من منظمة الأمم المتحدة للطفولة «UNICEF» ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، قام مجلس التواصل بين الأديان لتعليم الأخلاق للأطفال³¹⁷ ومؤسسة أريغاتو³¹⁸ وشبكة الأديان العالمية للأطفال³¹⁹ ومجموعة من الخبراء الدوليين بإعداد وتنسيق كتاب «التعلم للعيش معا» في إطار برنامج للتواصل بين الثقافات والأديان لتعليم الأخلاق، من منظور التعلم بين الثقافات والأديان المختلفة والتعليم الذي يتميز بالجودة، حيث تتم تغذية الأخلاق والقيم ومنح الأطفال فسحة لتطوير إمكاناتهم الفطرية من الروحانيات.

في مجال التعليم، يتكون تعلم العيش معا من وحدتي تعليم، هما: «فهم النفس والآخرين» و«تغيير العالم معا» وتتلخص أهدافه في تعزيز قدرات الأطفال واليافعين في اتخاذ قرارات أخلاقية، مبنية على أسس راسخة من القيم التي تعزز احترام الثقافات

³¹⁷ - مجلس يتألف من رجال دين ومربين وعاملين بالأمم المتحدة، شكله مركز دوليا للمصادر المرجعية ورابطة للحوار والشاركة من أجل تعليم الأخلاق للأطفال.

³¹⁸ - منظمة غير حكومية مقرها طوكيو.

³¹⁹ - افتتحت مؤسسة أريغاتو شبكة الأديان العالمية للأطفال في ماي 2000 ، بهدف تعزيز التعاون بين الشعوب من مختلف الأديان، التي تشارك في الأنشطة الخاصة بإنفاذ حقوق الأطفال.

والمعتقدات الأخرى وتأكيد إمكانية العيش معا واحترام الآخر في عالم مختلف الأديان والأخلاق والتقاليد الثقافية، مع تزويد المربين بأدوات للعمل في مجال التعلم بين الأديان والثقافات وتطوير وتعزيز ممارسات ناجحة للعيش معاً، مع أناس من ثقافات ومعتقدات وديانات مختلفة.

حسب مقتضيات برنامج التواصل، من خلال عملية التعلم يمكن إيجاد مجال للتبادل والتفاعل والتفاهم عبر الترويج للتفكير النقدي والتفاهم والانفتاح تجاه الآخر وتجعل هذه العملية اكتشاف الأطفال، واليا فعين لتعاليمهم وقيمهم الخاصة وتعاليم وقيم الآخرين أمراً ممكناً. تبعاً لذلك فإن التفاعل مع الآخر يخلق احتمالات لإثراء متبادل في عملية متواصلة من الأخذ والعطاء، تشكل جزءاً من الإنسانية الشاملة، فالتعليم ليس بمعزل عن الآخر بل ضمن العلاقة معه، والأطفال بحاجة لأن يقدروا، ليس دينهم فحسب، بل أيضاً ما يؤمن به الآخرون وعلى الأرضية المشتركة التي تجمعنا. تعليم التواصل بين الأديان يجب أن يتم فهمه أيضاً ضمن محتوى التعليم النوعي، كما ورد في الإعلان الخاص بالتعليم للجميع ومن خلال دعائم اليونسكو الأربعة للتعليم: تعلّم المعرفة، وتعلّم الفعل، وتعلّم كيف نعيش معاً، وتعلّم كيف نكون.

في نفس الإطار، تدعم منظمة الأمم المتحدة للطفولة التعليم المبني على المهارات الحياتية للوقاية من العنف وبناء السلام وتعزيز التعليم التفكير والعاطفي والاجتماعي الذي يتفق مع الدعائم الأربع السالفة الذكر، كما تعتبر التعليم المتميز يهيئ بجودته الأفراد لحياة ناجحة ويخلق مجتمعات صحية عن طريق تطوير المعرفة والمهارات والمواقف والقيم الضرورية، لتغيير الأنماط السلوكية التي ستمكن الأطفال والراشدين من منع الأزمات والعنف وحل النزاعات سلمياً، وتهيئة الظروف التي تقضي إلى السلام، سواء أكان على الصعيد الشخصي أو عبر المجموعات، سواء على المستوى الوطني أو الدولي.

ثالثاً: التربية التعليم في الكتاب الأبيض حول حوار الثقافات من أجل العيش معاً.

أوروبا قارة التنوع الثقافي بامتياز. لا شك، أنه تنوع ساهم إلى حد كبير وملحوظ في ازدهار أوروبا وتقدمها. للاتحاد الأوروبي سلسلة ثقافات وليس ثقافة منفردة، مما

يجعل التواصل والحوار مدخلا آمنا لتدبير هذا التنوع ديموقراطيا نحو المستقبل والمصير المشترك لدول الاتحاد، حيث تتشكل الهوية الأوروبية من إرث وقيم مشتركة للأوروبيين فضلا عن منجزات الحضارات الإنسانية التي انتقلت لأوروبا تارة بالغزو وتارة أخرى بالهجرة ويضطلع التواصل الحضاري وحوار الثقافات بأدوار ومهام تمكن من تفادي التوترات الاثنية والدينية واللغوية، من جهة، ويسمح بهندسة ويقظة ومشاركة ديموقراطية وفاعلة مع مجتمعات أخرى وأفراد آخرين، على أساس المشترك الإنساني واحترام خصوصيات الآخر المختلف عامة.

كنتيجة لسلسلة من المشاورات بين الدول الأعضاء ومنظمات المجتمع المدني والجماعات الدينية والمهاجرين والسلطات المحلية والإقليمية بأوروبا وباسم حكومات الدول الأعضاء، أصدر مجلس أوروبا في الدورة الوزارية 811 بستراسبورغ يوم 7 ماي 2008 كتابا أبيضاً حول حوار الثقافات من أجل العيش معا متساوين في الكرامة³²⁰، الكتاب بمثابة إطار نظري ودليل يستعين به أصحاب القرار السياسي والخبراء ويعتبر أنه لا يمكن لحوار الثقافات أن يفرض بحكم القانون، بل يجب أن يظل دعوة مفتوحة لتطبيق المبادئ الأساسية المنصوص عليها في وثيقة الكتاب الأبيض وتنفيذ مختلف توصياتها بمرونة.

يوجه الكتاب الأبيض رسالة مفادها أن تطوير حوار الثقافات يستدعي تدبير الحكامة الديمقراطية للتنوع الثقافي والوعي بمخاطر اللا حوار، وتعزيز المواطنة الديمقراطية والمشاركة وتدريب وتعلم كفاءات التفاعل بين الثقافات، بالإضافة إلى خلق فضاءات مخصصة لحوار الثقافات (مؤسسات التعليم العالي كفضاءات تربوية لممارسة حوار الثقافات)، طلبا في إضفاء بعد دولي على مسألة الحوار بين الثقافات.

تضيء مقدمة الكتاب الانشغالات الكبرى من قبيل:

■ عدم ملائمة المقاربات التقليدية لتدبير التنوع الثقافي للمجتمعات التي تشهد درجة كبيرة من التنوع.

³²⁰ - https://www.coe.int/t/dg4/intercultural/Source/Pub_White_Paper/WhitePaper_ID_ArabicVersion.pdf (Accessed 13/08/2020).

- التحفظ حول الالتباس الذي يطال المعنى المتداول لحوار الثقافات.
- المبادئ والقيم الواردة في الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان تملو على التقاليد الثقافية سواء كانت تشكل الأغلبية أو الأقلية.
- بدون مساواة في الكرامة، لا يمكن رفع تحدي العيش سويا داخل مجتمع متنوع.

■ لا يجب استثناء أي جهة من مهمة الانخراط في حوار الثقافات سواء تعلق الأمر بأماكن العمل أو بالنظام التربوي أو المؤسسات التابعة له.

والمصطلحات والمفاهيم الأساسية التي ينبغي تعريفها - أعدها مجلس أوروبا ومؤسسات دولية أخرى- وهي مفهوم حوار الثقافات والتعددية الثقافية والتماصك الاجتماعي والاندماج وفضاء التنوع الثقافي الذي يشمل التعددية والتسامح والمساواة في الكرامة الإنسانية، إضافة إلى إطار نظري يضم بناء الهوية في بيئة متعددة الثقافات وإيجاد توازن وأبعاد جديدة للهوية تستجيب للتفتح والتجارب الجديدة- من حق كل فرد إغناء هويته باختياره لانتماءات ثقافية متعددة- والمقاربات السابقة للتنوع الثقافي التي تبتعد عن نموذج الإدماج وانفصال الأقلية عن الأغلبية وشروط حوار الثقافات وبعده الديني الذي يضم تشكيلة من التصورات الدينية والعلمانية حول الغاية من الحياة.

ينص الكتاب الأبيض حول حوار الثقافات على خمس مقاربات للعمل من أجل النهوض بحوار الثقافات، تتمثل المقاربة المرتبطة بموضوع البحث في تعلم وتدريب الكفاءات البين ثقافية بمجالاتها الرئيسية: المواطنة الديمقراطية وتعلم اللغات والتاريخ، لا يتأتى التمكن منها بصفة تلقائية بل يجب أن تكتسب وتمارس ويحافظ عليها طيلة الحياة ويمكن لمهنيي قطاع التربية وباقي المتدخلين في القطاع التربوي العاملين في مختلف السياقات المؤسساتية وفي كل المستويات القيام بدور حاسم في هذا الإطار، أما المنهج النظامي، بالتعليم الابتدائي والثانوي فيجب أن تحتوي كل المواد التعليمية على بعد بين-ثقافي وأكثر المواد المعنية في هذا الإطار هي التاريخ والأحداث الدينية والتربية على المواطنة الديمقراطية وتدريب اللغات.

تدريس التاريخ عامل حاسم للمصالحة والاعتراف والتفاهم والثقة المتبادلة ما بين الشعوب، يتيح الحوار والبحث في الأحداث التاريخية بطريقة نقدية ويشغل مكانة أساسية في تكوين مواطن مسؤول ونشيط. يجب أن يشمل تدريس التاريخ "إلغاء كل الأفكار والصور الجاهزة وإبراز التأثيرات الإيجابية المتبادلة ما بين البلدان والديانات"³²¹. كما أن تدريس الأحداث الدينية وتلك المتعلقة بالمعتقدات في سياق بين ثقافي يمكن من نشر معارف حول كل الديانات والمعتقدات وتاريخها وهكذا يوفر للمتعلمين فهم الديانات والمعتقدات وإلغاء الأفكار الجاهزة.

التربية على المواطنة الديمقراطية مفتاح لمجتمع المساواة والانفتاح والتسامح والانسجام الاجتماعي والتفاهم المتبادل والتضامن وحوار الثقافات وتشمل كل الأعمال التربوية النظامية وغير النظامية التي تمكن الفرد من التصرف كمواطن نشيط ومسؤول محترم للآخرين. تغطي التربية على المواطنة الديمقراطية التربية المدنية والتاريخية والسياسية والتربية على حقوق الإنسان، تجمع ما بين اكتساب المعرفة والكفاءات والسلوكيات، لا سيما القدرة على التفكير وقابلية النقد الشخصي الضروريان للعيش داخل مجتمعات مختلفة ثقافيا.

تعلم اللغات، فغالبا ما تشكل اللغة عائقا في التفاعلات البين-ثقافية وتعلم اللغات يساعد المتعلمين على عدم تكوين صورة جامدة عن الآخرين ويساعدهم على تطوير الفضول والانفتاح على الآخر واكتشاف ثقافات أخرى.

علاقة بالفاعل التربوي، ركز الكتاب الأبيض على دور المدرسين في تربية أجيال الغد على الحوار واختتم بتوصيات وتوجيهات العمل المستقبلي، العمل الذي يعد مساهمة مهمة للمجلس الأوروبي بالموازاة مع إعلان 2008 سنة أوروبية للحوار بين الثقافات.

سعيًا لضمان استمرارية المبادرات الأوروبية والجهود المبذولة في نفس الاتجاه، انعقد بالعاصمة الدنماركية كوبنهاغن يومي 21 و22 أكتوبر 2008 مؤتمرًا للحوار بين

³²¹ - https://www.coe.int/t/dg4/intercultural/Source/Pub_White_Paper/WhitePaper_ID_ArabicVersion.pdf (Accessed 13/08/2020).

الحضارات حول «التعليم من أجل التفاهم والحوار بين الثقافات» أصدرت أشغاله منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة سنة 2009 تحت عنوان برنامج كوبنهاغن.

في أوروبا حيث الاتحاد يركز على عمل مؤسسات تُنظم وتُنسق العمل المشترك، ينشط الفكر المؤسسي الأوروبي في حوار الثقافات من خلال منظمات أخرى غير حكومية من مثل معهد غوته الذي يهتم بتعزيز الحوار بين الثقافة الألمانية والثقافات العربية. تؤكد البروفسورة يوتا ليمباخ، الرئيسة الدولية للمعهد أن الحوار الثقافي "لا بد أن يبدأ داخل الأسرة والمدرسة. فنحن نعيش اليوم في مجتمعات الثقافات المتعددة. يجب أن يتعرف الأطفال في المدارس على ثقافات بعضهم بعضاً"³²²، في حين يعتبر أندريه أزولاي رئيس مؤسسة «أنا ليند»³²³ الأوروبية التي تتبنى وتدعم أنشطة الشبكات الوطنية في مجالات التربية والثقافة والحوار بين الثقافات والأديان أن الحوار بين الثقافات مدخلا لا محيد عنه، يتعين أن يكون مركزيا وأولوية في البناء الأوروبي المتوسطي، أخذا بعين الاعتبار أهمية التعليم والمهارات ووسائل الإعلام في استئناف الحوار الثقافي وتنبأت بالدور المركزي للمجتمع المدني والاستثمار في الشباب³²⁴.

المبحث الثاني: التربية والتعليم في منتديات تحالف الحضارات والبيانات الدولية.

انسجاما مع ما ورد في المدخل المفاهيمي، تحالف الحضارات مبادرة دولية متقدمة ونتيجة محمودة لتواصل فعال وحوار هادف يحقق المصالح المشتركة، تحظى بتأييد الدول الأعضاء في الأمم المتحدة بالإجماع. ارتكاز فكرة التحالف على مبادرات تعليمية حكمة جعلتنا نبحت في منتديات التحالف الخمسة - عقد المنتدى الخامس بمدينة باكو في أذربيجان سنة 2019- عن الإطار التعليمي لتعزيز تحالف الحضارات والأدوار المحتملة

³²² - <https://www.dw.com/ar/> (Accessed 13/08/2020).

³²³ - مؤسسة أنا ليند هي مؤسسة حكومية دولية تضم هيئات المجتمع المدني والمواطنين من جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط (ضمن شبكة تضم أكثر من 3000 منظمة مجتمع مدني في 43 بلدا) من أجل اتخاذ إجراء لإعادة بدء الحوار ورفض خطر صدام الحضارات وتوفير منصات للشباب من أجل المشاركة في بناء مجتمعات تتمتع بالمزيد من الانفتاح والشمولية والمرونة. شارك في تأسيسها الاتحاد الأوروبي ودول الشراكة المتوسطية في سنة 2004 وتم تدشين المقر الرئيسي في مدينة الإسكندرية في سنة 2005، حيث تتواجد أمانتها الدولية ولديها منسقون وموظفون إداريون في أكثر من 40 دولة، صادق مجلس إدارة المؤسسة على خطة «العمل معاً نحو عام 2025»، التي تهدف إلى ضمان البنية التحتية اللازمة لتوسيع نطاق حركة الحوار بين الثقافات وتأثيرها. تنظم المؤسسة منتدى أنا ليند وتحضر تقريراً بشأن الحوار بين الثقافات وتقوم بنشره بين أعضاء مؤسسة أنا ليند وتنظم الحلقات الدراسية والتدريب التربوي على حوار بين الثقافات كما تنظم الجائزة الأوروبية لمتوسطة الصحافة وبرنامج الترجمة وتعمل بصفتها مرصد للترجمة في المنطقة.

³²⁴ - <https://www.annalindhoundation.org> (Accessed 13/08/2020)

للتربية والتعليم في دعم أهداف التحالف وخلق مواطن عالمي يحس بواجباته اتجاه مختلف قضايا الكوكب، يفكر عالميا ويعمل وطنيا ومحليا.

بالموازاة مع ذلك، المؤتمرات والندوات العالمية تجمعات جديدة لتنظيم وتوجيه المجتمع الدولي، يدعى إليها الخبراء والمتخصصون والدبلوماسيون لتقديم أبحاث وأوراق عمل تسلط الضوء على اشكالات عالمية وتتقاسم مقترحات حلول لها، ثمرة عمل تتظافر فيها جهود متنوعة المشارب وتصدر عنها توصيات أو قرارات أو مشاريع ملزمة وغير ملزمة أحيانا، تخضع للتتبع والتقييم من قبل هياكل منظمات دولية غير حكومية، لأهميتها حاولنا البحث في وثائق مؤتمرات واعلانات وبيانات عالمية تتخذ من أدوار وأهمية التعليم في الحوار بين الثقافات موضوعا لها في إطار الحلول التي يتم اقتراحها للاستراتيجية العالمية لحوار الثقافات والتواصل الحضاري.

أولا: التربية والتعليم في مننديات تحالف الحضارات.

لتوجيه مبادرة تحالف الحضارات شكّل الأمين العام مجموعة رفيعة المستوى مكونة من 20 شخصية بارزة تنتمي إلى أصول جغرافية مختلفة قامت بإعداد تقرير قدمته إلى الأمين العام للأمم في نوفمبر 2006 ويشمل مجموعة من المبادئ تتمثل في المنظور المتعدد الأقطاب والديمقراطية وتعزيز القانون والاحترام الكامل لحقوق الإنسان.

في جزئه الثاني، انتظمت توصيات التقرير³²⁵ في أربعة مجالات وهي: التعليم، الشباب، الهجرة ووسائل الإعلام، يمكن العمل بها لتقليل التوترات عبر الثقافات ومد الجسور بين المجتمعات. ورد في التقرير أن أنظمة التعليم اليوم تواجه تحدي إعداد الشباب لعالم معولم ومزعرع للهويات الفردية والجماعية والتعليم بأشكاله المتعددة يمكن أن يساعد على مد الجسور بين المجتمعات والشعوب وخلق التوازن بين تعليم تاريخ الفرد ومعرفة قضايا دولية وفهم المجتمعات والثقافات الأخرى وتقديرها. بمعنى الحاجة إلى تعليم عالمي وعبر الثقافات، تعليم أكثر شمولاً عن العالم وشعوبه يقع على مسؤولية الجامعات البارزة ومراكز الأبحاث حول العالم تطوير برامج «تاريخ العالم» أو «تاريخ

³²⁵ - https://www.unaoc.org/repository/HLG_report_ARA.pdf (Accessed 14/08/2020).

الإنسانية» بمناهج متعددة الأقطاب لتعليم مادة تاريخ العالم بأنظمة أكاديمية متداخلة في الكليات والمدارس وبناء شعور بتجربة إنسانية مشتركة في عالم متعدد الثقافات بدون مغالطات.

ومن تم، يتعين على الحكومات، والمؤسسات والجامعات وعلماء التربية أن يعملوا منفردين ومجتمعين على توسيع تعليم كوني وعبر الثقافات واتخاذ الخطوات التالية:

- تأكد الحكومات من أن أنظمتها التعليمية الابتدائية والثانوية تكفل التوازن والتكامل بين تكوين الهوية ومعرفة الثقافات والأديان والمناطق الأخرى.
- تعاون الهيئات المتخصصة مثل اليونسكو والإيسيسكو مع مراكز البحوث التعليمية ومطوري المناهج على النطاق الإقليمي لجعل المصادر الموجودة حالياً في هذا المجال (مثل سلسلة التاريخ البشري ومشروع التواريخ الإقليمية) جاهزة للتدريس في الفصول وتطوير وتطبيق استراتيجية لنشرها واستخدامها بواسطة الدول الأعضاء.
- دعم المؤسسات التعليمية لإعادة نشر الأجزاء المعنية بالتراث الإسلامي والتي تتناول التعددية والعقلانية والطرق العلمية وجعلها متاحة على الإنترنت بلغات متعددة.
- دعم العلماء والمنخرطين في أبحاث وتدريس الحوار والتفاهم عبر الثقافات.
- تطوير القادة الدينيين وواضعي السياسات التعليمية لإرشادات توجيهية خاصة بتدريس الأديان وإيجاد نماذج للتعريف بالديانات في المدارس.
- جمع وبث أفضل الممارسات والتوجيهات والمصادر التعليمية عن الأديان العالمية.

■ تأسيس آليات تضمن مناهج المدارس الدينية مسجلة لدى السلطات ولا تولد الكراهية لمجتمعات أخرى.

- عقد الحكومات والمنظمات اجتماعات لمراجعة المناهج تضم خبراء في المناهج وممثلين لتعاليم الأديان الرئيسية وذلك من أجل مراجعة المناهج التعليمية المستخدمة وضمان انسجامها والموجهات الخاصة بالنزاهة والدقة والتوازن في مناقشة المعتقدات الدينية وتدريس الديانات والثقافات الأخرى وضمان أنها لا تحتقر أي معتقد.

- ضرورة وجود حواسيب متصلة بالإنترنت في كافة الفصول الدراسية الابتدائية والثانوية والجامعية في العالم الإسلامي بحلول عام 2020.
- المحافظة على التوازن في المحتويات التعليمية خاصة في مراحل التعليم الابتدائي والثانوي ووضع الحكومات مناهج تعليمية كلية ومتكاملة كجزء من الإصلاح التعليمي.

في اجتماعها الثاني بالدوحة سنة 2006، أصدرت المجموعة الرفيعة المستوى حول تحالف الحضارات تقريراً عن التعليم المَنوع أو التعليم العالمي³²⁶ والتعليم الديني وتطبيق نموذج تاريخ العالم في التعليم الدولي لتحسين فهم ثقافات وديانات محددة من خلال التعليم. يصنف التقرير القضايا التعليمية التي تحتاج إلى دراسة وبحث إلى صنفين، الصنف الأول يتعلق بالقضايا الهيكلية في التعليم والصنف الثاني يتصل بالمنهج والمضمون وعلم أصول التدريس، إذ يشكل عدم الحصول على التعليم بالقدر الكافي والمناسب عجزاً في تلبية الحاجات الأساسية والاندماج السوسيو - ثقافي للفرد وإشاعة الجهل بالآخر بسبب الحواجز اللغوية والتفاوتات الاجتماعية.

ما دام ثمة أسباب عديدة لتعليم الأفراد ثقافتهم وتاريخهم، يدرُس الصنف الثاني مدى تحسين فهم ثقافات وديانات محددة وتراث محدد عبر التعليم العالمي وتسهيل الأضواء على استطلاع دراسي جديد لتاريخ العالم، أكاديمياً وتدرسياً، طريقة تتجاوز تعدد الثقافات إلى دراسة لتاريخ العالم تتركز على البشرية.

بالنسبة للتعليم الديني وُزِعَ مضمونه بين مختلف فروع المعرفة والمواضيع الأساسية للمنهج الدراسي، إذ يشير التقرير أن للتعليم الديني في العالم الإسلامي وبحوث مقارنة حول التعليم الديني في عشرين بلداً أوروبياً - في إطار اللجنة الأوروبية المشتركة المعنية بالكنيسة والمدرسة - كشفت عن خليط متعدد المستويات من التعليم في الدين والتعليم عن الدين والتعلم من الدين وتقدم معظم المدارس هذه الأنواع تارة منفردة وتارة مجتمعة ضمن التعليم العمومي. على سبيل المثال، في الولايات المتحدة الأمريكية يشير دليل المعلم بشأن الديانة في المدارس العمومية إلى أن نهج المدرسة إزاء الديانة نهج

³²⁶ - تحالف الحضارات، تقرير عن التعليم، الاجتماع الثاني، فبراير 2006، الدوحة، قطر.

أكاديمي وليس تَعَبُدياً، إذ يمكن للمدرسة أن تُطلع الطلاب على وجهات نظر دينية متنوعة وتُخبر بمختلف المعتقدات، لكن لا يجوز لها أن تشجّع أو تشوّه سمعة أية ديانة.

توالت منتديات تحالف الحضارات في عواصم مختلفة من العالم وأُفرد كل منتدى حيزاً خاصاً لأدوار منظومة التعليم في تعرف الآخر الثقافي وبناء جسر موحد بين الثقافات وصولاً لتحالف الحضارات، وهي:

■ منتدى مدريد: المنتدى السنوي الأول لتحالف الحضارات والمنعقد في العاصمة الإسبانية مدريد، يومي 15 و16 يناير 2008، شارك في هذا المنتدى ما يقارب 350 شخص من رجال الدولة وممثلي الهيئات الدولية والأكاديميين ورجال الدين وممثلي وسائل الإعلام ومؤسسات المجتمع المدني ورجال الأعمال. اكتسب منتدى مدريد أهمية خاصة من لكونه المنتدى الأول الذي تنتقل فيه مبادرة تحالف الحضارات إلى المستوى العالمي، بمجالات العمل الأربعة السالفة الذكر، التعليم والشباب والإعلام والهجرة.

■ منتدى إسطنبول: المنتدى الثاني لمبادرة تحالف الحضارات والمنظم من قبل الأمم المتحدة في تركيا بإسطنبول يومي 6 و7 أبريل 2009. شارك فيه خمسة من رؤساء الدول والحكومات ورئيس برلمان وخمسة وعشرون من وزراء الخارجية وعشر وزراء وكبار الممثلين من اثنتي عشر هيئة دولية.

أكد منتدى إسطنبول على أن مبادرة تحالف الحضارات مبادرة دولية في مجال الحوار بين الثقافات. ويمكن القول بأن التحالف قد انتقل إلى مرحلة مؤسسية، تم فيها التوافق على اتخاذ المزيد من الخطوات التي من شأنها تطبيق مبادرة تحالف الحضارات في مجال التعليم عبر إعادة النظر في دور التعليم بمفهومه الواسع لا سيما التعليم المتعلق بالاديان والمعتقدات وتعليم تاريخ العالم كمدخل أساس لتعزيز الاحترام والتفاهم. خصصت الجلسة العامة الثالثة من جلسات المنتدى لموضوع التعليم من أجل الحوار وبناء السلام في عقول الناس وناقشت مسألة خلق سلام قابل للاستدامة وعلاقات متجانسة بين الثقافات من خلال الاهتمام بالمكتبات والمناهج التعليمية وتعليم التاريخ وتعليم الأطفال الوحدة الإنسانية وقيم التسامح والأخلاق. من المشاريع والمبادرات التي دعا إليها المنتدى الثاني جمع

وتنظيم المعلومات المتعلقة بالأديان والمعتقدات في برنامج التعليم حول الأديان والمعتقدات
باسطنبول.

■ منتدى ريو دي جانيرو بالبرازيل: المنتدى الثالث لمبادرة تحالف الحضارات في
القارة الأمريكية بتاريخ 28 و 29 ماي 2010. تم اطلاق صالون الحوار خلال افتتاح
المنتدى من أجل إجراء نقاش مباشر بين مجموعات مختلفة في العالم، بهدف المشاركة في
الخبرات والتعلم من بعضها البعض. من جلسات المنتدى الجلسة الثانية في موضوع
تمكين المرأة من خلال التعليم الرسمي وغير الرسمي والجلسة السابعة التي اتخذت
التاريخ كأداة للتعاون الثقافي موضوعا.

علاقة بهذا المنتدى، عقدت أول كلية صيفية لتحالف الحضارات في الفترة الممتدة
من 15 إلى 22 غشت 2010 في جامعة أفيرو في البرتغال تحت شعار بناء الجسور بين
القلوب والعقول المنفتحة والمشاركة معا في القيام بالأشياء. شارك في هذه الكلية العديد
من الشباب من مناطق مختلفة وخلفيات ثقافية ودينية متنوعة وتعلم المشاركون كيفية فهم
التنوع والتبادل الثقافي وتطوير الثقة المتبادلة.

■ منتدى الدوحة: المنتدى الرابع لتحالف الحضارات في العاصمة القطرية الدوحة
والمنعقد بتاريخ يومي 11 و 13 دجنبر 2011. من أهم توصياته:
■ ضرورة تدريس التاريخ لرفع القيم الإنسانية مع التمييز بين المعتقدات
والعلوم.

■ تنقيح المناهج التي تشتمل على القضايا المثيرة للجدل في المعتقدات الدينية
والمواقف الأيديولوجية وتنقيح الكتب المدرسية وتقديم توصيات لتصحيح بعض التفسيرات
الخاطئة.

■ تطوير موارد التعليم على الانترنت والوسائط المتعددة وطبعتها للمعلمين
والمتعلمين.

■ تمكين معلمي التاريخ من مهارات التعلم التشاركي والتحقيق التاريخي
والأدوات التعليمية اللازمة لتعزيز التسامح في الفصول الدراسية.

■ منتدى فيينا: المنتدى الخامس لمبادرة تحالف الحضارات يومي 27 و 28 فبراير 2013 في عاصمة النمسا، انتظمت أشغاله وفق ثلاث قضايا محورية أولها معالجة الحق في حرية الدين وتعزيز التعددية الدينية عبر التعليم، في ظل التفاعل المتزايد بين مجموعة واسعة من الثقافات والأديان والقيم وأخذت الجلسة الثانية من المنتدى بعين الاعتبار مبادئ تعليم الأديان والمعتقدات في المدارس الرسمية والحقوق الأساسية الثقافية والدينية للطفل، انسجاماً مع حقوق الإنسان وتحقيق التعليم للجميع.

في سياق حفل اختتام المنتدى العالمي الخامس للحوار بين الثقافات في باكو بأذربيجان، قال ميغيل أنخيل موراتينوس، ممثل الأمم المتحدة السامي لتحالف الحضارات، إن العالم يتجه نحو تعددية جديدة من خلال الحوار بين الثقافات، غير أن هذه التعددية الثقافية تتعرض للهجوم، مذكراً الجميع بأنه في عالم "البيانات الضخمة والذكاء الاصطناعي، حيث تتحدث الآلات مع بعضها البعض، ما زلنا بحاجة إلى تواصل بشري"³²⁷.

لقد حاولت مبادرة تحالف الحضارات الاحتفاء بتواصل أبناء الحضارات وإبراز الحوار بين الثقافات في منظمة الأمم المتحدة كمحفل عالمي المستوى وانتقلت بالخطب المنمقة والمناسباتية إلى ممارسة التأمل وتصميم الأنشطة والإجراءات العملية في مجالات أربعة تتنوع بين التعليم والهجرة والشباب والاعلام، توسلاً بالنهج المتعدد التخصصات في نهل المعرفة بالثقافات عبر تاريخ الإنسان وبماضي الديانات والثقافات في العالم وتكوين نظرة عالمية ومهارات فكرية ونقدية لدى رواد المنظومة التعليمية، لكن، إلى أي حد تعمل الدول والحكومات والمنظمات الحكومية وغير الحكومية ومكونات المجتمع المدني على تنفيذ توصيات تقرير الفريق الرفيع المستوى والمنتديات العالمية، في غياب أي إلزامية أو آلية للتتبع أو المراقبة؟

³²⁷ - <https://news.un.org/ar/story/2019/05/1032311> (Accessed 15/08/2019)

ثانياً: التعليم من أجل التفاهم والحوار بين الثقافات في مؤتمر كوبنهاغن.

سعيًا لمتابعة وتأكيد التزامات مؤتمر الرباط - التي سنتطرق إليها أثناء الحديث عن الإسهامات المغربية- المنعقد سنة 2005 في موضوع تعزيز الحوار بين الثقافات والحضارات من خلال مبادرات ملموسة ومستدامة، الملتقى الذي شكل منعطفًا في المساعي الرامية إلى صياغة نهج ملموس وعملي للتعامل مع موضوع الحوار بين الثقافات وضمنًا لاستمرارية الجهود المبذولة والمبادرات الدولية في نفس المنحى، انعقد بالعاصمة الدنماركية كوبنهاغن يومي 21 و 22 أكتوبر 2008 مؤتمرًا للحوار بين الحضارات حول «التعليم من أجل التفاهم والحوار بين الثقافات»³²⁸، حيث اجتمع وعكف أكثر من 1400 خبير من كل أنحاء العالم على مناقشة الطريقة التي يمكن بها للتعليم أن يعزز التفاهم بين الثقافات وأهمية التعلم مدى الحياة في عالم اليوم المتغير على الدوام.

حضر أشغال المؤتمر أهم الهيئات والمنظمات العالمية والإقليمية وفاعلين سياسيين مهتمين بدور التعليم والتربية في بناء الحوار والتفاهم بين الحضارات: مجلس أوروبا ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) والمنظمة الإسلامية للتربية والعلم والثقافة (الإيسيسكو) ومنظمة المؤتمر الإسلامي والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليكو) والمركز الدنماركي للثقافة والتنمية ومؤسسة أناليند الأورو - متوسطة للحوار بين الثقافات ومنظمة تحالف الحضارات وجامعة الدول العربية وأصدرت أشغاله منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة سنة 2009 تحت عنوان «برنامج كوبنهاغن».

أرسى برنامج كوبنهاغن الأسس اللازمة للتعاون عبر الحدود الثقافية والحوار في العلاقات الإنسانية في شتى المستويات، الحكومية والدولية والشخصية، من أجل التصدي لأشكال التوتر والتميط والصراع على أساس الهوية وشدد على أهمية التعليم بكافة مستوياته، في شكله النظامي وغير النظامي، باعتباره من أنجع السبل لتعزيز الحوار والتفاهم المتبادل بين الثقافات وإدامته، كأهم تحديات عصرنا هذا ونحن نلاحظ كيف يوفر الجهل والتعصب بيئة حاضنة وخصبة للعنف والعنف المضاد.

³²⁸ - اليونسكو، برنامج كوبنهاغن، عن التعليم من أجل التفاهم والحوار بين الثقافات، 2009.

أتاحت أشغال المؤتمر التي ركزت على دور التربية في بناء الحوار والتفاهم بين الحضارات فرصة للوقوف عند المشروعات والبرامج والمبادرات التي ينفذها الشركاء الدوليون ومنها وضع مبادئ توجيهية بشأن التعليم المشترك بين الثقافات وبرامج مشتركة بين الأديان لتعليم الأخلاقيات ونهوج التعليم من أجل المواطنة الديمقراطية وحقوق الإنسان ... وترجمة النصوص التعليمية من اللغة العربية إلى اللغات الأخرى وبالعكس³²⁹.

في كلمات افتتاح المؤتمر، صرح المتدخلون الذين تتنوع صفاتهم الأكاديمية ومواقع مسؤوليتهم الدولية أو الإقليمية أو الوطنية، بأن التعليم هو:

■ "الدرب المضمون الوحيد لتحقيق هذا الهدف: التعليم من أجل حقوق الإنسان والتعليم من أجل المواطنة واحترام الآخرين، والتعليم من أجل التفاهم والحوار بين الثقافات، والتعليم من أجل التنقيف الإعلامي، والتعليم بشأن الأديان والمعتقدات والحوار داخل الدين الواحد وفيما بين الأديان"³³⁰.

■ "النور الذي يبدد ظلام الجهل ويساعدنا على فهم حقوقنا وواجباتنا وهو الوسيلة التي تعيننا على تحقيق تطلعاتنا وبلوغ آمالنا مستخدمين لذلك أجمل نعمة وهبنا إياها الله : أعني العقل البشري. فالتعليم يمكننا من الانحياز إلى الحق ونبذ الباطل؛ ومن التفسير الصحيح لظواهر التنوع الثقافي ومفاهيمه، كما يعطينا القدرة على البحث عن حلول للقضايا والتحديات التي تعترض سبيلنا"³³¹.

■ "طريقة هامة لنقل القيم داخل المجتمعات الإنسانية في الوقت الذي يساعد فيه على نشر المعارف وأنماط السلوك التي تشجع على قبول الآخر مهما اختلف وتباين، من أجل مد جسور الحوار معاً والعيش معاً بالرغم من هذه الاختلافات، وهذا كله في جو من التسامح والقبول المتبادل للحق في الاختلاف"³³².

■ "بلا شك، حجر الزاوية في تأسيس قاعدة سليمة للفهم المتبادل حتى يصبح قبول الآخر رد فعل تلقائي وسلوكاً يومياً عادياً، لا مبدأً فحسب، من الضروري أن يصبح

³²⁹ - اليونسكو، برنامج كوبنهاجن، مرجع سابق، ص 3.

³³⁰ - اليونسكو، يورغي سامبايو، برنامج كوبنهاجن، مرجع سابق، ص 12.

³³¹ - اليونسكو، إكمال الدين إحسان أوغلو، برنامج كوبنهاجن، مرجع سابق، ص 13.

³³² - اليونسكو، منجي بوسنيّة، برنامج كوبنهاجن، مرجع سابق، ص 17.

التفاهم بين الثقافات جزءاً لا يتجزأ من السياسات والاستراتيجيات الوطنية للتعليم، بغية تعزيز المعرفة بالثقافات الأخرى والتقريب بين الشعوب والأمم³³³. بل هناك من اعتبر أنه "يستحيل الحوار بين الثقافات بدون التعليم. فلا يمكننا أن نتوقع أن يولد الناس مزودين بالمعارف والتفاهم والمهارات اللازمة لأن يعيشوا معا بوثام. إن هذه الأمور ينبغي أن تورث وتُعلّم وتُمتد طوال الحياة"³³⁴.

إبان أشغال المؤتمر، قدمت هيئات دولية تعنى بنشر تعليم عالمي مشترك بين الثقافات مشاريع ذات الصلة، إذ شرعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بالتعاون مع مجلس أوروبا في تنفيذ برنامج طموح لدراسة صورة الآخر في الكتب الدراسية المستخدمة في تدريس مادة التاريخ في البلدان العربية والأوروبية، من أجل تنقية هذه الكتب الدراسية من الصور النمطية للآخر ومن القراءات الأحادية الجانب للتاريخ وتعمل المنظمة على الارتقاء بالتعليم من أجل المواطنة وتدريس اللغات الحديثة باعتبارها جسراً مثالياً للحوار بين الثقافات وطريقة ممتازة لمعرفة الآخر بصورة متبادلة، التوجهات التي تدعمها منظمة تحالف الحضارات بتعهد إنشاء لجان لمراجعة المناهج الدراسية وآليات مناظرة لمراجعة النظم التعليمية من أجل ضمان تطبيقها المستمر وزيادة عدد الأخصائيين من أجل استحداث موارد تعليمية بشأن التاريخ العالمي ونشر المعارف التي تدعم الاحترام والتعددية وأيضاً التقاليد الثقافية.

في نفس الاتجاه، خطط مجلس أوروبا لمتابعة توصيات الكتاب الأبيض لحوار الثقافات بتطوير إطار مرجعي يحدد المهارات اللازمة للتفاهم بين الثقافات والمواطنة الديمقراطية والتعليم في مجال التنوع والنظر في سياسات اللغات في نظم التعليم وذلك من خلال المبادئ والأدوات الإرشادية لوضع معايير أوروبية مشتركة للمهارات اللغوية والإعلان عن إحداث مركز فيرغيلاند للتعليم من أجل التفاهم بين الثقافات وحقوق الإنسان والمواطنة الديمقراطية في مدينة أوصلو.

³³³ - اليونسكو، عمر هلال، برنامج كوبنهاجن، مرجع سابق، ص 27.

³³⁴ - اليونسكو، غبريال مازا، برنامج كوبنهاجن، مرجع سابق، ص 23.

انتظمت أشغال المؤتمر في إطار ثلاثة فرق عمل، فريق العمل الأول تدارس إعداد المناهج والمواد التعليمية في علاقتها بالسياسات التعليمية والحوار بين الثقافات، انطلاقاً من مشروع بعنوان الكتب المدرسية والإصلاح في الشرق الأوسط درس صورة الآخر في الكتب الأوروبية والعربية الإسلامية، دراسة مقارنة تناولت الأخطاء الشائعة والصور المشوهة وإعادة تعريف المفاهيم التي تتطوي عليها فكرة الآخر واتبعت نهجاً ثنائياً يجمع فريق خبراء متعدد الثقافات من الأوروبيين والعرب المسلمين، أدى إلى إعداد دليل عملي موجه إلى محرري الكتب المدرسية والمؤسسات التعليمية في البلدان المعنية.

تساءل المشاركون في هذا الفريق حول الأدب الموازي ولا سيما في مجال قصص الأطفال وإدراج مفاهيم مثل الآخر والمواطنة الديمقراطية والحوار والتسامح والتنوع الثقافي في مقررات المدارس الثانوية وخلص المشاركون إلى الاستنتاجات التالية:

- ضرورة توسيع نطاق تعريف الآخر وإعادة صياغته، إذ ينحصر في الآخر الغربي والآخر العربي الإسلامي، دون ذكر الآخر الأفريقي أو غيره.
- الوضع في عين الاعتبار بالقدر الكافي دور المعلم الوسيط في التعليم المشترك بين الثقافات.

■ نقل القيم الأخلاقية والمدنية والديمقراطية وتوصيلها يستدعي اتباع نهج جديدة في التعليم والأسرة ووسائل الإعلام.

- الرفع من مشاركة المعلمين ومديري المدارس في ندوات حول التعليم من أجل المواطنة، لكون مفهوم المواطنة "يثير مسألة الهوية وخاصة قضية الجنسية الثنائية. واقتُرح أن تعتبر الهوية مفهوماً دينامياً ومفتوحاً"³³⁵.

في حين تطرق فريق العمل الثاني للتعاون بين مؤسسات التعليم العالي وتنمية برامج تبادل الطلبة وإقامة الشراكات بين الجامعات وأن تكون جميع البلدان مضييفة. إقراراً بأهمية الدين ودلالته في تاريخ البشرية، اتخذ فريق العمل الثالث من تعزيز معرفة وفهم الأديان والمعتقدات والتنوع الثقافي والتعليم الديني والمشارك بين الثقافات، على أساس القيم المشتركة واحترام الاختلافات والكرامة الإنسانية، موضوعاً عبر تقنية دراسة

³³⁵ - اليونسكو، برنامج كوبنهاجن، مرجع سابق، ص 41.

حالات: تعلّم العيش معا والبعد الديني في المواد التعليمية للتعليم المتعدد الثقافات وتدرّس الأديان والمعتقدات.

■ تعلّم العيش معا: برنامج مشترك بين الثقافات ومشارك بين الأديان من أجل الأخلاقيات والتعليم: وضعه مجلس للأديان لفائدة المنظمة الدولية غير الحكومية «Arigatou International». يتمحور البرنامج حول أربع قيم هي: الاحترام والتعاطف والمسؤولية والمصالحة وتمّ اختبار هذه القيم بين الأطفال في خمسة عشر سياقاً مختلفاً، استناداً إلى منهجية معيّنة للمناقشة هي الاستبطان.

■ المواد التعليمية للتعليم المتعدد الثقافات وبعده الديني (مشروعات مجلس أوروبا والأليكسو ومؤسسة أنا ليند): مشروع كيفية تناول التنوع والتعليم متعدد الثقافات في المدارس من خلال تجارب عملية في مجال إعداد مواد تعليمية بشأن التنوع الديني، في إطار مشروع الكتاب المرجعي للمدارس، يشمل نصوصاً تتجه من النظرية إلى التطبيق في المدارس التي تضم معتقدات وممارسات دينية مختلفة بغية تعزيز المعاملة بالمثل والتسامح والمواطنة بين التلاميذ، بطرق تربوية تنطوي على منهجيات تأويلية وحوارية سياقية.

بعد مناقشة الكتاب المرجعي جرى استعماله في إطار برنامج للتنوع الديني والثقافي وتضمن إعداد المعلمين والمواد التعليمية والتعاون بين المشاركين من الشرق الأوسط ومن أوروبا. تم تقديم الإصدار لمؤسسة آناليند (باعتبارها شبكة تضم سبع وثلاثين شبكة وطنية من منظمات المجتمع المدني) تحت عنوان «التعليم والتعلّم بشأن التنوع الديني: كيفية تناول التنوع في المدرسة» الطبعة الأولى باللغة الإنجليزية وترجمتها إلى العربية والفرنسية.

■ تدرّس الأديان والمعتقدات في المدارس العامة بمبادرة من مجلس أوروبا ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا، حيث تمّ استعراض المبادرات الأوروبية المتعلقة بإدماج الدين في التعليم المدني وتدارس مسألة احتلال الدين لهذه المكانة المركزية في إطار تعليم المواطنة، كذلك طرح سؤال حول كيفية تعريف الطلاب بأوجه الاختلاف داخل

الأديان خاصة إذا كانت المؤسسات الدينية هي التي تتولى تخطيط التربية في هذا الصدد. وأخيراً أثّرت مسألة كيفية التعامل مع ادعاءات الحقيقة المطلقة في قاعة الدرس.

في الجلسة الأخيرة من مؤتمر كوبنهاجن، أعرب المشاركون عن قلقهم إزاء واقع تدني مستوى التسامح بين التلاميذ، ربما بسبب تركيز وسائل الإعلام على الانقسامات والتقاليد الدينية والعرقية، مما يجعلنا نتساءل بقلق عن مدى الالتزام الحقيقي لوسائل الإعلام في إذكاء روح الحوار وتغليبها على منطق الصراع وتعميق الاختلاف والخلاف؟ ومدى تأثير منظومة الإعلام على منظومة التربية والتعليم، رغم تدريسها التسامح في سياقات وأنساق مختلفة؟.

يبدو جلياً انسجام وتطابق كلمات وخطب جميع المتدخلين في مؤتمر كوبنهاجن على تأكيد القناعة بتعلّم العيش معاً ودور التعليم، الذي يطال جميع شرائح المجتمع وكل مراحل الحياة وأدوات التعلّم المشترك بين الثقافات كقاطرة للتجديد وسبيل أوجد وأنجع وجسر للحوار والعيش معاً ونشر المعرفة بالثقافات وأنماط السلوك التي تشجع على قبول الآخر، في إطار مرجعي دولي يحدد المهارات اللازمة لتعليم من أجل التواصل والحوار بين الثقافات والتعليم من أجل المواطنة الديمقراطية واحترام الآخرين والتعليم الديني والمشارك بين الثقافات والحوار داخل الدين الواحد وفيما بين الأديان في مواد تعليمية للتعليم المتعدد الثقافات وبعده الديني وفهم الأديان والمعتقدات والتنوع الثقافي وتدرّس اللغات وتحسين صورة الآخر والحد من تشويه صورته في المقررات المدرسية ذات القراءات الأحادية للتاريخ، ليصبح التواصل والحوار بين الثقافات جزءاً لا يتجزأ من السياسات والاستراتيجيات الوطنية للتعليم المتعدد الثقافات في نسق تعليمي عالمي ومشارك بين الثقافات.

ليس صدفة أو مجازفة أن يعلم مجموعة من السياسيين والأكاديميين والدبلوماسيين مغزى التعليم من أجل الحوار والتفاهم بين الثقافات ويبرهنون على منظومة التربية والتعليم في بلدان العالم - بمناهجها وإيقاعاتها الزمنية وموادها التعليمية وكفاءاتها العلمية وفضاءاتها التربوية - بل عن وعي وإرادة لتقويض الجهل والأفكار النمطية بشأن

الثقافات والأديان والمعتقدات على أساس القيم المشتركة واحترام الاختلافات والكرامة الإنسانية.

المبحث الثالث: التربية والتعليم وحوار الثقافات من منظور اسلامي وعربي ووطني.

يميز هذا المبحث منهجيا بين الاسهامات العربية والإسلامية والوطنية، فالحضارة الإسلامية، التي استرعت انتباه الباحثين منذ زمن بعيد، تمثل حلقة مهمة من سلسلة الحضارات الإنسانية، تستمد أسسها من النص القرآني والسيرة النبوية - مصادر الشريعة الإسلامية- في امتداد تاريخي للعالم الإسلامي من الأندلس غربا إلى تخوم الصين شرقا. في بوتقة هذه الحضارة التقت حضارات عديدة متباعدة عن بعضها البعض، من الصين والهند وفارس واليونان والرومان وحضارات بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة والحضارات الفينيقية وغيرها من الحضارات القديمة، تلاقها الحضارة الإسلامية معها ومع الحضارات المعاصرة لها، لتستوعب رصيда إنسانيا حقق لها مكاسب حضارية في مختلف المجالات والعلوم، قبل أن تبرز أشكال جديدة من النزاعات - الدينية والسياسية - وترفض الهيمنة والغزو الفكري والاستعمار العسكري ومنظومة قيم الحضارة الغربية.

رغم ما يجمع العالمين العربي والإسلامي من روابط ثقافية ودينية وحضارية وتاريخ مشترك، تتنوع انجازاتهم ومؤسساتهما الثقافية، فالعالم الإسلامي ككتلة -سياسية وبشرية وجغرافية تشغل قلب العالم - مكونة من الدول الإسلامية المنتمية لمنظمة المؤتمر الإسلامي وتتركز أساسا في قارتي أفريقيا وآسيا، وتمثلها ثقافيا منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة، في حين العالم أو الوطن العربي حيز جغرافي وسياسي، هو جزء من العالم الإسلامي يمتدُّ من المحيط الأطلسي غرباً إلى بحر العرب والخليج الفارسي شرقاً، شاملاً جميع الدول التي تتضوي سياسيا في جامعة الدول العربية وتُمثلها ثقافيا المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

لنختم بالتجربة المغربية، كجزء من الإسهامات العربية والإسلامية، نبحت فيها وندرس مدى حضور وقبول التعددية الثقافية والدينية واستجابتها لمقتضيات تحقيق

التواصل الحضاري وحوار الثقافات عبر مسارات التربية والتعليم، سيما أن للمغرب موقع جيو- استراتيجي بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، ومقومات هوية وطنية ذات المشارب الثقافية المتنوعة: العربية - الإسلامية والأمازيغية والصحراوية الحسانية والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية واحتضان أرض المغرب لحضارات قديمة على امتداد التاريخ، وصولاً إلى الحضارة العربية الإسلامية.

أولاً: المنظور المؤسسي الإسلامي والعربي: منظمتا الإيسيسكو واللكسو نموذجاً.

أصدر المؤتمر الإسلامي العاشر لوزراء الخارجية المنعقد في فاس بالمملكة المغربية، من 8 إلى 12 مارس 1979، قراراً بإحداث المنظمة الإسلامية الدولية للتربية والثقافة والعلوم. يطلق عليها اختصاراً اسم الإيسيسكو، مقرها الرباط عاصمة المملكة المغربية كمنظمة دولية متخصصة في ميادين التربية والعلوم والثقافة والاتصال، تعمل في إطار منظمة التعاون الإسلامي وهي بمثابة الضمير الثقافي للعالم الإسلامي الذي يضع الرؤية الإسلامية الحضارية للحوار أمام المجتمع الدولي، معبرة بذلك عن موقف الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي، كجهاز من أجهزة العمل الإسلامي المشترك، يؤمن بأن الحوار هو سبيل العقلاء واختيار الحكماء وبالحوار يمكن تسوية المشاكل الكبرى التي تهدد الأمن والسلم الدوليين إضافة إلى "تشجيع التفاعل الثقافي ودعم مظاهر تنوعه والسعي إلى التفاعل الحضاري وتعزيز هذه العرى الحضارية والثقافية والفكرية المشتركة"³³⁶.

لتحقيق الغايات من إحداثها، قامت الإيسيسكو بالمشاركة وتنظيم العديد من الندوات المتخصصة والمؤتمرات والاجتماعات وحلقات النقاش - الإقليمية والدولية - وإصدار منشورات ومؤلفات علمية تناولت قضايا الحوار بين الحضارات والثقافات داخل العالم الإسلامي وخارجه، من منظور إسلامي وتأكيداً على إرساء الإسلام لمبدأ الحوار والتفاعل

³³⁶ - <https://www.isesco.org.ma/ar/charter-of-isesco/> (Accessed 15/08/2020).

مع الحضارات ودور المسلمين في بناء الحضارات الإنسانية. علاقة بموضوع بحثنا، شاركت الايسيسكو³³⁷ في:

- الندوة الدولية حول التعليم من أجل التسامح وحرية الدين أو المعتقد، عقدها ائتلاف أوصلو، في النرويج خلال الفترة من 7 إلى 9 دجنبر 2002.
- محاضرة حول موضوع إدماج مفاهيم حقوق الإنسان والحوار بين الحضارات في المناهج التعليمية، في إطار الملتقى العربي الثاني للتربية والتعليم الذي عقدته مؤسسة الفكر العربي في بيروت، خلال الفترة من 17 إلى 20 فبراير 2004.
- مؤتمر حول الحوار والتسامح والتربية، عقده المجلس الأوروبي بكاران في تترستان، يومي 22 و 23 فبراير 2006.
- حلقة دراسية للخبراء عقدها المجلس الأوروبي حول صورة العالم الإسلامي في مناهج تدريس التاريخ في أوروبا: لقاءات وتفاعلات، في ستراسبورغ بفرنسا، يومي 09 و 10 أكتوبر 2006.
- ملتقى ربيع الفلسفة تحت عنوان: التعدد وحوار الثقافات والأديان، بفاس، خلال الفترة من 15 إلى 17 مارس 2007، من تنظيم جمعية أصدقاء الفلسفة وجامعة ابن رشد الربيعية.
- ندوة دولية علمية حول الترجمة إثراء للثقافات ودعم لحوار الحضارات، في تونس، خلال الفترة من 20 إلى 22 فبراير 2008، عقدتها الايسيسكو بالتعاون مع جامعة الزيتونة.
- المشاركة في تنظيم مؤتمر كوبنهاغن حول التربية على التفاهم الثقافي والحوار، بالتعاون مع مجلس أوروبا والمركز الدنماركي للثقافة والتنمية ومنظمة المؤتمر الإسلامي (التعاون الإسلامي حاليا) والاكسو ومؤسسة اناليند، يومي 21 و 22 أكتوبر 2008.
- تفعيل كرسي الايسيسكو الجامعي للتربية على قيم الحوار وثقافة السلام بجامعة القاهرة، في أبريل 2009، بالتعاون مع اتحاد جامعات العالم الإسلامي.

³³⁷ - الايسيسكو، جهود الايسيسكو في تعزيز الحوار بين الثقافات والتحالف بين الحضارات، منشورات الايسيسكو، ص 8.

■ حلقة دراسية إقليمية حول دور التنوع الثقافي في تعزيز القيم الإنسانية المشتركة، بمقرها يوم 12 يوليوز 2010.

■ اجتماع الخبراء لإعداد مواد تعليمية حول مقومات العمل اللائق من وجهة نظر مشتركة للديانات السماوية، بالتعاون مع منظمة العمل الدولية في جنيف، خلال الفترة من 27 إلى 29 أبريل 2011.

على نفس النهج، دعمت الإيسيسكو تنظيم المؤتمر الدولي الأول حول قيم المواطنة وتحالف الحضارات بالمملكة المغربية بمقرها بالرباط، خلال الفترة من 27 إلى 29 فبراير 2011 وانتاج وتوزيع مواد لتعزيز الوعي بالتفاعل بين التنوع الثقافي وحوار الثقافات في دول المغرب العربي وغرب إفريقيا، وتنظيم زيارة لفريق أوروبي-أمريكي لتحالف الحضارات يضم 13 فردا خلال الفترة من 25 إلى 27 أكتوبر 2011، ومن 2 إلى 6 أبريل 2012 تعرف الفريق خلالها على مؤسسات ثقافية وعلمية وتربوية وزار مآثر تاريخية في مختلف مدن المغرب وتجاوز مع شباب ومفكرين ونواب من البرلمان المغربي.

استمرارا لجهودها في تأمين تربية تراعي المبادئ المشتركة بين الأفراد في إطار مجموعة ثقافية معينة، تحترم حقوق الآخرين وخصوصية الثقافات الأخرى، تعمل المنظمة "بالتعاون مع المنظمات الدولية والإقليمية ذات الاهتمام المشترك، من أجل نشر ثقافة العدل والسلام وفي سبيل تعزيز احترام التنوع الثقافي الخلاق وتقوية التفاهم والتعايش بين الشعوب من خلال تطوير مناهج التعليم والتربية على حقوق الإنسان وتربية الأجيال على قيم التسامح والاحترام والمتبادل"³³⁸ وحددت لخطتها التربوية الجديدة أولويتين قطاعيتين هما: تجديد السياسات التربوية للدول الأعضاء من أجل الانتقال من التعليم إلى التعلم وتعزيز دور التربية في التنمية والعيش المشترك. تم اختيار هاتين الأولويتين لتكونا طريقا في المجال التربوي للسنوات الثلاث 2016-2018 في إطار التفعيل - القطاعي لمتطلبات تحقيق الأهداف الاستراتيجية الكبرى الثلاثة لخطة عمل الإيسيسكو الجديدة، وهي:

³³⁸ - عبد العزيز بن عثمان التويجري، الحوار وتحالف الحضارات، منشورات الإيسيسكو، 2009، ص 31.

- "تعبئة الشباب لدعم العمل الإسلامي المشترك والإسهام في التنمية المستدامة.
- تعزيز الجودة والحكمة وتكافؤ الفرص في السياسات التربوية والعلمية والثقافية للدول الأعضاء.
- تنمية ثقافة حقوق الإنسان واحترام الآخر من أجل السلم الاجتماعي والعيش المشترك"³³⁹.

في هذا المضمار، تواصل الإيسيسكو جهودها في مجالات محو الأمية وتعليم الفتيات والنساء والتخطيط والتطوير التربويين وتكوين الأطر التربوية واعتماد الحكامة والجودة في مجالات التربية والتعليم ودمج قطاع التعليم الأصيل في حركة التنمية المستدامة. أما التجديد فيبرز في إيلاء مفاهيم التعلم واتخاذ المبادرات - المفاهيم البنائية لمنظومة المستقبل ولمجتمع المعرفة الرقمي - أهمية تلحق بها كأهداف متوسطة وبعيدة المدى ينبغي على التربية الحديثة تأصيلها لدى المتعلمين، لانعتاق العملية التعليمية من التلقين وصناعة القوالب الذهنية الجامدة، نحو الإبداع وتحفيز الطاقات. كما يظهر التجديد في الربط الذي تقيمه خطة الإيسيسكو بين التدخل البيداغوجي والتربوي والمقاربة الاجتماعية - الإنسانية من خلال "السعي إلى دمج قضايا العيش المشترك كالحوار والسلام وحقوق الإنسان والمواطنة في البرامج والمناهج في جميع المراحل التعليمية"³⁴⁰.

تنفيذا لما سبق ذكره، من بين ستة مشاريع تربوية للفترة الممتدة من 2016 إلى 2018. تم اختيار مشروع تعزيز العمل التربوي المشترك لتطوير المنظومات التربوية في الدول الأعضاء، بهدف الانتقال من التعليم إلى التعلّم في التعليم الأساس وتحقيق تكافؤ الفرص وتطوير المناهج التعليمية لدمج قيم المواطنة والعيش المشترك وحقوق الإنسان كمجال تدخل بمؤشرات للأداء وأخرى للقياس تركز على "تعزيز قيم العيش المشترك والمواطنة والتسامح واحترام حقوق الإنسان والتعددية الثقافية والدينية لدى الناشئة، وتوجيه سلوكياتها لنبت العنف والتطرف والإرهاب،... والتكوين على أحدث الطرق لتدريسها"³⁴¹.

³³⁹ - الإيسيسكو، خطة عمل الإيسيسكو للأعوام 2016-2018، ص 32.
³⁴⁰ - الإيسيسكو، خطة عمل الإيسيسكو للأعوام 2016-2018، مرجع سابق، ص 32.
³⁴¹ - المرجع نفسه، ص 67.

في العالم العربي، منذ السنوات الأولى لتأسيس مبادرة تحالف الحضارات، شكلت الجامعة العربية مجموعة أصدقاء تحالف الحضارات لدعم المبادرة والمساهمة في تحقيق أهدافها وحرصت على المشاركة في كافة المنتديات الدولية للتحالف سواء بالتمثيل الرسمي أو لجان عمل وتجاوبت الدول العربية مع مناشدة تحالف الحضارات لإعداد خطط وطنية ببرامج ومشاريع في المجالات الأربعة: التعليم والشباب والإعلام والهجرة.

وفي ضوء النجاح الذي حققته هذه الخطط اقليمياً ووطنياً وضعت جامعة الدول العربية ممثلة في إدارة حوار الحضارات سنة 2015 الخطة الاستراتيجية العربية الموحدة لتحالف الحضارات 2016-2019³⁴² كجهد عربي مشترك. إلا أننا لم نعثر، في الخطة، على ملامح برنامج أو مشروع تعليمي عربي مشترك، بل حضوراً باهتاً ومحدوداً للشأن التربوي والتعليمي المدرسي يتمثل في ثلاثة برامج.

البرنامج الأول للأمانة العامة يخص دليل مؤلفي كتب التاريخ المدرسية في أوروبا والعالمين العربي والإسلامي على درب مشترك باعتماد منظور متعدد ومنصف في تقديم تاريخ الآخر وثقافته وديانته للدارسين مما يمهد السبيل لمقاربة جديدة تشجع ثقافة السلام والتفاهم وتسعى إلى ترسيخ تحالف الحضارات كمكون من مكونات العملية التعليمية والتربوية. لفائدة طلاب المدارس والجامعات في أوروبا والعالمين العربي والإسلامي، بتعاون مع منظمتي اليونسكو والاييسيسكو ومؤسسة أناليند الأورو-متوسطة للحوار بين الثقافات.

البرنامج الثاني في أنشطة التواصل المباشر عبر الشبكة العنكبوتية ويقتصر على تنظيم ملتقى حوارى عن طريق الإنترنت يجمع بين طلبة المدارس في دولة عربية وطلبة آخرين في دولة أجنبية school video conference بهدف مقارنة المناهج التعليمية في البلدان المختلفة والتعريف بالثقافة العربية والتعرف على الثقافات الأخرى.

البرنامج الثالث تنظيم مسابقات فنية/أدبية في مجال تحالف الحضارات تنتوع بين مسابقة في الفنون التشكيلية ومسابقة بحثية تحت شعار «لتعارفوا» الهدف منها تسليط

³⁴² - للإطلاع على الخطة باللغة العربية: <http://bit.ly/2nY46J3>

الضوء على الحضارات المختلفة وإسهاماتها. مع عدم تعميم البرامج والمشاريع على جميع الدول العربية، بل تترك الرغبة في الاستضافة مفتوحة وبدون التزامات أو متابعات أو آفاق مستقبلية.

بالنسبة لمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، يشكل حوار الثقافات ضرورة استراتيجية عالمية وأحد المحاور الثابتة وأهم مبادئ عملها، في مرحلة أصبحت الثقافة نمودجا تحليليا للعلاقات الدولية ومفتاحا لإدارة توازناتها، مما يستوجب فهم ومعرفة الثقافات وتنميين الانجازات الحضارية الإنسانية ودعم منطلقاتها من مدخل تربوي تعليمي يتضمن معاني وأبعاد الحوار الديني والثقافي في البرامج والمناهج التربوية العربية لتعريف النشء بالإسهامات الإبداعية لمختلف الأفراد والمجتمعات والحضارات وتنويع الرصيد المعرفي حول ثقافات العالم بأديانه ولغاته وفنونه.

منذ ترويج مقولة حوار الثقافات، شكل الحوار بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى محورا أساسيا من محاور ومرتكزات خطة المنظمة المتوسطة المدى للفترة-1997 2002 والتي استهدفت الإسهام في خلق نظام عالمي يقوم على احترام الآخر واعتماد الحوار الثقافي كأداة للتواصل مع ثقافات الأمم المختلفة وخطة العمل المستقبلي للمنظمة 2005-2010 التي نصت على "مواصلة الحوار مع مختلف الأنماط الثقافية الأخرى، واستخدام أدوات الاتصال والمعرفة الحديثة في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية وإبراز جوانبها الإنسانية المشرقة ضمن منظور تكاملي مع الثقافات الأخرى"³⁴³.

انطلاقا من إيمان راسخ بأهمية الحوار بين الثقافات في التقريب بين الأمم وربط علاقات التفاهم مع الآخر، عقدت المنظمة سلسلة من العديد من الاتفاقيات مع منظمات ومؤسسات سياسية وجامعات ومنتديات فكرية وثقافية وتربوية دولية ونظمت وشاركت في ندوات وملتقيات دولية - ممتدة في كل جغرافيا العالم - كان الهدف منها إرساء تقاليد حوار بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى وبحث الحوار بين الثقافات والحضارات وشروطه وأخلاقياته ودور الأديان في الحوار الثقافي العربي الإفريقي والعربي الصيني والعربي الأوروبي والعربي الإيبيري -أمريكي والعربي الروسي، ولأمت بالتحليل مكانة

³⁴³ - <http://www.alecso.org/nnsite.html> (Accessed 15/08/2020).

الآخر وصورته والعلاقة معه ومدى إسهام التربية في تحسين التعرف على هذا الآخر والاعتراف بخصوصياته. منذ ندوة «الحوار بين الثقافة العربية وثقافات العالم: الخطوة الأولى على طريق حوار متنوع» بالعاصمة تونس سنة 1997³⁴⁴، صدرت عنها مواقف وتوصيات تخص الجانب التعليمي، وهي:

- الاهتمام بدراسة الحضارات وتدريسها في الجامعات العربية وتوجيه طلاب الدراسات العليا للتخصص في الحضارات العالمية المختلفة؛
- تبادل البعثات والمنح التعليمية مع مراكز أساسية للحضارات العالمية وعقد المؤتمر العالمي لتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها؛
- دعوة رجال الأعمال العرب إلى تمويل أنشطة عبر حضارية مثل الترجمة والمنح الدراسية والمعارض الفنية والعروض الموسيقية وغيرها؛
- الترجمة شرط أساسي للنهوض بالحوار بين الثقافات، لذا لابد من التوجه إلى عصر ترجمة عربية أو بيت حكمة عربية معاصرة تتبنى برنامجا متكاملًا لترجمة الأعمال الأساسية في العالم من مختلف اللغات وفي كافة حقول المعرفة؛
- إعداد أبحاث عن صورة العربي في المناهج التعليمية وفي وسائل الإعلام الإفريقية، وصورة الإفريقي في المناهج ووسائل الإعلام العربية؛
- ترجمة معاني القرآن الكريم أكثر من مرة ونشر الكتب العربية والعلمية والثقافية، مترجمة عن الأصل العربي أو من إنتاج علماء صينيين، فضلا عن إنشاء المؤسسات العلمية المهمة باللغة العربية والحضارة العربية الإسلامية مثل مجمع اللغة العربية بالصين، وجمعية بحوث الأدب العربي بالصين، ومعهد بحوث الحضارة العربية الإسلامية لجامعة بيكين، ومركز الدراسات للثقافات الشرقية التابع للأكاديمية الصينية

³⁴⁴ - ندوة الحوار بين الثقافة العربية والثقافة الصينية (بيكين : 1999).
ندوة الحوار بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية (كيب تاون / جنوب إفريقيا: 1999).
المؤتمر العربي الأوروبي لحوار الثقافات (باريس 2002).
ندوة الحوار العربي الإيبيري أمريكي (تونس 2002).
ندوة الحوار العربي الروسي (الحمامات / تونس 2003).
ندوة الحوار العربي اللاتيني (بالارمو 2006).
الندوة الثانية للحوار العربي الروسي (قازان 2006).

للعلوم الاجتماعية، ومعهد بحوث الثقافة الشرق أوسطية بجامعة شانغهاي للغات الأجنبية³⁴⁵؛

■ تشجيع تعليم اللغة العربية بأوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية، للتعريف بالثقافة العربية الإسلامية في هاتين المنطقتين والتأكيد على أهمية العناية بالأجهزة البيداغوجية في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، والعمل على مواكبة الطرائق التعليمية الحديثة في تعلم اللغات الحية؛

■ الإشراف على برنامج مستمر لترجمة كتب من الفرنسية إلى العربية، وأخرى من العربية إلى الفرنسية في مجال التربية والتعليم، حيث الترجمة من أفضل سبل الحوار والتثاقف؛

■ إجلاء دور التربية في معرفة الآخر والتعرف عليه، فكانت هذه التساؤلات: ما معنى الأنا والآخر؟ وما يمكن أن تكون معاني الحوار؟ وما يجب أن تكون مرجعياته؟ وكيف للتربية في هذا السياق الفلسفي أن تكون، حتى تنشئ بشرا سويا تنتصر فيه الإرادة الواعية على المحددات البيولوجية والمادية اللاواعية؟ في محاور عمل حول إشكالية الآخر ومعرفته والاعتراف به وثقافة السلم وحوار الحضارات في المؤتمر العربي الأوروبي للحوار بين الثقافات حول موضوع مرتكزات التعرف على الآخر من أجل العيش معا من منطلق التسامح بين الحضارات والأديان وذلك يومي 15 و 16 يوليو 2002 بمعهد العالم العربي بباريس. انتهت أعمال هذا المؤتمر بإصدار "بيان باريس للحوار الثقافي العربي الأوروبي"، وعبر فيه المؤتمرون عن إيمانهم بأن إحدى سبل تجاوز هذه الظواهر هي "بناء نظم تربوية سليمة تعد الناشئة لحياة بشرية لا مجال فيها لأي شكل من أشكال التمييز".

■ إقامة أنشطة مشتركة بين الفضاين العربي والأوروبي لمزيد من التعارف بينهما وتسهيل الحوار عن طريق التربية خصوصا، خلال الدورة السادسة والأربعين للمؤتمر الدولي للتربية التي عقدت بجنيف في الفترة بين 5 و 8 شهر سبتمبر 2001 تحت شعار «التربية للجميع للتعلم على العيش معا».

³⁴⁵ - <http://www.alecso.org/nnsite.html> (Accessed 15/08/2020).

■ المشاركة في تقديم مداخله عن دور التربية في نشر قيم التسامح وعدم التمييز والحوار في "الندوة الدولية حول التربية المدرسية في علاقتها مع حرية الديانة والمعتقد والتسامح وعدم التمييز"³⁴⁶ التي نظمت في مدريد من 23 إلى 25 نوفمبر 2001 .

■ طرح الرؤية العربية بخصوص دور التربية في تعزيز الحوار بين الثقافات والحضارات، في منتدى الحوار الثقافي والتربوي الذي دعت إليه المجموعة الأوروبية المتوسطية (أوروماد) باليونان من 1 إلى 4 مايو 2003.

■ عرض وجهة النظر العربية بخصوص دور التربية في تعزيز التنوع الثقافي والحوار بين الحضارات، بدعوة من مجلس أوروبا، في المؤتمر الحادي والعشرين للوزراء الأوروبيين للتربية الذي عقد بأثينا) اليونان (من 10 إلى 12 نوفمبر 2003 تحت عنوان: التربية البيثقافية: إدارة التنوع وتعزيز الديمقراطية واستعراض البرامج المشتركة التي تنوي المنظمة تنفيذها مع مجلس أوروبا في المجال التربوي.

■ وضع الأسس لاتفاقية إطار بين المنظمة ومجلس أوروبا، في ستراسبورغ بفرنسا يوم 19 مارس 2004، في مجالات التربية والثقافة والتراث والشباب، يحتل فيها الحوار بين الحضارات حيزا واسعا. في قطاع التربية، اتفق الطرفان على ضرورة تركيز البرامج المشتركة في المستقبل على تحسين معرفة الآخر وعلى الحوار بين الحضارات من خلال المؤسسة التعليمية وينتظر أن تتضمن الاتفاقية المزمع عقدها مشروعا يعنى بالتربية على المواطنة والحوار بين الثقافات، وآخر يهتم تعليم اللغات من أجل التعرف الأفضل على الآخر، إلى جانب مشروع ثالث يتعلق بإعداد دراسة مقارنة حول صورة الآخر في الكتب المدرسية، من خلال تدريس مادة التاريخ.

■ تقديم الرؤية العربية، من خلال منظمة الألكسو، لمواضيع التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات والحضارات والتعددية الثقافية واللغوية في ندوة الفضاءات الجغرافية الثقافية الجديدة والعولمة التي عقدتها مجموعة الفضاءات اللغوية الثلاثة يوم 23 أغسطس 2004، في إطار المنتدى العالمي برشلونة 2004 وتدارست أهمية نشر مفهوم التربية على العيش معا وتطوير الأنظمة التربوية بموجب ذلك، حتى تتلاءم مع ضرورة الحوار مع الآخر، وذلك بتطوير تعليم اللغات والتعريف الصحيح بالأديان ومراجعة مناهج

³⁴⁶ - <http://www.alecso.org/nnsite.html> (Accessed 15/08/2020).

العلوم الإنسانية، من تاريخ وجغرافيا وتربية مدنية، بهدف القضاء على الأفكار المسبقة بشأن الآخر.

■ الدفاع عن تعدد اللغات هو دفاع عن تعدد الثقافات وعن نظرات مختلفة إلى العالم وطرق متنوعة للحوار مع الآخر وأنماط إبداعية تشكل في مجملها نهر الإبداع الإنساني العظيم.

ويضاف إلى هذه الجهود تحديث الخطة الشاملة للثقافة العربية - أحد أهم مرجعيات العمل العربي المشترك- وتعديلها عام 2011 بوضع خطط العمل المستقبلي للألكسو³⁴⁷ (2016-2011) و (2017-2022)، حيث استوعبت في مبادئها ومحاور عملها وأنشطتها رسالة المنظمة وأهدافها الاستراتيجية ذات الصلة بحماية التراث الثقافي المهدد بالتدمير.

ثانيا: الاسهامات الوطنية، مشروع تعهدات الرباط ونداء فاس لتعزيز الحوار بين الثقافات والأديان نموذجا.

جاء في تصدير الدستور المغربي أثناء الحديث عن الهوية المغربية "تشبث الشعب المغربي بقيم الانفتاح والاعتدال والتسامح والحوار والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية جمعاء"³⁴⁸، كما تؤكد وتلتزم المملكة المغربية بتوسيع وتنويع علاقات الصداقة والمبادلات الإنسانية والثقافية مع كل بلدان العالم وتحظر وثيقة الدستور في الفصل الثالث والعشرين كل تحريض على العنصرية أو الكراهية أو العنف.

قبل دستور 2011 بزمان بعيد، قام المغرب بأدوار مهمة في منحنى التقارب بين الأديان السماوية كما تشهد على ذلك زيارة جلالة المغفور له الحسن الثاني إلى الفاتيكان سنة 1980 وكذا زيارة قداسة البابا بولس الثاني إلى المغرب سنة 1985 والصورة الشهيرة له وهو يقبل أرض المغرب عند استقباله. يقول صاحب الجلالة الملك محمد السادس: "لقد كان المغرب على مر العصور ولا يزال ملتقى للتسامح والتساكن وموئلا

³⁴⁷ - <http://www.alecso.org/nnsite/component/content/?view=featured&start=475> (Accessed 15/08/2020).

³⁴⁸ - المملكة المغربية، الظهير الشريف رقم 1.11.91 الصادر في 29 يوليوز 2011، الجريدة الرسمية عدد 5964 مكرر الصادرة بتاريخ 30 يوليوز 2011، ص 3600.

للتفاهم والتعايش ومنطلقا لإقامة جسور التواصل على الصعيدين الحضاري والثقافي بين مختلف المجتمعات بالرغم من تنوع أديانها ومذاهبها وتعدد منابقتها³⁴⁹.

يعتبر المغرب عضوا نشطا في مجموعة أصدقاء «تحالف الحضارات» وهي الهيئة السياسية المخصصة لهذه المبادرة منذ تأسيسها سنة 2004، كما شارك وساهم في عدة لقاءات ومؤتمرات تتعلق بحوار الأديان³⁵⁰. في هذا الصدد، توج صاحب الجلالة الملك محمد السادس، من قبل التحالف العالمي من أجل الأمل يوم الاثنين 18 شتنبر 2017 بنيويورك، بجائزة الريادة في النهوض بقيم التسامح والتقارب بين الثقافات، اعترافا بقيادة جلالتة في تعزيز الانسجام بين مختلف الثقافات سواء في المغرب أو في الساحة الدولية وبهذه المناسبة أكدت المديرية العامة لليونسكو، السيدة بوكوفا رئيسة الحفل، أن مقارنة جلالة الملك الراحلة إلى تعزيز قيم التسامح والإيثار والوسطية هي "بمثابة رد على التعصب والأفكار المتطرفة من خلال تعزيز قيم الاحترام المتبادل والانفتاح"³⁵¹.

نظمت المملكة المغربية فعاليات ثقافية وندوات عديدة في شأن حوار الثقافات والحضارات والأديان والتواصل الحضاري واعتبر صاحب الجلالة الملك محمد السادس في رسالته السامية لأحد هذه الفعاليات أن تنظيمها يعد "شهادة من المجموعة الدولية، على التزام المغرب الموصول بالقيم التي يمثلها حوار الثقافات والديانات، واعترافا بالدور الرائد الذي يضطلع به بلدنا، بوصفه عضوا مؤسسا لتحالف الحضارات"³⁵². سنفصل طبيعة المشاركة الدولية المغربية من خلال ثلاث محطات احتضنها المغرب وأفرزت

³⁴⁹ - مقتطف من الرسالة الملكية الموجهة من طرف صاحب الجلالة الملك محمد السادس إلى المشاركين في الندوة الدولية حول موضوع الحوار بين الحضارات في عالم متغير، التي نظمتها الإيسيسكو بالرباط في 10 يوليوز 2001.

³⁵⁰ - المؤتمر العالمي الإسلامي المسيحي الذي انعقد في فيينا سنة 1997
- المؤتمر حول حوار الأديان السماوية الثلاث - الرباط في فبراير 1998
- اللقاء بين الأديان حول سلام الله في العالم - في دجنبر 2001
- المؤتمر العالمي للأئمة والحاخامات من أجل السلام - بروكسيل في يناير 2005 و اشبيلية في مارس 2006.
وعلى الصعيد الأممي، ساهم المغرب بشكل بناء في نقاشات مختلف هيئات الأمم المتحدة في هذا المجال وكذا بالمشاركة في عملية الصياغة والموافقة على القرارات الأممية ذات الصلة بالموضوع. من بين هذه القرارات، نذكر:
- القرار 52/15 بتاريخ 20 نونبر 1997 حيث قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة أن تجعل سنة 2000، «السنة العالمية لثقافة السلام».
- القرار رقم 53/25 بتاريخ 10 نونبر 1998 الذي أقر الفترة الممتدة من 2001 إلى 2010، «العشرية العالمية للنهوض بثقافة عدم العنف والسلام لصالح أطفال العالم».
- قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 63/22 للنهوض بحوار التوافق والتعاون بين الأديان والثقافات لخدمة السلام.

³⁵¹ - www.mapnews.ma/ar/activites-royales. (Accessed 15/08/2020).

³⁵² -

مشاريع عمل ونداءات دولية، وهي مشروع تعهدات الرباط ونداء فاس في دورتي 2013 و2018.

في الرباط عاصمة المملكة المغربية، عقد تحت الرعاية الملكية مؤتمرا على مستوى الخبراء، حضره مئة مشارك من أكثر من ثلاثين بلدا، في شأن "تعزيز الحوار بين الثقافات والحضارات من خلال مبادرات ملموسة ومستدامة" في الفترة الممتدة بين 14 و16 يونيو 2005. شارك في هذا المحفل ست منظمات، هي: اليونسكو والاييسيسكو والألكسو ومنظمة المؤتمر الإسلامي والمركز الدنماركي للثقافة والتنمية ومؤسسة أنا ليند الأوروبية ومتوسطة للحوار بين الثقافات وبمشاركة مجلس أوروبا بصفة ملاحظ. استهدفت هذه المبادرة تحديد خطوات ملموسة وعملية في مجالات التربية والثقافة والاتصال والعلوم.

في كلمات الجلسة الافتتاحية، شدد المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة على دور الايسيسكو في تعزيز الحوار بين الحضارات والثقافات باتخاذ مبادرات عملية شملت عقد سلسلة من المؤتمرات والندوات وإعداد الدراسات وإصدار الكتب وتنفيذ برنامج خاص بتأسيس كراسي للحوار بين الحضارات في بعض الجامعات الغربية وتعيين سفراء الايسيسكو للحوار بين الحضارات. فيما يتعلق بالمجال التربوي، تمت الدعوة لمنح الأولوية لتعلم قيم العيش معا من خلال معرفة أفضل بالآخر، توفرها المناهج التعليمية والكتب المدرسية ويساهم تدريس اللغات الأجنبية في تعزيزها.

وفق هذا التصور العام، دعا السيد هانس دورفيل، ممثل المدير العام لليونسكو إلى إقامة جسر بين المقاربة النظرية للحوار وبين التطبيق العملي والفعال ومساهمة الحوار في إقرار السلم والأمن عبر تعزيز التعاون في ميادين التربية والعلوم والثقافة والاتصال. كما طالب سعد الدين الطيب ممثل الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي بمراجعة الكتب والمناهج الدراسية في الغرب لمواجهة الأفكار المعادية للإسلام وجعل الحوار وسيلة للتقرب من الآخر والاعتراف به، في حين أشار السيد تراوغوت شوفتهالر المدير التنفيذي لمؤسسة أنا ليند الأوروبية للحوار بين الثقافات إلى إعطاء الأولوية لمجال التربية وتركيز الجهود على توفير المهارات الفكرية الضرورية لبناء الحوار بين الأفراد

والجماعات، في إطار يسمح لهم بممارسة الحق في اختيار انتمائهم الثقافي والانتقال بالحوار بين الثقافات من أنماطه التقليدية إلى التعاون الذي يلغي الحدود الفكرية والوطنية.

انتظمت أشغال المؤتمر في إطار ثلاث ورشات عمل منفصلة خصصت لتقديم مقترحات ملموسة في مجال الحوار بين الثقافات في ميادين التربية والثقافة والاتصال والعلوم، بالنسبة للمجال التربوي وافق المشاركون بالإجماع على إصدار توصيات تهم:

- مراعاة القيم والمبادئ الإنسانية المشتركة ومبادئ السلام وحقوق الإنسان والتسامح والمواطنة الديمقراطية عند مراجعة المناهج الدراسية وتطوير المضامين وعملية التعلم والمنهجيات وتكوين المدرسين، مما سيسهم بشكل بارز في مراجعة الكتب المدرسية وإنتاج مواد تربوية جديدة.
- تنمية الوعي بالاختلاف الثقافي وأبعاده ومصادره المتعددة عند مراجعة المناهج الدراسية وإعداد دراسات حول الصور النمطية في الكتب المدرسية عن ثقافة الآخر واتخاذ الإجراءات الكفيلة بتصحيحها.
- التركيز بشكل أكبر على إدماج التعليم متعدد الثقافات في مرحلة التعليم قبل المدرسي والتعليم الأساسي ومواصلته في مراحل التعليم الثانوي والعالي، مع تحديد المفاهيم وتوحيد التعاريف ذات الصلة بالتعليم والحوار بين الثقافات.
- إعداد أدلة توجيهية حول التعليم متعدد الثقافات، اعتماداً على البحوث والإصدارات والتجارب المتعلقة بتدريس التراث الإنساني والتاريخ.
- توفير البرامج التعليمية القدر الكافي من المعلومات، حول الديانات الرئيسية وإبراز القيم والقضايا الأخلاقية المشتركة بينها، مع النهل من التاريخ والفلسفة والأدب والفنون.
- إيلاء المزيد من العناية لدور اللغات وتدريسها لمد جسور الحوار بين الثقافات مع التركيز على تعزيز تدريس اللغة العربية لغير الناطقة بها ترسيخاً لقيم الفهم والتفاهم.
- إحداث المزيد من الكراسي الجامعية في مجال الحوار بين الثقافات في بلدان ومناطق ثقافية مختلفة.

■ تشجيع إحداث جوائز للتميز في مجال أنشطة التبادل بين الثقافات على المستوى الوطني والإقليمي، إلى جانب تنظيم مهرجانات على مستوى المدارس لترسيخ التنوع الثقافي.

لمتابعة أعمال مؤتمر الرباط وضمان استمرارية الجهود وتقديم العمل في هذا الاتجاه، عرض المركز الدنماركي للثقافة والتنمية استضافة مؤتمر كوبنهاجن ووضعت اليونسكو في إطار أنشطة متابعة التزام الرباط مبادئ توجيهية عامة بشأن التعليم المتعدد الثقافات بدون تحديد الطرائق العملية اللازمة لتطبيقها.

في موعد تاريخي آخر وتحت الرعاية الملكية أيضا، انعقد بمدينة فاس العاصمة العلمية للمملكة المغربية، في الفترة الممتدة بين 30 شتنبر و2 أكتوبر 2013، مؤتمرا دوليا حول تعزيز الحوار بين الثقافات والأديان³⁵³، من تنظيم المنظمة الدولية للفرنكوفونية والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بمشاركة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة وبدعم من وزارة الشؤون الخارجية والتعاون المغربية وجمعية فاس سايس. قرر المشاركون إطلاق هذا النداء الذي أكد الحاجة الملحة إلى أشكال جديدة للتفاعل والتفاهم بين النطاقات الحضارية في ظل عولمة أشكال التبادل والشبكات الافتراضية وموجات الهجرة وتميز العقد الأخير بنشوب مواجهات وصراعات أيديولوجية وعنف، يسعى النداء إلى بناء حوار فاعل بين الحضارات والثقافات والأديان، انطلاقا من قناعة تعتبر جميع أشكال التعبير الثقافي كفيلا بتوطيد الحوار وتوسيع آفاقه.

ادراكا لذلك وفي سياق التضامن مع شعوب المنطقة والشرق الأوسط التي شهدت تقلبات كبرى، أعرب المشاركون عن اقتناعهم التام بأن الأنشطة التربوية في جميع مستويات النظم التعليمية الوطنية ينبغي أن تكون الأداة المثلى لحوار الحضارات والثقافات والأديان، سواء تعلق الأمر بتدريب هيئة التدريس أو بالمقررات المدرسية والجامعية أو

³⁵³ - <https://www.cg.gov.ma/ar> (Accessed 15/08/2020).

بالتربية على قيم المواطنة وحقوق الإنسان أو بإعداد المسؤولين عن التعليم الديني وممارسة الشعائر الدينية. لا مناص من اعتماد المفاهيم والنماذج الناجحة للحوار بين الثقافات مع تطويرها ضمن التخصصات القائمة على مستوى المناهج الدراسية وفي إطار التفاعل بين مختلف التخصصات.

مكنت دعوات النسخة الأولى من مؤتمر فاس من إرساء إطار تشاوري يدعو لمواصلة التفكير حول الرهانات الحالية واعتماد استراتيجية ملائمة لخصوصيات الفضاء الفرنكفوني، من أجل مجابهة كل أشكال التطرف والتعصب الديني وتنظيم نسخة ثانية للمؤتمر الدولي حول حوار الثقافات والديانات في موضوع «سؤال الغيرية» أيام 10 و 11 و 12 شتنبر 2018 بفاس³⁵⁴ من قبل وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي والمنظمة الدولية للفرانكفونية، بتعاون مع الجامعة الأورو-متوسطية بفاس وبدعم من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) وجمعية فاس سايس وبمشاركة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) وشركاء حكوميين وغير حكوميين ووزراء وخبراء جامعيين من مختلف البلدان الناطقة باللغة الفرنسية ومنظمات دولية وإقليمية وجمعيات للشباب تدعو للنهوض بحقوق النساء ولفيف من مكونات المجتمع المدني بغرض تبادل الرؤى حول إشكالية الحوار بين الثقافات والديانات في محاولة لتقديم حلول واقعية لنموذج مجتمع يقوم على احترام الهويات الثقافية وتغذية برامج وأنشطة فاعلي منظمة الإيسيسكو والمنظمة الدولية للفرانكفونية.

أكد المؤتمر على الحاجة الملحة لتطوير محتويات التكوين والتوعية الخاصة بثقافة الحوار وقبول الآخر والاستثمار في التربية على السلام بالانفتاح، من دون إيديولوجيات، على نفسها وعلى الآخر واعتبر اقتراح إنشاء مرصد للثقافات والأديان في الفضاء الفرنكفوني ضروريا وأن يضطلع مرصد الديناميات الثقافية واللغوية، الذي سبق أن أحدثته المنظمة الدولية للفرانكفونية، بمهام أوسع ودعا المشاركون في أشغال هذا المؤتمر إلى:

³⁵⁴ - www.map.ma (Accessed 15/08/2020).

- ضرورة إعداد برامج لتعليم اللغات والنصوص المقدسة، بغية تفادي مخاطر التلاعب بالدين وبالضمائر.
- تكثيف تكوين المترجمين وخلق صندوق موجه لترجمة النصوص المقدسة والكتابات حول الدين لتشجيع التبادل بين الثقافات والأديان.
- وجوب صياغة برامج للتربية على السلام لفائدة الشباب.
- تأهيل مدارس التعليم الديني وتكوين مسؤولين حكوميين في القطاع الديني.

الحاصل أن لا جدل في كون هوية المغرب المتفردة والتي تنهل من الثقافة الإسلامية والعربية والأمازيغية والصحراوية والإفريقية ومن الروافد الأندلسية والعبرية أهلت رصيده الحضاري وجعلت منه موطنًا لتعايش الأديان والسلام وأرضا للانفتاح والحوار والتواصل، تنعكس في فلسفة منظومته التربوية وغايات مناهجها وبرامجها.

ثالثًا: التواصل الحضاري وحوار الثقافات في رؤى إصلاح منظومة التربية والتعليم بالمغرب بين الوارد والشارد.

نقصد بالخطاب التربوي الرسمي ذلك النظام المركب من الرؤى والتصورات الوظيفية والتوجيهية التي تنتجها المؤسسات الرسمية المكلفة برسم السياسة التربوية والتعليمية للمملكة على شكل نصوص تحمل تارة الطابع المرجعي وتارة أخرى الطابع الالزامي، تعبر عن فلسفة النظام التربوي تخطيطًا واستشرافًا للمستقبل في انسجام مع المشروع المجتمعي والدينامية العلمية والاقتصادية الدولية والوطنية.

نتوسل في قراءة وتحليل هذا الخطاب بوثنائق الميثاق الوطني للتربية والتكوين والكتاب الأبيض ذات الطابع المرجعي والرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015-2030 التي اتخذت طابعًا إلزاميًا في القانون الإطار 51.17³⁵⁵ فيما بعد، قراءة وتحليل لبيان مدى استجابة الخطاب الرسمي لمسألة التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

³⁵⁵ - المملكة المغربية، ظهير شريف رقم 1.19.113 صادر بتاريخ 9 غشت 2019 بتنفيذ القانون الإطار 51.17 المتعلق بمنظومة التربية والتكوين والبحث العلمي، الجريدة الرسمية عدد 6805 بتاريخ 19 غشت 2019، ص 5624.

مع بداية الألفية الثالثة وبعد أن اضطلعت المنظومة التربوية إلى غاية أواخر الثمانينيات من القرن العشرين بمهامها في مجالات مضاعفة فرص التعليم وتكوين الأطر لفائدة مؤسسات الدولة، بدت نوايا إصلاح تربوي وتعليمي من خلال "إقرار مشروع توافقي إرادي وطموح لتجديد منظومة التربية والتكوين، حظي بدعم قوي من قبل أعلى سلطة في الدولة وتم تكريسه في ميثاق وطني"³⁵⁶ استحضر مختلف التوجهات السياسية والثقافية والتربوية وشكل وثيقة مرجعية لمختلف مكونات المنظومة التربوية وأهدافها، لكن بالنظر إلى ما تضمنه ميثاق التربية والتكوين من مرتكزات وغايات ومجالات التجديد والتغيير ظل حضور التواصل الحضاري وحوار الثقافات باهتا وبدا محدودا في الغايات والمرتكزات التي أشارت باقتضاب إلى وجوب سعي المدرسة الوطنية المغربية الجديدة، بفضل نهج تربوي نشيط، إلى التشبع بروح الحوار وقبول الاختلاف واعتماد القدرة على الحوار والمشاركة في الاجتهاد الجماعي في اتجاه "جعل المتعلم المغربي يتفاعل مع مقومات هويته ... في تفتح على معطيات الحضارة الإنسانية العصرية وما فيها من آليات وأنظمة"³⁵⁷، بالموازاة مع تشجيع العلم والثقافة والابداع في المجالات ذات البعد الاستراتيجي³⁵⁸، مما يفيد أن الميثاق الوطني للتربية والتكوين كان في حاجة إلى الإغناء والتطوير في ضوء الدينامية والتحولات الثقافية والحضارية التي عرفت بها بداية الألفية الثالثة بالتزامن مع هيمنة قيم العولمة التي أدت إلى خلخلة منظومة القيم التقليدية القائمة على قضايا الهوية الوطنية والانتماء فقط، مقابل إدراج جيل جديد من المهارات والقدرات التواصلية أكثر حداثة وعقلانية، تتجه نحو الآخر الثقافي بهدف التعارف والتواصل والحوار وتخلق توازنا بين القيم المحلية ونظيرتها الكونية وفق منظور ثقافي.

في سياق مراجعة المناهج التربوية المغربية عند مطلع الألفية الثالثة، حددت السلطة المكلفة بالتربية والتكوين في كتاب أبيض معالم الاختيارات والتوجهات التربوية والبيداغوجية الكبرى - بما فيها المناهج والبرامج والمعينات ونظام التقويم - وفق توجهات الفلسفة التربوية الواردة في مضامين الميثاق الوطني للتربية والتكوين آنذاك

³⁵⁶ - المملكة المغربية، المغرب الممكن، تقرير 50 سنة من التنمية البشرية بالمغرب وآفاق 2025، محمد توفيق مولين وآخرون، 2005، ص 15.

³⁵⁷ - المملكة المغربية، الميثاق الوطني للتربية والتكوين، مرجع سابق، ص 7.

³⁵⁸ - المرجع نفسه، ص 9.

وطموح تلبية الحاجات المستقبلية التي يلزم أن تتبنى عليها المناهج التربوية المعاصرة والمشروع المجتمعي المغربي. علاقة بموضوع بحثنا، سطر الكتاب الأبيض مجموعة من الغايات³⁵⁹ تتوخى منظومة التربية والتكوين تحقيقها وهي:

- ترسيخ الهوية المغربية الحضارية والوعي بتنوع وتفاعل وتكامل روافدها؛
- التربية على المواطنة وممارسة الديمقراطية؛
- التشبع بروح الحوار والتسامح وقبول الاختلاف؛
- ترسيخ قيم المعاصرة والحداثة؛
- التمكن من التواصل بمختلف أشكاله وأساليبه؛
- تنمية القدرة على المشاركة الإيجابية في الشأن المحلي والوطني.

الاختيارات التربوية الناعمة لمراجعة مناهج التربية والتكوين المغربية تتطرق، على المستوى النظري، من "المساهمة في تكوين شخصية مستقلة ومتوازنة ومتفتحة للمتعلم المغربي وإعداد المتعلم المغربي لتمثل واستيعاب انتاجات الفكر الإنساني في مختلف تمظهراته ومستوياته وفهم تحولات الحضارات الإنسانية وتطورها"³⁶⁰، إضافة إلى تحديد مواصفات للتلميذ والتلميذة المغربية من بينها القدرة على التفاعل مع الآخر واعتبار المدرسة فضاء حقيقيا لترسيخ قيم حقوق الإنسان وممارسة الحياة الديمقراطية.

لتفعيل هذه الاختيارات تم اعتماد التربية على القيم والتربية على الاختيار كمدخلان بيداغوجيان لمراجعة مناهج التربية والتكوين، فأول ما يثير الانتباه في منظور الكتاب الأبيض للمناهج والبرامج هو اعتبار البعد القيمي خيارا استراتيجيا في بناء المناهج والبرامج من مثل التربية على القيم الأخلاقية وقيم المواطنة وحقوق الإنسان، وكذلك اكتساب القيم الفنية والجمالية وربط هذا البعد بالبعدين المحلي والوطني والفضاء المدرسي والممارسات والأنشطة التربوية. رغم ذلك لا نعثر على تصور موثق للمهارات

³⁵⁹- المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، الكتاب الأبيض، الجزء الأول، 2002، ص 13.

³⁶⁰- المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، الكتاب الأبيض، الجزء الأول، 2002، ص 8.

التواصلية والتربية على الحوار يتم تقاسمها وتعلمها داخل الوسط المدرسي، كما تواجه المنظومة أزمة مردودية ومصداقية في نقل قيم المواطنة والانفتاح إلى جانب الضعف في جودة التعلّيمات الأساس وتفشي السلوكات اللامدنية في الفضاءات التعليمية وخارجها.

في دراسة رسمية للوزارة تهم تحليل 195 كتاب مدرسي يتوزع على 13 مادة دراسية تحتوي على تيمة حاملة للقيم، نعثر على باقة الثقافة وفق معطيات الجدول الآتي:

المستوى الدراسي	عنوان الدرس	الوحدة	عنوان الكتاب	الصفحة
السنة السادسة الابتدائية	الثقافة	الحياة الثقافية والفنية	منار اللغة العربية	51
السنة الأولى الثانوية الإعدادية	من موروثنا الثقافي	المجال الفني الثقافي	الرائد في اللغة العربية	180
السنة الثانية الثانوية الإعدادية	أصول الثقافة المغربية	المجال الفني الثقافي	المرجع في اللغة العربية	215
	كن مثقفا	المجال الفني الثقافي	مرشدي في اللغة العربية	212
	معالجة مواد من العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية	التربية على المواطنة	منار الاجتماعيات	180
			النجاح في الاجتماعيات	180
			النجاح في الاجتماعيات	194
السنة الثالثة الثانوية الإعدادية	ثقافتنا في ظل العولمة	قضايا معاصرة	الرائد في اللغة العربية	89
السنة الثانية من سلك البكالوريا	عناصر الهوية الثقافية ومستوياتها	العولمة أبعاد وتحديات	منار اللغة العربية	15
الجدوع المشتركة	صوفيا ويقضان وسؤال الثقافة في المغرب	الطبيعة والثقافة	في رحاب الفلسفة	83
			في رحاب الفلسفة	102
	الإنسان كائن ثقافي		منار الفلسفة	66

69	منار الفلسفة		أنماط العيش والتبادل كمظهر ثقافي	
75	منار الفلسفة		أتعرف الإنسان كمنتج للثقافة...	
89	منار الفلسفة		تعدد الثقافات واختلافها	
105	Window on the world	Art and education	Laern about others cultures	
89	النجاح في اللغة العربية	الحجاج	في مفهوم المثقف	
23	Gateway 2 to english	cultural issues and values	what is culture?	السنة الثانية من سلك البكالوريا
35	الرائد في اللغة العربية	العولمة	حوار الثقافات	

حضور باقة الثقافة في متون الكتب المدرسية المصادق عليها³⁶¹.

تنفيذا لمضامين دعوة ملكية في أكتوبر 2014 أنيطت بمؤسسة المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي مهمة وضع خطة لإصلاح منظومة التربية والتكوين بالمغرب، صيغت على شكل رؤية استراتيجية للإصلاح تمتد من 2015 إلى غاية 2030. من حيث المبادئ، تقوم هذه الرؤية على الهوية المغربية المتعددة المكونات والغنية الروافد والمنفتحة على العالم، المبنية على الاعتدال والتسامح وترسيخ القيم وتقوية الانتماء والحوار بين الثقافات والحضارات³⁶². فيما يخص مدى حضور التواصل الحضاري وحوار الثقافات، نستشف من قراءتنا لهذه الوثيقة التوجهات الآتية:

- النموذج البيداغوجي أساس اضطلاع المدرسة بوظائفها في التربية والتعليم والتعلم والتثقيف، يحقق انفتاحا على مستجدات العصر... والثقافة والقيم الكونية³⁶³.
- توفير مسالك وبرامج للتكوين تدمج وتشجع الانفتاح على الثقافات³⁶⁴.

³⁶¹ - المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، مديرية المناهج، قطب الكتاب المدرسي، وثيقة جرد القيم الواردة في متون الكتب المدرسية المصادق عليها من قبل الوزارة، ص ص 149-155.

³⁶² - المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015-2030، من أجل مدرسة الانصاف والجودة والارتقاء، 2015، ص 8.

³⁶³ - المرجع نفسه، ص 30.

³⁶⁴ - المرجع نفسه، ص 33.

- إدماج الثقافة في صلب المنهاج التعليمي والبرامج البيداغوجية والتكوينية³⁶⁵.
- إعطاء الأولوية للدور الوظيفي للغات المعتمدة في المدرسة من أجل: ترسيخ الهوية؛ الانفتاح الكوني؛ اكتساب المعارف والكفايات والثقافة؛ تحقيق الاندماج الثقافي والقيمي³⁶⁶.
- اللغات الأجنبية الأكثر تداولاً في العالم وسائل للتواصل والانخراط والتفاعل مع مجتمع المعرفة والانفتاح على مختلف الثقافات وعلى حضارة العصر، يتعين تدريسها وتعلمها في أسلاك التعليم والتكوين³⁶⁷.
- المدرسة حامل للثقافة وناقل لها في نفس الآن، تضطلع بدورها في النقل الثقافي عبر: المدرس؛ البرامج الدراسية والتكوينات والكتب المدرسية؛ برامج التواصل والتثقيف المصاحبة لعمليات التربية والتكوين؛ المواد والأنشطة الدراسية لتنمية وتقوية الإحساس بالانتماء للمجتمع وللمشترك الإنساني ككل وتنمية عادات وكفايات التواصل والفضول المعرفي³⁶⁸.
- يتعين على المدرسة الجديدة الاضطلاع بمهمتها في تحقيق الاندماج الثقافي عبر جعل الثقافة بعداً عضوياً من أبعاد وظائفها الأساسية، على نحو يضمن نقل التراث الثقافي والحضاري والروحي المغربي وترسيخ التعددية الثقافية والانفتاح على ثقافات الغير³⁶⁹.
- الإقرار الرسمي بمكانة الثقافة ووظيفتها بالمدرسة المغربية عبر التنصيب القانوني على الحق في الثقافة للجميع والتنصيب على المهمة الثقافية للمدرسة والجامعة في التشريعات التربوية³⁷⁰.
- ترسيخ الاهتمام بالنماذج الثقافية بأبعادها المختلفة: المدنية؛ الدينية؛ التكنولوجية؛ الأدبية؛ اللغوية؛ الفنية³⁷¹.
- الاستثمار الأمثل، وبرؤية نقدية، لدور تكنولوجيا للإعلام والاتصال في الاستعمال الوظيفي للثقافة وتداول التعبيرات الفنية وتوسيع مجال التفاعل الثقافي³⁷².

³⁶⁵ - المرجع نفسه، ص 35.

³⁶⁶ - المرجع نفسه، ص 37.

³⁶⁷ - المرجع نفسه، ص 37.

³⁶⁸ - المرجع نفسه، ص 53.

³⁶⁹ - المرجع نفسه، ص 53.

³⁷⁰ - المرجع نفسه، ص 54.

³⁷¹ - المرجع نفسه، ص 54.

³⁷² - المرجع نفسه، ص 54.

– إدراج وحدات ومجزوءات للتكوين الثقافي والتربية على الثقافة في برامج تكوين الأطر التربوية، مع السهر على تكوين المدرسين على التعددية الفكرية والثقافية وعلى بيداغوجيا التوجيه والحياد الإيجابي³⁷³.

– تخصيص برامج جهوية تأخذ بعين الاعتبار الثقافات والخصوصيات الثقافية المحلية³⁷⁴.

– تعزيز برامج عمل في إطار سياسة تربوية تكوينية للشباب المغاربة في المهجر، تستثمر ثقافة وطنهم الأم بتعدد مكوناتها وإسهامهم حسب الإمكان في حوار الثقافات³⁷⁵.

تحيلنا هذه التوجهات المستقبلية والاستراتيجية للمجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي بالمغرب والتي يتوخى منها إرساء مدرسة وطنية بمواصفات جديدة، في إطار رؤية استراتيجية للإصلاح 2015-2030، على التساؤل هل هذه المدرسة، بمكوناتها ومناهجها، قادرة على تحقيق طموح هذا الخطاب؟ وأي حضور للأبعاد التربوية والتعليمية للتواصل الحضاري وحوار الثقافات على مستوى البرامج والمناهج ومقاربات العمل بمنظومة التربية والتكوين المغربية؟

اعتمادا على الوثائق والانجازات، رصدنا في هذا الفصل عملا مؤسساتيا غنيا واجماعا دوليا وإقليميا، عربيا وإسلاميا، حاصلا حول استحالة التواصل الحضاري والحوار بين الثقافات والأديان بدون التربية والتعليم، كأدوات مثلى لإزالة الصور النمطية وتدبير مسألة التنوع الثقافي وتعزيز المعرفة بالثقافات ونشر القيم المشتركة في إطار سياسات واستراتيجيات وطنية للتعليم المتعدد الثقافات، سواء تعلق الأمر بتكوين هيئة التدريس أو بالمناهج المدرسية والجامعية أو بالتربية على قيم المواطنة وحقوق الإنسان والتعليم الديني وتعليم اللغات.

على الصعيد الدولي، تتأكد القناعة على دور التعليم كقاطرة لتغيير العالم وحجر الزاوية في تأسيس سليم للتواصل والحوار الثقافي، حيث:

³⁷³ - المرجع نفسه، ص 54.

³⁷⁴ - المرجع نفسه، ص 54.

³⁷⁵ - المرجع نفسه، ص 55.

■ دعت منظمة الأمم المتحدة الحكومات والمنظمات الدولية وغير الحكومية المعنية إلى تخطيط وتنفيذ برامج ثقافية وتعليمية واجتماعية ملائمة لتعزيز مفهوم الحوار بين الحضارات، بوسائل من بينها تنظيم المؤتمرات والحلقات الدراسية ونشر المواد الأكاديمية عن الموضوع والتشجيع على توسيع المناهج التعليمية المتصلة لتعزيز تدريس وتفهم أفضل لجميع الثقافات والحضارات.

■ توالى قرارات الجمعية العامة وتقارير الأمين العام للأمم المتحدة الصادرة في شأن تعزيز الحوار بين الأديان والثقافات، (مبادرة التعليم من أجل السلام من خلال الحوار بين الأديان والثقافات في أفريقيا؛ دجنبر 2014)، متضمنة في مجملها خطوات تنفيذية محددة وأنشطة تعليمية اضطلعت بها الأمم المتحدة.

■ حددت اللجنة العالمية المعنية بالتعليم في القرن الواحد والعشرين التابعة لليونسكو أربعة دعائم، هي «التعلم من أجل أن تكون» و«التعلم من أجل أن تعرف» و«التعلم من أجل أن تفعل» و«التعلم من أجل العيش المشترك» ما يتطلب مناهج متعددة الثقافات واللغات تستند إلى رؤية واحدة بأصوات متعددة.

■ تساعد اليونسكو الدول الأعضاء فيها على دمج التعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية في النظم التعليمية الوطنية وترويج ثقافة السلام واللاعنف والحوار والتفاهم بين الثقافات، عن طريق إقامة حوار مفتوح، مثل منتدى اليونسكو الأول حول التعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية: إعداد المتعلمين لمواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين.

■ تتعاون اليونسكو مع الحكومات لتعزيز فعالية النظم التعليمية عن طريق تغيير السياسات من خلال مشاريع مراجعة أو تعديل المناهج الدراسية لتنقيحها من الصور النمطية - الثقافية والدينية والجنسانية- عبر «دليل تنفيذ مشروع تعليم الاحترام للجميع»، إضافة إلى تأهيل المدرسين لتعزيز الوعي بالتعدد الثقافي واكتساب كفاءات التعامل بين الثقافات.

■ أقرت اليونسكو خطة العمل للعقد الدولي للتقارب بين الثقافات 2013-2022 بهدف تمكين الأجيال الحالية والمقبلة من المعارف والكفاءات والمهارات الجديدة اللازمة للتبادل والتواصل والتعاون عبر الحدود الثقافية والدينية والوطنية من خلال مبادرات ومشروعات التعليم والفنون والتراث والعلوم وتكنولوجيات المعلومات.

■ على السياسات اللغوية مساندة تعددية اللغات والاهتمام بتعليمها كمدخل مثالي للحوار بين الثقافات وعامل تمكين، فغالبا ما تشكل اللغة عائقا في التفاعلات البين-ثقافية وتعلمها يحفز الانفتاح على الآخر واكتشاف ثقافات أخرى.

■ يجب نهج تعليم من أجل المواطنة العالمية والمساواة بين الجنسين والترويج لثقافة السلام ونبذ العنف وتقدير التنوع الثقافي ومساهمة الثقافة في التنمية المستدامة بحلول عام 2030.

■ تعزيز المواطنة الديمقراطية والمشاركة وتدريب وتعلم كفاءات التفاعل بين الثقافات أو الكفاءات البين-ثقافية: المواطنة الديمقراطية والترجمة والتاريخ بالإضافة إلى خلق فضاءات تربوية مخصصة لممارسة حوار الثقافات بمؤسسات التعليم العالي.

■ إشراك ممثلي الأديان والعقائد في عملية تعزيز معرفة وفهم الأديان والمعتقدات على أساس القيم المشتركة للتسامح واحترام الاختلافات والكرامة الإنسانية.

■ الحاجة إلى تعليم عالمي وعبر الثقافات وبناء شعور بتجربة إنسانية مشتركة من مسؤولية الجامعات ومراكز الأبحاث لتطوير برامج «تاريخ العالم» أو «تاريخ الإنسانية» ودعم العلماء والمنخرطين في أبحاث وتدريب الحوار والتفاهم عبر الثقافات.

■ جمع وبث أفضل الممارسات والتوجيهات والمصادر التعليمية عن الأديان العالمية، مثل جمع وتنظيم المعلومات المتعلقة بالأديان والمعتقدات في برنامج التعليم حول الأديان والمعتقدات باسطنبول.

■ تنقيح المناهج التي تشتمل على القضايا المثيرة للجدل في المعتقدات الدينية والمواقف الأيديولوجية ومراجعة المناهج التعليمية ومناهج المدارس الدينية وضمان عدم احتقارها لأي معتقد أو توليد الكراهية لمجتمعات أخرى.

■ تمت دراسة صورة الآخر في الكتب الأوروبية والعربية الإسلامية، دراسة مقارنة تناولت الأخطاء الشائعة والصور المشوهة، انطلاقا من مشروع بعنوان الكتب المدرسية والإصلاح في الشرق الأوسط.

■ ضرورة إدراج مفاهيم مثل الآخر والمواطنة الديمقراطية والحوار والتسامح والتنوع الثقافي في مقررات المدارس الثانوية وتوسيع نطاق «الآخر» نحو الآخر الأفريقي أو غيره وعدم الاقتصار على ثنائية الآخر الغربي والآخر العربي الإسلامي.

على صعيد العالم العربي، عقدت الأليكو العديد من الاتفاقيات مع منظمات ومؤسسات سياسية وجامعات ومنتديات فكرية وثقافية وتربوية عالمية ونظمت وشاركت في ندوات وملتقيات دولية بحثت الحوار بين الثقافات والحضارات وشروطه وأخلاقياته ودور الأديان في الحوار الثقافي العربي الإفريقي والعربي الصيني والعربي الأوروبي والعربي الإيبيري-أمريكي والعربي الروسي، ولأمت بالتحليل مكانة الآخر وصورته والعلاقة معه وإسهام التربية في تحسين التعرف عليه والاعتراف بخصوصياته.

عبر إقامة أنشطة مشتركة بين الفضاءين العربي والأوروبي لمزيد من التعرف بينهما وتسهيل الحوار عن طريق التربية، قدمت الأليكو الرؤية العربية لمواضيع التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات والحضارات والتعددية الثقافية واللغوية ودور التربية في تعزيز التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات والحضارات، صدرت عنها مواقف وتوصيات تخص الجانب التعليمي، نذكر منها اختصاراً:

■ الاهتمام بدراسة الحضارات وتدريسها في الجامعات العربية وتبادل البعثات والمنح التعليمية مع مراكز أساسية للحضارات العالمية وعقد المؤتمر العالمي لتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها.

■ تمويل أنشطة عبر حضارية مثل الترجمة - بيت حكمة عربية معاصرة في كافة حقول المعرفة - والمنح الدراسية والمعارض الفنية والعروض الموسيقية وغيرها وإعداد أبحاث عن صورة العربي في المناهج التعليمية وفي وسائل الإعلام الإفريقية، وصورة الإفريقي في المناهج ووسائل الإعلام العربية.

■ ترجمة معاني القرآن الكريم وتشجيع تعليم اللغة العربية بأوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية للتعريف بالثقافة العربية الإسلامية.

على صعيد العالم الإسلامي وتأكيداً على إرساء الإسلام لمبدأ الحوار والتفاعل مع الحضارات ودور المسلمين في البناء الحضاري وبالتعاون مع المنظمات الدولية والإقليمية ذات الاهتمام المشترك، قامت الإيسيسكو بالمشاركة وتنظيم العديد من الندوات المتخصصة (الترجمة إثراء للثقافات ودعم لحوار الحضارات/ التعليم من أجل التسامح وحرية الدين أو

المعتقد) والمؤتمرات الدولية (كوبنهاغن حول التربية على التفاهم الثقافي والحوار/ الحوار والتسامح والتربية) وحلقات دراسية للخبراء(حول صورة العالم الإسلامي في مناهج تدريس التاريخ في أوروبا: لقاءات وتفاعلات/ إعداد مواد تعليمية حول مقومات العمل اللائق من وجهة نظر مشتركة للديانات السماوية) - إقليميا ودوليا- وإصدار منشورات ومؤلفات علمية تناولت قضايا الحوار بين الحضارات والثقافات داخل العالم الإسلامي وخارجه. كما حددت الإيسيسكو لخطتها التربوية للسنوات الثلاث 2016-2018 أولويتين هما: تجديد السياسات التربوية للدول الأعضاء من أجل الانتقال من التعليم إلى التعلم وتعزيز دور التربية في التنمية والعيش المشترك، أملا في دمج قضايا العيش المشترك كالحوار والسلام وحقوق الإنسان والمواطنة في مناهج جميع المراحل التعليمية.

تتمينا لمجهوده في الانفتاح والاعتدال والتسامح المشهود به للشعب المغربي، توج في شتبر 2017 صاحب الجلالة الملك محمد السادس، من قبل التحالف العالمي من أجل الأمل بنيويورك، بجائزة الريادة في النهوض بقيم التسامح والتقارب بين الثقافات، اعترافا بدوره ودور المملكة، الموطن الآمن للتسامح والتعايش، في إقامة جسور التواصل على الصعيدين الحضاري والثقافي. لقد نظم المغرب، بوصفه عضوا مؤسسا ونشطا لتحالف الحضارات، فعاليات وندوات عديدة في شأن حوار الثقافات والحضارات والأديان والتواصل الحضاري كان أبرزها مشروع تعهدات الرباط في شأن تعزيز الحوار بين الثقافات والحضارات من خلال مبادرات ملموسة ومستدامة سنة 2005 ونداء فاس لتعزيز الحوار بين الثقافات والأديان في دورتي 2013 و2018. أوصى المشاركون في المحافل الثلاث بمجموعة من التدابير، نجلها في:

- إقامة جسر بين المقاربة النظرية للحوار وبين التطبيق العملي والفعال في ميادين التربية والعلوم والثقافة والاتصال.
- مراجعة الكتب والمناهج الدراسية في الغرب لمواجهة الأفكار المعادية للإسلام وجعل الحوار وسيلة للتقرب من الآخر والاعتراف به.
- تنمية الوعي بالاختلاف الثقافي وأبعاده ومصادره المتعددة عند مراجعة المناهج الدراسية وإعداد دراسات حول الصور النمطية في الكتب المدرسية عن ثقافة الآخر

ومراعاة القيم الإنسانية المشتركة ومبادئ السلام وحقوق الإنسان والتسامح والمواطنة الديمقراطية عند تطويرها وتكوين المدرسين.

■ إدماج التعليم متعدد الثقافات في مرحلة التعليم قبل المدرسي والتعليم الأساسي ومواصلته في مراحل التعليم الثانوي والعالي وتوفير البرامج التعليمية معلومات كافية حول الديانات الرئيسية وإبراز القيم والقضايا الأخلاقية المشتركة بينها.

■ تدريس اللغات لمد جسور الحوار بين الثقافات وتعزيز تدريس اللغة العربية لغير الناطقة بها ترسيخا لقيم الفهم والتفاهم.

■ إحداث المزيد من الكراسي الجامعية في مجال الحوار بين الثقافات في بلدان ومناطق ثقافية مختلفة واقتراح إنشاء مرصد للثقافات والأديان في الفضاء الفرنكفوني.

■ تكثيف تكوين المترجمين وخلق صندوق موجه لترجمة النصوص المقدسة والكتابات حول الدين لتشجيع التبادل بين الثقافات والأديان.

■ تأهيل مدارس التعليم الديني وتكوين مسؤولين حكوميين في القطاع الديني.

في الخطاب التربوي الرسمي بالمغرب، من الميثاق الوطني إلى الرؤية الاستراتيجية للإصلاح، نعث على إقرار رسمي بمكانة الثقافة ووظيفتها بالمدرسة المغربية عبر التنصيص القانوني على الحق في الثقافة للجميع والتنصيص على المهمة الثقافية للمدرسة والجامعة في التشريعات التربوية ويتعين، بذلك، على منظومة التربية والتعليم الجديدة الاضطلاع بمهمتها في تحقيق الاندماج الثقافي عبر جعل الثقافة بعدا عضويا من أبعاد وظائفها الأساسية، على نحو يضمن نقل التراث الثقافي والحضاري والروحي المغربي؛ وترسيخ التعددية الثقافية والانفتاح على ثقافات الغير، كما نلمس حضورا لأبعاد وأهمية التواصل الحضاري وحوار الثقافات على مستوى النصوص المؤطرة للإصلاح من خلال:

■ وجود قناعة بكون المدرسة حامل للثقافة وناقل لها في نفس الآن، لها دور وأهمية في النقل الثقافي عبر المدرس والبرامج والتكوينات والكتب المدرسية والأنشطة التعليمية لتنمية الإحساس بالانتماء للمشارك للإنساني.

■ طلب إدماج الثقافة في صلب المنهاج التعليمي والبرامج البيداغوجية والتكوينية.

■ منح الأولوية للدور الوظيفي للغات المعتمدة في ترسيخ الهوية والانفتاح الكوني وتحقيق الاندماج الثقافي والقيمي.

■ اعتبار اللغات الأجنبية الأكثر تداولاً في العالم وسائل للتواصل والانخراط والتفاعل مع مجتمع المعرفة والانفتاح على مختلف الثقافات، يتعين تدريسها وتعلمها في مختلف أسلاك التعليم ومسالك التكوين.

■ إدراج وحدات ومجزوءات للتكوين الثقافي في برامج تكوين الأطر التربوية وتكوين المدرسين على التعددية الفكرية والثقافية وعلى بيداغوجيا التوجيه والحياد الإيجابي.

■ توفير مسالك وبرامج للتكوين تدمج وتشجع الانفتاح على الثقافات.

ولا زالت تتواتر بلا انقطاع أخبار وتوصيات وتقارير مؤتمرات وندوات ولقاءات ومناظرات، على المستوى الوطني والإقليمي والدولي وعلى الصعيد الرسمي والفكري والأكاديمي، على نحو يثير التساؤل عن نتائجها ومدى أثرها في واقعنا اليومي، فأحداث العنف والتطرف لا زالت تتفاقم بأحداث مروعة بين الفينة والأخرى، مما يحتم الانتقال بدرجة أكبر إلى الجوانب العملية للحوار والتواصل واستهداف مواطنو ومواطنات الغد - رواد مدرسة ومنظومة اليوم - عبر آليات تربوية وبيداغوجيا أكثر فاعلية وتأثيراً، تتحمل فيها الحكومات وأنظمة التعليم ومؤسسات التعليمين المدرسي والعالي وخبراء التربية المسؤولية.

الفصل الرابع
التواصل الحضاري وحوار الثقافات
في منظومة التربية والتعليم بالمغرب
بين المكتسبات والتحديات

مهما كانت الخطابات التي أثارت التربية والتعليم كأفضل مجال لغرس بذور التواصل الحضاري والحوار بين الثقافات في عقول ووعي الأفراد والجماعات خطابات مؤسساتية قوية وطموحة ومهما كانت تصريحات المفكرين والقادة السياسيين حول الموضوع ساخنة ومهما بدا لنا أن الحلول قادمة ومتوفرة في أروقة الملئقيات الدولية وعلى ورق بياناتها وإعلاناتها، إلى جانب هذا الإسناد الفكري تعزيز التواصل الحضاري وحوار الثقافات في حاجة إلى إسناد تربوي وتعليمي يطرح تصورات جديدة ويعتمد مقاربات بيداغوجية مبتكرة تمنح دفعة قوية لواقعنا الثقافي وشأننا اليومي المتمسم بعولمة الأخضر واليابس والموسوم بتغلغل فيض طافح من المعلومات يزعرع الهويات الفردية والجماعية ويبث الخوف من مخاطر العالم الافتراضي والتطور المتسارع والمقلق لتكنولوجيات الإعلام والتواصل. خوف يتخذ أبعاداً وامتدادات معقدة ومتشابكة يصعب التحكم فيها وضبطها.

لم يعد بإمكان منظومة التربية والتكوين أن تظل بمنأى عن التحولات والمتغيرات العالمية، بل على العكس من ذلك، تشكل فرصة للتمكين والتصدي للتحديات العالمية والمحلية عن طريق التعليم وتجاوز النظرات أو الانتقادات السائدة بكونها تأتي ومختلف مؤسسات التربية والتعليم متأخرة جدا في فهم واحتواء عالم تواجه فيه كل ثقافة يوميا ثقافة غربية ترغب في ترسيخ وجودها، تأتي مترددة أيضا في تقديم خدمة تربوية وتعليمية كونية عابرة للثقافات بأشكالها المتعددة، تقلل التوترات وتحقق التوازن بين تعليم تاريخ الفرد وفهم المجتمعات والثقافات الأخرى وتقديرها والتعرف على قضايا ثقافية معاصرة. رغم الوعي المشترك لدى مختلف الفاعلين التربويين ومهندسي السياسات التعليمية وخبراء البيداغوجيا بأهمية الوظيفة الثقافية للمدرسة ودورها في الإدماج الثقافي للتلاميذ والتلميذات، إلا أن المعايينة الأولية تبين وجود فراغات كبيرة تعانيها المنظومة التربوية المغربية في تطوير هذه الوظيفة، وإعداد مخططات واضحة ودقيقة في الأهداف والنتائج المتوخاة.

لذا نأمل، من خلال هذا العمل أن بمقدورنا فعل شيء ما، بما أنه من المستبعد الحصول على وصفة علمية - أو علم جديد - تحول دون انزلاق الأفراد والمجتمعات نحو العنف والتطرف. بإمكاننا وبالقدر الكافي الحصول على تعليم عصري يلبي الاندماج السوسيو- ثقافي للفرد ويرفع الحواجز اللغوية والجهل بالآخر والثقافات، بشرط أن يكون التعليم شاملاً للجميع وهو تحد لا زال قائماً، إذ أشارت اليونسكو في تقريرها العالمي لرصد التعليم لسنة 2020 تحت عنوان "التعليم الشامل للجميع: الجميع بلا استثناء"³⁷⁶ إلى أنّ نسبة البلدان التي تمتلك قوانين خاصة لضمان التعليم الشامل للجميع لا تتجاوز 10٪ وصرحت السيدة أودري أزولاي، المديرة العامة لليونسكو: "لا بدّ من السعي إلى تشييد منظومة تعليميّة تتسم بقدر أكبر من الشمول من أجل مواكبة تحديات العصر"³⁷⁷.

أجراً لهذا التصور، ارتأينا في هذا الفصل التركيز على أهمية التعدد اللغوي والانفتاح على اللغات والتعليم الديني والتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها والتعليم من أجل المواطنة العالمية وبناء مجتمع المعرفة والتربية على قيم السلام والتسامح.

377 - *ibid.*

المبحث الأول: تعليم وتعلم اللغات جسر للتواصل الحضاري وحوار الثقافات.

نعلم جميعا أن اللغة وعاء الفكر وأداة جوهرية في الاتصال والتعليم والاندماج الاجتماعي على اختلاف الأجناس والانتماءات والمعتقدات والفضاءات الحضارية، وحيث يتمكن من اللغة أو اللغات غاية كل نظام تعليمي، للغة أو لغات التعليم أبعادا ثقافية وأخرى حضارية لا يمكن تعليمها إلا في إطارها الثقافي واستحضار بعدها التواصل، فهي تحظى كنظام ذو بعد ثقافي بعلاقة وطيدة مع الثقافة، كمكون من مكوناتها الأولى للتعبير عن الهوية الثقافية، ليمتد تأثير وتأثر اللغة إلى الحضارة الإنسانية من خلال الثقافة التي تؤسسها.

اللغة نافذة على المعرفة الإنسانية وجسر تنتقل على منتهى الثقافات من فضاء إلى آخر وتتواصل، عبر الاحتكاك والتواصل والترجمة بكافة أنواعها وتعلم اللغات التي يتفاوت تداولها العالمي من حيث الأهمية والقيمة تبعا لحضورها العلمي والثقافي والتجاري، مما يطرح إشكالات - سبق التطرق لها في الفصل الثاني - وتساؤلات مقلقة حول اللغات «الأفضل» لتحقيق التواصل والحوار الثقافي ومدى تأثير ذلك على الهوية الوطنية. مع ضرورة التركيز على أن حوار الثقافات ليس مناظرة أو مقارنة بين ثقافات في لحظة معينة، بل تواصل وتفاعل دائم، المنظور الذي يتطلب لغات للتواصل وليس لغة وحيدة، تترجم في كفايات وقدرات تواصلية تبنى وتكتسب بالتوظيف الشفوي والكتابي.

في المغرب أرض الثقافات، قناعتنا بكون اللغات - بصيغة الجمع - جسرا ومدخلا لتحقيق التواصل الحضاري وحوار الثقافات، يمكن أن تتبلور في خيارات لغوية تؤول إلى سجل ذو كفاية لغوية بأبعاد تواصلية متعددة اللغات، مع مراعاة إشكالات وضع لغوي يعرف، منذ ثلاثة عقود، تجاذبا ونزاعا أحيانا بين تيارات ثقافية تدعم مكانة اللغتين العربية والأمازيغية من جهة ووضع اللغة الفرنسية واللغات الأجنبية، من جهة أخرى ويستدعي بالضرورة الوعي بخصوصية وارتباط اللغات الوطنية بالهوية الثقافية المغربية وضرورة الانفتاح على العالم ثقافيا واقتصاديا وتكنولوجيا و... بدون توظيف أيديولوجي وثقافي أو صراع ذو خلفية سياسية.

وفق هذا المنحى، نتساءل: أي اللغات أفضل لتعليم القرن الحادي والعشرين وزمن العولمة؟ اللغات الوطنية أم اللغات الأجنبية الأكثر تداولاً؟ أم هما معاً؟ ما انعكاسات التعدد اللغوي بالمغرب على هيكلية الحقل اللغوي وتخطيط السياسة اللغوية للمملكة، بما يناسب رهانات المرحلة التاريخية المعاصرة؟ وأي رؤية للمجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي اتجاه وضعية اللغات بالمغرب ومسألة تعليمها وتعلمها؟ كيف نهئى مواطن الغد، له القدرة على التعرف والتواصل مع ثقافات أخرى؟ وبأي إيقاعات يتم تطوير وتدبير القدرات اللغوية في المدرسة المغربية؟ مع العلم أن المسألة اللغوية ذات أهمية بالغة في رؤية الإصلاح المنشود.

علاقة بهذه التساؤلات وما يتفرع عنها سنتطرق في المبحث الأول من هذا الفصل إلى الإطار الذي يحكم أفق تصورنا للمسألتين التواصلية واللغوية والمُكوّن من ثلاث محاور، ترتبط أولاً بالأبعاد التواصلية والثقافية للتعليم المتعدد اللغات وثانياً بتجربة التعدد اللغوي في المغرب وسمات وضعنا اللغوي وانعكاساته على تعليم وتعلم اللغات وثالثاً بكيفية تدبير منظومة التربية والتعليم - ممثلة في المدرسة الوطنية المغربية - للتعدد اللغوي تنظيمياً وبيداغوجياً، من حيث الانجازات المحققة والرهانات المنتظرة أيضاً.

أولاً: الأبعاد التواصلية وما بين الثقافية لتعليم متعدد اللغات: نحو كفاية تواصلية متعددة اللغات.

لن نختلف في أن للتواصل سمة الحتمية والضرورة، سيرورة تفاعل ومواقف، كيفما كانت طبيعة ونوعية الرسالة، مع الذات أو الآخر، سواء بعلامات لفظية أو غير لفظية واللغة فضلاً عن كونها وسيلة للتفكير وطريقة في النظر، فهي موجودة بالفعل والقوة من أجل غايات الفهم والإنتاج وتلبية الحاجات التعبيرية المتجددة والمتغيرة باستمرار وسد الفجوة بين شعوب وثقافات عالم متشابك ومتصل في كل برهة من الزمن. جميع العلاقات الإنسانية العاطفية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية و... تحتاج للتواصل باللغات أرقى نظام للتعبير والتواصل والحامل الأكبر للثقافة والمعرفة اللتان قد تتجاوز أهميتهما حدود علمنا وعالمنا، بقدر ما يتجاوز البحث في أبعاد التواصل اللغوي مستويات هذا العمل الذي يتوخى، بصفة خاصة ومقتضية التأكيد إلى أن الحديث عن

التواصل الحضاري وحوار الثقافات لن يستقيم بدون لغات والوعي بضرورة تعليمها وتعلمها. إن البشرية التي فرقت بينها كثرة اللغات تواصلت عبر العصور بفضل الأشخاص المتعددي اللغات أو المتحدثين بأكثر من لغة، لكن هذا الأمر لا يتم بصورة عشوائية.

لبسط القول في موضوعنا هذا، نمهد بالحديث عن العلاقة والأبعاد الرابطة بين تعليم اللغات والتواصل عموماً والتواصل الحضاري وحوار الثقافات تحديداً ومدى تأثير اللغات في أداء مهمة التواصل الحضاري وحوار الثقافات، انطلاقاً من قناعة مفادها أن الأشخاص المتعددي اللسان واللغة لهم القدرة على الانسجام وتفهم ثقافات العالم أكثر من الأشخاص الذين لا يتقنون إلا اللغة الأم وأن التعليم متعدد اللغات يعزز التواصل الحضاري وحوار الثقافات ويحفز تجربة العيش معا والتناغم بين ما هو محلي وما هو عالمي، في محاولة لتسليط الضوء على التعليم المتعدد اللغات وتوصيف كفاية تواصلية متعددة اللغات.

بداية، تحلّل اللغة "أقدر الوسائل التواصلية تعبيراً عن المقاصد"³⁷⁸ والمصدر الموثوق به لتلبية حاجة التعايش مع الآخر ومعرفة الهويات الثقافية التي تميز مجتمعا عن غيره من المجتمعات، موقعا مؤثرا في عملية التواصل ويصعب الحديث عن اللغة دون أن تنتسرب الأبعاد التواصلية إلى مجال تداولها وتتفاعل القدرات اللغوية والفكرية والتواصلية في بلورة النشاط الإنساني وتأكيد الخاصية الإنسانية في الكائن البشري.

الاتصال والتواصل لا يمكن أن يتم إلا باللغة، سبيل التعرف على ثقافة الناطقين بها - أفرادا وجماعات- وفهم وتحليل الخلفيات والمرجعيات والأفكار لتصير نبراسا مضيئاً للفوارق الثقافية ونستطيع بذلك أن نتعرف على معتقدات الفرد وطبيعة تفكيره وطريقة حياته وسلوكه وكيانه الروحي وانتمائه الثقافي من خلال استخداماته اللغوية. إلى جانب البعد الأمثل للتعبير عن الفكر، يشكل التواصل، بخصائصه وتقنياته وأبعاده اللسانية والسيكولوجية والتقنية والتربوية أهم بعد وظيفي للغة، فلا يمكن للمجتمع الإنساني

³⁷⁸ - مصطفى بوعناني، التواصل اللغوي بين المقتضيات اللسانية والمعرفية، التواصل، منشورات مختبر العلوم المعرفية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، مطبعة أنفو- برانت، فاس، ص 59.

التواصل مع ذاته والتعارف والتبادل والتفاعل مع الآخر وتحصيل المعرفة العلمية بلا أداة تبرز مشاعره ورغباته وأفكاره ومعارفه وهويته الثقافية. في نفس المقام، لا تقل اللغة عن التواصل شمولية في كافة جوانب الحياة والنشاط الإنساني، فهي أعقد وأعمق من مجرد نظام من الأصوات والقواعد النحوية والصرفية والتركيبية والدلالية، إنها نسق رمزي وجزء لا يتجزأ من التواصل الإنساني في الظروف والأفعال والأحداث التواصلية كيفما كان نوعها وموضوعها والمشارك فيها وصيغة أو شكل الرسالة ومضمونها. اللغة ليست فقط أداة للتواصل والمعرفة ولكنها أيضاً أداة للتمكين فمن يملك القوة المعرفية يفرض لغته على الآخر.

الملاحظ أن لا مجال للحديث عن اللغة في تداولها دون الخوض في الأبعاد التواصلية حيث "أنواع التصور والتفكير والتعبير، إلخ ... كل تلك مظاهر حضارية لم تقتأ تنتقل طوال تاريخ البشرية من شعب إلى آخر ومن بقعة إلى أخرى، عبر الاتصال والاحتكاك بين البشر، فرادي وجماعات زمن السلم وزمن الحرب"³⁷⁹، فاللغات، التي دون بها الإنسان على مر العصور تجربته ونتاج عقله والتي تحاول عشرات النظريات العلمية سبر أغوارها وسبل اكتسابها وتعلمها منذ المراحل الأولى للطفولة، هي الركيزة الأولى للتواصل والتعامل بين البشر على اختلافهم وتنوعهم ويمكن الاستنتاج أن "استعمال اللغة هو في الآن نفسه نتيجة الكفاءة اللغوية (معارف نحوية) وكفاءة التواصل التي تتضمن بعض المهارات التداولية وغير اللفظية"³⁸⁰.

كل لغة تحمل شحنة ثقافية وتعد فهرساً لثقافة مجتمع من المجتمعات الانسانية، تتأثر بها وتؤثر فيها، وقد "تطراً عليها تغيرات متعددة تبعا لما يحصل في المجتمع من عمليات تغير ثقافي حيث إن اللغة ليست إلا عنصراً من عناصر الثقافة"³⁸¹ والفصل بين اللغات والثقافات أمر مستحيل، لا ثقافة بلا لغة ولا لغة بلا ثقافة. كلاهما لا يمكنه الانفصال عن الآخر، يحضر البعد الثقافي في كل لغة، التي تحتفظ بالمعارف والأفكار

³⁷⁹ - محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مرجع سابق، ص 196.

³⁸⁰ - بنعيسى زغبوش، السيرورة التواصلية والكفاءة اللغوية بين علوم الأعصاب وعلم النفس المعرفي، التواصل، مرجع سابق، ص 24.

³⁸¹ - هادي نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 123، ص 136.

والتراث الثقافي وتنقله جيلاً بعد جيل، ومن تم فالبعد اللغوي الذي تقترح كل ثقافة نفسها من خلاله، من أهم مداخل تدبير اختلاف الثقافات وبناء مستقبل إنساني مشترك.

إن غياب هذا البعد أو تعثره هو تهديد للتواصل والمثاقفة العالمية والحوار. يمكننا أن فهم قوة هذه الصلة من خلال المقومات اللغوية وغير اللغوية (الإشارات والتعبيرات وقسمات الوجه المصاحبة للكلام) التي تحكم التواصل والتفاهم في أي مجتمع من المجتمعات، بل تعكس أحياناً الاختلافات بين فرد وآخر ومجتمع وآخر والتفاعل والتلاقح بين الثقافات ونلمس ضوابط وقواعد تنظم استخدامات اللغة والتخاطب بها، ما يمكن وما لا يمكن أن يقال في المواقف المختلفة وإلا انقلب التواصل الإنساني فوضى وسوء تفاهم. إن "تكرار السؤال عند هنود تشيلي يعتبر إهانة، بينما نجد عكس ذلك عند هنود البرازيل الذين يفترضون أن السائل لابد من أن يكرر سؤاله لأنهم ينظرون إلى الإجابة المباشرة عن السؤال الذي يسأل مرة واحدة على أنها نوع من الوقاحة"³⁸². كذلك طرائق وأساليب التعبير عن الفرح والسعادة والحزن وإلقاء التحية ودرجة الصوت وتعبيرات الوجه تختلف من مجتمع لآخر ولا تفسير لذلك غير التفسير الثقافي، حيث يتواصل الأفراد في مجتمع معين من خلال رموز منطوقة للتعبير وضعت الثقافة على مر الزمن وحددت لها معنى يبدو معه الإنسان حقاً كائناتاً ثقافياً خاضعاً لاحتمية لغوية في سيرورة تواصلية دائمة، تعد في عصرنا هذا عاملاً حيوياً لبناء القوة الثقافية في واقع يسعى فيه "الإنسان الكوني (بمعنى الإنسان الذي صنع الكونية الراهنة أو الواقع الكوني) لا سيما في طوره الأمريكي، يسعى إلى فرض رؤيته الخاصة ومعايير الثقافة على باقي الأمم"³⁸³ ويظل المشهدان الثقافي واللغوي في تحول مضطرب نتيجة إنجازات الطفرة التكنولوجية في مجال التواصل.

المأمول في المساحات والوظائف والفضاءات التي يبيحها التواصل الحضاري وتعدد اللغات تجسير العلاقات التواصلية في عالمنا وتيسير الحوار والتفاهم والتبادل وسن استراتيجيات تواصلية على أساس تعدد لغوي تكاملي، تحقيقاً لتواصل حضاري يفتح

³⁸² - نايف خرما وعلي حجاج، اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد

126، ص 119.

³⁸³ - طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2005، ص 84.

الوصول إلى أنظمة القيم الأخرى وطرق تفسير ثقافات أخرى للعالم والكون والإنسان، يمكنها أن تشجع، أيضاً، التفاهم بين الثقافات والمساعدة في الحد من الكراهية. تواصل حضاري يطبعه المساواة لا التنافس أو الصراع اللغوي وهيمنة على ثقافات كوكب الأرض عبر لغة أو لغات بعينها. هنا تصدق مقولة "لكي يتحقق التواصل يجب توفر شرط النضج العصبي، بالإضافة إلى المحيط الثقافي واللغة"³⁸⁴ وتتنبق أهمية تعليم اللغات وتعلمها في سياقات ثقافية. لكن، كيف ذلك؟

باعتبار المكانة والقيمة الرمزية للغة ما أو عدة لغات في المجتمع بمعتقداته وثقافته وتاريخه، تعد اللغات جزء مهم من المناهج الدراسية ومن أهداف التعليم والسياسة التعليمية، إذ لا يمكن عزل المدرسة ومناهجها التعليمية عن السياق الاجتماعي اللغوي والمجتمع الذي تعد جزءاً لا يتجزأ منه، بالعكس قد تؤثر الممارسات المدرسية على مستوى التعددية اللغوية والمواقف منها في المجتمع ككل وقد تهدف المدرسة إلى تعزيز التعددية اللغوية من خلال تدريس لغات مختلفة يمكن لأطفال المدارس تعلمها واستخدامها في التواصل داخل المجتمع وخارجه. كما يمكن أن تشكل التعددية اللغوية في التعليم نتيجة للجمع بين الاتجاه نحو تدريس المزيد من اللغات في المدرسة وتعدد اللغات في المجتمع، حيث الجزم بأن لغة واحدة غير كافية للتواصل داخل البلد الواحد والمجتمع الواحد والعالم الواحد، الذي يفترض أن نواكب تحولاته بتعليم وتعلم اللغات الأجنبية كخيار راهن واستراتيجي لتعليم القرن الحادي والعشرون.

إننا بصدد «التعليم متعدد اللغات» يقدم البرامج التعليمية بلغات متعددة ويهدف إلى تحقيق الكفاءة في التواصل بلغتين أو أكثر، إلا أن المناهضين لهذا النوع من التعليم يرون التأثير السلبي لتعلم اللغة الأجنبية في مرحلة الطفولة على اللغة الأم وعرقلة اكتسابها مقابل استيعاب مهارات اللغة الأجنبية واضعاف مكانة اللغة الأم - كحامل للثقافة والهوية- التي تتعرض للاستلاب الفكري عبر تعلم اللغات الأجنبية ومن خلالها الثقافة الغربية. لذلك، نجد في بعض الحالات وحفاظاً على الهوية الثقافية تقدم حكومة بلد المنشأ

³⁸⁴ - بنعيسى زغيوش، السيرة التواصلية والكفاءة اللغوية بين علوم الأعصاب وعلم النفس المعرفي، التواصل، مرجع سابق، ص 12.

دروسًا لأطفال المهاجرين في دول المهجر، على سبيل المثال: تدريس أبناء مغاربة العالم - خاصة في أوروبا- الثقافة المغربية واللغة العربية.

من جهتنا، لا نرى في تعلم اللغات سوى إطار عمل لتبادل وجهات النظر وتجديد الفكر والتعرف على الثقافات والتعلم من الاختلافات الثقافية بدلاً من الخوف منها وقيمة معرفية مضافة لإمكانات التواصل الحضاري والحوار والتقارب بين الثقافات. في هذا الاتجاه، يبقى على عاتق التربية والتعليم - أفراداً ومؤسسات- رفع التحدي وبناء الجسور وليس الجدران وإيجاد توازن بين الحاجة الملحة إلى تعزيز التنوع اللغوي كجسر بين الثقافات يعزز تعلم العيش معا والحوار والتفاهم العالمي، دون تدمير لهويتنا الثقافية المحلية وشعورنا بالانتماء.

لعل هذا النوع من التعليم أي «التعليم متعدد اللغات» بوابة آمنة لتعليم متعدد الثقافات، يعلم الطفل فهم وقبول واحترام الآخر والاطلاع على موروث وفنون وأفكار ومعتقدات الثقافات أخرى، يمثل فرصة انصاف لجميع الأطفال ذوي الخلفيات الثقافية والمعتقدات المختلفة للتواصل والتفاعل والتعايش مع أقرانهم، تعليم يحافظ على الهويات الثقافية ويعزز التفاهم والحوار عبر معادلة لغوية توازن بين تعليم اللغة الأم في بداية التعليم الرسمي لاعتبارات تربوية واجتماعية وثقافية وتعليم اللغات للتواصل الحضاري وحوار الثقافات، مما يقتضي حصيلة معرفية واستعداد نفسي ومهارات قابلة للتعلم والتحصيل.

في قرار لمؤتمرها العام سنة 1999، اعتمدت اليونسكو عبارة «التعليم متعدد اللغات»³⁸⁵ للإشارة إلى أهمية استخدام ثلاث لغات على الأقل في التعليم، اللغة (اللغات) الأم ولغة إقليمية أو وطنية ولغة دولية وتحرص المنظمة الدولية منذ سنة 2000 على الاحتفال كل سنة في 21 فبراير باليوم الدولي للغة الأم في إطار تعزيز التنوع اللغوي والثقافي وتعدد اللغات، كوسيلة لتحسين نتائج التعلم وإحياء التنوع الثقافي وتسهيل المشاركة وتوفير معلومات وتعابير ثقافية جديدة وبالتالي ضمان التفاعل المتناغم بين ما هو محلي وما هو عالمي. في سنة 2017، كان موضوع الاحتفال باليوم الدولي للغة الأم:

³⁸⁵ - <https://ar.unesco.org/themes/gced/languages#>: (Accessed 12/02/2020)

"نحو مستقبل مستدام من خلال التعليم متعدد اللغات"³⁸⁶. إن أحد أسباب هذا التوجه في اعتقادنا، هو ما عرفه القرن الحادي والعشرون من تغيرات جيو-استراتيجية وتحولات فكرية وثورات -علمية وتقنية- وفيروسات مستجدة أحيانا، بوتائر سريعة فرضت وعيا ثقافيا جديدا بذكاءات متعددة ومهارات تواصلية قادرة على تحصين الهوية الثقافية ضد الاختراق والهيمنة والانفتاح بإرادة وتوازن بين السجلات اللغوية.

وبما أن المقاربة بالكفايات تصور تربوي وديداكتيكي معاصر، بمثابة نظام من المعارف والمهارات والقدرات التواصلية والمنهجية والثقافية، يستتضرها المتعلم لحل أو مواجهة مجموعة من الاشكاليات أو الوضعيات المعقدة والمركبة، بهدف التكيف والاندماج أو الإنتاج والابداع، بمقتضى هذا التصور، يتم التعلم والتواصل في سياقات متعددة اللغات والثقافات ضمن كفاية متعددة اللغات والثقافات تضم المعارف «savoirs» والمعارف-الفعل «savoir- faire» وحسن التواجد «savoir- être» وتستند بيداغوجيا إلى مدخلي الفهم والإنتاج، شفويا وكتابيا «reading and writing skills» وفق منهاج تربوي يعرض اللغات كمدخل عمل لتطوير فن الخطابة والتعامل مع التعددية اللغوية والتعددية الثقافية من خلال الرصيد الثقافي للنصوص اللغوية، فيما يُمكننا فهم المعجم مدى ترابط وتداخل لغات العالم وكشف أوجه الائتلاف والاختلاف بينها.

لقد تعاطت البيداغوجيا التقليدية مع اللغة باعتبارها مادة دراسية يتم الاقتصار في تدريسها على مكون النصوص الأدبية وقواعد اللغة وفق أهداف إجرائية، بغض النظر عن السياقات الثقافية ومتطلبات الحضارة الإنسانية وأضحى المتعلم يملك كفاية لغوية جيدة في لغة ما على مستوى مهارتي المحادثة والكتابة، دون الإلمام بالمكونات الثقافية أو التاريخ الحضاري لتلك اللغة. بينما اهتمت البيداغوجيا الحديثة ببناء التعلمات وليس تلقئها وضبط العلاقة بين الفعل التربوي أو مكتسبات التحصيل الدراسي والمتغيرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، في إطار مقاربات بيداغوجية تراهن في تعليم وتعلم اللغة خلال مراحل الطفولة وتعتبر الرصيد المعجمي والقواعد اللغوية المكتسبة لن يكون لهما معنى دون أن يبرز في كفاية تواصلية توظف المعجم والقواعد كمعارف إلى جانب امتلاك

³⁸⁶ - <http://www.unesco.org/new/ar/unesco/events/prizes-and-celebrations/celebrations/international-days/international-mother-language-day-2017/> (Accessed 12/02/2020)

مهارات وقيم في وضعيات تواصلية حقيقية مع الآخر، من شأنها، أولاً، تحقيق الاكتشاف والتعرف على الذات والآخر والعالم، أفكاراً ومعتقدات وثقافات، كأنّ الاكتشاف أحد أهداف التواصل الكبرى واللغة هي التي تمد المتعلم بالمفاهيم العقلية والتمثيلات التي يكونها عن ذاته ومحيطه، وثانياً، إجراء مقارنة مع الآخر المختلف بناء على المقارنة بين لغتين في أبعادهما اللغوية والخطابية والثقافية اعتماداً على السجل اللغوي المعرفي والثقافي الذي يملكه المتعلم وتحفيز مهارات التفكير النقدي والوعي بالاختلاف والقدرة على التكيف والفعل، وثالثاً، الإقناع والاقتناع لدرء الصراع اللغوي والمجتمعي والنهل من فرص التواصل كحقل خصب للتداول السلمي للغة ومراعاة الحقوق اللغوية لكل طرف، سيما أن عملية التعليم مشروطة بعلاقة تواصل ثنائية أو جماعية.

إن الكفاية التواصلية المتعددة اللغات التي تعتبر التواصل الهدف الأول لتعلم اللغات والتفاعل بين متعلم ومتحدث آخر، لا تقاس بمدى التمكن من القواعد النحوية، بل تعتمد على المقاربة التواصلية والاستعمال السليم للغة في سياقات ثقافية مختلفة تحسن قدرات التعلم وتنتج وعياً عند المتعلم وإماماً بأكثر من لغة واحدة أو ثقافة واحدة وتسهم في إدماج خبرات متنوعة في تجربته الثقافية بعد الاتصال بلغات وحضارات أخرى، ليصبح الحديث عن البعد التواصلية للغات هو حديث عن البعد العلائقي مع الآخر كمطلب إنساني ينبغي تدبيره اعتماداً على دعامة اللغات وأدوارها في التعبير والتأثير وزرع الثقة بين أطراف الفعل التواصلية عند التفاعل أو التبادل الثقافي.

بناء الكفاية التواصلية المتعددة اللغات يستند بالإضافة للمهارات اللغوية كالقراءة والسماع والكتابة والتعبير، إلى مهارات منهجية نجملها في:

- **الاكتشاف:** عبر الوعي بالذات والمحيط/الآخر، إذ يفترض أن توفر اللغات معارف موحدة حول العالم.
- **التقارب:** من خلال تأسيس علاقات إنسانية مع الآخر قصد التواصل، الأمر الذي يحتاج إلى مهارات مكتسبة في التربية والتعليم.
- **التبادل:** الاقتناع/ التأثير على الاتجاهات والمعتقدات والآراء والسلوكات والتأثر بها.

■ المشاركة المجتمعية: من أجل التفاهم والاختلاف والرد، كفرصة للحوار والتفاهم والتبادل.

■ أعمال الذكاء الرقمي الاجتماعي: المستند إلى قيم التعاطف مع الآخرين، التعاون، الاحترام، الحكمة والتفكير الإبداعي على الإنترنت.

إلى جانب مبدئي الوظيفة والتنوع، بمعنى تدريس اللغة على أساس أهميتها الوظيفية كوسيلة للتواصل والاكتشاف والتفاهم عبر العالم وتنويع المسالك اللغوية وعرض آفاقها المهنية والشخصية على المدى المتوسط والبعيد في قطاعات الثقافة والاتصالات والتعليم والاقتصاد والسياحة والإعلام، يمكن أن تركز الكفاية التواصلية المتعددة اللغات على مبدأ الاستمرارية عبر ضمان استمرارية تعلمها وتطوير الكفايات اللغوية للمتعلمين في جميع الأسلاك التعليمية، انطلاقاً من مؤسسات رعاية الطفولة المبكرة إلى غاية مؤسسات ومراكز التعليم العالي.

ختاماً، مهام ووظائف وأبعاد اللغات يجعلها ساحة للجدل والبحث العلمي والمقاربات الفكرية والبيداغوجية المتعددة والـ□ديث عن التواصل الحضاري والحوار بـ□ الثقافات يثـ□ مسألة اللغات الأجنبية من أجل تعزيز الوعي بمواطن التشابه والاختلاف الثقافي والاندماج السلس في البيئات المتنوعة ثقافياً وتدريب العلاقات والمواقف التي تتطلب التواصل بين الثقافات، مما يجعل تعليمها اليوم يمثل خياراً استراتيجياً يفرضه، من جهة الرغبة الملحة في التواصل والحوار واكتشاف الآخر وارتفاع الطلب على تعلم اللغات الحاملة للمعرفة والعلم والتكنولوجيا ومن جهة أخرى مهمة بيداغوجية من شأنها دفع المتعلم إلى أن يقف موقفاً إيجابياً اتجاه تنوع اللغات وأن ينظر إلى لغته الأولى واللغات الأجنبية بدون تراتبية أو هرمية.

في المغرب بعد أن بينت دراسة "هيمنة الازدواجية اللغوية التي تطبع الحياة العامة في المجتمع المغربي ... كما أن هناك قصوراً وشبه غياب للغة العربية في المؤسسات والمراكز العلمية والتقنية وفي إصداراتها وإنتاجاتها المعرفية"³⁸⁷ قد يتساءل المتتبع للشأن المغربي، أي حضور وأهمية اللغات في التجربة الثقافية المغربية؟ وأي تدبير بيداغوجي

³⁸⁷ - اليونسكو، بناء مجتمعات المعرفة في المنطقة العربية، اللغة العربية بوابة للمعرفة، مرجع سابق، ص 19.

للتعدد اللغوي في منظومة التربية والتكوين؟ إلى أي حد تمنح منظومتنا التربوية أهمية لإتقان اللغات الأجنبية من حيث التصور والخطاب والتصريف البيداغوجي وبأي نتائج المحققة؟

ثانيا: جدل السوق اللغوية بالمغرب وانعكاساته على تعليم وتعلم اللغات.

سبق لنا الجزم بين ثنايا هذا البحث أن المجتمع المغربي متعدد اللغات، الأفراد يتكلمون أكثر من لغة وأحيانا أكثر من لغتين، في مزاجية بين اللغات الوطنية واللغات الأجنبية: العربية والأمازيغية، العربية والفرنسية والأمازيغية، الأمازيغية والإسبانية، العربية والفرنسية، العربية والأمازيغية والفرنسية، أضف لذلك لهجات متنوعة ومتفرقة على امتداد مناطق وجغرافية المغرب. خضع هذا التعدد لعوامل مرتبطة بالتاريخ والحدود الجغرافية والحضارات المتعاقبة على البحر الأبيض المتوسط والاستعمار - الفرنسي والإسباني - وزوايا التنظير السياسي ومتطلبات السوق اللغوية وتحديات التنمية. عوامل أفرزت مما لا شك فيه بلبله لغوية جمة وتحولات كبرى في المشهد الثقافي المغربي خلال القرن الماضي ولا زالت تداعياتها تتفاعل في زمننا المعاصر.

لقد أسهم الغموض الذي شاب التجسيد العملي لسياسة لغوية واضحة المعالم، في ميادين الإدارة والثقافة والتعليم، في طرح إشكالات في لغة التعليم وتدرّيس المواد التعليمية وتعليم اللغات وفي صراع خطابات أيديولوجية وسياسية حادة عرفت الساحة الثقافية بالمغرب بخصوص وضع ومكانة اللغتين العربية والأمازيغية من جهة، ووضع اللغة الفرنسية - المؤطرة فرنكوفونيا - واللغات الأجنبية الأخرى، من جهة أخرى.

محور عمل يثير تساؤلات أساسية من قبيل: إذا كانت اللغة العربية لغة رسمية، فهل تُعامل فعلا في واقعنا اليومي معاملة اللغة الرسمية؟ هل التعدد اللغوي في نسخته المغربية ازدهار ثقافي أم أزمة هوية، ففساء لغوية تبتغي المساواة بين اللغات في هوية متعددة أم مقدمة لصراع الهويات الثقافية؟ ما مواصفات التعدد والانفتاح اللغويين في الدستور المغربي؟ وما حدود تدخل الدولة، على مستوى الآليات المؤسسية، في تأطير

التعدد اللغوي في المغرب؟ وكيف تتأثر منظومة التربية والتعليم بجدل ومتطلبات السوق اللغوية عالميا؟ وما موقع التعدد اللغوي في خارطة اصلاح التعليم بالمغرب؟

على افتراض أن "التعددية اللغوية في المغرب في العقود الاخيرة ليست ناتجة عن اختيار وتخطيط، بل يمكن اعتبارها كشيء فرضته علينا الظروف"³⁸⁸، على حد تعبير المؤرخ عبد السلام الشدادي، وأن "خارج مجالات العلم والتكنولوجيا لا مجال ولا مبرر لتوظيف لغة أجنبية إلا ما تقتضيه البراغماتية الآلية المباشرة"³⁸⁹ حسب تصور الكاتب والأديب المغربي مبارك ربيع، نتساءل بأي وضع لغوي متكافئ نستقبل ويمكن أن نساير عصر العولمة؟ مع التأكيد مسبقا بصعوبة الإحاطة بكل أبعاد المسألة اللغوية في المغرب بصفة عامة ومنظومة التربية والتكوين بصفة خاصة، فإن الغاية من بسط الحديث في هذا الموضوع إضاءة وتعميق التفكير في موضوع يقع اليوم في صميم انشغالات الرأي العام واهتمام الفاعلين التربويين وله صلة بموضوع البحث.

قد نختلف في تفاصيل وظيفة كل لغة يتم تداولها في المجتمع المغربي واستعمالها ووضعها الاجتماعي والرمزي، جراء وجود مدافعين عن لغة بعينها دون أخرى ولكننا لن نختلف حول تعددية لغوية في المغرب منذ أمد بعيد، على الرغم من وجود نهج سياسي - ايدولوجي إلى حد ما - مع فجر الاستقلال سعى إلى التحرر من لغة الاستعمار وتعريب التعليم حيث اللغة العربية أساسية في التعليم الابتدائي والثانوي، معمة في سنوات السبعينات بالنسبة لبعض التخصصات في العلوم الإنسانية والاقتصاد على اللغة الفرنسية كلغة أجنبية أولى في التعليمين الابتدائي والثانوي ولغة التدريس في التخصصات العلمية في التعليم العالي. إضافة إلى إدراج اللغة الانجليزية وبعض اللغات الأجنبية الأخرى في التعليمين الثانوي والعالي كلغات أجنبية ثانية ومع مطلع الألفية الثالثة وتحديدا بعد خطاب أجدير يوم 17 أكتوبر 2001، أضحت الأمازيغية مكونا أساسيا للثقافة الوطنية تم تعزيز مكانتها في المجالات التربوية والاجتماعية والثقافية والإعلامية الوطنية بتأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

³⁸⁸ - محمد الصغير جنجار، الوضع اللغوي المغربي بين إرث الماضي ومقتضيات الحاضر، مجلة المدرسة المغربية، مرجع سابق، ص 56.

³⁸⁹ - مبارك ربيع، ظاهرة التعدد اللغوي ومضاعفاتها في المحيط المجتمعي والتربوي المغربي، مجلة المدرسة المغربية، اللغات في المدرسة المغربية، مرجع سابق، ص 140.

يعكس هذا الوضع واقع التعدد اللغوي في المغرب بدون تحديد سياسة لغوية منبثقة عن تخطيط لغوي يحدد وظيفية كل لغة في خريطة التعددية اللغوية المغربية ويأخذ بعين الاعتبار إكراهات "المتطلبات الواقعية التي يفرضها التسيير الإداري من طرف أطر إدارية تلقت تكوينا باللغة الفرنسية"³⁹⁰ وسيرت أهم مرافق الإدارة العمومية وقطاع اقتصادي لغته الوظيفية هي اللغة الفرنسية.

في بداية العقد الثاني من الألفية الثالثة، رسم دستور سنة 2011 - الفصل الخامس - الانفتاح اللغوي في المغرب، مرتكزا على لغتين وطنيتين رسميتين، هما العربية والأمازيغية وعلى لغتين أكثر تداولاً للانفتاح الثقافي - الحضاري والعلمي، نفترض أنهما الفرنسية والإنجليزية. يفتني هذا التعدد اللغوي بتنوع ثقافي في إطار الوحدة، فاللغات الوطنية هي الأسمى وعمادها التعدد الثقافي، إذ "تظل العربية اللغة الرسمية للدولة. وتعمل الدولة على حمايتها وتطويرها، وتنمية استعمالها. [...] تعد الأمازيغية أيضا لغة رسمية للدولة، باعتبارها رصيدا مشتركا لجميع المغاربة بدون استثناء"³⁹¹ وينص الدستور المغربي كذلك على "حماية اللهجات والتعبيرات الثقافية المستعملة في المغرب ويسهر على انسجام السياسة اللغوية والثقافية الوطنية وعلى تعلم وإتقان اللغات الأجنبية الأكثر تداولاً في العالم، باعتبارها وسائل للتواصل والانخراط والتفاعل مع مجتمع المعرفة والانفتاح على مختلف الثقافات وعلى حضارة العصر"³⁹².

من أجل رصد وتتبع وتحليل واقع اللغتين الرسميتين للدولة واللغات الأجنبية الأكثر تداولاً وكذلك مختلف التعبيرات الثقافية المغربية، نص الدستور المغربي في فصله الخامس على إحداث مؤسسة دستورية وطنية مستقلة مرجعية في مجال السياسة اللغوية والثقافية في المغرب تدعى المجلس الوطني للغات والثقافة المغربية، تحدد صلاحياته بقانون تنظيمي³⁹³ ويشكل قوة اقتراحية في مجال اللغات والثقافات وصون الحقوق الثقافية

³⁹⁰ - رحمة بورقية، التعدد اللغوي بين السياسي والمجتمعي، مجلة المدرسة المغربية، اللغات في المدرسة المغربية، مرجع سابق، ص 18.

³⁹¹ - المملكة المغربية، الدستور، ظهير شريف رقم 1.11.91 صادر في 29 يوليوز 2011 بتنفيذ نص الدستور، الجريدة الرسمية عدد 5964 مكرر بتاريخ 30 يوليوز 2011، ص 3602.

³⁹² - المرجع نفسه، ص 3602.

³⁹³ - المملكة المغربية، البرلمان، مجلس النواب، مشروع قانون تنظيمي رقم 04.16 يتعلق بالمجلس الوطني للغات والثقافة المغربية (كما وافق عليه مجلس النواب في 10 يونيو 2019) <http://www.chambreconseillers.ma/>

وتأكيد "حماية وتنمية اللغتين العربية والأمازيغية ومختلف التعبيرات الثقافية المغربية باعتبارها تراثا أصيلا وإبداعا معاصرا"³⁹⁴.

يضم المجلس مؤسستين، هما أكاديمية محمد السادس للغة العربية والمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية وثلاث هيئات:

- الهيئة الخاصة بالحسانية واللهجات ومختلف التعبيرات الثقافية المغربية الأخرى.
 - الهيئة الخاصة بالتنمية الثقافية وحفظ التراث.
 - الهيئة الخاصة بتنمية استعمال اللغات الأجنبية الأكثر تداولاً في العالم والترجمة.
- ويؤشر لمحاولة الدستور تحصين القرار السياسي للإصلاح اللغوي واختياراته الاستراتيجية التي باتت ضرورة ملحة أكثر من أي زمن مضى في عصر عولمة الثقافة واللسان وتشظي الهوية واقتصاد السوق.

في حقل التربية والتعليم، وتثمينا للتعدد اللغوي وتنويع العرض اللغوي بالمدرسة الوطنية المغربية، سعت السياسة التعليمية اللغوية المعبر عنها في الميثاق الوطني للتربية والتكوين - الوثيقة التي تعد تاريخية بالنظر لمحطات إصلاح التعليم بالمغرب - إلى تعزيز وتجديد تعليم اللغة العربية واستعمالها في مختلف مجالات العلم والحياة وإدماج تدريجي للغة الأمازيغية والانفتاح على اللغات الأجنبية في سن مبكرة وملائمة وامتلاك ناصيتها فيما بعد، بقدر ما تسمح به الموارد البشرية والبيداغوجية الضرورية ابتداء من الدخول المدرسي 2000-2001، على أن يتم اتباع التوجيهات الآتية بصفة تدريجية:

- "يُدرج تعليم اللغة الأجنبية الأولى في السنة الثانية من السلك الأول للمدرسة الابتدائية مع التركيز خلال هذه السنة على الاستئناس بالسمع والنطق؛
- يُدرج تعليم اللغة الأجنبية الثانية ابتداء من السنة الخامسة من المدرسة الابتدائية، مع التركيز خلال هذه السنة على الاستئناس بالسمع والنطق؛
- يدعم تعليم كل لغة أجنبية باستعمالها في تلقين وحدات أو مجزوءات ثقافية، تكنولوجية، أو علمية تسمح بالاستعمال الوظيفي للغة والتمرن على التواصل بها وبالتالي

³⁹⁴ - المملكة المغربية، الدستور، مرجع سابق، ص 3602.

توطيد كفايات التعبير اللغوي نفسه وإتقانها باستمرار وذلك داخل الحصص المخصصة للغة المعنية؛

- تحدث الجامعات ومؤسسات التعليم العالي بصفة ممنهجة دروسا لاستدراك تعلم اللغات، بما فيها العربية، مقرونة بوحداث أو مجزوءات علمية وتكنولوجية وثقافية تستهدف إعطاء تعلم اللغات طابعه الوظيفي؛
- يتم الرفع من مستوى تكوين مدرسي اللغات بصفة منهجية ومبرمجة، وكذا إجراء تقويم منتظم لحصيلة المكتسبات اللغوية؛
- يبلور تصميم عشري لتنمية تدريس اللغات الأجنبية قبل شهر يونيو لسنة 2000³⁹⁵.

الحصيلة أن الميثاق لم يحقق مبتغاه من التوصيات السالفة الذكر وتعثّر زمن الاصلاح لسنوات، فرغم تنصيب المادة 117 من الميثاق الوطني بصريح العبارة على تقوية تعلم وإتقان اللغات الأجنبية منذ سنوات التعليم الأولى لم يتحقق إدراج تعليم اللغة الأجنبية الأولى (الفرنسية) في السنة الأولى من السلك الابتدائي إلا سنة 2018 ولم يتحقق إدراج تعليم اللغة الأجنبية الثانية (الانجليزية) ابتداء من السنة الخامسة من التعليم الابتدائي، إلى يومنا هذا في التعليم العمومي، أما التعليم الخاص فقد حقق قفزة نوعية في تدريس اللغات الأجنبية انطلاقا من سنوات التعليم الأولى منذ زمن ما قبل الميثاق.

لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، كان لابد من التخطيط لإصلاح شامل أسفر عن مشروع الرؤية الاستراتيجية لإصلاح المنظومة 2015-2030 التي أصدرها المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي واختار لها شعار من أجل مدرسة الانصاف والجودة والارتقاء أقرت بالتعدد اللغوي وتمكين الشباب من اللغات وتطوير قدراتهم على التعبير والتواصل في مشروع حدد للمدرسة خمس وظائف من بينها التثقيف والتربية على القيم في بعديها الوطني والكوني³⁹⁶ وثلاثة مرتكزات، اثنان منها يخصان حضور اللغتين الوطنيتين الرسميتين وإرساء تعددية لغوية تدريجية ومتوازنة.

³⁹⁵ - المملكة المغربية، الميثاق الوطني للتربية والتكوين، مرجع سابق، ص 39.

³⁹⁶ - المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، الرؤية الاستراتيجية للإصلاح، مرجع سابق، ص 11.

بغاية مؤسسة الإصلاح وضمان إلزاميته واستمراريته، تم تحويل الاختيارات الكبرى الواردة في الرؤية الاستراتيجية لإصلاح المنظومة التعليمية والتكوينية إلى قانون إطار 51.17 بمثابة تعاهد وطني وتشريعي ملزم للجميع، يعزز السياسة اللغوية والوظيفية الثقافية للمدرسة والجامعة المغربية وبدا التعدد اللغوي منصوصا عليه في المادة الثانية من الباب الأول وفق مفهوم التناوب اللغوي الذي نص عليه القانون الإطار باعتباره "مقاربة بيداغوجية وخيار تربوي يُستثمر في التعليم المزدوج أو المتعدد اللغات، بهدف تنويع لغات التدريس إلى جانب اللغتين الرسميتين للدولة وذلك بتعليم بعض المواد ولاسيما العلمية والتقنية منها أو بعض المضامين أو المجزوءات في بعض المواد بلغة أو بلغات أجنبية"³⁹⁷ وحددت المادة الثالثة من بين أهداف منظومة التربية والتكوين:

- "اكتساب المتعلم المهارات والكفايات اللازمة التي تمكنه من الانفتاح والاندماج في الحياة العملية والمشاركة الفاعلة.
- الانخراط في مجتمع المعرفة والتواصل.
- اعتماد هندسة لغوية منسجمة في مختلف مستويات منظومة التربية والتكوين والبحث العلمي ومكوناتها وذلك بهدف تنمية قدرات المتعلم على التواصل وانفتاحه على مختلف الثقافات"³⁹⁸.

واستند القانون الإطار لتحقيق هذه الأهداف على مبادئ ومرتكزات حددتها المادة الرابعة من الباب الثاني في "الهوية الوطنية الموحدة المتعددة المكونات والمبنية على تعزيز الانتماء إلى الأمة وعلى قيم الانفتاح والاعتدال والتسامح والحوار والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية"³⁹⁹ ووظائف الاندماج الثقافي للمتعلم وتفاعله الإيجابي مع محيطه عبر إدماج البعد الثقافي في البرامج والمناهج والتكوينات والوسائط التعليمية، بما يكفل تعريف الأجيال القادمة بالموروث الثقافي الوطني وتنميته والانفتاح على الثقافات الأخرى.

³⁹⁷ - ظهير شريف رقم 1.19.113 صادر بتاريخ 9 غشت 2019 بتنفيذ القانون الإطار 51.17 المتعلق بمنظومة التربية والتكوين والبحث العلمي الجريدة الرسمية عدد 6805 بتاريخ 19 غشت 2019، ص 5624.

³⁹⁸ - المرجع نفسه، ص 5625.

³⁹⁹ - المرجع نفسه، ص 5625.

ومن تم، يرتئي مهندسو القانون الإطار - المادة 31 من الباب الخامس- أن تركز الهندسة اللغوية المعتمدة في المناهج والبرامج التعليمية على:

■ "اعطاء الأولوية للدور الوظيفي للغات المعتمدة في المدرسة وتمكين المتعلم من اكتساب المعارف والكفايات وتحقيق انفتاحه على محيطه المحلي والكوني وضمان اندماجه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والقيمي.

■ ارساء تعددية لغوية بكيفية تدريجية ومتوازية تهدف إلى جعل المتعلم الحاصل على البكالوريا متقنا للغتين العربية والأمازيغية ومتمكنا من لغتين أجنبيتين على الأقل.

■ العمل على تهيئة المتعلمين من أجل تمكينهم من إتقان اللغات الأجنبية في سن مبكرة وتأهيلهم قصد التملك الوظيفي لهذه اللغات.

■ ادراج التكوين باللغة الانجليزية في تخصصات وشعب التكوين المهني إلى جانب اللغات المعتمدة في التكوين.

■ تمكين أطر التدريس والتكوين والبحث من اكتساب كفايات لغوية متعددة⁴⁰⁰.

إلى جانب إشكالية تمويل المنظومة، كانت أغلب الانتقادات الموجهة لهذا القانون تتوجه للجانب الهوياتي اللغوي حيث أثارت مسألة إعمال مبدأ التناوب اللغوي من خلال تدريس بعض المواد، ولا سيما العلمية والتقنية منها بلغة أو لغات أجنبية في السلك الثانوي، جدلا لم ينته بعد.

إن الخطابات التي تواكب التعدد اللغوي في المنظومة التعليمية والتي يقودها مفكرون ومتقنون وإعلاميون وفاعلون من المجتمع المدني تتخذ شكل الصراع وتعكس التفكير في اللغة من منطلق الهوية الذي لا يؤدي إلا إلى الصراع والانعكاسات السلبية على التعليم وتكوين الكفاءات وإنتاج المعرفة. يمكن تصنيف هذه الخطابات في اتجاهين، الاتجاه الأول مؤيد لإدخال اللغات الأجنبية كلغات للتدريس، ينطلق من قصور اللغة العربية في احتواء العلوم وحقيقة فشل تعريب التعليم والعلوم كثورة ملتعبة من الشعارات البراقة تروجها الدوريات والمؤتمرات والندوات العلمية باعتبار اللغة العربية تجر ذبول الهزيمة ويعتبر أصحاب هذا الموقف أزمة اللغة العربية وتحدياتها المصيرية انعكاسا لحالة الانكسار الحضاري وتخلف العالم العربي في مجالات العلم والتكنولوجيا والاقتصاد

⁴⁰⁰ - ظهير شريف رقم 1.19.113 بتنفيذ القانون الإطار 51.17 المتعلق بمنظومة التربية والتكوين والبحث العلمي، مرجع سابق، ص 5631.

و... في مواجهة لغات أخرى بسطت نفوذها تاريخيا أو اقتصاديا أو علميا وتقنيا، حيث "الناس عادة ما يفضلون تعلم لغة أعلى مستوى في الترتيبية اللغوية من لغتهم الأصلية وهذا بدوره يعزز الطبيعة الترتيبية للنظام العالمي للغة وإذا حدث واكتسب المتحدثون باللغة الأم لغة ثانية، فمن المؤلف أن يكتسبوا اللغة الأوسع انتشارا والأعلى في الترتيبية اللغوية"⁴⁰¹ وغالبا ما تكون تلك اللغة قد فرضها الاستعمار واستمرت بعد الاستقلال في الإدارة والاقتصاد والتعليم العالي.

والاتجاه الثاني يناهض هذا المشروع ويرى أن المدرسة المغربية تحت سيطرة اللغات الأجنبية، خاصة اللغتين الفرنسية والإنجليزية، اللتين بدأتا تتحولان إلى لغات معتمدة للتعليم في مؤسسات التعليم المدرسي والتعليم الجامعي ولديه رغبة جامحة في الاحتفاظ باللغة العربية كلغة لتدريس جميع المواد واستكمال مشروع التعريب في التعليم العالي والاستفادة من اللغات ليس من باب لغات التدريس وإنما من باب تدريس اللغات والانفتاح على بقية الثقافات عن طريق الترجمة كما فعلت الحضارة الإسلامية قديما واليابان حديثا. أصحاب هذا الموقف يرون أن فشل المنظومة لا يمكن أن يختزل في لغة التدريس فقط، بل سؤال اشكالي يلامس جميع مكوناتها واستراتيجيات اصلاحها، ليبقى "النقاش العام حول تدبير التعدد اللغوي لا يعرقل التربية والتكوين وما يواكبه من دراسات وأبحاث وكذا التفاوض حول ذلك التدبير هو أيضا وجه من أوجه العمل بالمبدأ الديموقراطي والذي يمكن الدولة من القيام بدورها التدبيري والتخطيطي"⁴⁰².

في قراءتنا للموقفين، نعتقد أن هذا الجدل اتخذ بعد سياسيا وليس تربويا أكاديميا ينحصر في دراسة الجدوى والمقاربات العلمية الواجب اعتمادها وكيفية دراسة أثر الاختيارات اللغوية في علاقتها بالنظام اللغوي العالمي. ما من أحد إلا ويعلم علم اليقين أن اشكالات المنظومة تتجاوز فعلا الوضع اللغوي إلى اشكالات أكثر عمقا وتراكما عبر زمن الإصلاح، اشكالات ترتبط بالحكمة والنجاعة والتمويل وتتقاطع مع الرهانات السياسية

⁴⁰¹ - أبرام دو سوان، كلمات العالم منظومة اللغات الكونية، ترجمة صديق محمد جوهري، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، الطبعة الأولى،

2011، ص 19.

⁴⁰² - رحمة بوقرية، التعدد اللغوي بين السياسي والمجتمعي، مجلة المدرسة المغربية، اللغات في المدرسة المغربية، مرجع سابق، ص 36.

والعديد من العوامل السوسيو - ثقافية والسوسيو - اقتصادية وأكبر من طموحات تيار ثالث برز في السنوات الأخيرة يطالب باستعمال اللسان الدارج لغة للتدريس.

أما ما يتعلق بحضور اللغة الفرنسية - تاريخيا وعبر الاستعمار منذ سنة 1912 - كلغة للأطر العليا والنخبة الثقافية ومَعبر الولوج للحياة العملية، محتلة لمواقع متقدمة في المشهد اللغوي المغربي في المجالات المعرفية والثقافية والاقتصادية ببلادنا لأن "النخبة المكونة من الذين درسوا بالفرنسية من خريجي الجامعات المغربية وخريجي مدارس المهندسين والبعثة الفرنسية والجامعات الفرنسية حملوا الفرنسية إلى مجالات الأعمال والاقتصاد وجعلوها علامة على التميز الاجتماعي"⁴⁰³ في وضع أعلى من اللغات الأخرى ومزاحما للغتين العربية والأمازيغية كمشوش على الهوية - قد تترتب عليه آثارا سلبية - ومكلف اقتصاديا. من حقنا أن نتبين كيف يمكن عد اللغة الفرنسية لغة انفتاح وتواصل وهي مُدمجة في منهاج التعليم الأولي والابتدائي؟ كمرحلة تربوية يجب التركيز في أنشطتها على اللغة الأم، أم يتعلق الأمر بترسيم اللغة الفرنسية كواقع على حساب اللغات الوطنية المغربية، حيث "تعتبر اللغة الفرنسية في المغرب من أكثر اللغات طلبا في السوق اللغوية المغربية ومن مظاهر ذلك: ارتفاع نسبة الطلب على مدارس البعثات الفرنسية"⁴⁰⁴ وهنا من حقنا أيضا توجيه أصابع الاتهام للفرنكوفونية كإيديولوجيا وأداة للهيمنة وهدم لمجتمع وقيمه أو بتعبير الطاهر بنجلون في حوار مع جريدة «le monde» بتاريخ 8 فبراير 1997 وهو يتحسر على خدماته الجليلة لها "لعله من الأفضل أن نقول الأشياء على نحو كلبى cynisme avec فنؤكد أن هذه الحكاية الفرنكوفونية ليست سوى أداة أو لعبة سياسية تضمن لفرنسا مصالحها الاقتصادية"⁴⁰⁵.

بيد أننا في سياق لغوي عالمي تعرف فيه اللغة الفرنسية تراجعاً ملحوظاً وتعاني من اكتساح اللغة الإنجليزية في عقر دارها وقد أثار هذا الأمر منذ زمان مثقفون فرنسيون وتتعالى أصوات مفكرين مغاربة تدعو إلى "تدريس الإنجليزية كلغة ثانية باعتبارها لغة دولية (الاسبراتو) للحضارة التقنية والعالمية، ثم الفرنسية أو الإسبانية أو الألمانية أو

⁴⁰³ - المرجع نفسه، ص 34.

⁴⁰⁴ - محمد نافع العشري، السوق اللغوية المغربية، دار كتوبيا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2019، ص 241.

⁴⁰⁵ - بيير بورديو، السوق اللغوية، ترجمة حسن احجيج، مجلة فكر ونقد، عدد 20، 1999، ص 140.

الإيطالية كلغة ثالثة بحسب الاختيار⁴⁰⁶ وتجعلنا نتساءل: أليس الانفتاح على اللغة الإنجليزية واللغة الصينية ومنحهما الأولوية خيارا استراتيجيا؟ على افتراض أننا لا نخضع لوصاية ثقافية أو لغوية معينة ولا يتطلب أمر انخراطنا في الحداثة أو ما بعدها تنازلا عن لغتنا الأم، كانت عربية أم أمازيغية أم حسانية.

يبدو أن هذا الموضوع تتحكم فيه أسئلة عديدة من قبيل: هل من حقنا البحث عن أفضل اللغات للارتقاء بالبحث العلمي وتحقيق تقدم حضاري بتعليم جيد؟ وأي لغة أو لغات تلزم لبناء حضاري ومواكبة العصر؟ هل من الضروري أن تحمل لغات التعليم أبعادا حضارية أم تكفينا لغاتنا الوطنية للحفاظ على الموروث الثقافي دون أي إشعاع حضاري؟ هل وضعنا ووعينا اللغوي متأخر أم مواكب لعصر العولمة والنظام اللغوي العالمي؟ وهل يسمح أو لا يسمح بالتحديث؟ تساؤلات تظل مفتوحة على آفاق للتأمل والتنظير والبحث العلمي، لدراسة متطلبات ورهانات سوق اللغات عالميا ومحليا.

إن أثر الاستعمار والارتباطات التاريخية والاقتصادية والمعاملات التجارية والمالية ومتطلبات التحصيل العلمي والتواصل الحضاري هي متغيرات السوق اللغوية العالمية التي تفسر القيمة التي تحظى بها لغة ما في سوق معينة. الأمر الذي ينطبق على السوق اللغوية المغربية فيما يتعلق باللغة الفرنسية حالا واللغة الانجليزية - لغة الاتصال العالمي - حالا ومستقبلا ويرجع مفهوم السوق اللغوية Le marché linguistique إلى عالم الاجتماع الفرنسي Pierre BOURDIEU الذي طرحه للتداول في مجال علم الاجتماع اللغوي عندما "ينتج شخص ما خطابا موجها لمتلقين قادرين على تقييمه وتقديره ومنحه سعرا معيناً"⁴⁰⁷، مع الاقرار بحق كل لغة في الوجود وتقدير وضعها الاعتباري والاجتماعي والوظيفي في مجتمعها المحلي وفي دائرة التعدد اللغوي العالمي، سواء كان هذا الوضع قويا أو ضعيفا.

إذا جاز لنا القول أن تعلم اللغات الأجنبية حاجة اقتصادية ملحة وسلعة في مجال الأعمال التجارية والصناعات الثقافية، خير مثال امتلاك رؤّاد الأعمال وممثلو الشركات

⁴⁰⁶ - عبد الكبير الخطيبي، المغرب العربي وقضايا الحداثة، ترجمة أدونيس وآخرون، منشورات الجمل، بيروت، 2009، ص 19.

⁴⁰⁷ - عبد الكبير الخطيبي، المغرب العربي وقضايا الحداثة، مرجع سابق، ص 23-24.

المتعددة الجنسيات عدة لغات في تواصلهم، يتضح لنا جليا أن موضوع التعدد اللغوي له بعد اقتصادي إلى جانب الأبعاد السياسية واللسانية والتعليمية، فالعلاقة بين اللغة والاقتصاد تثير الانتباه منذ زمن وخصصت لها الكثير من الجامعات الدولية مراكز للبحث وكراسي علمية وشُيّدت الأكاديميات والمعاهد والمجمعات اللغوية وازدادت كلفة التعددية اللغوية في الإنفاق العام والخاص في مجال تعليم وتعلم اللغات، سواء اللغة الأم أو اللغات الأجنبية ومن البديهي أن للتعدد اللغوي كلفة وثمنا وتأثيرا على النمو الاقتصادي وأن للعوامل الاقتصادية علاقة بالاختيارات اللغوية وتوظيفها الاجتماعي والفرد في عصر الهيمنة على السوق الدولية للأفكار وطرائق العيش والتفكير وكل الأبعاد الثقافية، إذ تخضع الثقافة واللغة للتعميم والانتشار بنفس الطريقة التي يتم بها تعميم وانتشار البضائع التجارية.

نختم بالقول، إذا كانت العولمة الثقافية أنتجت كوكبا تختلط فيه الثقافات وتتقارب وتتصارع، على غرار ذلك، العولمة اللغوية أنتجت كوكبا تختلف فيه اللغات وتتعايش وتتنافس وتكتشف أنماطا أخرى للتعبير والتواصل، الحل في سلم لغوي داخلي بين اللغات الوطنية على اعتقاد "بأن السلم المدني والاجتماعي يمر عبر السلم اللغوي عن طريق حرية التواصل بين السكان ووسائل تعبيرهم. وهذا جلي بالنسبة لكل عقل يفكر في العنف والتسامح ... أضف إلى أن هذا السلم كفيل بأن يمرسنا على لغات أخرى، أي على طرق أخرى لتسمية العالم وإغناؤه"⁴⁰⁸. نتوق لسلم لغوي آخر يوازن بين لغات الهوية ولغات الانفتاح يقوم على إعادة الاعتبار إلى اللغات الوطنية باعتبارها حاملة للمرجعية التاريخية والثقافية والانفتاح على لغات أكثر انتشارا في العالم، تؤهلنا لمواجهة نظام العولمة على المستويين الثقافي واللغوي. نؤكد أننا لا نتفق مع القول بأن المجتمع المغربي يعيش حالة من الفوضى اللغوية يُخشى أن تنعكس على الهوية الوطنية. على العكس من ذلك، المغاربة يتعاملون مع اللغات الأجنبية بنوع من «البراغماتية» المباشرة والعملية، خير مثال على ذلك النجاح الملحوظ الذي يحققه خريجو المنظومة التعليمية المغربية في الجامعات الأوروبية وفي مختلف التخصصات العلمية والأدبية.

408 - عبد الكبير الخطيبي، المغرب العربي وقضايا الحداثة، مرجع سابق، ص 19.

في نفس المقام، ننادي بتعدد لغوي وثقافي حقيقي لا يرهن الشخصية الوطنية في وعاء لغوي تتصارع فيه اللغات وتقضي إحداهما الأخرى، بل تعدد بحساب جاري من اللغات، تتشارك فيه اللغات وتتعاون وتسند كل منها الأخرى، تعدد لغوي تحضر فيه اللغات الأم أو اللغات الوطنية باعتبارها لغات الرفع من مستوى المعرفة والاتصال والإدماج ويحضر تعليم اللغات الأجنبية بناء على مدى حضورها العالمي وأهمية موقعنا الجيو - استراتيجي المعروف بتميزه ومتطلبات السوق اللغوية الدولية، كما أن مسار أي إصلاح سواء كان سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو تعليميا لن يمر بدون الفصل في مسألة الهوية اللغوية التي ينبغي أن ترفع إلى مرتبة قضية وطنية استراتيجية أكبر من تصور مهني بيداغوجي أو تخصص لساني أو مزايده سياسية ومطلب حقوقي. على ضوء ما تقدم، ما أبعاد التدبير البيداغوجي للتعدد اللغوي في منظومتنا التربوية؟ أو كيف يتم تعليم وتعلم اللغات في المدرسة الوطنية المغربية؟ بأية نجاعة وخارطة إصلاح؟

ثالثا: التدبير البيداغوجي لتعليم اللغات في المدرسة المغربية: انجازات محققة ورهانات في الانتظار.

بغض النظر عن القول بأن التعددية اللغوية في المغرب ليست نتيجة اختيار وتخطيط، بل أمر مفروض، القناعة السياسية والمجتمعية حاصلة بضرورة تبني التعدد اللغوي وحسم الاختيارات اللغوية في المملكة، اختيارات - وإن كانت تبدو معقدة - رسمها الدستور المغربي والرؤية الاستراتيجية لإصلاح منظومة التربية والتكوين حديثا، يتعين تنظيم وهيكله الحقل اللغوي الوطني في إطار قرارات تربوية تضمن تحديد الوظائف وترسم الحدود بين التشعب بمكونات الهوية الوطنية (متطلبات الهوية) وضمان التقارب الثقافي والتفاعل مع التنوع اللغوي (مستلزمات الانفتاح) والاندماج في الحياة الاجتماعية والثقافية، مع العلم أن الوضع اللغوي في السياسة التعليمية محدد من محددات السياسة اللغوية التي تتبناها الدولة في التعليم إلى جانب الاعلام والاتصال وقطاعات حيوية أخرى.

تعليم اللغات قضية مركزية في كل منظومة تتوخى التربية والتعليم والتدبير البيداغوجي للغات بدوره يُعد موضوع اهتمام وانشغال كل مكونات المجتمع التربوي

ومجال خصب للبحث العلمي والتفكير البيداغوجي، ما فتئت إنتاجاته العلمية تتصدر الدوريات والندوات الفكرية وتظهر بين الفينة والأخرى تطبيقات ديداكتيكية وممارسات بيداغوجية - صفية ورقمية- على مستوى التمكن من الكفايات اللغوية وتقييم مكتسبات التلاميذ. هنا يمكن التساؤل: أي تدبير بيداغوجي لتعليم اللغات في منظومة التربية والتكوين ببلادنا كفيل بجعل الأجيال المتعاقبة متمكنة من القدرات اللغوية تواصلًا وتعبيرًا؟ ما وضع كل لغة وبأي بنىات تنظيمية وآليات مؤسساتية وتعليمية وكفايات تربوية يتم تصريفه؟ هل يحقق تعليم وتعلم اللغات مخرجات ثقافية ذات جودة متوخاة لولوج مجتمع المعرفة وفهم العالم أم سبب من أسباب فشل التحصيل الدراسي وتدني المردودية الخارجية لمنظومتنا التربوية؟ مع التأكيد مسبقًا بصعوبة إنجاز تقييم موضوعي للخيارات اللغوية المعتمدة في المدرسة المغربية في غياب بحوث علمية - على حد علم الباحث- موضوعها دراسة أثر الخيارات اللغوية المعتمدة على حقول الثقافة والتعليم واحترام التنوع ومواجهة العولمة.

وعليه، نتوخى في هذا العمل بسط القول حول مسار تعليم اللغات بمنظومتنا التربوية من حيث الكفايات الأساسية، إيقاعاتها ووعاءها الزمني والمقاربات البيداغوجية المعتمدة في تعليمها وتعلمها، مع تسليط الضوء على مشاريع الإصلاح التي تطل التحصيل الدراسي للغات، فيما يعرف بمشروع تعزيز التحكم في اللغات الأجنبية وتقديم مقترحات عملية للارتقاء بتعليمها.

بداية، لا حاجة للتأكيد أن التعليم في المغرب متعدد اللغات ومنهاج التعليم المدرسي المغربي يضم عرضا بيداغوجيا متنوعا، يشمل تدريس اللغات الرسمية والأجنبية على مدى الأسلاك الثلاث للتعليم المدرسي ومختلف مسالك الاجازة والماستر والدكتوراه في الجامعة المغربية ويحظى تعلمها بإقبال متزايد، رغم الجدل الذي يرافق تدريس المواد العلمية بلغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية فيما يعرف بالباكالوريا الدولية في الثانوي التأهيلي والمسار الدولي في الثانوي الإعدادي وهو في الواقع مسار فرنسي لأنه يقتصر على تدريس المواد العلمية باللغة الفرنسية فقط.

في السلك الابتدائي، تدرس ثلاث لغات: اللغة العربية واللغة الأمازيغية واللغة الفرنسية، إضافة إلى اللغة الإنجليزية في مؤسسات التعليم الخاص بمنهاج دراسي غير رسمي. تستهدف اللغات الثلاثة "تمكين المتعلم من قدرات ومهارات ومعارف وقيم ومواقف متصلة باستعمالات اللغة الشفهية والكتابية من خلال التمكن من مهارات الاستماع والتحدث والقراءة والكتابة"⁴⁰⁹ وتتكامل ضمن تصور لساني وتربوي وتواصلية موحد ومنسجم يتميز بمقومات:

- كفايات موحدة.
- وحدات وتيمات دراسية موحدة تنطلق من ذات المتعلم لتبلغ محيطه وتيمات أخرى أكثر انفتاحا.
- أربع مهارات كبرى هي: الاستماع والتحدث والقراءة والكتابة.

كما يراعي هذا التصور الموحد لتدريس اللغات وتعلمها "الخصوصيات اللسانية والمعجمية والصواتية والدلالية والثقافية والتاريخية والديداكتيكية المتعلقة بالإطار المؤسسي لكل لغة ولأدوارها"⁴¹⁰ وتتخذ الكفايات المراد تحقيقها في هذا السلك بعدين لهما علاقة بموضوع بحثنا:

- "البعد التواصلية: التمكن من اللغة العربية والقدرة على التواصل باللغة الأمازيغية واثقان لغتين أجنبيتين على الأقل والتمكن من أنواع الخطاب (الأدبي والعلمي والفني والرقمي..) المتداولة في المؤسسة التعليمية وفي محيط المجتمع والبيئة.
- البعد الثقافي: الجانب الرمزي المرتبط بتنمية الرصيد الثقافي للمتعلم وتوسيع دائرة إحساساته وتصورات ورؤيته للعالم وللحضارة البشرية بتناغم مع تفتح شخصيته بكل مكوناتها وبتروسيخ هويته من حيث هو مواطن مغربي وإنسان منسجم مع ذاته ومع بيئته ومع العالم"⁴¹¹. على مدى ست سنوات من التحصيل الدراسي، يدرس التلميذ

⁴⁰⁹ - وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مديرية المناهج، مستجدات المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي، طبعة ماي 2019، ص 27.

⁴¹⁰ - المرجع نفسه، ص 28.

⁴¹¹ - وثيقة مستجدات المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي، مرجع سابق، ص 24.

المغربي اللغة العربية في فترة زمنية تقدر ب 510 ساعة واللغة الأمازيغية في 612 ساعة واللغة الفرنسية في 306 ساعة، كما يوضح ذلك الجدول التالي:

اللغات	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة	السنة السادسة
اللغة العربية	340	306	272	221	204	204
اللغة الأمازيغية	102	102	102	102	102	102
اللغة الفرنسية	136	170	204	204	204	204
اللغة الإنجليزية	تدرس بمؤسسات التعليم الخصوصي بمنهاج دراسي غير رسمي.					

عدد الساعات السنوية لتدريس اللغات بالسلك الابتدائي⁴¹²

لا يسعنا إلا الإقرار بكفاية زمن تعلم اللغات بهذا السلك وضرورة البحث عن أفضل المقاربات والطرق البيداغوجية لتعليم وتعلم اللغات وتفعيل التوصيات البيداغوجية المطالبة بتكامل اللغات "ضمن تصور لساني وتربوي وتواصلية موحد ومنسجم يتميز بالمقومات الآتية:

- كفايات موحدة ومكونات دراسية موحدة تتمحور حول أربع مهارات كبرى هي: الاستماع والتحدث والقراءة والكتابة؛
- أهداف وقدرات ومهارات تواصلية موحدة⁴¹³.

إضافة إلى مراعاة التصور الموحد لتدريس اللغات وتعلمها، يجب اعتبار الخصوصيات اللسانية والمعجمية والدلالية والثقافية والديداكتيكية المتعلقة بالإطار المؤسسي لكل لغة وإعطاء الأولوية للمهارات المنهجية وتنمية القدرات العقلية التي تمكّن من تعلم كيفية التعلم والتفكير النقدي من خلال التساؤل والتقصي وحل المشكلات، التصور الذي يقودنا إلى تجاوز الكتب المدرسية والحوامل البيداغوجية الحالية والتي يتبين وهنّها بالمقارنة مع كتب اللغات المتوفرة في التعليم الخاص ومراكز تعليم اللغات.

في السلك الثانوي الإعدادي، المرحلة الوسطى من التعلم، يبتغي منهاج اللغات مواصفات⁴¹⁴ مرتبطة بالكفايات والمضامين والقيم والمقاييس الاجتماعية في مخرجات

⁴¹² - تم تجميع هذه المعطيات من وثيقة مستجدات المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي والدلائل المرجعية للمواد الدراسية الصادرة عن وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي.

⁴¹³ - وثيقة مستجدات المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي، مرجع سابق، ص 27.

التعليم، تتمثل في الانفتاح على مكاسب ومنجزات الحضارة الإنسانية المعاصرة والتمكن من تداول اللغات الأجنبية وترويج رصيد ثقافي ينمي احساس المتعلم ورؤيته لذاته وللآخر. يتم التركيز على الجوانب التواصلية في مستوى متقدم من التمكن في "اقتان اللغة العربية وتخصيص الحيز المناسب للغة الامازيغية والتمكن من اللغات الأجنبية والتمكن من مختلف أنواع التواصل داخل المؤسسة وخارجها"⁴¹⁵ وعلى الجوانب المنهجية والاستراتيجية والثقافية، عبر "تنمية الرصيد الثقافي للمتعلم وتوسيع دائرة إحساساته وتصورات ورؤيته للعالم وللحضارة البشرية بتناغم مع تفتح شخصيته بكل مكوناتها. وبترسخ هويته كمواطن مغربي وكنسان منسجم مع ذاته ومع بيئته ومع العلم"⁴¹⁶، متشبع بروح الحوار والتسامح وقبول الاختلاف.

بشكل معمم، يتم تدريس اللغة العربية والفرنسية وبشكل غير معمم نجد الإنجليزية والإسبانية والإيطالية والألمانية. اللغة الانجليزية "لتمكين المتعلمين من التعرف على اسهامات وفوائد الحضارات البشرية وتطوير معرفتهم وفهمهم وتقديرهم لثقافتهم وثقافات الآخرين، وكيف تؤثر على الأفراد والمجتمعات"⁴¹⁷ ويهدف تدريس اللغة الألمانية إلى إغناء رصيد المتعلم الثقافي والمعرفي وجعله يميز بين ثقافته والثقافة الألمانية بكل مقوماتها الحضارية، مما يرسخ لديه القيم الدينية والخلقية والإنسانية ويشبعه بروح التسامح والنزاهة وقبول الآخر"⁴¹⁸ ويرمي تدريس اللغة الإيطالية إلى تمكين المتعلم من "استعمال هذه اللغة استعمالا شفويا وكتابيا في وضعيات تواصلية ترتبط أساسا بذاته وبعلاقته مع محيطه المباشر وتقربه من جوانب الواقع الثقافي بإيطاليا بحيث يتم ربط القيم والمضامين والمهارات بالسياق السوسيوثقافي للمتعلم"⁴¹⁹ ويسهم تعلم اللغة الإسبانية في "منح القدرة على التواصل بلغة جديدة،... يسمح بالاكشاف والتعلم والتفاعل مع ثقافات

⁴¹⁴ - وزارة التربية الوطنية، الكتاب الأبيض، الجزء الثالث، البرامج والتوجيهات الخاصة بالسلك الاعادي ، ص 1.

⁴¹⁵ - وزارة التربية الوطنية، الكتاب الأبيض، الجزء الأول، الاختيارات والتوجهات التربوية العامة المعتمدة في مراجعة المناهج التربوية، ص 13.

⁴¹⁶ - المرجع نفسه، ص 13.

⁴¹⁷ - وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الاطر والبحث العلمي، مديرية المناهج والحياة المدرسية، البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة اللغة الإنجليزية بسلك التعليم الثانوي الاعادي، السنة الثالثة، 2009، ص 11.

⁴¹⁸ - وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الاطر والبحث العلمي، مديرية المناهج والحياة المدرسية، البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة اللغة الألمانية بسلك التعليم الثانوي الاعادي، السنة الثالثة، 2009، ص 24.

⁴¹⁹ - وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الاطر والبحث العلمي، مديرية المناهج والحياة المدرسية، البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة اللغة الإيطالية بسلك التعليم الثانوي الاعادي، السنة الثالثة، 2009، ص 11.

جديدة مختلفة، وبالتالي تفضيل المواقف الإيجابية وقيم التقدير واحترام نماذج الفكر والحياة المختلفة وقبول الاختلافات. وأخيراً، يمنح إمكانية التباين بين الثقافة الأصل وثقافة اللغة التي يتعلمها"⁴²⁰.

يستمر تعلم وتعليم اللغات في السلك الاعدادي وفق الوعاء الزمني الوارد في الجدول أسفله والذي يتبين من معطياته تقدم اللغة الفرنسية على باقي اللغات الأجنبية - رغم وزن بعضها في التواصل الحضاري- واستفادتها من نفس الوعاء الزمني المخصص للغة العربية، في غياب اللغة الأمازيغية.

اللغات	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	المجموع
اللغة العربية	136	136	136	408
اللغة الفرنسية	136	136	136	408
اللغة الانجليزية			68	68
اللغة الألمانية			68	68
اللغة الإيطالية			68	68
اللغة الإسبانية			68	68

عدد الساعات السنوية لتدريس اللغات بالسلك الثانوي الاعدادي⁴²¹

بالنظر إلى الاستعمال الوظيفي للغة، المقاربة التواصلية هي المقاربة البيداغوجية المتوسل بها في تعليم اللغات الأجنبية في السلك الاعدادي، حيث المهارات التواصلية المستهدفة في هذا السلك - التي تمثل الدعامات الأساسية لتدريس اللغات- تتلخص في فهم النصوص المسموعة، التعبير الشفهي، فهم النصوص المقروءة، التعبير الكتابي.

في السلك الثانوي التأهيلي، حسب الوثائق الرسمية للوزارة الوصية، يتم إيلاء الأهمية للغات "باعتبارها الأداة الأساس في التعرف على الثقافة واكتساب المعارف حول أنماطها الأدبية، وكذا نظرا لما تمليه مستجدات الحياة الاجتماعية التي أصبحت تستلزم إتقان اللغة العربية واللغات الأجنبية لتحقيق تواصل أمثل مع العالم الخارجي في مده

⁴²⁰ - وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، مديرية المناهج والحياة المدرسية، البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة اللغة الإسبانية بسلك التعليم الثانوي الاعدادي، السنة الثالثة، ص15.

⁴²¹ - تم تجميع هذه المعطيات من المذكرات الوزارية المنظمة لتدريس المواد الدراسية والصادرة عن وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي.

الحضاري والعلمي"⁴²² إضافة إلى "تمكين التلاميذ من الاطلاع على تراث الثقافة العربية من أجل تنمية الهوية الوطنية والقومية، وعلى القضايا الثقافية المعاصرة التي تواجه الإنسان العربي حتى ينفتح عليها بصورة إيجابية"⁴²³.

القطب	التعليم الأصلي ⁴²⁴				التكنولوجيات ⁴²⁵				العلوم ⁴²⁶				الآداب والإنسانيات ⁴²⁷			
اللغات	العربية	الفرنسية	الإنجليزية	الاسبانية	العربية	الفرنسية	الإنجليزية	الاسبانية	العربية	الفرنسية	الإنجليزية	الاسبانية	العربية	الفرنسية	الإنجليزية	الاسبانية
عدد الساعات	300	150	150	150	150	150	150	150	150	300	300	300	300	300	300	300

عدد الساعات السنوية لتدريس اللغات بالسلك الثانوي التأهيلي

في اللغة العربية، برنامج التعليم الثانوي التأهيلي يستهدف مداخل عامة تتضمن مفاهيم: الأدب والثقافة واللغة وأنواع الخطاب الواسف (الأدبي/العلمي/الإشهاري/الفكري- الحجابي). نشك، بعد الاطلاع على مضمونها، أن تسهم في تطوير أساليب التواصل والحوار مع الثقافات والحضارات الأخرى. في اللغة الفرنسية، المنهاج المعتمد منذ سنة 2002 وُحد تدريس اللغة الفرنسية بين مختلف الشعب سواء كانت أدبية أو علمية أو تقنية، الأمر الذي نعتبره إيجابياً رغم اختلاف مسالك وشعب البكالوريا، وادعى مهندسو منهاج المادة في الكتاب الأبيض (اللجنة المشتركة والمتعددة التخصصات) تفضيل الكفايات المنهجية التواصلية والمنهجية والتكنولوجية⁴²⁸ وتوافق عناصر منهاج اللغة الفرنسية مع هذا التصور البيداغوجي، على أن يكون التلميذ من حيث المبدأ قادراً بالفعل على التعبير عن نفسه بشكل صحيح وفعال في وضعيات تواصلية معقدة واكتساب معارف جديدة في مجالات اللغة الوظيفية والأدب. إلا أنه خال من كل

⁴²²- الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب الآداب والإنسانيات، الجزء الخامس، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، 2002، ص 2.

⁴²³ - المرجع نفسه، ص 23.

⁴²⁴ - الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب التعليم الأصيل، الجزء الخامس، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، 2002، ص 2.

425- الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب التكنولوجيات، الجزء الثامن، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، 2002، ص 1.

426- الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب العلوم، الجزء السابع، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، 2002، ص 2.

427- الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب الآداب والإنسانيات، الجزء الخامس، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، 2002، ص 3.

⁴²⁸ - الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب الآداب والإنسانيات، مرجع سابق، ص 77.

إشكالات وأبعاد التواصل الحضاري وحوار الثقافات، رغم التصريح ضمن كفايات المادة بخدمتها "الانفتاح على الثقافات الأخرى من خلال الأنواع الأدبية ذات الطابع العالمي"⁴²⁹ بل يطغى عليه حضور المادة الأدبية (تعميق المعرفة حول الأجناس الأدبية) والاقتصار على تطوير الاتصال الشفهي⁴³⁰ واستقبال وإنتاج رسائل شفوية وكتابية بمهارات تواصلية (عرض/ مناقشة/ مناظرة) في سياقات مدرسية بسيطة.

في اللغة الإسبانية نلمس حضور الكفاية اللغوية الاجتماعية التي "تشير إلى القدرة على تكييف اللغة مع السياق الاجتماعي الذي يحدث فيه الاتصال والذي يتضمن نوع العلاقة بين المحاورين والمعلومات التي يشاركونها والنية التواصلية لتفاعلهم"⁴³¹ وتضمن هدف التضامن والسلوك المتسامح وتقدير الطرق المختلفة لرؤية العالم ضمن الأهداف المتوخاة من تدريس اللغة، في إطار التدريس بالوحدات⁴³² من مثل: «العلاقات بين الناس»؛ «في الماضي: الطفولة، السيرة الذاتية، الأحداث التاريخية»؛ «قيمة الأدب كتعبير جمالي»؛ «السفر والسياحة»؛ «الشباب الحالي والمثل والمشاكل: (القيم والطموحات والصراعات)»؛ «العلاقات الإنسانية (الزواج، الطلاق، وضع المرأة، الشيخوخة)» وملفات من مثل: «العولمة - العلاقات بين الشمال والجنوب»؛ «الحوازر الاجتماعية والاقتصادية (الهجرة والعنصرية وكرهية الأجانب)».

في اللغة الإنجليزية، نلمس تمكين المتعلمين من التعرف على مساهمات وفوائد الحضارات البشرية الحالية و"تحفيزهم على التفاوض والتسامح وقبول الآراء التي تختلف عن آرائهم"⁴³³ في إطار أهداف منهاج يروم "تطوير كفاءة التواصل بين الثقافات، عبر:- الوصول إلى فهم وتقدير مواقف وقيم الثقافات الأخرى؛- النظر في الثقافات الأخرى ومقارنتها بثقافتها الخاصة؛- تنمية الاهتمام بالجوانب عبر الثقافات وطرق أخرى للقيام بالأشياء؛- نقل مخاوفهم الثقافية لمستخدمي اللغة الإنجليزية الآخرين"⁴³⁴ وانتظام

⁴²⁹ - المرجع نفسه، ص 83.

⁴³⁰ - المرجع نفسه، ص 82.

⁴³¹ - الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب الآداب والإنسانيات، منهاج اللغة الإسبانية، مرجع سابق، ص 96.

⁴³² - المرجع نفسه، ص ص 100، 101، 102، 106، 109، 111.

⁴³³ - الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب الآداب والإنسانيات، منهاج اللغة الإنجليزية، مرجع سابق، ص 127.

⁴³⁴ - المرجع نفسه، ص 128.

المضامين المعرفية في 12 وحدة دراسية تطرح مواضيع من بينها "الاختلافات بين الثقافات وبين الثقافات والمعتقدات"⁴³⁵.

في إطار التعاون التربوي المغربي الألماني، وتنفيذا لبرنامج العمل القائم بين الوزارة ومعهد «Goethe» الألماني بالمغرب، يبلغ "عدد المدارس العمومية التي تدرس بها اللغة الألمانية كلغة أجنبية ثانية 209 مؤسسة تعليمية"⁴³⁶ ويصل "عدد التلاميذ الذين يتعلمون اللغة الألمانية بالمغرب نحو 25 ألف تلميذا، 12 ألفا منهم في الثانوي التأهيلي و13 ألفا في الثانوي الإعدادي"⁴³⁷. المفارقة الموجودة في هذا الإطار تتمثل في "التباين ما بين الإقبال على تعلم اللغة الألمانية سواء في معهد غوته أو في المؤسسات الخاصة بتعليم اللغات من جهة، وما بين التراجع الذي يشهده تدريس هذه اللغة بالمؤسسات التعليمية من جهة أخرى"⁴³⁸ والذي يمكن تفسيره بعدم توفر الوزارة على كتاب مدرسي مغربي خاص بتدريس اللغة الألمانية على غرار الكتب المدرسية الخاصة باللغتين الفرنسية والإنجليزية على سبيل المثال.

إن مسألة التنوع اللغوي في المنظومة يحيلنا على سؤال تمكن التلاميذ من الكفايات اللغوية ومدى اتقان اللغات أو بمعنى آخر، أي مردودية لتعليم اللغات في منظومتنا التربوية؟ على مستوى تقييم التعلّيمات في اللغات، من المثير للانتباه والتحليل، أن التلميذ المغربي يجتاز الامتحانات الإشهادية (تتوج بشهادة) في اللغة الأجنبية الأولى، اللغة الفرنسية، في الأسلاك التعليمية الثلاث وبمعامل يفوق معاملات مادة اللغة العربية والمواد المتقاربة معها في الامتحان الجهوي لنيل شهادة البكالوريا وتحضر اللغة الأجنبية الثانية، اللغة الانجليزية، ضمن الامتحانات الوطنية لنيل شهادة البكالوريا في جميع الشعب العلمية والأدبية والتقنية وبمعامل يعادل معامل مادة اللغة العربية.

تستأثر اللغتان العربية والفرنسية في الابتدائي والإعدادي والثانوي بوعاء زمني واف وبموارد مكلفة ومع ذلك، كلنا يعلم أن المستوى اللغوي لأغلبية التلاميذ متواضع

⁴³⁵ - المرجع نفسه، ص 136.

⁴³⁶ - وزارة التربية الوطنية، مائدة مستديرة حول تدريس اللغة الألمانية بالنظام التربوي المغربي، فضاء الشركاء، عدد 156، 2016، ص 3.

⁴³⁷ - المرجع نفسه، ص 1.

⁴³⁸ - المرجع نفسه، ص 3.

جداً، سواء تعلق الأمر باللغة العربية أو اللغة الفرنسية، حقيقة تبرزها العديد من الدراسات والتقارير الوطنية والدولية التي اهتمت بتقييم مستوى تحكم التلاميذ المغاربة في اللغات، علماً أن جزءاً كبيراً من هذه الاكراهات والصعوبات التي يعرفها درس اللغة العربية في المدرسة المغربية بجميع مستوياتها وأسلاكها، يتصل، من جهة بالجانب المنهجي والمهاري المتعلق بطرائق ومنهجيات التدريس - الأساليب التي تخطط وتدبر بها الأنشطة اللغوية الصفية - كفاعل مؤثر في تحقيق النجاح الدراسي في محور تعليم وتعلم اللغات ومن جهة أخرى ارتباط اللغة العربية في مناهجنا الدراسية بكل ما هو تراثي وأدبي وتاريخي، في غياب الرصيد المعرفي المتعلق بمجالات القضايا العالمية والثقافية والحضارات الإنسانية.

في مادة اللغة العربية التي تحظى بموقع متميز بين المواد التعليمية الأخرى، أظهرت نتائج التقرير التحليلي للمجلس الأعلى أن متوسط التحصيل يتراوح لدى أفراد العينة المستهدفة "بين 27% و 36% في التعليم الابتدائي و 42% و 43% في التعليم الثانوي الاعدادي"⁴³⁹ وفي الدراسة الدولية لقياس مدى التقدم في القراءة «PIRLS» لسنة 2016 "حقق 36% بالمائة فقط من طلاب الصف الرابع في المغرب الحد الأدنى من مستويات معرفة القراءة والكتابة"⁴⁴⁰ وكشف تقرير حصيلة البرنامج الوطني لتقييم مكتسبات التلاميذ «PNEA» لسنة 2016 نتائج جد متدنية في المكتسبات اللغوية لكل الجذوع المشتركة، حيث "التعبير والإنشاء يعرف أدنى معدل 19%، وهو المعطى الذي يؤكد نقصاً كبيراً في التعبير الكتابي لدى التلامذة في اللغة العربية في جذع مشترك يؤهل للآداب، ... أما بالنسبة للمكتسبات في اللغة الفرنسية، فإن أغلب تلامذة الجذوع المشتركة "آداب وعلوم إنسانية"، "علوم"، و"أصيل" لم تصل نسبة تحصيلهم إلى 33%"⁴⁴¹. كذلك "لم يتمكن 81% من تلامذة الجذع المشترك "آداب وعلوم إنسانية" من الوصول إلى

⁴³⁹ - المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، التقرير الموضوعاتي لسنة 2009 حول نتائج البرنامج الوطني لتقوية التحصيل الدراسي 2008، التقرير التركيبي، 2009، ص 14.

⁴⁴⁰ - مجموعة البنك الدولي، توقعات وتطلعات إطار جديد للتعليم في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، 2018، ص 10.

(<https://openknowledge.worldbank.org/>)

⁴⁴¹ - البرنامج الوطني لتقييم مكتسبات تلامذة الجذع المشترك، PNEA 2016، التقرير التحليلي، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، 2017، ص 32.

المعدل ويسجل مجال كفاية "الإنتاج الكتابي" في اللغة الفرنسية لدى تلامذة الجذع المشترك الأدبي أدنى حصة بـ 13%⁴⁴².

إن تدني مستوى تحكم التلاميذ في اللغة الفرنسية، خاصة في التعليم العمومي دون التعليم الخاص، مرده انطلاقاً من تجربتنا المهنية إلى ثلاثة عوامل، أولها ضعف جودة مناهجها في التعليم العمومي بالمقارنة مع نظيرتها في التعليم الخاص - يكفي المشكك في هذا الأمر المقارنة بين كتابين مدرسين - وثانيها اختلاف المستوى السوسيو- ثقافي للأسر ومدى علاقته بتحصيل اللغات الأجنبية، وثالثها الكفايات المهنية للمدرسين ومدى انعكاسها على ممارساتهم الصفية ومستوى تمكن التلاميذ. على عكس اللغة الانجليزية التي تحظى بقبول واهتمام خاص، سواء في التعليم العمومي التي ينطلق منهاجها ابتداء من السنة الثالثة اعدادي أو من التعليم الخاص انطلاقاً من سنوات التعليم الأولي.

وبينما يتم قياس التمكن اللغوي في مراكز اللغات الأجنبية التي تعتمد الإطار الأوروبي المرجعي العام للغات، لا تتوفر منظومتنا التعليمية على روائز معيارية لقياس التمكن اللغوي للتلاميذ والطلبة المغاربة في مؤسسات التعليم المدرسي والتعليم الجامعي.. كما تثار التساؤلات حول مدى وأثر تحديث المناهج الدراسية للغات، سواء الوطنية أو الأجنبية، واستجابة القدرات المهنية للمدرسين والمدرسات في الارتقاء بقدرات التمكن اللغوي لدى التلاميذ، حيث الحاجة إلى مناهج للغات متعددة المصادر والأساليب، مرنة ومنفتحة على الثقافات والحاجة أيضاً إلى هندسة بيداغوجية لتعليم اللغات تعتمد مهارات التواصل والفهم والإنتاج، كتابيا وشفهيا، كما تتوسل إلى الوسائط التكنولوجية التفاعلية ومنصات التعليم عن بعد.

أمام هذه الوضعية المقلقة، هل يبدو، في الأفق، أي بوادر إصلاح بيداغوجي شامل يطمح لجعل اللغة العربية قادرة على حمل مضامين معرفية وثقافية تستجيب لمقتضيات مجتمع المعرفة وتحديات العولمة؟ في انتظار إحداث لجنة دائمة تعنى بالتجديد والملاءمة المستمرين لمناهج وبرامج مختلف مكونات منظومة التربية والتكوين، كما ورد في القانون

⁴⁴² - المرجع نفسه، ص 33.

الإطار⁴⁴³. ما هو معلوم حالياً، توجد مشاريع للوزارة الوصية تروم الارتقاء بتعلم اللغات في التعليمين المدرسي والعالي.

في السلك الابتدائي وبتعاون مع فريق الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية «USAID» انطلق سنة 2018 مشروع «القراءة من أجل النجاح»⁴⁴⁴ الذي يستهدف تنقيح برنامج اللغة العربية - الذي عَمَر منذ 2003 - وتجديد المقاربة البيداغوجية المعتمدة في تدريسها، من خلال مدخلي تنمية الرصيد اللغوي عبر توظيف بيداغوجيا الحكاية وتحسين الكفايات التواصلية (خاصة التواصل الشفهي) عبر الوضعية التواصلية، في اتجاه تنمية الكفاية اللغوية "من خلال تنمية أربع مهارات أساسية: فهم المسموع - الانتاج الشفهي - فهم المقروء - الانتاج الكتابي"⁴⁴⁵ والتدرب في السياق المدرسي "على مهارات التواصل الشفهي واستراتيجياته وعلى قواعد التخاطب وآداب الحوار وإبداء الرأي وتقبل الرأي الآخر وحسن الإصغاء وتكييف مضمون الخطاب وأسلوبه بحسب المقام والموقف التواصلية وحسب مكانة المخاطب وأحواله"⁴⁴⁶.

في السلك الثانوي، وضعت الوزارة الوصية على قطاع التعليم مشروعاً لتعزيز التحكم في اللغات الأجنبية، بهدف عام يروم "تحقيق التحكم الفعلي لكل التلاميذ الحاصلين على البكالوريا في لغة أجنبية أولى (اللغة الفرنسية) ومستوى متقدم في لغة أجنبية ثانية (اللغة الانجليزية) واستئناس بلغة أجنبية ثالثة"⁴⁴⁷ وأهداف خاصة⁴⁴⁸ تتلخص في:

■ تحقيق مستوى من الإتقان اللغوي في اللغة الفرنسية عند كل التلاميذ الحاصلين على البكالوريا لا يقل عن B 2 من الإطار الأوروبي المرجعي العام للغات⁴⁴⁹.

⁴⁴³ - القانون الإطار 51.17 المتعلق بمنظومة التربية والتكوين والبحث العلمي، مرجع سابق، ص 5623.

⁴⁴⁴ - <https://aref-fm.men.gov.ma/ar/Pages/DetailActualite.aspx?ActuID=kpS/Xv06IFI=> (Accessed 12/02/2020)

⁴⁴⁵ - عبد اللطيف زماني وآخرون، كتابي في اللغة العربية للسنة الأولى من التعليم الابتدائي، دليل الأستاذ والأستاذة، المكتبة الوراقة الوطنية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2019، ص 6.

⁴⁴⁶ - المصطفى الرشيد وآخرون، واحة الكلمات العربية للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي، دليل الأستاذ والأستاذة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2019، ص 22.

⁴⁴⁷ - وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مذكرة رقم 19*72 صادرة بتاريخ 18 يونيو 2019 في شأن إرساء النظام المعلوماتي رائد لتنفيذ برنامج العمل الملزم به امام صاحب الجلالة، ص 18.

⁴⁴⁸ - المرجع نفسه، ص 18.

⁴⁴⁹ - دليل يستخدم في وصف إنجازات المتعلمين ومدى قدرتك على فهم اللغة أجنبية والتحدث بها، في جميع أنحاء أوروبا وخارجها ويضم ستة مستويات لإتقان لغة أجنبية.

■ تحقيق مستوى من الإتقان اللغوي في اللغة الانجليزية عند كل التلاميذ الحاصلين على البكالوريا لا يقل عن B 1.

■ تحقيق مستوى من الاستئناس اللغوي عند كل التلاميذ الحاصلين على البكالوريا لا يقل عن A 2 في لغة أجنبية ثالثة تكون اختيارية في السلك الثانوي التأهيلي.
اضافة إلى الرفع من القدرات اللغوية لكل مدرسي اللغة الفرنسية بسلكي التعليم الثانوي الذين يقل مستواهم عن C1.

في التعليم العالي وفي إطار التعاون الدولي وتنويع العلاقات الدولية للمغرب، بالإضافة إلى اللغة الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية والبرتغالية التي تدرس كلغات في المسالك المعتمدة بالجامعة المغربية وتتوج بشهادات نظام LMD، توفر كليات الآداب بالجامعات المغربية خدمة تدريس لغات أخرى، نخص بالذكر جامعتين مغربيتين على سبيل المثال لا الحصر، جامعة محمد الخامس التي تحتضن:

■ "اللغة الصينية: يقوم معهد كونفوشيوس بتدريس هذه اللغة لجميع الطلاب والباحثين الذين يرغبون في تعلمها. يوجد المعهد بمقر الكلية.

■ اللغة اليابانية: يتم تدريس اللغة اليابانية في الكلية منذ عام 1997 في إطار الشراكة مع الوكالة اليابانية للتعاون الدولي وبالإضافة إلى تلقين اللغة اليابانية على ثلاثة مستويات مختلفة، تنظم الكلية في هذا السياق أنشطة ثقافية لتعزيز الثقافة اليابانية حسب برنامج يتم تسطيره في بداية كل عام.

■ اللغة الكورية: يتم تدريس هذه اللغة في إطار برنامجين للتعاون: البرنامج الأول يتم بالتعاون مع السفارة الكورية في الرباط والثاني مع الوكالة الكورية للتعاون الدولي.

■ اللغة التركية: يتم تدريس اللغة التركية في بعض المسالك كلغة ثانية. فهي تعتبر عنصرا أساسيا بين مكونات وحدة اللغات الأجنبية التي تدرس كجزء من تكوين "المجتمع الإسلامي والحداثة" على مستوى الماستر. إلا أن تدريس هذه اللغة يبقى مفتوحا للطلاب الراغبين في تعلمها. وقد بدأ تدريس هذه اللغة في عام 1992 كجزء من التعاون بين كلية الآداب وسفارة الجمهورية التركية.

■ **اللغة الأردنية:** يتم تدريس هذه اللغة في الكلية منذ مطلع التسعينات من القرن الماضي. وعلى غرار اللغة التركية، فهي مدمجة في برنامج التكوين الخاص بمسلك الدراسات الإسلامية، ولكنها أيضا متاحة لطلاب الكلية والجامعة الراغبين في تعلمها.

■ **اللغة البرتغالية:** يتم تدريس اللغة كجزء من برنامج التعاون الثلاثي بين المعهد الإسباني-البرتغالي، ومعهد كاموس وكلية الآداب. وعلى الرغم من إحداث مسلك الدراسات البرتغالية، يبقى تعلم هذه اللغة مفتوحا أمام جميع الطلبة الراغبين في تعلمها.

■ **اللغة الهولندية:** بدأ تدريس هذه اللغة في تاريخ 27 أكتوبر 2009، في إطار التعاون مع المركز الثقافي الهولندي نيمار⁴⁵⁰.

وجامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية⁴⁵¹، في إطار برنامج «Programme GELO» نجد تكوينات في لغات تكميلية، هي: اللغة العبرية واللغة الفارسية واللغة الكورية واللغة الروسية واللغة اليابانية واللغة الألمانية. اللغات التي تحظى بإقبال متزايد واهتمام ملحوظ.

ختاما، أمام الحاجة إلى المعرفة والاكتشاف وملاءمة التعليم للانفتاح على العالم والتواصل مع الآخر وفهمه لا بديل عن اللغات الأجنبية كمحدد رئيس ولا يمكن لأحد أن ينكر أو يتجاهل أهمية تعليم اللغات الأجنبية في هذا العصر وحضورها إلى جانب اللغات الوطنية في المدرسة أمر لا مناص منه لتعدد التجارب وتحقيق المصالح التواصلية والمعرفية والاقتصادية واكتساب القدرة على القيام بدور الوساطة بين الحضارة الأم والحضارة الأجنبية، لكن مع تراكم الاختلالات والإخفاقات والإصلاحات المتتالية للبرامج التربوية أضحت من الضروري:

■ **تجديد وتعميق البحث في الشروط التنظيمية والبيداغوجية لتحديث طرائق ومضامين التدريس والدعوة إلى "العمل على وضع أطر مرجعية للكفايات اللغوية حسب اللغات وبمراعات مبدأ تدرج الأسلاك والمستويات، سواء في التعليم المدرسي أو التعليم الجامعي وكذا في التكوين المهني، مع اعتماد دينامية للتقويم المستمر للمكتسبات**

⁴⁵⁰ - <https://www.flshr.ac.ma/ar/centre-de-langues-ar/> (Accessed 12/02/2020)

⁴⁵¹ - <http://www.fldm.usmba.ac.ma/formation/langues-complementaires/> (Accessed 12/02/2020)

اللغوية»⁴⁵² وفق إطار مرجعي وطني لتعليم وتعلم كل لغة في كل مستوى دراسي وسلك تعليمي بالمدرسة الوطنية المغربية.

- اجراء دراسات موضوعاتية متخصصة حول ايجابيات التعدد اللغوي ومدى استجابته لمتطلبات التنافسية العالمية ومستجدات العصر.
- تحفيز الدراسات المقارنة للتجارب الدولية التي تعرف بأنها متعددة اللغات وتتبنى مقاربات متعددة اللغات والثقافات والبحث عن السبل الكفيلة بإتقان اللغات الأجنبية.
- التركيز على المقاربة التواصلية وتعزيز الكفايات التواصلية في تجديد المناهج وفق مبادئ ديداكتيك التعدد اللغوي.

■ تكوين المدرسين وتعميق تجربتهم المهنية وتهيء مسالك بيداغوجية في مؤسسات التعليم العالي قادرة على تعميق التفكير والبحث في تيسير تعلم اللغات وإبراز أهمية الأبعاد الثقافية والبين - ثقافية لتعلمها ودورها في تكوين طالب منفتح على ثقافات العالم وملتزم بالعيش المشترك، يتعامل مع التنوع الثقافي بايجابية.

إن المتابع للشأن التعليمي ببلادنا يلامس مدى ارباك التحكم في اللغات لمسارات التعلم بالمدرسة وتشكيله مصدر قلق للأسر المغربية، لاعتقادها بكون التمكن من اللغات سبيلا أساسيا للاندماج في الدورة الاقتصادية والحياة الثقافية، خاصة الأسر التواقعة إلى اكتساب أبنائها اللغات الأكثر انتشارا في العالم، لرغبة تحذوهم في متابعة الدراسة بالجامعات الأوروبية، الغربية والشرقية، والآسيوية والأمريكية متجاوزين عائق اللغة وإشكاليات الاندماج الاجتماعي.

إن تحليل الوضعية اللغوية الراهنة تتأثر بالوضعية العالمية للغات، ثقافيا وحضاريا وتواصليا وببيداغوجيا كإطار مرجعي يخلق انطبعا حول لغات أجنبية معلومة «مُنتجة» تسمح باكتساب المعرفة العلمية والانفتاح على العالم ولغة عربية «مُسْتَهلَكة» نتعامل بها مع الشعر والقصص والأجناس الأدبية، بالرغم من مكانتها السامية عند المسلمين وتاريخها المجيد، مما يجعل اللغة عاملا قويا للإقصاء والتمييز الاجتماعي وهدم مبدأ تكافؤ الفرص الذي تدعيه المنظومة التربوية في خطابها الرسمي.

⁴⁵² - عبد اللطيف المودني، أبعاد التدبير البيداغوجي للغات، مجلة المدرسة المغربية، مرجع سابق، ص 146.

ولعل المسار البيداغوجي الأنسب لتجاوز هذا الإشكال هو اعتماد هندسة لغوية ومقاربات بيداغوجيات تستثمر الرصيد المعرفي للغة الأم - خاصة في السنوات الأولى للتعلم - واستثماره في اكتساب المعارف وتعزيز الهوية الثقافية والانتماء الحضاري، ثم الانفتاح على اللغات الأجنبية الأكثر تداولاً والحقول المعرفية التي تطرحها. إذ ليس ممكناً أن نتحاور مع الآخر، ونحن لا نحب إلا لغة الآباء والأمهات؟ إننا نرى أن من تكفل بمهمة التواصل أو محاورة الآخرين، لا بد أن يكون متمكناً من لغة أو لغات من يشاركونه الحوار. الأمر الذي لا يعني المنظومة التعليمية فقط بل يهم الدولة والمجتمع بمختلف مكوناتهما.

المبحث الثاني: تجديد الخطاب الديني عبر التعليم وتعليم اللغة العربية للناطقين

بغيرها.

للدين مكانة محورية في بناء الحضارات على مر التاريخ الإنساني، ومكوناً صلباً من مكونات الهوية الثقافية وموجهاً لأفكار وسلوكات ومشاعر ووجدان الأفراد والجماعات. في الربع الأخير من القرن العشرين، تواجهت أطروحتان، الأطروحة الأولى ترى في العلمانية حتمية كونية للنهضة العلمية وشرط للحداثة وإعمال العقل وهي سبب تقدم الغرب وتخلف الشرق والأطروحة الثانية تقودها حركات دينية - عابرة للهويات الثقافية - وترى في العودة إلى الدين عودة إلى الأصل وخلاص من الاستيلاء وباعث على نهضة الأمة.

موقفنا الجزم بأن الحضارة التي لا تعتمد على الدين حضارة غير متوازنة - رغم منجزاتها المبهرة وغزوها الفضاء - ينقصها البعد الإنساني والجانب الروحي وهذا ما نلاحظه في الحضارة الغربية: تفكك أسري، تفسخ أخلاقي،....، انتحار، صناعة القنبلة الذرية. فهل تفتقد الثقافة الغربية للبعد الروحي أو الحس الإنساني؟ السؤال الذي يحيلنا على علاقة الدين بالثقافة. العلاقة الوثيقة ومن الصعوبة بمكان فصلها أو التمييز بين الديني والثقافي، الدين ينبثق من حضن ثقافة وينطلق من داخلها وقد يكون الدين كنظام من المعتقدات أبعد (خارج أي سياق ثقافي) من كل ثقافة بما هي إنتاج إنساني، ويجد نفسه في

مواجهة الثقافة (خاصة إذا كانت علمانية أو وثنية) إلا أن العلاقة ليست متوترة. الثقافة بدورها حاملة لقيم لا تتعارض مع القيم الدينية وتبدو واضحة علاقة الدين بالثقافة في مأكولات Fast Food التي تغزو العالم وتراعي المعتقدات الدينية للمختلف عن ثقافتها الأصل «McDonald's halal» و«Mecca Cola» و«Pizza halal» و«Tacos halal» ووجود دلائل⁴⁵³ ومواقع الكترونية⁴⁵⁴ للإرشاد حول المطاعم التي تقدم الأكل الحلال وكأن مكونات السجل الثقافي رغم عولمتها تخضع لضوابط الدين. ولأن الأمر لا يتعلق بإحاطة علاقات الدين بالثقافة، نكتفي بما أورده Olivier Roy : "الدين ليس الثقافة، لكن لا يمكنه أن يوجد خارج الثقافة"⁴⁵⁵.

جميع الأديان والثقافات يعتقد ويلتزم أتباعها- بدرجات متفاوتة- بالقيم والحقائق المطلقة التي لا سجال فيها من وجهة نظرهم، ويدعون الحلول لإشكاليات الألفية الثالثة انطلاقاً من معتقداتهم تارة وتارة أخرى نلامس محاولاتهم لعزل الدين عن الإشكاليات المعرفية والتحديات المعاصرة، مما يسبب تعطيل إرادة الإنسان وسعيه في البحث والاكتشاف والتأمل وتحصيل مزيد من الحقائق بدون المساس بالغيبيات ويعكس ضعف قدرات المؤسسات الدينية على معالجة القضايا المعاصرة. فمن المسؤول عن التخلف في فهم سليم للدين؟ من داخل دائرة الدين وخارجها، أليس الجواب في الخطاب الديني ومدى تصرفه في التعليم الديني وإيلاء الدين مجدداً المكانة التي يستحقها في مجال التربية والتعليم.

ما المقصود بتجديد الخطاب الديني؟ ما مسوغات تجديده؟ ولماذا الرهان عليه لتحقيق أهداف من قبيل التواصل الحضاري والحوار الثقافي والسلام العالمي، مع العلم مسبقاً بتعدد الخطابات الدينية والمذهبية وتشتتها؟ أي دور للتعليم الديني في هذا التجديد؟ وأي واقع للتعليم الديني في الوطن العربي تحديداً؟ وما مدى تجاوب منظومة التربية والتكوين المغربية مع منظور تجديد الخطاب الديني والنهوض به وبأية إسهامات في التعليم المدرسي خاصة؟ أي قيمة مضافة يمكن أن يشكلها تعليم اللغة العربية للناطقين

⁴⁵³ - <https://muslim-guide.jp/restaurant/city/tokyo/> (Accessed 24/03/2020)

⁴⁵⁴ - <https://www.paris-halal.com/> (Accessed 24/03/2020)

⁴⁵⁵ - أوليفييه روا، الجهل المقدس، زمن دين بلا ثقافة، ترجمة صالح الأشمر، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 2012، ص 110.

بغيرها في التواصل الحضاري وحوار الثقافات؟ تساؤلات نحاول مقاربتها في ثلاث اتجاهات، الأول يعنى بضرورة وأهمية تجديد الخطاب الديني - عبر التعليم - في عالم متعدد دينيا والثاني يقارب التعليم الديني والتعليم العتيق في المناهج التربوية المغربية والثالث يهتم بتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وأهمية توظيفها في التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

أولا: تجديد الخطاب الديني عبر التعليم مشروع للتواصل الحضاري وحوار

الثقافات

في ضوء التحولات والتغيرات العالمية والأحداث والقضايا التي نشهدها، منذ فجر الألفية الثالثة بشكل يومي ومتسارع وتجاوبا مع تساؤلات عصرنا هذا والمستقبل، تجديد الخطاب الديني من القضايا المعاصرة البالغة الأهمية وضرورة لمواكبة التحولات الحضارية والمتغيرات العالمية واستغلال التقدم التكنولوجي والطفرة الرقمية التي لم تكن متاحة قديما، كما أن الخطاب الديني في عصر العولمة وثورة الاتصالات يجب أن يكون مجددا ومغايرا لنوع الخطاب قبل عصر العولمة. الحاجة للتجديد برزت بشكل حثيث وملح في دعوات، من الداخل والخارج، بعد أحداث الحادي عشر من شتنبر 2001 لتصحيح صورة الإسلام لدى البعض في الغرب بعد سلسلة من الاتهامات والنعوت للإسلام كمعرض على الارهاب والعنف.

إضافة لاستفادة الخطاب الجديد من المتغيرات السالفة الذكر، يمكنه أيضا تثمين الثابت المشترك مع الآخر المتدين وغير المتدين وتجاوز المختلف فيه والدعوة إلى الإسلام بالتي هي أحسن ونهج الأساليب والطرق السليمة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾⁴⁵⁶، إسهاما في التواصل مع الآخر وتعميقا للحوار الذي من شأنه حصار خطاب التشدد الذي استغل الفضاء الرقمي للوصول لفئة لا تستفيد من خدمات مؤسستي المسجد والمدرسة.

⁴⁵⁶ - سورة النحل، الآية 125.

نقصد بتجديد الخطاب الديني، في هذا العمل، تقليب وتصويب النظر باستمرار وفق مراجعة فكرية رصينة لمناهج وآليات التبليغ والاقناع وقنوات تواصل الدعاة والباحثين والفقهاء والهيئات الإسلامية، ولا يتعلق الأمر بالبحث في النص الديني، قرآنا وسنة، في الأحكام ومقاصد الشريعة، فنحن أمام حاجة تواصلية حضارية ومعرفية معززة بفهم جديد للدين، تتاسب تطور الفكر الإنساني والثورات العلمية والصناعية والتقنية والتغيرات الطارئة في المجتمعات العصرية، اجتماعيا وثقافيا وما أفرزته من اشكاليات جديدة للبحث والتمحيص. إنها محاولة لإعادة الفهم ومراعاة المصالح وتلبية الحاجات المستجدة وتجاوز الواقع المتخلف للأمة الإسلامية وعمل فكري من اختصاص رواد الفكر والباحثين المتمكنين في دار الاسلام من فهم وتأويل النصوص الدينية. التجديد لا يعني العبث بأصول الإسلام وثوابت العقيدة وأركانها وإدخالها لمختبر الدراسات الفلسفية والتأويلية بزعم تقديم تفسير عصري «حدائي» لها أو استئصال نصوص معينة جملة وتفصيلا، كما أنه ليس نوعا من التحرر والتحايل المقابل لوجود خطاب ديني متطرف يروج التكفير والعنف ويقدم صورة سيئة عن الإسلام للعالم ويرمز لوجود قصور في خطاب الدين، الذي لا يعني البتة قصورا في الدين بل اخفاق وفشل في استراتيجية الخطاب التواصلية لعلماء ودعاة وفقهاء الدين.

التجديد ليس قطيعة مع الماضي بل اتصال بين الماضي والحاضر، مسار فكري تحكمه ضوابط التقعيد والتأصيل وليس الخروج عن النص والاخلال بالقواعد والكليات، مراعاة الثابت والمتغير الذي يؤدي فيه العقل دوره المأمول والمشروع في التفكير في قضايا الأمة وهمومها الراهنة والانشغال بالقضايا العالمية الكبرى وأولويات الإنسانية. لا يعقل أن نواجه تحديات حضارية وثقافية وتطفو على الساحة الإسلامية مواضيع (ارضاع الكبير/ زواج القاصر/ جهاد النكاح...) تتطلب الفتوى الدينية وتبدو تافهة بالنظر لتحديات عصرنا. ناهيك أنه بمجرد الحديث عن دار الاسلام، يتبادر التساؤل إلى الأذهان: هل نملك في العالم الاسلامي خطابا دينيا واحدا وناظما، حتى نتمكن من بناء مقومات خطاب ديني متجدد؟ فما يلاحظه القاصي والداني وجود خطابات متعددة ومتباينة في العالم الاسلامي، لدرجة التناقض في بعض منها، بين التشدد والمحافظة والوسطية والتحرر. مما

لا شك فيه، تعدد الخطابات الدينية وبيئتها الثقافية وصلابة بعض الخطابات وتشدها والتوظيف السياسي والأيدولوجي للنص الديني، كلها اكرهات تطيل مسافة الوصول إلى تجديد يلامس جميع الثقافات ويجب عن أسئلة يطرحها البعد الثقافي ويحول دون أمل إضاءة الخطاب الديني للتحويلات والمتغيرات المعاصرة في جوانب متعددة من حياتنا.

لا يمكن للخطاب الديني الصادر عن مؤسسات دينية أو علماء دين أو مؤلفي الكتب المدرسية أن ينفصل عن اشكاليات وتحديات عصره واضفاء الطابع الإسلامي على التنوع الثقافي والبناء الحضاري وتقدير العلم والمعرفة وحقوق الانسان وإعادة تشكيل الوعي الإسلامي للمسلمين بتجديد الإنسان بالدين وليس تجديد الدين. ولما لا يسهم إنتاج خطاب ديني متجدد في تنمية ثقافية وفكرية وعلمية وحضارية قوية ومنتجة عالميا؟ نظرا لمكانة الدين وتأثيره في تشكيل العقليات وتغيير السلوك، سيما أن الخطاب القرآني يوجهنا إلى التفكير والتأمل والنظر، الإيمان والمعرفة طرفان كلاهما يقوي الآخر.

لكن يبدو أنه يعيش أزمة صامتة أو في حالة موت سريري خاصة في العالم الاسلامي، حيث صورة الاسلام والوعي به تتعرض للتشويه والتشويش، مرة يتعايش مع الحداثة ويقبل بمنتجاتها الاستهلاكية ومرة يتخذ موقفا رافضا لها وللحضارة الغربية التي أنتجتها. يعاني الخطاب الديني أيضا من وجود تيارات إسلامية ومذاهب مختلفة، السنية والشيعية نموذجاً واختلاف الخطاب الديني في الفضاء الإسلامي السني بين السلفي والصوفي والمعتدل وخطاب دعاة الاعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، كما يعاني من تعدد المؤسسات الناطقة باسمه في العالم الاسلامي وتحاول كل دولة من دول العالم الاسلامي مؤسسة الحقل الديني وهيكلته بهيئة للإفتاء أو وزارة أو مؤسسة - مؤسسة الأزهر في مصر مثلاً - أو مجلس - المجلس العلمي الأعلى في المغرب - ويوجد خارج جغرافية العالم الاسلامي المئات من المراكز المنتشرة في الغرب والتي تتبنى اسلام من يمولها. كل هذه المتغيرات ستجعل الاجماع صعبا وتثير السؤال: من الناطق باسم الاسلام إذن؟

وحتى نبقي متشبتين بالأمل، نعتقد أنه من الممكن أن ينبعث من هذا الاختلاف شعاع التجديد بخطاب ديني يتميز بالحكمة والجاذبية يلائم طبيعة الاختلاف بين الثقافات

ولا يتشدد ويتعصب في عرض حقائق الاسلام، يبرز قيمه العليا والمشارك الانساني في العدل والتسامح والمساواة ومراعاة الاسلام للثقافات بدون تمييز للمجتمعات غير الإسلامية وتأكيد حرية العقيدة بمبدأ لا اكراه في الدين، ما يجعل تعدد المعتقد ليس مصدر خلاف واستغلال وسائل الاعلام ووسائل الاتصال الحديثة في ترويج الممارسات الجيدة للمسلمين والثقافات الإسلامية ونشرها باللغات الأجنبية. هنا يكمن الرهان على منظومة تعليمية تنتج عقولا صانعة للحياة والمستقبل ومبدعة. وإلا لن ينصت أحد لمتخلف معرفيا وتكنولوجيا وحضاريا؟ يمارس التقليد أكثر من التحديث.

إننا نطمح أن يتخذ هذا التجديد الدين مجالا للبحث والاشتغال يتمظهر في صيغ متعددة، فكر اسلامي أو تشريع فقهي أو تربية دينية أو غير ذلك كما يمكنه أن يتم عبر وسائل متنوعة في المساجد والمؤسسات التعليمية والقنوات الإعلامية ودور الشباب وهيئات دينية. إنه تجديد لنُظْم واستراتيجيات التواصل، لكي تلائم وتتاسب احتياجات المتلقين، في زمن الرقمية وطغيان الصورة على الكلمة، لترسم صورة عن الآخر غير موشومة بالمخاوف، صورة يرى فيها الآخر نفسه شريكاً في البناء.

علاقة بموضوع بحثنا وبقناعة مفادها أن التعليم بأسلاكه وأطواره المختلفة جسر العبور إلى المستقبل بثقافة إنسانية منفتحة، ارتأينا مقارنة التعليم الديني انطلاقاً من إشكالية المناهج الدراسية، كدعامة للتوظيف وواجهة للتجديد ورهان على الناشئة لبلورة خطاب هذا التجديد حالاً ومستقبلاً، علماً وعملاً وخلقاً. مقارنة موضوع تعليم الدين في عصر يتوق رواده، على ما يبدو، للروحانيات وتبرز الحاجة إلى فضاءات لتعليم وتعلم ممارسة الشعائر الدينية - خاصة في دول المهجر - وملتقى ذوي الأديان للتواصل والحوار، سيما أننا نشهد نزعات متشددة عدوانية، هنا وهناك، وتوتر وانسحاق الشباب والأطفال أحياناً وراء تيارات متطرفة تشمل جميع الديانات السماوية ولها حضور وتأثير فاعل في مسرح الأحداث العالمية.

اهتمامنا بمدخل الدين ودور تعليمه نابع من قناعتنا بفكرة تكريس التعليم الديني لمعرفة فضيلتي السلام والحوار في الأديان السماوية، بصفة عامة وفي الدين الإسلامي بصفة خاصة وبناء تحالف ديني ضد التعصب والتطرف والعنف كمشروع حضاري

متطوّر تتعاون فيه جميع المؤسسات الفكرية والدينية عن طريق تخطيط تربوي وتعليمي شامل يجعل من حوار ذوي الأديان معبرا رئيسا لحوار الثقافات.

يمنحنا التعليم إعمال العقل، معرفة الآخر والاعتراف به وقبوله كما هو ولو كان مختلفاً عنا، يمنحنا فهما مباشراً وتحرراً من الأوهام والأفكار المسبقة والقوالب الجاهزة، نتعرف ما هو الإسلام وما هي المسيحية وما هي اليهودية وما هي البوذية على سبيل المثال لا الحصر معرفة صريحة، مَنْ هو المسلم وَمَنْ هو المسيحي وَمَنْ هو اليهودي. لا نكتفِ بالأفكار السطحية والمشوّهة. جاء في تقرير تحالف الحضارات المعنون بالتعليم، التحليل والمبادرات الحالية: "قد يساعد التعليم بشأن الديانات الطلاب على فهم واحترام الدور الذي يقوم به الدين من خلال تدريس التبادلات المعقدة بين الديانات على مر الزمن، لدحض الفكرة المغلوطة القائلة بغلبة المواجهة على التفاعلات بين هذه الديانات"⁴⁵⁷. ويلح مهندسو التقرير على الزعماء الدينيين وواضعي السياسات التعليمية ومنظمات الديانات والمنظمات المدنية العمل سوية من أجل وضع مبادئ توجيهية تخص التعريف بأديان العالم والتقاليد الدينية الرئيسية في سياقات تعليمية متنوعة وجمع أفضل الممارسات ونشرها وألا تعزز المناهج الدراسية للمدارس الدينية الحقد على بقية الجماعات وتوخي الدقة والتوازن في مناقشة المعتقدات الدينية وعدم إنكارها لأي دين أو أتباع هذا الدين.

عالمياً، تدريس الدين أو التعريف به، خاضع لطبيعة علاقته بالدولة، تدعّمه أو لا تدعّمه. الحالة الأولى مثالها من العالم العربي والإسلامي، إذ يتم هذا النوع من التعليم في سياقات تعليمية مستقلة (مواد دراسية: التربية الإسلامية/ الدينية/ ..) في مؤسسات التعليم العام ومؤسسات وهيئات خاصة (جمعيات/ دور القرآن/...)، مصحوبة بكتب ومناهج دراسية والحالة الثانية نسوق لها مثالا من أوروبا والولايات المتحدة، حيث جدار الفصل العلماني ولا مجال لأي سياسة تؤسس لدين معين أو تدعّمه، يتم التعريف بالدين في المدارس العامة في فصول التاريخ والجغرافيا والفنون والأدب. ويمكننا القول أن الغرب لا يترك مجالاً للتعليم الديني في المؤسسات الحكومية.

⁴⁵⁷ - الأمم المتحدة، أمانة تحالف الحضارات، قاعدة بحث لتقرير الفريق الرفيع المستوى، التعليم: التحليل والمبادرات الحالية، نيويورك، 2006، ص 18.

في مسار بحثنا، عن قراءات في تجارب التعليم الديني ورهاناته المعرفية في العالم العربي، عثرنا على تقرير لمركز كارينغي للشرق الأوسط التابع لمؤسسة كارينغي للسلام الدولي حول التعليم الديني والتعددية، متخذا نموذج دولتين عربيتين للدراسة، مصر وتونس، حيث الفرق في مكانة الدين وحضوره في النظامين السياسي والتعليمي. يشير التقرير أن في جمهورية مصر "تتبنى الكتب المدرسية مفهوم الجهاد أو الشهادة ضد العدو، الذي يندرج ضمن فئتين: الكفار وأعداء الوطن"⁴⁵⁸ ويستهدف التعليم الديني قيما متناقضة مع نصوص وموضوعات التربية المدنية المدرجة في منهاج الدراسات الاجتماعية (المساواة بين الجنسين نموذجا). أما في تونس، فالتعليم الديني أكثر صراحة في تطوير القيم الشاملة للحرية المسؤولة والمساواة والاحترام، يشجع السلام والحوار مع الآخر وقبوله ويعتقد أن الآخر لديه حقوق وواجبات متساوية لتلك التي للمسلمين ويثبت القيم الديمقراطية كمنتج تاريخي لثقافة عالمية "يدرس تاريخ اليهودية والمسيحية والإسلام جميعا كجزء من مادة الدراسات الاجتماعية في المدارس الثانوية الحكومية"⁴⁵⁹ ويبرز التسامح الديني اتجاه المسيحيين واليهود باعتباره قيمة اسلامية. وثمة تغطية أكبر في المنهاج الدراسي لقضايا الحضارة والحداثة والإصلاح والمعرفة كما أن مقارنة الدين تجمع معنى الوجود في الأديان مع واقع الحضارة الحديثة.

يخلص تقرير كارينغي إلى أن "تتقيد الطلاب بشأن الطوائف المختلفة الموجودة بين المسلمين ليس جزء من المناهج الدراسية في المدارس الحكومية في الدول العربية"⁴⁶⁰ وأن مبادرة مصرية تدعو إلى إعداد برنامج جديد للتعليم الديني من خلال التركيز على القيم المشتركة بين المسلمين والمسيحيين ستكون "خطوة أساسية في الاتجاه الصحيح نحو الديمقراطية والتعددية في مصر ونموذجا يحتذى به للدول العربية الأخرى"⁴⁶¹ وأن من شأن التعليم الديني أن يلعب دورا هاما في تعزيز المواطنة وتطوير المهارات في مجالات الاتصال والحوار والمواقف والقيم المتصلة بالمساواة بين الشعوب والأجناس، والحرية والعدالة الاجتماعية والتنوع والتسامح ويوصي في خاتمته بإطلاق

⁴⁵⁸ - محمد فاعور، التعليم الديني والتعددية في مصر وتونس، أوراق كارينغي، مركز كارينغي للشرق الأوسط، 2012، ص 5.

(https://carnegieendowment.org/files/Religious_education_FaourAR.2.pdf)

⁴⁵⁹ - المرجع نفسه، ص 9.

⁴⁶⁰ - المرجع نفسه، ص 11.

⁴⁶¹ - المرجع نفسه، ص 18.

المواطنين، سيما من خلال مؤسسة المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية وقناة وإذاعة محمد السادس للقرآن الكريم.

تأهيلا للحقل الديني وتجديده من أجل الإسهام العقلاني الهادف لتصحيح صورة الإسلام مما لحقها من تشويه وتحصينا للمغرب من نوازع التطرف والإرهاب، وحفاظا على هويته المتميزة بالوسطية والاعتدال، يمكن الرهان على تأهيل عقول الناشئة وتمكينها من أدوات التواصل والتحاور الديني العقلاني بتأهيل مقررات التربية الإسلامية وتنقيحها من المضامين والتأويلات الخاطئة والسياقات والتوظيفات المتطرفة للنص الديني. وليس الرهان على الحلول العسكرية ورد الفعل العنيف على العنف لمواجهة التطرف، يقول العاهل المغربي في خطابه بمناسبة الزيارة الرسمية التي قام بها قداسة البابا فرانسيس للمغرب في مارس 2019: "الحل لن يكون عسكريا ولا ماليا؛ بل الحل يكمن في شيء واحد، هو التربية. فدفاعي عن قضية التربية، إنما هو إدانة للجهل. ذلك أن ما يهدد حضارتنا هي المقاربات الثنائية، وانعدام التعارف المتبادل، ولم يكن يوما الدين. واليوم، فإنني بصفتي أمير المؤمنين، أدعو إلى إيلاء الدين مجددا المكانة التي يستحقها في مجال التربية"⁴⁶⁴ وأقر العاهل المغربي بتاريخ 6 فبراير 2016، عقب اجتماع وزاري، ضرورة مراجعة مناهج وبرامج تدريس التربية الدينية، سواء في المدرسة العمومية أو التعليم الخصوصي أو مؤسسات التعليم العتيق وذلك بهدف منح أهمية أكبر للتربية على القيم الإسلامية الداعية إلى الوسطية والاعتدال وإلى التسامح والتعايش مع مختلف الثقافات والحضارات الإنسانية⁴⁶⁵. ماذا عن أجراً وتنفيذ مضامين هذه التوجيهات وتجديد التعليم الديني بالمغرب؟ وإلى أي حد تبرز مناهجه، في التعليم العام والعتيق، النظامي وغير النظامي، في التواصل الحضاري والانفتاح الثقافي كما هو وارد في السياسة الدينية للمملكة؟

⁴⁶⁴ - <https://www.cg.gov.ma/ar/> - الخطاب-الذي-ألقاه-أمير-المؤمنين-خلال-مراسم-الاستقبال-الرسمي-لقداسة-

(تاريخ الزيارة 2020/02/25) الباي

⁴⁶⁵ - <http://www.maroc.ma/ar/> - (تاريخ الزيارة 2020/03/24) جلالة-الملك-يترأس-بمدينة-العيون-مجلسا-للوزراء/أنشطة-ملكية-

ثانيا: التعليم الديني والتعليم العتيق بالمغرب: أفق جديد قيد التشكيل.

بداية، نسجل الفرق بين الدين كمنظومة من العقائد والأخلاق والتشريعات ودراسة أو تعليم الدين وفهمه (المعرفة الدينية إن صح التعبير)، الأولى مقدسة وثابتة مصدرها الوحي والثانية نسبية ومتغيرة، مصدرها الانسان وقابلة للتجديد والتطوير حسب الزمان والمكان والمستجدات والرهانات الحضارية والخصوصيات الثقافية. وهنا تكمن مسؤولية التعليم والمناهج الدراسية ومنبع طرحنا للموضوع، فالمناهج تتحمل مسؤولية تعليم الفرد وفق المجالات الثلاث لشخصية الفرد، خاصة المجال الثالث -الموسوم بالمجال الوجداني والروحي- والكتب المدرسية كآليات لتصريف المناهج الدراسية على سبيل المثال تترجم وتعكس نظرة الاسلام إلى الكون والحياة والإنسان، الأنا والآخر، فردا ومجتمعا. فإلى أي حد ينمي هذا النوع من التعليم سعة الأفق ومهارات القرن الحادي والعشرين ومستويات التفكير العليا: التفكير النقدي وتطوير قدرات الابداع والابتكار وكيفية التعامل مع التنوع الثقافي وتدفق المعرفة في عالم بلا حدود؟ التساؤل الذي يتطلب أبحاثا ودراسات تتجز داخل العالم الاسلامي وليس في أعمال منظمات أجنبية، طبقا لقاعدة التغيير من الداخل لمواجهة الخارج بثقة.

في المغرب، تاريخيا تتوزع خريطة التعليم الديني بين الزوايا والمساجد ودور القرآن والجمعيات- المرخص لها- وفي التعليم العالي في كليات الآداب والشريعة التابعة للجامعات المغربية وجامعة القرويين ودار الحديث الحسنية، ويتموقع هذا النوع من التعليم في مسارات التعليم النظامي وغير النظامي بالمغرب، وفق مادة تعليمية في التعليم العام وبمناهج خاص في التعليمين العتيق والأصيل.

في التعليم العام، للدين الاسلامي مكانة في منظومة التربية والتكوين ويشكل جزءا من المناهج الدراسية، بكتب مدرسية ومراجع تعليمية وإيقاع زمني انطلاقا من التربية ما قبل المدرسية. نعثر في منهاج التعليم الأولي على مجال تعليمي، من بين مجالاته التعليمية الستة، موسوما بالقيم الدينية والعيش المشترك من خلال "تهيئة الطفل لاستكشاف مقومات

النسق السوسيو ثقافي والديني لبلده"⁴⁶⁶. أما في أسلاك التعليم المدرسي فينفذ برنامج مادة التربية الإسلامية في وعاء زمني يقدر في السنوات الستة للسلك الابتدائي⁴⁶⁷ ب 612 ساعة (بمعدل 102 ساعة سنوياً) وفي السلك الثانوي الإعدادي ب 192 ساعة (بمعدل 64 ساعة سنوياً) ويتراوح بين 16 ساعة و 32 ساعة و 48 ساعة في السلك الثانوي التأهيلي حسب الشعب والمسالك العلمية والأدبية والتقنية⁴⁶⁸.

يستهدف منهاج مادة التربية الإسلامية في التعليم العام "تلبية حاجات المتعلم(ة) الدينية التي يطلبها منه الشارع، حسب سيروراته النمائية والمعرفية والوجدانية والأخلاقية وسياقه الاجتماعي والثقافي"⁴⁶⁹ وفق مداخل التزكية (حفظ القرآن وتوظيف سور وآيات قرآنية) والافتداء (تمثل أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام) والاستجابة (الأداء المتقن للعبادات) والقسط (التمييز بين الحقوق والواجبات) والحكمة (تعرف القيم المرتبطة بالحكمة واتخاذ مبادرات إيجابية) والتي تعتبر وحدة متكاملة يفترض أن يلتحم فيها الفكر بالسلوك والعلم بالعمل بهدف تكوين شخصية منسجمة ومتكاملة لدى المتعلم الذي يتم تقييم مكتسباته من المضامين والقيم الدينية انطلاقاً من حل وضعية مشكلة من المعيش اليومي (الواقع الثقافي للمتعلم)، القيم المحددة تفصيلاً في "قيم العقيدة الإسلامية وقيم الهوية الحضارية ومبادئها الأخلاقية والثقافية وقيم المواطنة وحقوق الإنسان ومبادئها الكونية"⁴⁷⁰.

بالنظر إلى القيم المتداولة في المنهاج الدراسي للمادة في السلك الابتدائي، نجد قيماً مجسدة في دروس ضمن مدخلي الحكمة أو القسط، وهي: حفظ اللسان والنفس والثبات على الحق والعفو عن الظالم والرفقة والرحمة والصدق والتسامح والمساواة والعناية بالبيئة وإمالة الأذى عن الطريق وتطهير القلب من الكراهية والسخرية ومساعدة الأشخاص في

⁴⁶⁶ - وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مديرية المناهج، الأطار المنهجي للتعليم الأولي، الطبعة الأولى، 2018، ص 39.

⁴⁶⁷ - وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مديرية المناهج، منهاج التربية الإسلامية لجميع المستويات الدراسية بالتعليم الابتدائي العمومي والخصوصي، طبعة يونيو 2016، ص 6.

⁴⁶⁸ - وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مديرية المناهج، منهاج التربية الإسلامية بسلكي التعليم الثانوي الإعدادي والثانوي العمومي والخصوصي، طبعة يونيو 2016، ص 20.

⁴⁶⁹ - وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مديرية المناهج، منهاج التربية الإسلامية لجميع المستويات الدراسية بالتعليم الابتدائي العمومي والخصوصي، مرجع سابق، ص 2.

⁴⁷⁰ - وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، منهاج التربية الإسلامية بسلكي التعليم الثانوي الإعدادي والثانوي العمومي والخصوصي، مرجع سابق، ص 3 و 4.

وضعية اعاقة وتقدير الآخر وتقدير المرأة واحترام الرأي والاعتراف بالخطأ والتفأول والرضا والتفهم وعدم الاتهام.

بشكل محدود جدا، يحضر التواصل والحوار مع الآخر في ثلاثة دروس فقط طيلة ست سنوات من التحصيل الدراسي في المادة: أحسن تواصل مع الآخر في المستوى التعليمي الرابع وحسن التواصل في المستوى التعليمي الخامس والحوار بأدب، انطلاقا من قصة النبي ابراهيم في المستوى السادس. والملفت للملاحظة، وجود مضامين تغطي الحاجات الأولية للطفولة من مثل: طهارة المكان وآداب الأكل والمساهمة في نظافة البيت والعناية بالهنادام في مدخل الحكمة. نخلص بعد سرد هذه المضامين أن المهارات التواصلية والمواضيع ذات البعد الثقافي تكاد تنعدم في برامج التربية الإسلامية بالسلك الابتدائي.

بالنسبة للسلك الاعدادي، وعلاقة بالتواصل بشكل عام، يهدف منهاج مادة التربية الإسلامية إلى تنمية مهارات⁴⁷¹ الاستدلال بالنصوص الشرعية في وضعيات تواصلية بيانية أو حجاجية والتعبير عن الرأي واتخاذ مواقف نظرية أو سلوكية مسؤولة في وضعيات تواصلية أو حياتية تركز الكفايات النهائية للسنوات الثلاثة من السلك الاعدادي والمداخل المعتمدة فيها على توظيف مضامين العقيدة وأركان الإيمان والعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحقوق الله والنفوس والغير (الآباء والأبناء/ إمارة المؤمنين) والبيئة (جمال البيئة والمحيط/ الرفق بالحيوانات) وما يرتبط بذلك من قيم وممارسات ايجابية، مقابل محدودية الحضور الثقافي وأبعاد التواصل والحوار مع الذات أو الآخر، فيما عدا أربعة دروس: درس التعامل الايجابي مع وسائل الاتصال الحديثة في السنة أولى اعدادي ودرس الأخوة الإنسانية: حق غير المسلم على المسلم في السنة الثانية اعدادي ودرسي «ارساء الرسول عليه الصلاة والسلام قيم السلم والتعايش من خلال وثيقة المدينة» و«التعارف والتعايش» في السنة الثالثة اعدادي.

⁴⁷¹ - وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، منهاج التربية الإسلامية بسلكي التعليم الثانوي الاعدادي والثانوي العمومي والخصوصي، مرجع سابق، ص 10.

إضافة لاستمرارية المواضيع السابقة والمتعلقة بالعقيدة (التوحيد وأدلته) وفقه العبادات والمعاملات المالية واعتبار حقوق الله والنفس والغير بالعمل الصالح والعفة والحياء وحق البيئة بالإصلاح وعدم الفساد يفتح السلك الثانوي التأهيلي على موضوعات الايمان والفلسفة والعلم انطلاقا من قصة النبي يوسف، عليه السلام، في درسين فقط في السنة أولى باكالوريا ودرس واحد ووحيد في موضوع الاسلام وبناء الحضارة الانسانية في السنة الثانية باكالوريا ونعثر، بعد حسرة، على درس واحد في العفو والتسامح.

تأسيسا على المضامين والمؤشرات السالفة، نخلص إلى أن التعليم الديني الذي تقدمه مناهج التربية الاسلامية بالمغرب يطغى عليه المضامين والمقاربات التقليدية ذات الجانب المعرفي المتعلق بالعقيدة والعبادات طيلة اثنا عشرة سنة لسلك التعليم المدرسي. بالمقابل، يتفادى المتغيرات الحضارية والقضايا الثقافية الراهنة ويفتقد للأبعاد التالية:

■ البعد الثقافي - الحضاري، في محدودية ابراز علاقة الدين بالحضارة والهوية الثقافية المغربية ودور الدين الاسلامي في منجزات الحضارة الانسانية والتكامل الحضاري وانفتاح المغرب على باقي الثقافات وابرار سياقاتها وتنوعها واسهامات المملكة كملتقى لحوار الأديان والتعايش والتسامح الديني على الصعيد العالمي. في هذا الاتجاه، وبهدف "ترسيخ مفهوم حوار الأديان واستجلاء أساليبه وتبيين موقف المغرب من حوار الأديان وإبراز مشاركته فيه"⁴⁷² نجد الدرس العاشر في مكون التربية على المواطنة (مادة الاجتماعيات) في السلك الاعدادي، السنة الثالثة، تحت عنوان المغرب وحوار الأديان، ولا نعثر على نظير له أو لأهدافه في مادة التربية الإسلامية.

■ البعد التواصل، بغياب الاهتمام بمحور التواصل في الشأن الديني للفرد وغياب التفصيل في العلاقات التواصلية للمسلم بغيره من ذوي الديانات والثقافات الأخرى. مع العلم أن وثيقة المنهاج تشير إلى أن كفايات مادة التربية الاسلامية تروم "تمكين المتعلم من معرفة ذاته و غيره وتسليحه بأدوات التواصل المختلفة وتمهير توظيفها"⁴⁷³ نلمس

⁴⁷² - ميلود بكريم وآخرون، منار الاجتماعيات، دليل الأستاذ (ة)، السنة الثالثة من التعليم الثانوي الاعدادي، top édition، 2005، ص 261.

⁴⁷³ - وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، منهاج التربية الإسلامية بسلكي التعليم الثانوي الاعدادي والثانوي العمومي والخصوصي، مرجع سابق، ص 4.

غياب دراسة أساليب الخطاب والحجاج والاستراتيجيات التواصلية مع الآخر المختلف ثقافياً، مما يحفز على الانغلاق ويضعف الانفتاح المرجو والمأمول.

■ البعد القيمي، فرغم وجود قيم حقوق الإنسان ومبادئها الكونية وقيم الهوية الحضارية والثقافية ضمن الاختيارات القيمة للمنهاج وإشارة المواصفات المرتبطة بالقيم إلى الالمام بقيم الحداثة والديموقراطية والانفتاح على قيم الحضارة المعاصرة، نسجل بكل تأكيد محدودية حضور التعددية الثقافية والقيم الإنسانية والكونية. مع الإشادة بغياب أي توجه للتعبئة والحشد أو الاستغلال الأيديولوجي.

■ البعد البيداغوجي، رغم اعتماد الوضعية المشكلة في تقييم التعلم بدرس التربية الإسلامية، نلمس غياب مهارات التفكير النقدي (الحس النقدي) وطرق الاستدلال العقلي والافناع وتنويع المقاربات البيداغوجية، مقابل غلبة المضمون المعرفي على الجانب المهاري- التواصلية والثقافية والاقتصار على استنباط القيم الدينية المتعلقة بالعقائد والعبادات والمعاملات الواردة في النص القرآني والحديثي وتقييم التعلم انطلاقاً من وضعيات مشكلة مستهلكة بالنسبة للتلاميذ.

■ البعد التكنولوجي الرقمي ذو حضور محدود يمكن أن يطال استثمار تطبيقات وموضوعات الثورة الرقمية ومدى التأثير والتأثر بها والمناخ التواصلية التي ينبغي تبنيها عند الابحار في عالم الانترنت والشبكة العنكبوتية.

■ البعد الاستراتيجي، ممثلاً في القضايا والتحديات الكونية، المعاصرة والمستجدة، من مثل: المعاملات الرقمية، قيم التواصل الإلكتروني، الذكاء الاصطناعي، حوار الثقافات والحضارات، التسامح الديني، التنمية المستدامة... لم نجد لها أثراً، مقابل حضور موضوعات تقليدية. الأمر الذي من شأنه إضعاف جاذبية المادة الدراسية وراهنية مواضيعها.

تدفعنا القراءات السابقة للمنهاج إلى المطالبة بتكوين الدعاة والوعاظ والأئمة ومؤلفي الكتب المدرسية والحوامل البيداغوجية للتعلم المرتبطة بمادة التربية الإسلامية في موضوعات تنمية مهارات التفكير النقدي والتفكير العلمي والتدافع من أجل الابتكار والابداع والاطلاع على المستجدات العالمية واکراهات العولمة والتحولات الجذرية

ومنجزات الثورة العلمية والتكنولوجية والامكانيات التي تتيحها في الانفتاح والتواصل الحضاري على الثقافات والامم الاخرى لتطوير التعليم الديني ومن تم الخطاب الديني في شموليته، ليشكلا قاطرة للتواصل الحضاري وحوار الثقافات. هذا ما تحصل لنا في التعليم الديني النظامي في المدرسة المغربية. فماذا عن التعليم العتيق؟

يقوم التعليم العتيق بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين العلوم الشرعية وفق الأنماط والطرق البيداغوجية التقليدية في مجموعة كبيرة من المدارس العتيقة والكتاتيب القرآنية، وتحتضن وزارة الأوقاف بعضها في حين يدعم الباقي أشخاص ذاتيين أو معنويين، ليشتمل التعليم العتيق على تعليم عتيق عمومي وتعليم عتيق خاص، لفائدة 32030 تلميذا وتلميذة وطالبا وطالبة- منهم 484 ممتدرسا أجنيا جهم من افريقيا- في 289 مدرسة للتعليم العتيق، منها 50.87% في الوسط القروي و2147 مركزا لتحفيظ القرآن الكريم، حسب احصائيات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية⁴⁷⁴ لسنة 2017.

ووعياً بالخصوصية التاريخية لهذا النوع من التعليم ومدى انتشاره الواسع وأبعاده التربوية- التعليمية والدينية والاجتماعية حيث تُقبل عليه بعض الفئات الاجتماعية، صدرت قوانين منظمة له، جعلت من بين الأهداف التي يروم تحقيقها الإلمام بمبادئ العلوم الحديثة وتنمية معلوماتها ومعارفها في مجال الثقافة الاسلامية وضمان تفتحها على العلوم والثقافات الأخرى⁴⁷⁵. تتضمن البرامج الدراسية المطبقة بمؤسسات التعليم العتيق حصصاً إلزامية من المواد المقررة بمؤسسات التعليم العمومي وفي حدود الثلثين من الحصص المخصصة لهذه المواد، بما في ذلك اللغات⁴⁷⁶، كجسر للانفتاح على التعدد اللغوي وأحد أبعاد التواصل الحضاري. إلى جانب اللغة العربية، يتم تعليم اللغة الفرنسية (ساعة واحدة) في الطور الابتدائي واللغتين الفرنسية والانجليزية في الطورين الإعدادي والثانوي، بوعاء زمني يتراوح بين ساعة واحدة وساعتان للغة الانجليزية وثلاث ساعات للغة الفرنسية أسبوعياً⁴⁷⁷. وذلك اعتماداً على المناهج المعتمدة في التعليم العام.

⁴⁷⁴ - <http://www.habous.gov.ma> (Accessed 27/03/2020)

⁴⁷⁵ - ظهير شريف رقم 1.02.09 صادر في 15 من ذي القعدة 1422 الموافق ل 29 يناير 2002، بتنفيذ القانون 01 - 13 في شأن التعليم العتيق، الجريدة الرسمية عدد 4977 بتاريخ 11 فبراير 2002، ص 246.

⁴⁷⁶ - المرجع نفسه، ص 246.

⁴⁷⁷ - <http://www.habous.gov.ma> البرامج الدراسية/8775-التعليم-العتيق-البرامج-الدراسية-الابتدائي-الإعدادي-والثانوي

في الطور الثانوي للتعليم العتيق وبغلاف زمني يقدر ب 34 ساعة سنويا يتم تدريس مادة الفلسفة، التي تضع من بين أهدافها العامة في هذا الطور "التمكن من اكتساب ثقافة فلسفية شمولية ورصينة ترسخ روح النظر العقلي والنقدي السديد في فهم مقتضيات الواقع وجودا ومعرفة وقيما والتشبع بمبادئ وقيم الحوار والتسامح وقبول الاختلاف المتأصل في ثقافة حقوقية شرعية وكونية"⁴⁷⁸، في إطار مجزوءة «الطبيعة والثقافة» في السنة الأولى⁴⁷⁹ التي تتخذ من الإنسان كائنا ثقافيا وتعدد الثقافات وكونية الثقافة وصراع الثقافات كمحاور للتعليم ومجزوءة «الفاعلية والابداع» وفق مفاهيم التقنية والشغل والفن في السنة الثانية⁴⁸⁰ ودراسة مفاهيم الشخص والغير والواجب والحرية خلال السنة الثالثة في مجزوءتي «الوضع البشري» و«الأخلاق»⁴⁸¹.

ومن أجل "التمرس على اكتساب منطق التفكير الاسلامي وأدواته النقدية فهما وتحليلا وتركيبا وتعليلا واستدلالات وحججا"⁴⁸² نجد مواضيع ذات الصلة، في مادة الفكر الإسلامي: التفاعل والتلاقح بين العوامل الداخلية والخارجية وتجلياتها في منظومة الفكر الإسلامي⁴⁸³ والفلسفة الاسلامية واشكالية الوجود والمعرفة ودراسة العلاقة بين الفلسفة والدين باستعمال الأسلوب الحجاجي التناظري والتجربة الصوفية والقيم الأخلاقية انطلاقا من نظرية وحدة الوجود⁴⁸⁴.

نستنتج مما سبق مقاربته من مواد دراسية في التعليق العتيق، تميزه عن التعليم الديني النظامي بطرحه لمواضيع التعدد الثقافي وصراع الحضارات كمحاور للدراسة والتأمل، كما أن انفتاحه على تدريس اللغات تمكين اطلاع للطلبة والطالبات على الثقافات الأجنبية والوعي بالآخر، لأن الانسان عدو ما يجهل. سواء في التعليم العام أو العتيق، تلبية الحاجة المعرفية إلى فهم جديد يناسب مستويات التطور البشري ومجريات

(Accessed 27/03/2020)

⁴⁷⁸ - وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، مديرية التعليم العتيق ومحاربة الامية، برامج التعليم العتيق، مادة الفلسفة، الطور الثانوي العتيق، شنتبر 2016، ص1.

⁴⁷⁹ - المرجع نفسه، ص 5.

⁴⁸⁰ - المرجع نفسه، ص 8.

⁴⁸¹ - المرجع نفسه، ص 10.

⁴⁸² - وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، مديرية التعليم العتيق ومحاربة الامية، برامج التعليم العتيق، مادة الفكر الاسلامي، الطور الثانوي العتيق، شنتبر 2016، ص 1.

⁴⁸³ - المرجع نفسه، ص 4.

⁴⁸⁴ - المرجع نفسه، ص 14.

الثورات الفكرية والتقنية والمعضلات التي تخلفها تقتضي التوسل بالتفكير والبحث العلميين واستخدام منهجيات حديثة في قراءة النص الديني والانفتاح على مكتسبات العلوم الاجتماعية والانسانية ومناهجها العلمية.

ما نعيشه من تطورات تجاوز مقاربات حفظ النصوص وشرح المضامين بسياقات متقدمة وتبيان مقاصد الشريعة خارج الواقع الحضاري المعاصر. التعليم الديني بالمغرب جزء من تجديد أدوار المدرسة وتجاوز دراسة الدين بمقاربات تقليدية، يمكن أن يصبح نبراسا لسيرورة التربية على المسؤولية الأخلاقية والتواصل الإنساني والعيش المشترك والتسامح اتجاه الثقافات المختلفة وطريق نحو الحوار والبناء الحضاري والتفاهم المتبادل والحيلولة دون القراءة المتطرفة للدين وليس دروسا تعليمية جافة منظمة في الزمن والمكان، يتم تقييم مضمونها بامتحانات للحصول على شهادات علمية من أجل ولوج سوق الشغل.

ثالثا: تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وأهمية توظيفها في التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

اللغة العربية من أقدم اللغات وأكثرها انتشارا في العالم حيث يتحدثها أكثر من 422 مليون نسمة⁴⁸⁵ ويتوزع من يتحدثها على امتداد جغرافية الوطن العربي. لا يحتاج أي عربي للترجمة كي يتواصل مع عربي آخر من وطن آخر، فهي القناة المناسبة للتواصل والتعارف والتبادل بين المجتمعات العربية، أفرادا ومؤسسات وأحيانا مع غيرهم من الشعوب الأخرى. اللغة العربية حاملة للحضارة العربية ومرآة للمجتمع والتراث العربيين وقاسم مشترك بين جميع العرب من المحيط إلى الخليج، بالإضافة إلى مناطق أخرى مجاورة كالأحواز وتركيا وتشاد ومالي والسنغال وإريتريا.

اللغة العربية لسان الوحي ولغة القرآن وشعائر دينية لدى كنائس مسيحية في الوطن العربي. ذات أهمية قصوى لدى المسلمين والمسيحيين العرب كما "كتبت بها

⁴⁸⁵ - <https://www.un.org/ar/events/arabiclanguage/day/> (Accessed 15/03/2020).

الكثير من أهم الأعمال الدينية والفكرية اليهودية في العصور الوسطى⁴⁸⁶ وتكتب لغات كثيرة في العالم بالحروف العربية مع استبعاد أحرف وإضافة أخرى، منها الفارسية والأردية.

بالموازاة مع تحولات البيئة اللغوية في العالم، بين اندثار واكتساح لغات وانخفاض تداول أخرى، حافظت اللغة العربية على انتشارها ولا تزال كذلك، رغم وجود تصريحات فاقدة للثقة فيها، يستند أصحابها إلى أنها لم تعد لغة علم ولنا خير مثال في نموذج اليابان التي تحتفظ بلسانها وثقافتها ومع ذلك برزت علميا وتكنولوجيا، لتتبع التساؤلات في هذا السياق: هل اللغة العربية غير قادرة على التنافس ولا تملك أفق إحيائها من جديد؟ هل العيب في اللغة العربية أو في قدرة العرب على تطويرها ونشرها؟ أي حضور للغة العربية في المحافل الدولية؟ وهل يسجل تعليمها إقبالا من قبل الناطقين بغيرها؟ هل توجد مرجعية عربية أو إطار مرجعي موحد لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، يمكن لمراكز تعليم اللغات أو الجامعات اعتماده؟ وبأي استراتيجيات ديداكتيكية وبيداغوجية ومحتوى تعليمي؟ ما مدى حضور البعد الثقافي والهوياتي في مناهج وبرامج تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها؟ وإلى أي حد سيساهم تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في التواصل الحضاري وحوار الثقافات؟

اللغة العربية لغة رسمية في كل الدول العربية، إضافة إلى دول أخرى كتشاد وإريتريا وإسرائيل. تتواجد ضمن اللغات العشر الأوائل في العالم على الشبكة العنكبونية، في المرتبة الرابعة⁴⁸⁷ بعد اللغة الإنجليزية والصينية والإسبانية. إحدى اللغات الرسمية الستة ولغات العمل في منظمة الأمم المتحدة والوكالات والمنظمات الدولية إلى جانب الإنجليزية والصينية والإسبانية والفرنسية والروسية ويقبل دبلوماسيو الدول الكبرى على تعلم اللغة العربية بهدف تحقيق تواصل فعال مع الشعوب الناطقة بها وفهم ثقافتها. قررت الأمم المتحدة الاحتفال بها في 18 دجنبر من كل سنة⁴⁸⁸، في إطار دعم وتعزيز تعدد اللغات وتعدد الثقافات.

⁴⁸⁶ - ibid.

⁴⁸⁷ - <https://www.internetworldstats.com/stats7.htm> (Accessed 15/03/2020)

⁴⁸⁸ - [https://undocs.org/ar/A/RES/3190\(XXVIII\)](https://undocs.org/ar/A/RES/3190(XXVIII)) (Accessed 15/03/2020).

عبر تاريخها لقرون، انفتحت اللغة العربية على معارف وعلوم الإغريق والهند وبلاد فارس، كانت لغة علم وأدب وفلسفة وفلك وطب وجبر، ساهمت بحمولة حضارية ودينية في بناء الحضارات الإنسانية المتعاقبة. كتب بها عدة علماء غير عرب واستطاعت تحقيق التراكم المعرفي بترجمة العلوم اليونانية والفارسية والهندية وكانت لغة العلم في العصر الوسيط. حاليا اللغة العربية لغة للتواصل العالمي، ترددها ووزنها في المحافل الدولية وقنوات الاعلام وفضاءات الاتصال العالمية يؤكد قوة موقعها وإمكانية مواجهتها لرهانات العولمة بالبحث العلمي وتطوير وظائفها السوسيو- ثقافية وتنمية وتحفيز الصناعات الثقافية الناطقة باللغة العربية.

بعدما ساهمت في النهضة الفكرية سابقا، عاشت "لغة الضاد ألوانا من الضيم طيلة الحقبة الاستعمارية ولا سيما الأمصار التي كتبت عليها الأقدار أن تعيش تحت نير الاستعمار الفرنسي"⁴⁸⁹ وظهرت المطالبات بالتعريب الشامل في مختلف مناحي الحياة بعد أن استقلت الدول، الفكرة التي عززت الأمن اللغوي للعالم العربي ولم تستطع تحقيق نتائج وافية - خاصة في المجالات العلمية والتقنية- لأسباب لا يتسع المجال للخوض فيها. الآن تعيش اللغة العربية تحديات، من مثل: ضعف الترجمة والبحث العلمي وعدم اغناء معجمها بالمصطلحات والمفاهيم العلمية المستجدة وسيطرة الثورة التكنولوجية التي تعتمد على اللغة الإنجليزية وهيمنة لغات بعينها على قطاعات حيوية في الدول العربية، مما أدى إلى اتهامها أحيانا بالقصور وضعف منسوب انتشارها بين ثقافات العالم.

وثمة بيان آخر واثق من وجودها، يعتبرها لغة متفردة ومتجذرة في الوجدان الانساني ويجعل جاذبية اللغة العربية تقوم على فكرة كونها لغة المقدس، في اقتران قدسية القرآن الكريم باللغة العربية ومكون حضاري وتاريخي وديني للمجتمعات الإسلامية. لا تتم الصلاة وعبادات أخرى في الإسلام إلا بإتقان بعض من كلماتها. زد على ذلك عدد الناطقين بها في قارات العالم والرهانات التواصلية والثقافية لهذا الحضور. لذلك فمن البديهي أن تشكل رقما صعبا في المعادلة اللغوية العالمية وتحظى باهتمام دائم رغم التحديات السالفة الذكر.

⁴⁸⁹ - عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، 2014، ص 29.

كتعليم موجه للكبار عامة وأبناء الجالية خارج الوطن العربي خاصة، لقي مجال تعليم اللغة العربية اهتماما واسعا، من قبل الأفراد والمؤسسات والمعاهد والجامعات في بقاع العالم، مما يؤشر للحاجة إلى تعلمها سواء كانت تواصلية أو تعليمية أو دينية أو اقتصادية أو مهنية - الحصول على وظائف في وزارات الخارجية في الغرب- أو سياحية وإعلامية، حيث عدد من القنوات الإعلامية العالمية توفر خدماتها باللغة العربية (RT/ DW/ France 24/ CNN/ TRT/BBC) إضافة إلى حضور قوي للجالية العربية الإسلامية في المجتمعات الغربية واهتمام - مرضي- للغرب بالإسلام ودراسة عدد من الباحثين الغربيين بدراسة الشرق والاسلام وأحوال العالم العربي، ثقافيا وفكريا وسياسيا. يمكن أن نلخص أهمية تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في:

- التعرف على الثقافة العربية الإسلامية وشخصية الإنسان العربي وقيمه واتجاهاته.
- الأهمية الاستراتيجية للجغرافيا السياسية للعالم العربي.
- فهم الدين الاسلامي وتعزيز فهمه من داخل ثقافة أجنبية وليس عبر المستشرقين أو باحثين غير موضوعيين.
- إضاءة اشكاليات وقضايا العالم العربي، خاصة ما يتعلق بالصراعات في الشرق الأوسط.
- تغيير الصور النمطية السلبية التي شكلت في الغرب عن العالم العربي والإسلامي خاصة.
- تزايد أعداد الدارسين والباحثين والدبلوماسيين الأجانب في الوطن العربي.
- تعزيز فهم السياق الثقافي للمحاور ونظامه القيمي وفرص التواصل الحقيقي مع المجتمعات العربية.

اختلف الباحثون اللغويون في تحديد زمن تعلم اللغة العربية بدرجة الإتقان، وتراوح بين 1200 و 2000 ساعة تدريس⁴⁹⁰، إلا أن هذا الزمن المتوقع يخضع لبيئة التعلم ورغبة المتعلم وتقنيات التنشيط والتواصل ووسائل التعلم وكفاءة المعلم ومدى تكوينه

⁴⁹⁰ - خالد حسين أبو عيشة، المغني في تعليم العربية للناطقين بغيرها، أصوات للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 2018، ص 19.

واستيعابه للبعد الثقافي في عملية التعليم. إضافة إلى تملك كفايات بيداغوجية تمتح من القدرة على التعليل والتحليل والتركيب والحوار.

وفاء للوظيفة التواصلية للغة واعتبارا لكون هذا النوع من التعليم يجب أن يحتل فيه السياق الثقافي المكانة المرموقة، ينبغي التركيز في تعليم اللغة العربية على المقاربة التواصلية وظيفيا وتطبيقيا بأبعاد الثقافة العربية، حتى يتسنى للمتعلم اكتشاف الثقافة التي تمثلها اللغة الجديدة. إنه تعليم ينطلق من:

■ إيلاء الأولوية أثناء تعليم اللغة العربية للوظيفة التواصلية على القواعد النحوية التي تمثل عبئا ثقيلًا في بداية تعلم أي لغة.

■ المتعلم محور عملية التعليم والتعلم والاكساب عبر الممارسة والاتصال.

■ اعتماد مبادئ ديداكتيكية متعارف عليها في ديداكتيك اللغات، من مثل: مبدأ التدرج، مبدأ الاستمرارية، مبدأ التراكم، مبدأي التضمن والتصريح، مبدأ الانتقال من البسيط إلى المركب، مبدأ التنويع.

■ ارساء مهارات الوعي الصوتي أولا مع الأخذ بعين الاعتبار صعوبة نطق بعض الحروف العربية ثم تنمية المعجم الثقافي ثانيا (من اللغة إلى الثقافة عبر المفردات) ثم الجوانب النحوية والصرفية والدلالية ثالثا، أي التركيز بالترتيب على الأصوات ورصيد المفردات (الجسر) والتراكيب والدلالة.

■ تعلم وممارسة اللغة في سياقات حية واتصال مباشر مع متكلميها بالاعتماد على الانغماس اللغوي، أي وضع المتعلم في محيط لغوي يعادل البيئة الطبيعية للغة العربية.

■ تثبيت القواعد الخاصة باللغة العربية انطلاقا من وضعيات تواصلية تستثمر الرصيد المعجمي الوظيفي، تصبح بمثابة إجابات عن الأسئلة أو الانشغالات التي يثيرها المتعلم.

■ مراعاة التكامل بين فهم المسموع والمقروء والانتاج الشفوي والكتابي.

■ استحضار البعد الثقافي في المضامين المعرفية اللغوية (الثقافة محور تدريس اللغة) من خلال الربط أو التركيب بين العبارات والقواعد اللغوية وبين الأهداف التواصلية الثقافية تعزيزاً للوعي الثقافي والحضاري الكوني.

■ استعمال وتوظيف نصوص وخطابات وتعبيرات ورموز من الثقافة العربية الإسلامية.

■ اعمال المقاربة البين - ثقافية عبر الجمع أو المقارنة بين معارف ومهارات وقيم اللغة الأم والثقافة الأصل واللغة والثقافة العربية والتركيز على الأبعاد والدلالات التي تحضر في الثقافتين معا تطويرا للكفاءة بين - الثقافات وتجسيدا لكونية قيم معينة تحضر في جميع الثقافات.

وينتهي بمراعاة التغذية الراجعة والغاية من تعلم اللغة، سواء كانت تواصلية أم ثقافية أم مهنية... والمعارف التي يحتاجها المتعلم لتحقيق هذه الغاية، ولا يفوتنا في هذا المجال البيداغوجي الصرف إعادة التأكيد على أهمية إدماج البعد الثقافي وفهم الخطاب بأنواعه، اللفظي والمكتوب والاشاري والتعبيري الرمزي في مناهج تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، لأن "دراسة لغة - أي لغة كانت - لا يتوقف على معرفة أنظمتها المعجمية والصرفية والنحوية، بل يتعدى ذلك إلى معرفة أهم خصائص ثقافة تلك اللغة"⁴⁹¹ وسلوكها غير اللغوي والدلالات الثقافية وعمقها الحضاري من جهة ومن جهة أخرى خدمة للتعارف والتواصل الحضاري والتبادل الثقافي والاندماج الاجتماعي والحوار الفكري وبناء الثقة مع الآخر.

كما لا يمكننا نفي التطور الحاصل في تعليم اللغات الأجنبية في أوروبا، مقابل الادعاء أن "مناهج اللغة العربية وبرامجها، باعتبارها لغة أجنبية، ما زالت لم تستفد، في غالبيتها بالقدر الكافي، من التطورات الحاصلة في الدرس اللساني الوظيفي والتطبيقي"⁴⁹². لنطالب بإلحاح الباحثين في حقل الدراسات العربية البحث الحثيث في

⁴⁹¹ - البعد الثقافي في تعليم العربية لغة ثانية من وجهة نظر لسانية تداولية، حاتم عبيد، مجلة اللسانيات العربية، مركز الملك عبد الله، العدد 2، شتنبر 2015، ص 121.

⁴⁹² - بلقاسم عبد السلام اليوبي وصالح بن عباد الحجوري، تطوير مهارات اللغة العربية وفق الاطار الأوروبي المشترك للغات، مجلة التواصل اللساني، مؤسسة العرفان للاستشارات التربوية والتطوير المهني، المجلد 19، العددان 1 و2، ص 173.

آليات اكتساب اللغات والنهل من التجارب والممارسات التعليمية الدولية الناجحة في إعداد إطار مرجعي لغوي عربي في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، إذ "يشيع في الأوساط اللغوية العالمية مرجعتان فلسفتان لغويتان هما: المجلس الأمريكي لتعليم اللغات الأجنبية والإطار المرجعي الأوروبي المشترك للغات"⁴⁹³.

وفق هذا المنظور، نقترح الاطلاع والنهل من المعايير والمبادئ التوجيهية للإطار الأوروبي المشترك للغات الذي يصف الكفايات اللازمة للاتصال وأنواعها ويوفر رؤية للمهارات والمعارف ذات العلاقة بعملية التعلم والتعليم ويساوي بين اللغات والثقافات بواسطة المداخل التواصلية اللغوية الأربعة: الاستماع والتحدث والقراءة والكتابة، في تكامل بين ثلاث أنشطة لغوية تواصلية: الاستقبال (قراءة واستماعا) والانتاج (محادثة وكتابة) والتفاعل، تحقق الكفايات اللغوية التواصلية معرفيا وتداوليا.

لا ضير في الاستئناس بالمبادئ التوجيهية وتصور الإطار المرجعي الأوروبي المشترك (تعلم * تعليم * تقييم)⁴⁹⁴ كمرجع دولي في تطوير تعليم العربية للناطقين بغيرها من حيث توصيف الكفايات اللازمة للتواصل وتحديد المستويات والأهداف اللغوية - العامة والخاصة - والمناهج الدراسية ووضع الاختبارات وتقييم مهارات اللغة. دون اغفال إدراج الأبعاد والقضايا الثقافية والحضارية العربية في المضامين المعرفية اللغوية وتكوين مدرسي ومدرسات اللغة. إنه مجال خصب للبحث والدراسة والتنظير اللغوي.

يضع الإطار الأوروبي المشترك للغات وصفا لسلم ثلاثي يضم ست مستويات لغوية⁴⁹⁵ هي: A1 (المستوى التمهيدي) وA2 (المستوى المتوسط) وB1 (مستوى العتبة) وB2 (المستوى المتقدم) وC1 (المستوى المستقل) وC2 (مستوى الاتقان) ويقسم الكفايات التواصلية اللغوية إلى ثلاثة مستويات رئيسية: مبتدئ ومتوسط ومتقدم، وينقسم كل مستوى بدوره إلى مستويين ويعد هذا الإطار المرجع الوحيد لكل الدول الأوروبية فيما يتعلق بتعليم اللغات الأجنبية، مترجم ل 40 لغة ويتم استخدامه في 47 دولة عضو في مجلس

⁴⁹³ - خالد حسين أبو عيشة، المغني في تعليم العربية للناطقين بغيرها، مرجع سابق، ص 9.

⁴⁹⁴ - <https://www.coe.int/fr/web/common-european-framework-reference-languages/cefr-in-the-classroom> (Accessed 18/03/2020)

⁴⁹⁵ - <https://www.coe.int/fr/web/common-european-framework-reference-languages/table-1-cefr-3.3-common-reference-levels-global-scale> (Accessed 18/03/2020)

أوروبا وفي قارات أخرى⁴⁹⁶. في الإطار الأوروبي المرجعي الموحد للغات (CEFR) شبكة التقييم الذاتي كأداة لثلاثين مقياساً تتوزع على خمسة أنشطة: الاستماع والفهم، فهم القراءة، المشاركة في محادثة، الإنتاج الشفوي، الإنتاج كتابي⁴⁹⁷.

علاقة بالتطور التكنولوجي والتعليم الإلكتروني، تعج الشبكة العنكبوتية بمدونات تعليم اللغة العربية وتسعى مؤسسات ومعاهد علمية، عربية وأجنبية، إلى تقديم برامج الكترونية ومدونات وتطبيقات تفاعلية على الشبكة العنكبوتية لتعليم اللغة العربية، نوع من التعليم عن بعد أو التعليم المفتوح، بدون قيود زمنية أو مكانية ويحقق فعلاً تواصلية وتعليمياً مرناً.. برامج من الصعب حصر عددها وتركز جلها على تحقيق الأصوات والصرف وتنمية الرصيد المعجمي والمستوى التركيبي باستعمال السياق المعياري الفصيح والثقافة، تعتمد على المثيرات والعرض السمعي البصري واستخدام الصور والملفات الصوتية وبعض الفيديوهات التي تساعد المتعلم على الاستماع والنطق والقراءة والكتابة لاكتساب الكفايات اللغوية بواسطة التعلم التفاعلي.

أثار انتباهنا برنامج «العربية على الانترنت» الذي حدد من بين أهدافه "الاسهام في نشر الثقافة العربية الاسلامية والمشاركة بفعالية في تعزيز التفاهم والعيش المشترك بين مختلف الحضارات والثقافات وتلبية الحاجة إلى التواصل الثقافي والحضاري بين أبناء العربية وأبناء الثقافات العالمية الأخرى"⁴⁹⁸. ونكاد نجزم - بعد بحث حثيث- بخلو المكتبة العربية من معجم موجه للناطقين بغير اللغة العربية وصعوبة استعمال المعاجم العربية القديمة وبعدها عن توظيف البعد الثقافي أو موضوعات تهم الناطقين بغير اللغة العربية. فهل أهمل صناع المعاجم تأليف معاجم خاصة للناطقين بغير اللغة العربية؟

في المغرب، نظراً لموقعه الجيو-استراتيجي وقربه من ثقافات أفريقية وعربية وأوروبية وانفتاحه الثقافي واللغوي الذي يتميز به، ينشط مجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في الجامعات المغربية ومراكز لغات خاصة، كالمركز الجامعي لتعليم

⁴⁹⁶ - <https://www.coe.int/fr/web/common-european-framework-reference-languages/cefr-in-the-classroom> (Accessed 18/03/2020)

⁴⁹⁷ - <https://www.coe.int/fr/web/common-european-framework-reference-languages/table-2-cefr-3.3-common-reference-levels-self-assessment-grid> (Accessed 18/03/2020)

⁴⁹⁸ - <https://www.arabic-online.net/copy-of-home-1?lang=ar> (Accessed 18/03/2020).

اللغة العربية للناطقين بغيرها والذي افتتح بتاريخ 25 يوليو 2016 بجامعة محمد الخامس ومعهد ILES لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، المتواجد وسط العاصمة المغربية الرباط⁴⁹⁹.

ختاما، اللغة العربية صامدة في وجه رهانات العصر والتحديات الحضارية والصراعات اللغوية على الصعيد العالمي، قادرة على الاستمرار والأداء لأنها لغة علم بامتياز، يثبت ذلك ما قدمه العلماء العرب والمسلمين من علوم ترجمها الغرب في مختلف الميادين، ترجمت رسائل جابر بن حيان في الكيمياء وابن سينا في الطب والخوارزمي في الرياضيات الى اللغات الأوروبية. عائق الترجمة اليوم يقف أمام تقدم وانتشار اللغة العربية، لذلك يجب التفكير في الترجمة والجاهزية المعرفية في مختلف المجالات العلمية وتحديث اللغة بإغناء معجمها بمصطلحات مستجدة ومواكبة للتطور الحضاري والطفرة الرقمية بما في ذلك خلق كلمات ومصطلحات جديدة وتجاوز اشكالية الفصحى والعاميات وضعف الصناعة المعجمية العربية بتحديث المعاجم وإعادة إنتاجها بما يلبي حاجات المتعلم غير العربي - دون الاخلال بقواعد اللغة - ويأخذ بعين الاعتبار باقي الثقافات العالمية. الأمر الذي يتطلب عملا مكثفا لمختبرات ومراكز البحث العلمي في الجامعات العربية عامة والمغربية خاصة.

وبعيدا عن المقاربة العاطفية أو الاصولية (العربية هي الأصل ولغة العبادة) اتجاه اللغة، يشكل تعليم اللغة العربية لغير الناطقين مقاربة عملية وحضارية توظف الإمكانيات الدلالية للغة العربية والقدرات التواصلية الانسانية في تدبير الوعي بالاختلافات الثقافية وتحقيق التلاقح الحضاري والحوار الثقافي بين شعوب الأرض. فمن يتعلم لغة ثانية حتما يتعلم ثقافة ثانية وحيث التنمية الثقافية والعلمية ترتبط ارتباطا جوهريا بالإبداع والابتكار وقوة الانتاج، كلما كان انتاجنا المعرفي والعلمي أكثر أهمية وابتكارا وانفتاحا، أضى تعلم اللغة العربية مطلبا ملحا في تعددية لغوية عالمية تطبعها الندية، لا تابع ولا متبوع فيها ولا مجال للسؤال: لماذا الهجوم على اللغة العربية وحدها؟ وترك ما كان كما كان.

⁴⁹⁹ - <https://iles.ma/#/تعليم-اللغة-العربية-لغير-الناطقين-بها> (Accessed 18/03/2020).

إن الضرورة مؤكدة لإحداث هيئة علمية لغوية مختصة، تجمع فريقاً من ذوي الكفاءات العلمية وتكون مرجعاً أكاديمياً لعلوم اللغة العربية وآدابها وأصول تدريسها في القرن الواحد والعشرين بمتطلباته ومهاراته، بما فيها استعمال التقنيات الحديثة والاستفادة من التجارب والخبرات العالمية.

حاولنا في هذا المبحث، تأكيد أهمية تجديد الخطاب الديني عبر التعليم في التواصل الحضاري عموماً وحوار الثقافات والأديان خصوصاً، في ظل التطورات والاشكالات التي تسم عصرنا هذا، وإيماننا منا بأهمية الحوار بين الثقافات في الحد من التوترات التي يشهدها العالم والأدوار التي يمكن للتربية والتعليم القيام بها في صياغة محتوى ديني ثقافي ودعم المناهضة التواصلية والفكرية للشباب المغربي من خلال اكتساب المهارات التواصلية والكفاءات المعرفية لمواجهة - أو عدم تبني - أفكار وآراء التطرف الديني وموجات الانغلاق التي تضيء الشرعية على خطاب الكراهية والعنف.

ما دام للمغرب التزام قوي بالقيم التي يمثلها حوار الثقافات والتعددية الثقافية والدينية، ورصيد هام في حوار الأديان والتواصل الحضاري يمكن للتعليم الديني أن يسهم في هذه الدينامية ومحاربة التعصب والتمييز على أساس الدين أو المعتقد ويعمق التفكير حول التواصل الحضاري وحوار الثقافات وإذكاء الوعي بالحاجة الملحة إليهما.

المغرب عرف عبر تاريخه الطويل بالتعامل الجيد والنظرة المتسامحة مع كافة الطوائف الدينية والنموذج المغربي يتميز بتفرده على المستوى الإقليمي، من حيث واقعه الثقافي وانفتاحه على الديانات الأخرى على امتداد تاريخه - خاصة الحقبة الاندلسية- الذي يشهد على تجذر التواصل والتعايش، لاسيما بين المسلمين واليهود، فلا فرق في المغرب بين المواطنين المسلمين واليهود، يمارس اليهود شعائره الدينية في بيوتهم واحتفالاتهم السنوية ويزرون المواقع الدينية اليهودية بأمن وأمان، أما بالنسبة للمسيحيين المقيمين في المغرب، فلهم على الدوام الحق في إقامة شعائره الدينية في الكنائس. هنا نكتشف أن الحوار بين الثقافات والديانات ليس مفهوماً مجرداً فكرياً ولكنه نهج حقيقي وواقعي يظهر معناه جلياً في الإيمان العميق والالتزام الجاد وربط القناعات بالممارسات أو الأقوال بالأفعال. جاء في رسالة صاحب الجلالة الملك محمد السادس إلى المشاركين

في الدورة الثانية للمؤتمر الدولي لحوار الثقافات والأديان، التي نظمتها وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي للمملكة المغربية والمنظمة الدولية للفرنكوفونية، من 10 إلى 12 شتنبر 2018 بفاس، حول موضوع «سؤال الغيرية»: "المغرب كان دائما وسيظل ملتزما بنهج إسلام معتدل يقوم، بحكم جوهره، على المبادئ الكونية السامية، ومن ضمنها قيم التسامح والحوار"⁵⁰⁰.

المبحث الثالث: التربية على التسامح والسلام والتعليم من أجل المواطنة العالمية في مجتمع المعرفة.

مع كل خبر نسمعه أو حدث نشهده لتعصب أو تطرف عنيف في مكان ما في العالم، تنطلق التدوينات والمقالات والتساؤلات حول أفضل السبل لبناء عالم ينعم بالسلام والرخاء وتوجه البوصلة لمنظومة قيم وأخلاق مشتركة تجسد معاني الإنسانية وتحقق الوجود الفاعل للإنسان وسبل التواصل والحوار بين الأفراد رغم الاختلاف في الدين والثقافة والانتماء الحضاري. ما العمل للقضاء على هذا التعصب والعنف أو على الأقل الحد من شدته العابرة لكل الحدود؟ ما هي أفضل السبل لكي يتصرف المرء بحكمة ووعي إزاء التوترات والأزمات، بشكل لا يؤدي إلى التعصب أو التطرف العنيف؟ لعل الجواب في التربية وتحديدًا في التربية على قيم التسامح والسلام.

وبعد أن تهاوت الجدران وأضحت الحدود الجغرافية والهويات الثقافية مستباحة وانتشر الانتاج المعرفي والثقافي في أصقاع الكوكب وخلفت العولمة والطابع العالمي لمجتمع المعرفة والهجرة وتكنولوجيات الاتصال تفاوتًا حضاريًا وصراعات ثقافية وانعكاسات سلبية على الإنسان وبيئته ... تعززت فرص التواصل الحضاري والحوار وتبادل الأفكار وفتحت قنوات الاتصال المتنوعة على مصراعيها ولم يعد للتقوقع والانغلاق وسؤال النأي بالنفس مكان وظهر شعور بالانتماء إلى فضاء أوسع وتحمل مسؤولية كبرى اتجاه القضايا العالمية في شكل جديد من أشكال المواطنة في المجتمعات المعاصرة، إنها المواطنة العالمية والتي تتطلب بدورها تربية وتعليمًا يرسخ الحقوق

نص-الرسالة-السامية-التي بعثها-جلالة-الملك-إلى-المشاركين-في-الدورة-الثانية-للمؤتمر-الدولي-لحوار-<http://www.maroc.ma/ar> -⁵⁰⁰
(Accessed 24/03/2020)

والواجبات والمسؤوليات اتجاه التحديات العالمية ويطور أدوات ومهارات التواصل والذكاء التفاعلي.

تأسيسا على ما تقدم، ارتأينا مقارنة هذا الموضوع الثلاثي الأبعاد نظرا لتوفر القناعة بكون التربية على التسامح والسلام والتعليم من أجل المواطنة العالمية وبناء مجتمع المعرفة تفتح المجال أمام معرفة واحترام الاختلافات الفردية والثقافية والدينية المتنوعة والاستعداد للتعايش في فضاء كوني واحد بثقافات متنوعة، يضيف ثقة في التواصل الحضاري ويشكل جسرا بين جميع الثقافات، بين ما هو مشترك إنساني عام وما هو مختلف في الهويات والخصوصيات الثقافية والدينية، يعضد الحوار ويسهم في الانفتاح والاتصال والقبول بحق الاختلاف والاعتراف بالآخر وحرية في الاعتقاد والتعبير والتفكير وبهذا التصور يمكن لحوار حقيقي بين الثقافات أن يشكل ضمانة لحقوق الأجيال المقبلة، رواد مدرسة اليوم، في السلام والتسامح والعيش المشترك في عالم تسوده المواطنة الكونية والمعرفة كموروث إنساني.

أولا: التربية على قيم التسامح والسلام سبيل للتواصل الحضاري وحوار الثقافات

لن نحتاج عناء التذكير بأن التربية صمام أمان للحد من التعصب والتطرف ورفض الآخر والأداة الأكثر نجاعة لتوجيه وإعداد الفرد لقبول الآخر والانفتاح والعيش المشترك بتسامح ونبذ للعنف. يقول امبرتو ايكو - في تقديمه لكتاب أعداء الحوار - التسامح "ليس سلوكا طبيعيا بل هو نتاج الثقافة والتربية. تماما مثلنا يتعلم كل منا ألا يسرق أو يقتل"⁵⁰¹، فغاية التربية الإعداد للحياة بما هو معرفي وما هو قيمى واجتماعي يتعلق بمنظومة القيم الإنسانية كقواعد ناظمة تتحكم في التفكير والسلوك الإنساني، انطلاقا من مرجعيات الدين والأخلاق والأعراف والعادات والتقاليد، ورغم أنها مهمة مجتمعية فإن أفضل مكان لممارستها بعلم وانتظام هو المدرسة، البيئة الحاضنة والمقر الرسمي لمنظومة التربية والتعليم، إلا أن مشاهد العنف واللاتسامح وأزمات التاريخ عبر العالم تدعونا للتساؤل عن مدى تحمل منظومة التربية والتعليم مسؤولية هذا العنف الذي يدهم الحضارات الإنسانية

⁵⁰¹ - مايكل انجلو ياكوبوتشي، أعداء الحوار: أسباب اللاتسامح ومظاهره، ترجمة عبد الفتاح حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010، ص 16.

ومساءلة أدوار هذه المنظومة في تأصيل قيم التسامح ومبادئ السلام وتكوين مواطن يرغب في السلام ويقبل متسامحا بحق الآخر في الرأي والفكر والعقيدة في عالم متنوع الثقافات والديانات، يضم مجتمعات مفتوحة تتوق للحريات والديموقراطية.

وفق هذا المنظور، تبدو التساؤلات التالية مفيدة: كيف نمكّن مواطني الغد من العيش بسلام في المجتمعات المعاصرة التي تفيض بالتنوع؟ ما موقع التسامح والسلام في عائلة القيم الإنسانية وما أثره في تعايش الثقافات والديانات والخروج من دائرة الصراع والصدام؟ كيف يمكن للتربية على قيم التسامح والسلام أن تشكل منهاجاً في التواصل الحضاري وحوار الثقافات؟ كيف تتمظهر التربية على التسامح في منظومة التربية والتعليم بالمغرب؟

إن سؤال التسامح موضوع للتأمل والتفكير في أبعاده المتعددة، الدينية والفلسفية والنفسية، إلا أن الغرض من عملنا هذا ليس تأصيل التسامح على المستوى الديني أو الفلسفي أو النفسي ورصد صورته وحدوده أو صنع السلام بين الثقافتين العربية الإسلامية والغربية، إنما إضاءة سبل ترجمة قيم التسامح والسلام نظرياً وعملياً في المجال التربوي والتثقيب عن أدوارهما ضمن منظومة التربية على القيم في تنمية التواصل الحضاري وحوار الثقافات، وهي جهود يقودها باحثون ورجال دين ومؤسسات فكرية ودينية وإقليمية، نكتفي بسردها مثالين لها، المثال الأول لمؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية التي نظمت منتدى عالمياً لثقافة السلام⁵⁰² بتاريخ 13 يونيو 2019، في مقر محكمة العدل الدولية بمدينة لاهاي الهولندية. تضمنت جلسات المنتدى محورين رئيسيين هما: «تدريس ثقافة السلام» و«حماية التراث الثقافي العالمي» وشهدت فعاليات الجلسة الختامية إطلاق 17 منهاجاً تعليمياً من أجل تدريس ثقافة السلام في العالم، من الحضارة إلى الجامعة.

المثال الثاني من المؤتمر العالمي للأخوة الإنسانية المنعقد بأبو ظبي بتاريخ 4 فبراير 2019 وقد أصدر «وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والعيش المشترك» وقع عليها شيخ الأزهر وبابا الكنيسة الكاثوليكية وتتص على "أن

⁵⁰² - <https://www.e.gov.kw/sites/KGOArabic/Pages/ApplicationPages/NewsDetail.aspx?nid=944989> (Accessed 23/05/2020).

الحوار والتفاهم ونشر ثقافة التسامح وقبول الآخر والتعايش بين الناس، من شأنه أن يساهم في احتواء كثير من المشكلات... وأن الحوار بين المؤمنين يعني التلاقي في المساحة الهائلة للقيم الروحية والإنسانية والاجتماعية المشتركة، واستثمار ذلك في نشر الأخلاق والفضائل العليا التي تدعو إليها الأديان، وتجنب الجدل العقيم... وأن العلاقة بين الشرق والغرب هي ضرورة قصوى لكليهما، لا يمكن الاستعاضة عنها أو تجاهلها، ليغتني كلاهما من الحضارة الأخرى عبر التبادل وحوار الثقافات؛⁵⁰³ وطالب شيخ الأزهر وبابا الكنيسة الكاثوليكية بأن تصبح هذه الوثيقة موضوع بحث وتأمل في جميع المدارس والجامعات والمعاهد التعليمية والتربوية؛ لتساعد على خلق أجيال جديدة تحمل الخير والسلام.⁵⁰⁴

ارتبطت فكرة التسامح في بداياتها بالمسألة الدينية لدى الفيلسوف جون لوك في «رسالة في التسامح» التي كتبها بمنفاه سنة 1689م إبان الصراع والشقاق الديني في أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت، بوصفها دعوة للاعتراف بحق الآخر في الاختلاف والاعتقاد حيث الحقوق والامتيازات لا علاقة لها بالدين. كان جون ينظر إلى هذه الفكرة "بوصفها الحل العقلاني الوحيد (حسب لغته) لمشكلة الخلافات التي نشأت داخل المسيحية، الدين الرئيسي في الثقافة الغربية"⁵⁰⁵ ومن ثم "ليس من حق أي شخص، بأي حال من الأحوال، أن يحقد على شخص آخر في شأن مَنَعِه المدنية لا لسبب إلا لأنه ينتمي إلى كنيسة أخرى أو يؤمن بدين آخر"⁵⁰⁶ وكذلك "ليس النار والسيف أداتين لإقناع البشر بأنهم على خطأ وإخبارهم بالحقيقة"⁵⁰⁷. تعكس الرسالة الجذور الفكرية للتسامح وتبلور الوعي الغربي بثمر الصدام، يقول فولتير: "نحن نعلم كم هو باهظ الثمن الذي دفع منذ أن راح المسيحيون يتشاحنون ويتقاتلون بسبب العقيدة"⁵⁰⁸ ويتساءل "ما هو التسامح؟ إنه نتيجة ملازمة لكيونتنا البشرية. إننا جميعا من نتاج الضعف: كلنا هشون وميالون للخطأ. لذا

⁵⁰³ - http://www.vatican.va/content/francesco/ar/travels/2019/outside/documents/papa-francesco_20190204_documento-fratellanza-umana.html (Accessed 23/05/2020).

⁵⁰⁴ - <http://humanfraternitymeeting.com/ar/declaration> (Accessed 23/05/2020).

⁵⁰⁵ - سمير الخليل، التسامح بين شرق وغرب، دراسات في التعايش والقبول بالآخر، ترجمة إبراهيم العريس، دار الساقى، بيروت، الطبعة الأولى، 1996، ص 5.

⁵⁰⁶ - جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة منى أبو سمة، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997، ص 32.

⁵⁰⁷ - المرجع نفسه، ص 34.

⁵⁰⁸ - فولتير، رسالة في التسامح، ترجمة هنرييت عبودي، دار بترا للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2009، ص 22.

دعونا نسامح بعضنا البعض ونتسامح مع جنون بعضنا البعض بشكل متبادل. وذلك هو المبدأ الأول لقانون الطبيعة. المبدأ الأول لحقوق الإنسان كافة"⁵⁰⁹.

بعد ذلك، تجاوز مفهوم التسامح معطيات التناول التقليدي على أنه مفهوم ديني فحسب وتوسع حضوره في كتابات وممارسات مفكرين، في الثقافتين العربية الإسلامية والغربية، بالموازاة مع ما شهده واقع البشرية من آثار اللاتسامح خلفتها دكتاتوريات وحروب وصراعات متتالية في القرن العشرين الموسوم بالعنف، واهتم الفلاسفة بمفهوم التسامح "باعتباره أحد أسس النظام الديمقراطي الذي ينمو فيه المجتمع المدني وتتطور فيه دولة المؤسسات والقانون ويظهر فيه الحق في الاختلاف وقبوله واحترام الرأي الآخر"⁵¹⁰ وأضحى ليس فضيلة وخلق تمليهما التعاليم الدينية والأفكار الفلسفية ولكنه بالأحرى استجابة لمتطلبات التواصل الحضاري وحوار الثقافات في زمن الاضطرابات الأيديولوجية، لا ينظر إليه من نافل القول، بل تطور الحضور التاريخي للمفهوم ليقوم على مبادئ حقوق الإنسان والديموقراطية والسلم، كضرورة قانونية تتطلب الحماية، حيث أصدرت اليونسكو إعلاناً للمبادئ حول التسامح تبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة في نونبر 1995، حدد معنى التسامح في "الاحترام والقبول والتقدير الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير وللصفات الإنسانية لدينا. ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير والمعتقد"⁵¹¹ ويضيف نفس الإعلان أن التسامح "ليس واجباً أخلاقياً فحسب وإنما هو واجب سياسي وقانوني أيضاً.. يسهم في إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب"⁵¹² ودعا إلى ضرورة اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتعزيز مفهوم التسامح تربوياً.

التسامح بهذا المعنى ذو مظاهر وأبعاد توظف في سياقات متعددة، تتولد عنه كثير من القيم الإنسانية الأخرى وتجعل المجتمعات كافة في حاجة إليها، وهو فضيلة بل موقف أخلاقي لا يعني المساواة أو التساهل، بل يحيل على قبول التعدد والاختلاف - كفعل

⁵⁰⁹ - سمير الخليل، التسامح بين شرق وغرب، دراسات في التعايش والقبول بالآخر، مرجع سابق، ص 76.

⁵¹⁰ - إبراهيم عثمان وآخرون، سؤال التسامح، دراسة وحوار، مركز عمان لدراسات حقوق الإنسان، دار الخليج للصحافة والنشر، الطبعة الأولى، 2017، ص 6.

⁵¹¹ - الأمم المتحدة، إعلان مبادئ بشأن التسامح، اليونسكو، باريس، 1995.

⁵¹² - المرجع نفسه، ص 1.

إرادي- والإقرار بحق الآخر في الاختلاف واحترام موقفه وحياته الأساسية والعيش معه بسلام، بمعنى "أن المرء حر في التمسك بمعتقداته وأنه يقبل أن يتمسك الآخرون بمعتقداتهم"⁵¹³ على حد تعبير مديرة اليونسكو.

في التعاليم الدينية اليهودية من أكثر الكلمات العبرية الشائعة في النصوص اليهودية الكلاسيكية عن التسامح كلمتي «mehillah» و«selihah» وعلى الرغم من أن هاتين الكلمتين تستخدمان على نحو متبادل ككلمتين مترادفتين، فإن كلمة «mehillah» تعني في العبرية تحديدا زوال الاعتداء وهذا هو التسامح، بينما تعني كلمة «selihah» التصالح⁵¹⁴. في المسيحية "وَلَا تَدِينُوا فَلَا تُدَانُوا. لَا تَقْضُوا عَلَى أَحَدٍ فَلَا يُقْضَى عَلَيْكُمْ. اغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ"⁵¹⁵ وهناك "عدد من الكلمات الشائعة في العهد الجديد تدل على التسامح ومن أكثر الكلمات شيوعا كلمة «eleao» (والأسماء المشتقة منها) وتعني إظهار الرحمة (وردت 78 مرة) وكلمة «aphiemi» وتعني التحرر من الإساءة وزوالها والتخلي عنها (وردت 64 مرة)⁵¹⁶ وفي الدين الإسلامي من النص القرآني قوله تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْنَا وَالْهَذَا وَالْهَذَا وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾⁵¹⁷ وقوله تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁵¹⁸ وقوله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾⁵¹⁹.

المسلم غير مطالب بأن يحاسب الآخر لأنه غير مؤمن بدينه أو يضيّق على غيره حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية. ورد التسامح في القرآن من خلال العفو (35 مرة) والصفح (8 مرات) وتدل شواهد من التاريخ على التزام الحكام المسلمين بالوفاء لعقد الذمة الذي كانوا يعقدونه مع أهل الكتاب ومظاهر ونماذج هذا التسامح في الحضارة

⁵¹³ - <https://news.un.org/ar/story/2019/11/1043781> (Accessed 20/05/2020).

⁵¹⁴ - ميشيل إ. ماكلو وآخرون، التسامح النظرية والبحث والممارسة، ترجمة عبير محمد انور، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2015،

ص 64.

⁵¹⁵ - انجيل لوقا 6، الآية 37. <https://www.bible.com/ar/bible/14/LUK.6.37-38.AVDDV>

⁵¹⁶ - المرجع نفسه، ص ص 64 - 65.

⁵¹⁷ - سورة العنكبوت، الآية 46.

⁵¹⁸ - سورة الانعام، الآية 108.

⁵¹⁹ - سورة فصلت، الآية 34.

الإسلامية عديدة، أبرزها تعايش المسلمين والمسيحيين واليهود في ظل الحضارة الإسلامية بالأندلس، المثال الذي يجب أن نضعه دائماً صوب أعيننا. ماذا عن علاقة التسامح بالسلم؟

لما كانت إشكالية عنف الإنسان ضد الإنسان تضرب بجذورها منذ فجر التاريخ وتغتال القيم الإنسانية التي لا يمكن التنازل عليها وتضع حدود التسامح في مأزق، أصبح حفظ السلم والأمن الإنساني ومنع نشوب الصراعات هاجسا مؤرقا للأفراد ودافعا مؤسسا لمجلس الأمن الدولي ومنظمات دولية أخرى، فبعد الخراب الذي خلفته الحرب العالمية الثانية، أنشئت الأمم المتحدة بأهداف ومبادئ تسعى إلى إنقاذ الأجيال القادمة من ويلات الحرب والعيش معاً بسلام وفق مقولة "شعوب كوكبنا لها حق مقدس في السلم"⁵²⁰ واعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة بموجب قرارها 243/53 في 6 أكتوبر 1999 "الإعلان وبرنامج العمل بشأن ثقافة السلام"⁵²¹ اللذان يمثلان تكليفاً من العالم للمجتمع الدولي من أجل تعزيز ثقافة السلام واللاعنف التي تفيد البشرية وخاصة الأجيال القادمة.

بُني هذا الإعلان على دلالة العبارة الأولى التي استفتحت ديباجة الميثاق التأسيسي لليونسكو: "لما كانت الحروب تتولد في عقول البشر، ففي عقولهم يجب أن تُبنى حصون السلام"⁵²² وأعلنت الجمعية العامة بموجب قرارها رقم 130/72 يوم 16 ماي يوماً عالمياً للعيش معاً في سلام⁵²³ والفترة 2001-2010 بوصفها العقد الدولي لثقافة السلام واللاعنف من أجل أطفال العالم⁵²⁴.

من المعلوم في هذا الباب، أن بناء الإنسان مهمة التربية والتعليم في أي مجتمع من المجتمعات ومن الواضح، أيضاً، أن تحقيق هذه الطموحات يتطلب سبيلاً لتعبئة الجهود وتقبل الاختلافات الثقافية والدينية والقضاء على جميع أشكال التمييز والتعصب واللاتسامح، مقابل التمتع بالقدرة على الانصات إلى الآخرين والتعرف عليهم واحترام ثقافتهم وديانتهم ونبذ العنف وعلاج أسبابه وظهور رغبة أفراد المجتمعات

⁵²⁰ - إعلان بشأن حق الشعوب في السلم، قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 39/11 المؤرخ في 12 نونبر 1984.

<https://www.ohchr.org/AR/ProfessionalInterest/Pages/RightOfPeoplesToPeace.aspx>

⁵²¹ - <https://undocs.org/ar/A/RES/53/243> (Accessed 20/05/2020)

⁵²² - اليونسكو، النصوص الأساسية، مطابع اليونسكو، باريس، طبعة 2018، ص 5.

⁵²³ - <https://www.un.org/ar/observances/living-in-peace-day> (Accessed 20/05/2020)

⁵²⁴ - <https://undocs.org/pdf?symbol=ar/A/RES/55/47> (Accessed 20/05/2020)

الإنسانية في العيش والعمل معاً، في إطار تربية على السلام تسعى إلى اكساب الجيل الناشئ رفض العنف وإدارة مواقف الصراع وحل المشكلات بأسلوب يغيب فيه التطرف العنيف... ومنحهم مهارات التواصل والحوار والتفاوض لتحقيق السلام، مع تلقين المعرفة اللازمة لمظاهر ومسببات تأجيج الصراع والأزمات التاريخية التي عرفها العالم.

على هذا النحو، يرتبط مفهوم التسامح ارتباطاً وثيقاً بمفهوم السلام ويجعله ممكناً كشرط للمحافظة على الحضارة الإنسانية وبقاء الجنس البشري وحصول قناعة ملازمة له لدى جميع الأطراف. إنه "فضيلة وممارسة تجعل السلم ممكناً بين الشعوب باستبدالها الصريح للحرب باللاعنف ويتحول إلى تسامح نشيط يمتلك حق تحييد ووقاية وحماية وتربية الشعوب"⁵²⁵. والنتيجة، أن التسامح يحل محل التعصب والهدم من أجل السلام والتضامن والتفاهم والتكافل في المجتمع وبين المجتمعات، كلاهما - التسامح والسلام- ينتمي لمنظومة القيم الإنسانية ويتأسس على قيم حقوق الإنسان ويتمظهر في بيئة تضمن حرية التعبير عن الهوية الثقافية واختيار أشكال التعبير الثقافي وحق الوصول إلى التراث الثقافي والديني والحق في حرية الاتصال والمشاركة في تطوير التراث والتحرر من التمييز.

في نفس المقام، يظل التسامح والسلام شرطان لازمان لحوار الثقافات كما الأديان، لا سلام عالمي أو محلي بدون سلام بين أتباع الأديان ولا حوار بين أتباع الأديان إلا إذا ساد التسامح والسلام بين المؤمنين المتحاورين وتمت المحافظة على دور العبادة والآثار الدينية والثقافية لجميع الأديان، إضافة إلى حماية حرية ممارسة الشعائر الدينية، كوسيلة لتحقيق الحد الأدنى للتعايش في المجتمعات المعاصرة الموسومة بتعدد الثقافات والأديان. ومن ثم، حسب إعلان الأمم المتحدة بشأن الألفية "يجب على البشر احترام بعضهم البعض بكل ما تنسم به معتقداتهم وثقافتهم ولغاتهم من تنوع. وينبغي ألا يخشى مما قد يوجد داخل المجتمعات أو فيما بينها من اختلافات، آمالاً لا ينبغي قمعها، بل ينبغي الاعتزاز بها

⁵²⁵ - عبد الكبير الخطيبي، السياسة والتسامح، مرجع سابق، ص 9.

باعتبارها رصيذا ثميناً للبشرية. وينبغي العمل بنشاط على تنمية ثقافة السلام والحوار بين جميع الحضارات"⁵²⁶.

وإلا سيولد اللاتسامح أشخاصا عاجزين عن الحوار والتواصل، يطبع تفكيرهم التوقع وتحرّكهم أحكاما سلبية وشحنات انفعالية إزاء اثبات الذات، تقود إلى التعصب والعنف، خاصة وأن "شكله الديني (اللاتسامح الديني) هو الشكل الذي تسبب في حدوث القدر الأكبر من الأذى. كما أنه الشكل الذي تتبدى الصعوبة الاستثنائية في الوصول إلى تفسير له"⁵²⁷ لذلك القوانين غير كافية لمواجهة التعصب لأنه متجذر في الجهل والخوف من الآخر والثقافات والديانات الأخرى، لا يمكن مواجهته باللاتسامح وإنما عبر التربية والتعليم مصنع تنمية الإنسان وبناء القيم لديه.

وحيث القناعة بأن ثقافة التسامح هي في العمق سلوكيات وممارسات تتجاوز الخطب والدعوات يتعزز دور التربية والتعليم لتقليص المسافة بين الخطاب والواقع. تؤكد المادة الرابعة⁵²⁸ من إعلان مبادئ بشأن التسامح أن التعليم أنجع الوسائل لمنع اللاتسامح وأول خطوة في مجال التسامح هي تعليم الأفراد حقوق الإنسان لضمان احترامها وحماية حقوق وحرريات الآخرين وتعليمهم الحكمة كضالة ومجال لتتوير العقول والتأثير على الأفكار، لأن "خطوات قيام مجتمع متسامح تبدأ من العقل، تبدأ من نقد الأنساق المعرفية... والفكر والثقافة ليُصار إلى فهم بديل للدين والحياة والمجتمع يساعد على استناب التسامح"⁵²⁹.

عموما، تربط التربية والتعليم الطفل بالعالم دون أن تمحو هويته الثقافية منذ الطفولة، الهوية التي تعد العمق الاستراتيجي للمجتمعات الإنسانية - في أبعاده الديموغرافية والثقافية - ومنطلق البناء التربوي والحضاري، لا الهدم وإنكاء الصراع وتروم التربية على قيم التسامح والسلام، في هذا الجانب، أحداث تغييرات إيجابية، واعية

⁵²⁶ - إعلان الأمم المتحدة بشأن الألفية قرار الجمعية العامة 2/55 المؤرخ 8 أيلول/سبتمبر 2000

<https://www.ohchr.org/AR/ProfessionalInterest/Pages/Millennium.aspx>

⁵²⁷ - ألفريد. ج. آيبر، منابع اللاتسامح، التسامح بين شرق وغرب، دراسات في التعايش والقبول بالآخر، مرجع سابق، ص 103.

⁵²⁸ - اليونسكو، إعلان مبادئ بشأن التسامح، 1995.

<https://undocs.org/ar/A/51/201>

⁵²⁹ - ماجد الغزبائي، التسامح ومنابع اللاتسامح، فرص التعايش بين الأديان والثقافات، الحضارية للطباعة والنشر، بغداد، الطبعة الأولى، 2008، ص 74.

وإرادية، معرفية وسلوكية، في دافعية الفرد اتجاه الاختلاف منذ مراحل الطفولة وتلقينه المهارات والقيم التي تكفل له ممارسة التسامح والإيمان بقيم السلام، سلوكا وممارسة، من خلال خلق الوعي بالتعايش والرغبة في القبول بالاختلاف الثقافي والديني والانفتاح والتواصل مع الآخر المختلف. تصور يستلزم "تطوير مناهج نظامية عقلانية لتعليم التسامح على أساس التركيز على المصادر الثقافية، الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والدينية للتعصب والتي تشكل الأسباب العميقة للعنف والإقصاء، وسياسات وبرامج التربية يجب أن تساهم في تنمية التفاهم، التضامن والتسامح بين الأفراد وكذا بين الجماعات الإثنية، الاجتماعية، الثقافية، الدينية واللغوية وبين الأمم"⁵³⁰. علاقة بهذا الأمر، تم إحداث وزارة للتسامح⁵³¹ في دولة الامارات العربية المتحدة، رؤيتها "بناء جسور التفاهم والتواصل والحوار ونبذ العنف والتمييز والكرهية وتشجيع الحوار بين الأديان وإبراز الصورة الحقيقية للإسلام عبر مشروعات ومبادرات نوعية محلياً وإقليمياً وعالمياً"⁵³².

إن إدماج قيم التسامح والسلام في المناهج التربوية ليس مجاملة بقدر ما هو مطلب تربوي بيداغوجي ومطلب حقوقي ومطلب ديني ومطلب فكري، مطلب تربوي بيداغوجي يتموضع في حقل التربية على القيم لإكساب الناشئة الاتزان وتوخي الحكمة في رد الفعل اتجاه الاختلاف وتنمية قدرات ومهارات التفكير النقدي والفضول الفكري وأدوات فهم واكتشاف قضايا الآخر والانفتاح على ثقافته وتعرية هواجس الخوف منها وتقليص المسافة نحوها، على عكس الشحن والتلقين للذان يغلقان دروب الفكر ويجهزان على مشروعية التساؤل والتأمل.

تصورنا ينطلق من إبراز التعليم في مجال التسامح أهمية معرفة الأجيال لنماذج التسامح الديني والثقافي والفكري عبر التاريخ وتنقيح مضامين الكتب المدرسية والمواد التعليمية من كل أشكال اللاتسامح والعنف والتمركز حول الذات والتشجيع على اعتماد أساليب منهجية وعقلانية لتعليم التسامح والسلام، يمكن أن نتناول أسباب اللاتسامح الثقافية

⁵³⁰ - اليونسكو، إعلان المبادئ حول التسامح، مرجع سابق.

⁵³¹ - <https://www.tolerance.gov.ae/ar/about-his-highness-minister-of-tolerance.aspx> (Accessed 15/05/2020)

⁵³² - <https://www.tolerance.gov.ae/ar/strategy.aspx> (Accessed 15/05/2020)

والدينية والجذور التاريخية للعنف والاستبعاد وتعزيز المناهج والبرامج الدراسية بوضعيات تعليمية وتعلمية تنطوي على الخيارات السلوكية السلمية في تدبير الخلاف مع الآخر والبحث عن حلول إنسانية وموضوعية للصراع وإدماج مضامين معرفية تحمل، من جهة معاني ودلالات التسامح والتنوع والاختلاف والايان بوجود الآخر، ومن جهة أخرى قيم السلم والرحمة والتفاهم والتضامن واحترام كرامة الإنسان وقبول الرأي الآخر وعدم الإكراه والعدل في المعاملة واعتماد المشترك الإنساني. هذه المقاربة البيداغوجية تتطلب تأطيرا للفاعلين التربويين والمدرسين على حد سواء.

ومطلب حقوقي يكمل التربية على حقوق الإنسان كضرورة فطرية، خاصة الحق في الاختلاف والمساواة والعدالة وتأسيس العلاقة مع الآخر على أساس البعد الإنساني والتعارف والتعاون والتآلف وتبادل الأفكار وحرية الرأي والتعبير والتوسل لحل الخلاف عبر قنوات التواصل والتفاوض والحوار.

ومطلب ديني لتقديم أمثلة للناشئة عن معاني التسامح والسلام في الدين ومدى الحاجة إليه التي تفرض ذاتها بحكم تنوع المذاهب والممارسات الدينية داخل الدين الواحد وتعدد الأديان كظاهرة إنسانية تتميز بها الحضارات الإنسانية. ضرورة دينية، أيضا، لمواجهة التربية والتعليم موجات نزعة التطرف في الشرق والغرب، تشترك في التعصب ومعاداة الآخر وكراهية الأجانب وترفض التسامح وحقوق الإنسان.

ومطلب فكري بحكم ضرورة وجود مفهومي التسامح والسلام كسؤال كوني يخلخل قضايا معاصرة تنذر بالصراع والهيمنة والترهيب من الآخر الثقافي، من مثل صدام الحضارات والفكر الأحادي للعولمة ونهاية التاريخ التي تطمح للسيطرة على ثقافات العالم وخيراته، مطلب بمثابة خيار فكري يؤسس تنويرا جديدا لإقامة نظام يسوده التسامح والتنوع والحوار والسلام الدائم عبر "ضخ سيل من الثقافة النقدية القادرة على النفوذ إلى أعماق اللاوعي لتفكيك البنى المعرفية القديمة وتأهيلها لاستقبال نمط فكري وثقافي جديد يعمل في إطار قيم التسامح"⁵³³ ويطال جميع المستويات التعليمية وينفذ إلى كل الحقول التربوية، يبدأ في مؤسسات التربية والتعليم لينتهي في كل مراكز الفكر والدراسات

⁵³³ - ماجد الغرباوي، التسامح ومنابع اللاتسامح، فرص التعايش بين الأديان والثقافات، مرجع سابق، ص 70.

البحثية. تبرز هنا أهمية الفلسفة كمادة تعليمية - تتجاوز التفكير التأملي الصرف- تعلم التفلسف، كهدف مركزي لمادة الفلسفة في السلك الثانوي التأهيلي، والذي يسعى إلى الإقناع بتعدد التفكير والاختلاف ونسبية الحقيقة. يمكن للفلسفة أن تسلط الضوء على نماذج التسامح في تاريخ الفلسفة ومساءلة «الأنا» و«الآخر» كمشروعين حضاريين ومحاولة النظر في إشكاليات الحضارات المعاصرة ومواطن الاحتكاك، سؤالاً ونقداً.

نعتقد أيضاً، أن التربية على التسامح تستدعي بحثاً معمقاً في العوامل النفسية المتضمنة في التسامح ووصف البناء الوجداني للتسامح مع الآخر، والملاحظ - على حد علمنا وبحثنا- أن مفهوم التسامح لم يستحوذ على اهتمام منظم من قبل علماء النفس في معظم فروعهم، فبالنظر إلى فرويد ذي الانتاج العالمي الخصب والذي كان يتسم بقدرته على إلقاء الضوء على كل ما هو نفسي، من اللافت للنظر أنه لم يكتب شيئاً عن التسامح، ومن المؤكد أن تجاهل علماء النفس - النسبي- للتسامح له مبررات يمكن أن نسوقها في وجود ارتباط تقليدي بين التسامح والمعتقدات الدينية وصعوبة جمع بيانات عن التسامح تتسم بالثبات وكون القرن العشرين من أكثر القرون دموية واتساماً بعدم التسامح. في هذا الصدد، سجل الباحثون اهتماماً متزايداً بالدراسة النفسية للتسامح منذ سنة 1980 حيث "بدأ عدد الأوراق البحثية والكتب التي تعالج موضوع التسامح في التزايد بشكل جوهري في سنة 1980 وظهرت بحوث مهمة في علم النفس الارتقائي وعلم النفس العيادي وعلم النفس الاجتماعي تعالج بوضوح ظاهرة التسامح وذلك في نهاية سنة 1998 وأوحى ظهور هذه المعالجات النظرية والامبريقية بأن شعبية مفهوم التسامح في ازدياد"⁵³⁴.

من جهة أخرى، العامل التربوي على أهميته لا يغني عن البعد التواصل في تحقيق التسامح، فالحاجة ماسة لعلاقات تواصلية متينة ومتبادلة، يكون فيها المستقبل متسامحاً، يحسن تدبير التعددية والاختلاف والتباين، في غمار تواصل حضاري يقوم على مبدأ التسامح ويرفعه من مشروع ممكن إلى مشروع للسلام والتعايش، تحتضنه الثقافات والمجتمعات الديمقراطية المعاصرة وتضمن صونه.

⁵³⁴ - ميشيل إ. ماکلو وآخرون، التسامح النظرية والبحث والممارسة، مرجع سابق، ص 37.

بعد هذا التأطير النظري حول أهمية التربية على التسامح والسلام، تسطع تساؤلات حول مدى حضور مضامين وأنشطة تحمل تصورات التسامح والسلام وقضايا الاختلاف مع الآخر في مناهجنا؟ ومدى اطلاعنا على معتقدات ووجهات نظر الآخر ونماذج التسامح الساطعة في التاريخ الانساني؟ ماذا عن مستويات إدماج ثقافة التسامح والسلام في منظومة التربية والتكوين بالمغرب؟ بأي أفق وبأي مداخل ووسائل عمل؟

من البين أن سؤال حضور التسامح في المنهاج الدراسي المغربي جزئ من اشكالية حضور ومكانة التربية على القيم، خطابا وممارسة، باعتبارها واحدة من ثلاثة مداخل لهذا المنهاج، إلى جانب المقاربة بالكفايات والتربية على الاختيار، أما فيما يخص التسامح، فهو في عمق ديناميات الإصلاح المؤسساتية والتشريعية والتعليمية التي شهدتها المغرب الذي يحظى على المستوى الدولي "بصورة إيجابية بفضل اعتماده دبلوماسية نشيطة مرتكزة على الدعوة إلى السلام والتسامح والحوار والانفتاح على الآخر والتعاون ذي النفع المتبادل والاستقرار والتضامن"⁵³⁵.

في المغرب حيث تنظم لقاءات دورية حول الحوار بين الثقافات والحضارات، يميز الدستور الهوية المغربية بتثبيت "الشعب المغربي بقيم الانفتاح والاعتدال والتسامح والحوار والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية جمعاء"⁵³⁶، هوية أكد عليها الميثاق الوطني للتربية والتكوين، من قَبْلُ، في مرتكزاته التي جاء فيها: "يهتدي نظام التربية والتكوين للمملكة المغربية بمبادئ العقيدة الإسلامية وقيمها الرامية لتكون المواطن المتصف بالاستقامة والصلاح، المتمسك بالاعتدال والتسامح"⁵³⁷ وأكدت عليها الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015-2030 التي اتخذت من بين المبادئ التي تقوم عليها "الهوية المغربية الموحدة والمتعددة المكونات والغنية الروافد والمنفتحة على العالم، المبنية على الاعتدال والتسامح وترسيخ القيم وتقوية الانتماء والحوار بين الثقافات والحضارات"⁵³⁸ وأكدت على "ضرورة اعتبار التربية على القيم الديمقراطية والمواطنة

⁵³⁵ - المملكة المغربية، المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، النموذج التنموي الجديد للمغرب، مساهمة المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، الرباط، 2019، ص 18.

⁵³⁶ - دستور-المملكة المغربية/ <https://www.cour-constitutionnelle.ma/ar> -

⁵³⁷ - المملكة المغربية، الميثاق الوطني للتربية والتكوين، مرجع سابق، ص 7.

⁵³⁸ - المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، من أجل مدرسة الإنصاف والجودة والارتقاء، رؤية استراتيجية للإصلاح 2015-2030، ص 8.

الفاعلة وفضائل السلوك المدني والمساواة ومحاربة كل أشكال التمييز، خياراً استراتيجياً لا محيد عنه"⁵³⁹، من أجل "بناء مواطن متشبع بالمساواة والتسامح واحترام الحق في الاختلاف"⁵⁴⁰.

في سياق تفعيل الميثاق الوطني وادماج التربية على حقوق الإنسان في المنهاج التربوي المغربي، تمت اضافة التربية على المواطنة كمادة تعليمية في البرامج الدراسية ابتداء من السنة الرابعة ابتدائي إلى غاية السنة التاسعة اعدادي واستهدف منهاج المادة اعتماد القيم الكونية الأساس لحقوق الإنسان، من قبيل: الكرامة، الديموقراطية، الحرية، المساواة، التضامن والتسامح.

أفضت متابعتنا لمدى حضور قيم التسامح والسلام، بشكل صريح ومباشر، في مناهج التعليم المدرسي المغربي، العثور في السلك الابتدائي على درس حول التسامح - قصيدة للشاعر رياض معلوف - في السنة الخامسة ابتدائي في مادة اللغة العربية⁵⁴¹ وفي السلك الثانوي الاعدادي على نص في مادة اللغة العربية، كذلك، مجال القيم الاسلامية، تحت عنوان "الاسلام دين التسامح لمصطفى السباعي"⁵⁴² ودروس في مادة التربية على المواطنة تقدم:

■ المفهوم الديني للتسامح وتحديد بعض المظاهر المنافية للتسامح في وثيقة حول "الصراع بين المسلمين والهندوس حول معبد أيوضايا بالهند"⁵⁴³ والمؤيدة له من خلال نص "ألبير القرطبي أحد رجال الدين الإسبان مأخوذ من تاريخ الفكر الأندلسي لانجيل بالنفياس، ترجمة حسين مؤنس"⁵⁴⁴ وإنجاز ملف حول التعايش بين الأديان⁵⁴⁵.

⁵³⁹ - المرجع نفسه، ص 55.

⁵⁴⁰ - المرجع نفسه، ص 9.

⁵⁴¹ - مصطفى الريمي وآخرون، مرشدي في اللغة العربية، السنة الخامسة من التعليم الابتدائي، كتاب التلميذ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2019، ص 24.

⁵⁴² - جمال الدين الراشدي وآخرون، المختار في اللغة العربية السنة الأولى من التعليم الثانوي الإعدادي، مكتبة المدارس، الدار البيضاء، الطبعة التاسعة، 2015، ص 31-32.

⁵⁴³ - أحمد معطلا وآخرون، فضاء الاجتماعيات السنة الأولى من التعليم الثانوي الإعدادي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، طبعة 2019، ص 173.

⁵⁴⁴ - المرجع نفسه، ص 176.

⁵⁴⁵ - المرجع نفسه، ص 172.

- مفهوم السلم بهدف "التدرب على تدبير نزاع بطرق سلمية بين التلاميذ واكتشاف السلم كمبدأ حقوقي أساس لإقرار الأمن والطمأنينة بين الشعوب"⁵⁴⁶.
- معرفة التسامح والحرية والكرامة والمساواة والعدل كأحد مرتكزات الديمقراطية في درس مخصص لهذا المفهوم⁵⁴⁷.
- ودرس وحيد في مادة التربية الإسلامية (مدخل الحكمة) حول "الأخوة الإنسانية: حق غير المسلم على المسلم"⁵⁴⁸.

أما في السلك الثانوي التأهيلي فيتعرف التلميذ على مفهوم التسامح في السنة الأولى باكالوريا (جميع الشعب) في مادة التربية الإسلامية⁵⁴⁹ ضمن مجزوءة تضم ثلاث مفاهيم هي: الجمال والتضامن والتسامح ووفق أهداف تعرف مفهومي العفو والتسامح واكتساب قيمة العفو وقيمة التسامح من خلال قصة نبي الله يوسف، عليه السلام.

في إطار المشاريع التربوية للوزارة، انطلق مشروع "دعم تعزيز التسامح والسلوك المدني والمواطنة والوقاية من السلوكات المشينة في الوسط المدرسي APT2C"⁵⁵⁰، ثمة شراكة نوعية تقوم على تكامل الخبرات بين الوزارة وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي PNUD والرابعة المحمدية للعلماء، سيتم تنفيذ هذا المشروع تدريجيا خلال السنوات الأربع (2018-2022) فيما يقارب 3000 ثانوية تأهيلية وإعدادية. المشروع الذي يندرج في إطار الجهود الوطنية والعالمية المبذولة لتعزيز قيم التسامح والنأي عن الانغلاق في الفكر وبناء الروابط لتعزيز التماسك الاجتماعي والسلوك المدني وتوفير الإجابات التربوية الكافية لمواجهة السلوكات ذات الأبعاد الخطيرة في إطار مخططات عمل خاصة بكل مؤسسة تعليمية، كما يمكن للشراكة مع الرابطة المحمدية للعلماء كمؤسسة دينية رسمية أن تسهم في إقامة جسور بين التلاميذ وعلماء الدين الذين ينشدون الوسطية ويرفضون التشدد والعنف.

⁵⁴⁶ - المرجع نفسه، ص 181.

⁵⁴⁷ - المرجع نفسه، ص 176.

⁵⁴⁸ - المصطفى الشفيري وآخرون، المنير في التربية الإسلامية، السنة الثانية إعدادي، دار النشر سوكرام، طبعة 2017، ص 90.

⁵⁴⁹ - يوسف بن عجيبة وآخرون، في رحاب التربية الإسلامية، مكتبة السلام الجديدة والدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، طبعة 2019، ص ص 62-65.

⁵⁵⁰ - المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مذكرة وزارية رقم 132-19 بتاريخ 6 دجنبر 2019 في شأن دعم تعزيز التسامح والسلوك المدني والمواطنة والوقاية من السلوكات المشينة في الوسط المدرسي.

مع أهمية هذه المكتسبات التي حققتها والاهتمام الذي أولته المدرسة المغربية لمجال التربية على القيم وحقوق الإنسان بشكل عام والتربية على قيم التسامح والسلام بشكل خاص، فإن الواقع يكشف جملة من الصعوبات والاختلالات، أهمها: العمل، في إطار شراكات موسمية، ببرامج متعددة وممولة تنتهي مدة صلاحيتها بانتهاء عملية تمويلها وتأخر المراجعات الضرورية للبرامج والكتب المدرسية، مما يجعلها غير ملائمة مع المستجدات التشريعية والمؤسسية والمعرفية وطنياً وعالمياً. إضافة إلى "هيمنة ممارسات تعليمية غير ملائمة لأهداف التربية على القيم وتنمية القدرات العملية وأهداف بناء الذات، ولا سيما التركيز على شحن المتعلمين(ات) بالمعلومات واتسام العلاقة البيداغوجية أحياناً بالسلطوية والعنف"⁵⁵¹ و"عدم انتظام تكوين الفاعلين(ات) التربويين(ات) في التربية على القيم، إذ غالباً ما يتسم بالطابع الظرفي والموسمي"⁵⁵².

نتيجة لهذه العوامل وغيرها خلص مهندسو اصلاح المنظومة إلى "استمرار السلوكات اللامدنية في الانتشار كالغش والعنف"⁵⁵³ ومن تم نعتقد أنه رغم الجهود الكبيرة التي بُذلت خلال العقود الثلاثة الماضية في الملتقيات والندوات الدولية حول تواصل وحوار الحضارات والثقافات، قد يقول قائل خطاب التسامح غير عملي وغير نافذ، لا يتعرض لنقد الثقافات، أما التربية على قيم التسامح والسلام فهي مهمة صعبة في ظل تصاعد خطاب الكراهية والتنافس والتجاذبات في عالمنا اليوم، والرد أنها ليست مستحيلة تحتاج فقط إلى بناء ثقافي ومعرفي جديد يبدأ من الذات أولاً ويشترك مع الآخر، يكرس مبدأ الحوار ويغير فكرة المواجهة والصدام بالتواصل والانسجام والتعايش.

لا يستقيم الحديث عن التربية على قيم التسامح والسلام إلا في إطار مشروع تربوي تتكامل فيه المعرفة والسلوك. فالتربية على التسامح ليست مواد دراسية أو أنشطة صفية ظرفية تدرس وتلقن، إنها مشروع حضاري وإنساني بعيد المدى، يرسخ دعائم التسامح والسلام وتعليم الاحترام وتقدير التنوع، يمتزج فيه الخطاب بالممارسة العملية والمؤسسية، ويتكامل مع التربية على حقوق الإنسان والديموقراطية. تعد القدوة والعدالة

⁵⁵¹ - المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، التربية على القيم بالمنظومة الوطنية للتربية والتكوين والبحث العلمي، 2017، ص 9.

⁵⁵² - المرجع نفسه، ص 10.

⁵⁵³ - المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، الرؤية الاستراتيجية للإصلاح، مرجع سابق، ص 55.

والمساواة والحرية والاحترام قيما أساسية في التربية على التسامح والسلام، كبديل للأحكام المسبقة والكراهية والتمييز والتطرف العنيف الذي سيقود الحضارات إلى الدمار والانسان إلى الفناء.

تأسيسا على ما تقدم، مسألة التربية على قيم التسامح والسلام ليست اختيارية، إنها حاجة قائمة وملحة بل أولوية إنسانية واجتماعية وحضارية، مادام هناك إنسان يمارس العنف والإكراه، يرفض التعايش مع الآخر المختلف في الثقافة والدين و... في عالم يفيض بالتنوع والاختلاف، تزداد فيه دائرة التنوع الثقافي اتساعا يوما بعد يوم بسبب تزايد حركة الهجرة والترابط العالمي وثورة الاتصالات. لذلك "ينبغي القول للأطفال بأن البشر يختلفون كثيرا فيما بينهم وينبغي أن نشرح لهم جيدا في أي شيء يختلفون ولماذا؟ ... ينبغي على المعلم في المدن الإيطالية أن يساعد أطفاله الإيطاليين لكي يفهموا لماذا يتوجه أطفال آخرون بالدعاء والصلاة إلى معبود آخر أو يعزفون موسيقى لا يبدو أنها الروك. بالطبع يتعين على المربي الصيني فعل الشيء ذاته مع الأطفال الصينيين"⁵⁵⁴.

ينبغي القول كذلك، عبر تعلمنا وتعليمنا، تواصلنا وحواراتنا نفهم بعضنا البعض ونصل إلى تصحيح أخطائنا، فقد أكون أنا على خطأ وأنت على صواب. بالمقابل، كل تقصير في جعل التسامح والسلام قيما تربوية وسلوكا يوميا، يترك متعلم اليوم في صف من يرفض الاعتراف بوجود أولئك الذين لا يشاركوننا معتقداتنا وثقافتنا، في صف القلق والخوف من الآخر وتصاعد العنف لحل النزاعات. إن مهمة التربية على التسامح والسلام هي نبذ العنف في تنشئة الأطفال وترسيخ احترام الحريات ومبادئ حقوق الإنسان وتعايش المختلفين بسلام في أذهان الأطفال، في إطار مناهج ترتقي برسالتها الإنسانية الممزوجة بثقافة التسامح والسلام، تحرر الأطفال من النظرة الدونية إلى الآخر المختلف وتستجيب لمتطلبات الحضارة المعاصرة وتحدياتها الشرسة. لما لا في إطار تفكير عالمي، مؤطر بمواطنة عالمية.

⁵⁵⁴ - مايكل انجلو ياكوبوتشي، أعداء الحوار، أسباب اللاتسامح ومظاهره، مرجع سابق، ص 17.

ثانيا: التعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية قيمة مضافة لمشروع التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

أمام التحولات الحضارية التي عرفها العالم ومحاولات الهيمنة وإلغاء الهويات الثقافية والتنوع الثقافي، أضحت مجموعة من القيم الإنسانية المنبثقة من ترسانة حقوق الإنسان كالمواطنة والحق في السلام والاختلاف والبيئة والتنمية نوعا من رد الفعل لتشكيل جبهة عالمية موحدة ومواطنة تجيب عن سؤال: كيف نواجه العالم الجديد؟ وأضحت الحاجة ماسة إلى مواطنة عالمية، بعد أن هيمنة العولمة وأثارت التساؤلات حول صلاحية المواطنة في بعدها الجغرافي- الوطني وفرضت على المنظومات التعليمية الأسباب التي تجعل التعليم في القرن الحادي والعشرين مختلفا ومجددا لمواصفات التعلم ومهارات التواصل، بنشر الوعي والمعرفة بالقضايا ذات البعد العالمي والتحديات التي تفرزها اقليميا ومحليا، وذلك عبر برامج وأنشطة تعليمية من صميم التربية على المواطنة العالمية.

بداية، لنتساءل: ما المواطنة العالمية؟ هل هي امتداد للمواطنة التقليدية داخل حدود الوطن أم منافسة لها؟ هل يمكن لهذا المفهوم أن يتخذ اتجاها تربويا تعليميا ويكون من بين التغييرات التي يجب ادخالها على المناهج التعليمية في القرن الحادي والعشرين؟ ما أهمية وأهداف تعليم المواطنة العالمية؟ وأي قيمة مضافة لهذا النوع من التعليم في التواصل الحضاري وحوار الثقافات؟

جاء في تقرير مركز بحوث التعلم مدى الحياة «CRELL» المواطنة هي "المشاركة في المجتمع المدني والحياة السياسية المتسمة بالاحترام المتبادل وعدم اللجوء للعنف وفقا للحقوق الديمقراطية الإنسانية"⁵⁵⁵. بالمعنى المتداول، فكرة المواطنة تحيلنا على المشاركة السياسية وصلة الشخص بالدولة، تجعله كمواطن له جنسية، يمتلك حقوقا سياسية واجتماعية ودينية وثقافية واقتصادية و... - ما لم يسلبها منه القانون - وعليه، في نفس الآن، واجبات اتجاه المجتمع والوطن.

⁵⁵⁵ - هديل مصطفى الخولي، التعليم والمواطنة: رؤية مستقبلية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2012، ص 24.

في مفهومها العصري الذي تجاوز المفهوم القانوني الضيق، أصبحت المواطنة "تتأسس على توازن معقد للحقوق والواجبات وتتحدد عبر الاعتراف بفردية كل إنسان وبالانتماء إلى قيم مشتركة يرتكز عليها وجود الجماعة"⁵⁵⁶، بمعنى أنها ليست باقية من الحقوق والواجبات، ولا وجود لمواطنة من دون غايات وقيم محددة، تجعل لكل مواطنة هويتها الخاصة المرتبطة بالمكونات الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية المعمول بها في وطن ما وتشكل مظهراً لهوية ثقافية وتاريخية مشتركة وعامل ارتباط بجماعة أو أمة.

نتمينا لهذا التصور، نحن نتفق مع القول السائد بأن المواطنة ليست "بديلاً عن الهوية وهي لا تعني التفاعل الاجباري بين الهويات أو هيمنة إحداها على الأخرى. وإنما المواطنة دعامة إضافية للهوية وامتداد لها"⁵⁵⁷ ونؤكد كذلك نفينا القاطع لكل ايديولوجية تروم العكس، تعيد تشكيل الهوية وتذويبها لصالح فكرة المواطنة. إلا أن الحدود الوطنية والخاضعة للمراقبة أصبحت فجأة غير محمية مع التطورات العالمية، خاصة في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين وتأثر مفهوم المواطنة وتراجع مظهره الضيق ولم يعد محصوراً بحدود الوطن، في خضم وعي آخر ينادي بالمواطنة خارج الحدود أو المواطنة العالمية.

على الساحة الدولية، برزت المواطنة العالمية كشعور بالانتماء إلى المجتمع الأوسع والإنسانية المشتركة في المبادرة العالمية بشأن «التعليم أولاً» سنة 2012⁵⁵⁸ والتي اعتبرت تعزيز المواطنة العالمية إلى جانب الانتفاع بالتعليم وتحقيق جودته ثلاث مجالات للعمل ذات الأولوية. تتخطى المواطنة العالمية الحدود الوطنية والهويات الثقافية، واضعة الترابط والتفاعل بين المستويين المحلي والعالمي أو الوطني والدولي وتفرز على غرار المواطنة المحلية حقوقاً وواجبات كونية تحكمها التشريعات والمواثيق الدولية، بهدف تكوين جيل جديد، متمكن فكرياً وثقافياً، يتواصل بفعالية حول قضايا العالم ويواجه تحدياته بمزيد من التفاهم والحرية والاعتراف بوجود ثقافات وديانات مختلفة والاقرار بحق الغير

⁵⁵⁶ - سيدي محمد ولد ييب، الدولة وإشكالية المواطنة، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2011، ص 55.

⁵⁵⁷ - المرجع نفسه، ص 67

⁵⁵⁸ - <https://news.un.org/ar/audio/2015/09/337292> (Accessed 28/03/2020)

والاهتمام بالشأن والقضايا الدولية والمشاركة في تشجيع السلام الدولي وإدارة الصراعات بلا عنف.

بمعنى المواطن العالمي هو الشخص الذي يسعى في طريقة تفكير وسلوكه إلى بناء حضارة عالمية متسمة بالسلام والحوار وليس الصدام والنزاعات. نستحضر هنا الاحتجاجات التي تغزو مُدُنًا وحوضر حول العالم ضد تداعيات العولمة والتغيرات المناخية وقضايا الكراهية والارهاب والاساءة للرموز الإسلامية وأنشطة التضامن التي تقوم بها جمعيات المجتمع المدني على الصعيد العالمي، من مثل الصليب الأحمر الدولي وأطباء بلا حدود⁵⁵⁹ ومراسلون بلا حدود⁵⁶⁰ ومعلمون بلا حدود⁵⁶¹.

حتى في الفضاءات الرقمية، يجري الحديث عن المواطنة الرقمية أي معرفة كيفية المشاركة بشكل ذكي وأخلاقي كمواطنين مسؤولين في المجتمعات الافتراضية ويشمل هذا الأمر كيفية تقييم مصداقية وموثوقية المعلومات المروجة على شبكة الانترنت واستخدامها بوازع أخلاقي وآخر إنساني.

مواكبة لمسارات التحول والاضطلاع بالدور الرئيس للتعليم في تمكين المتعلمين والمتعلمات - مواطنو ومواطنات العالم مستقبلا- من تصور الاشكاليات العالمية، أصبح من اللازم تخطيط رؤية تربوية حول منظور المواطنة العالمية وتصريفها في مجال التعليم من خلال أنشطة ومهارات مدرسية وصفية وموازية وتدريب الباحثين والفاعلين البيداغوجيين من أجل استيعابها وتصريف منظورها. ليعزز دور التربية والتعليم في التواصل الحضاري العالمي والحوار الثقافي وبناء السلم في عقول الناشئة وتكوين مواطن عالمي منفتح على محيطه الدولي وثقافات العالم ومسؤول اتجاه قضايا الكوكب. الرؤية التي نقصدها هي التربية على المواطنة العالمية، محور اهتمام عدد من الوثائق والندوات والمنظمات الدولية، باعتبارها "رهانات جديدة تطرح على الأنساق التربوية العربية التي لم تعد مهامها تقتصر على تنشئة الأجيال وفق متطلبات مواطنة محدودة بالإطار الوطني، بل إن المواطنة الايجابية تقتضي التفتح على المواطنة العالمية، باعتبارها ثقافة جديدة

⁵⁵⁹ - <https://www.msf.org/> (Accessed 28/03/2020)

⁵⁶⁰ - <https://rsf.org/> (Accessed 28/03/2020)

⁵⁶¹ - <https://teacherswithoutborders.org/> (Accessed 28/03/2020)

تهدف إلى ترسيخ تربية دولية قائمة على قبول الاختلاف والحوار والتعايش السلمي ونبذ العنف والتطرف⁵⁶².

طبقا لاعلان ماستريخت «للتربية من أجل مواطنة عالمية» لسنة 2002، التربية على المواطنة العالمية "تربية شمولية تفتح أعين الناس وعقولهم على حقائق العولمة وتدفعهم للسعي لتحقيق عالم ينعم فيه الجميع بمزيد من العدالة والمساواة وحقوق الإنسان"⁵⁶³. وينطوي هذا المفهوم على ثلاثة أبعاد أساسية⁵⁶⁴ ترتبط بمجالات الشخصية الانسانية ومخرجات التعلم المحورية في مختلف الأسلاك التعليمية وهي:

■ البعد المعرفي: اكتساب المعرفة والفهم والبحث في ما يخص القضايا العالمية والإقليمية والوطنية والمحلية ومدى الترابط بينها والاعتماد المتبادل بين مختلف البلدان والسكان، معرّفيا "لا تقدم التربية من أجل المواطنة العالمية محتوى خاصا ولكنها تثرى المفاهيم والمحتويات الموجودة في المواد التعليمية في مجالات التربية المتصلة بالتنمية العالمية وذلك بتعميق أبعادها"⁵⁶⁵ عبر معرفة منظومة العولمة وتطور المجتمع العالمي (مجتمع المعرفة، المجتمعات المتعددة الثقافات، الترابط بين المناطق والدول، ...) ومعرفة تاريخ وفلسفة المفاهيم الكونية (الديموقراطية، التنوع والحوار بين الثقافات والأديان ... العدالة، السلام، حقوق الإنسان) ومعرفة القواسم المشتركة والاختلافات في أساليب الحياة والثقافات والأديان والأجيال، مما يجعل تقدير التنوع أمرا سهلا.

■ البعد الاجتماعي- العاطفي: بمعنى الشعور بالانتماء إلى الإنسانية المشتركة والعمل التعاوني مع أفراد ومجموعات لتحقيق أهداف مشتركة وتقدير الاختلاف والتنوع ومقاومة الصور النمطية والأحكام المسبقة والتعاطف والتضامن والتعامل مع الصراعات بطريقة منهجية وبناءة. وتعتبر المهارات الاجتماعية العابرة للثقافات حيوية تتيح التفاعل بكفاءة مع الآخرين بمعرفة متى يجب الاصغاء ومتى يجب التكلم وكيف يجب التصرف بصورة محترمة والتصرف بانفتاح أمام أفكار وقيم مختلفة واحترام الاختلافات الثقافية .

⁵⁶² - داليا الجيزاوي، المواطنة العالمية وآفاقها المستقبلية في الوطن العربي، مجلة الطفولة والتنمية، المجلس العربي للطفولة والتنمية، الرياض، العدد 29، 2017، ص 163.

⁵⁶³ - <https://www.coe.int/en/web/north-south-centre/global-education> (Accessed 28/03/2020)

⁵⁶⁴ - اليونسكو، التربية على المواطنة العالمية، مواضيع وأهداف تعليمية، بيروت، 2015، ص 15.

⁵⁶⁵ - اليسا كاييزودو وآخرون، الدليل التطبيقي للتربية من أجل المواطنة العالمية، ترجمة عفاف مبارك وطارق محضاوي، مركز الشمال-الجنوب لمجلس أوروبا، لشبونة، 2008، ص 28.

■ البعد السلوكي: اتخاذ اجراءات فعالة ومسؤولة على المستويات المحلية والوطنية والعالمية والاستخدام الواعي لابتكارات العلم والتكنولوجيات الحديثة، لفائدة عالم أكثر سلاما واستقرارا.

يضم مفهوم التربية على المواطنة مهارات منهجية تتيح التفكير والتحليل النقدي والمنهجي الذي يستند إلى قرائية المعلومات ودراسة الأدلة وتحليلها وتفسيرها وتقييمها ودراسة الحالات من خلال زوايا مختلفة، كما يستند إلى مهارات أخرى مثل الاتصال والقدرة على التواصل بين الثقافات والتعامل مع التنوع اللغوي والتفاعل مع أشخاص ذوي خلفيات ثقافية ووجهات نظر فكرية مختلفة. كما تتمثل الغاية المثلى لهذا النموذج التربوي في تعزيز المهارات والقيم ذات الصلة بالأحداث والقضايا العالمية، ترسيخا لمواطنة مسؤولة على المستويين الفردي والجماعي وتشمل هذه القيم⁵⁶⁶: تقدير الذات والثقة بالنفس واحترام الآخر، المسؤولية الاجتماعية، المسؤولية البيئية، الانفتاح على مصادر مختلفة من المصادر والثقافات والتضامن والالتزام بالعمل والحوار والتعاون والشعور بالانتماء إلى المجتمع المحلي والعالمي.

تكمُن أهمية التربية على المواطنة العالمية في توفير التعليم مفاتيح الاطلاع على القضايا الراهنة في عالمنا المعاصر، بدل من التشاؤم والسقوط في إنتاج صور سلبية عن الثقافات واذكاء الصراعات والخوف من التفاعل معها، إضافة إلى توفير خيارات التواصل ومعرفة الثقافات الأخرى وتوسيع دائرة التواصل الحضاري معها بغاية التعاون والتضامن والتعايش السلمي أولا والاستقرار والتنمية ثانيا. هكذا يبدو أنها "ليست فقط حاجة ملحة وضرورية ولكنها أيضا رهان وتحدي أخلاقي في عالمنا اليوم"⁵⁶⁷ يمكن أن يساعد على اكتساب المعارف والمهارات والقيم والمواقف اللازمة لفهم القضايا العالمية والقيم المرتبطة بها والتي تُمكن الأفراد من تشكيل القيم القابلة للتحويل والتصرف في اتخاذ قرارات واعية اتجاه تحديات القرن.

⁵⁶⁶ - المرجع نفسه، ص 31، 32.

⁵⁶⁷ - اليسا كاييزودو وآخرون، الدليل التطبيقي للتربية من أجل المواطنة العالمية، مرجع سابق، ص 22.

من بين المهارات اللازمة صنف «مشروع تقييم مهارات القرن الحادي والعشرين وتعليمها» ATC21S⁵⁶⁸ "أربع فئات واسعة على المستوى الدولي، وهي: أساليب التفكير وأساليب العمل وأدوات العمل والمهارات للعيش في العالم"⁵⁶⁹ وذكرت مجموعة أبولو للتعليم Apollo Education Group المتخذة من الولايات المتحدة مقرا لها، عشر مهارات يحتاج إليها التلاميذ في القرن الحادي والعشرين وهي: "التفكير النقدي والتواصل والمواطنة العالمية وإمكانية التكيف والقيادة والتعاون والانتاجية والمساءلة والابتكار وريادة الأعمال والقدرة على النفاذ إلى المعلومات وتحليلها وتلخيصها"⁵⁷⁰ واقترحت «الشراكة من أجل مهارات القرن الحادي والعشرين» Partnership For the 21st Century Skills التي يقع مقرها في الولايات المتحدة أيضا، إطار عمل للتعليم في القرن الحادي والعشرين يشمل أربعة عناصر رئيسة يرمز لها (The 4 Cs) وهي "التواصل Communication والتعاون Collaboration والتفكير النقدي Critical Thinking والابداع Creativity"⁵⁷¹، لا بد من تعليمها ضمن سياق المواد التعليمية ومواضيع القرن الحادي والعشرين.

في محاولة لتوصيف الهندسة البيداغوجية لأنشطة التربية على المواطنة العالمية، نرى هدفها تمكين المتعلمين والمتعلمات من:

- تطوير فهم الحقوق والمسؤوليات والقضايا العالمية والروابط بين النظم والعمليات العالمية والوطنية والمحلية.
- الاعتراف بالاختلاف والهويات المتعددة، على سبيل المثال الثقافة واللغة والدين والجنس وإنسانيتنا المشتركة وتطوير مهارات للعيش في عالم يزداد تنوعا.
- تطوير وتطبيق المهارات الأساسية للقراءة المدنية، على سبيل المثال: الاستقصاء النقدي وتكنولوجيا المعلومات والقراءة الإعلامية والتفكير النقدي واتخاذ القرارات وحل المشكلات والتفاوض وبناء السلام.

⁵⁶⁸ - ATC21S شراكة عالمية بين جهات متعددة تتألف من جامعة ملبورن وسييسكو وانتيل ومايكروسوفت، مقرها في استراليا والولايات المتحدة وفلندا وسنغفورة وهولندا وتضم أكثر من 250 باحث عبر 6 مؤسسة حول العالم.

⁵⁶⁹ - سينتيا لونا سكوت، مستقبل التعلم 2، أي نوع من التعلم في القرن الحادي والعشرين؟ بحث ونظرة استشرافية بشأن التعليم، اليونيسكو، اوراق عمل، 2015، ص 4.

⁵⁷⁰ - المرجع نفسه، ص 4.

⁵⁷¹ - المرجع نفسه، ص 5.

▪ تعرف ودراسة المعتقدات والقيم وكيفية تأثيرها في عملية صنع القرار السياسي والاجتماعي والتصورات حول العدالة والالتزام المدني.

▪ تطوير سلوكيات الاهتمام بالآخرين والتعاطف معهم واحترام التنوع.

▪ المشاركة والمساهمة في القضايا العالمية المعاصرة على المستويات المحلية والوطنية والعالمية كمواطنين عالميين مطلعين وملتزمين ومتجاوبين.

وتناسبا مع مخرجات التعلم الآنفة الذكر، تحدد ثلاث سمات للمتعلم في التربية على المواطنة العالمية، هي:

▪ مثقف مطلع على التنوع الثقافي والترابط بين الاشكاليات التي تؤثر في تفاعل المجتمعات - الثقافات والأديان نموذجا- وناقدا يستوعب الصلات بين الاهتمامات العالمية والمحلية ويمارس المهارات اللازمة في التحقيق والتحليل النقدي والتركيب المنهجي. على سبيل المثال: كيف يتأثر المحلي بالعالمي؟ اللغة بالثقافة؟

▪ مواطن واع ومحترم للاختلاف والتنوع في الثقافة واللغة والدين و... ويعي كيفية تأثير المعتقدات والقيم في اتجاهات ومواقف الأفراد من خلال فهم الهويات الثقافية والانتماء والقيم الإنسانية المشتركة اللازمة لاحترام الاختلاف وبناء علاقات جيدة مع الأفراد والجماعات.

▪ مواطن مسؤول أخلاقيا اتجاه الآخر بالتعاون والتعاطف والحوار والتضامن وملتزم بالمشاركة المدنية الفعالة في المجتمع العالمي والمساهمة في بناء عالم أفضل واتخاذ الاجراءات المسؤولة.

تهتم منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة - اليونسكو- بتطوير التربية على المواطنة العالمية وتقديم المساعدة في تطبيقها. منذ 2012، أقامت بحوثا واستشارات مع خبراء من مختلف دول العالم، توجت بإعداد دليل⁵⁷² «التربية على المواطنة العالمية: تحضير المتعلمين لتحديات القرن الواحد والعشرين» وتنظيم «المشاوراة الفنية حول التربية على المواطنة العالمية» في الندوة الأولى سنة 2013 والندوة الثانية سنة 2015 حول

⁵⁷² - UNESCO, 2014, Education Sector, Global Citizenship Education, Preparing learners for the challenges of the 21st century, Paris, p: 5.

نفس الموضوع وتوالى إنتاج دعائم وبرامج العمل لتوضيح المفاهيم وترجمتها إلى مواضيع وأهداف تعليمية عملية وتطوير دلائل تطبيقية للتربية على المواطنة العالمية، توجد في قاعدة بيانات⁵⁷³. كان أهمها دليل «التربية على المواطنة العالمية، مواضيع وأهداف تعليمية» الذي يضع تصورا لتسعة مواضيع تهم القضايا التي تؤثر في تفاعل وترابط المجتمعات ومستويات الهوية والمجتمعات المختلفة وكيفية ترابطها واحترام التنوع والسلوك المسؤول أخلاقيا والاجراءات ذات العلاقة بالتربية على المواطنة العالمية والتي يمكن اتخاذها بشكل فردي وجماعي. المواضيع التسعة تحقق ستة وثلاثين هدفا تعليميا، تتوزع في مصفوفات موجهة لأربعة أطوار من التعليم ما قبل المدرسي إلى الثانوي. نسوق منها على سبيل المثال أربعة أهداف تتعلق بموضوع الاختلاف واحترام التنوع⁵⁷⁴:

1. ما يجعلنا متمثلين وما يجعلنا مختلفين عن الآخرين في المجتمع (اللغة والثقافة وطرق العيش والتقاليد والخصائص) في التعليم ما قبل الابتدائي والابتدائي الأدنى، من 5 إلى 9 سنوات.
 2. تطوير القيم والمهارات التي تمكن من العيش معا بسلام (الاحترام والمساواة والتعاطف والتضامن والتسامح والاتصال والتفاوض وإدارة وتسوية النزاعات واللاعنف وقبول وجهات النظر المختلفة) في التعليم الابتدائي الأعلى، من 9 إلى 12 سنة.
 3. رفع تحديات العيش معا وما قد يسبب النزاعات (الاقصاء والتعصب والتمييز وانعدام التواصل) وممارسة الحوار والتفاوض ومهارات تدبير النزاعات في التعليم الثانوي الأدنى، من 12 إلى 15 سنة.
 4. ضبط أوجه الشبه والاختلاف بين المجتمعات والثقافات (المعتقدات واللغة والتقاليد والدين وأنماط الحياة)، في التعليم الثانوي الأعلى من 15 إلى 18 سنة وما فوق.
- تؤكد ليلي جراي ممثلة المكتب الإقليمي لليونسكو في الأمم المتحدة بنجاح عدة بلدان في آسيا بإدماج المواطنة العالمية والكفاءات الأساسية المتصلة بها في نظم التعليم الوطنية والمناهج الدراسية الخاصة بها. على سبيل المثال "يؤكد المنهاج الدراسي الوطني

⁵⁷³ - www.unesco.org/new/en/education/resources/in-focus-articles/global-citizenship-education/documents-unesdoc (Accessed 28/03/2020)

⁵⁷⁴ - اليونسكو، التربية على المواطنة العالمية، مواضيع وأهداف تعليمية، بيروت، 2015، ص 37.

لجمهورية كوريا على أهمية أن تكون مواطناً عالمياً مزوداً بقيم التسامح والتعاطف ومُلمّاً بالثقافة⁵⁷⁵ وفي أندونيسيا يشمل "المنهاج الكفاءات الأساسية المتعلقة بالتربية على المواطنة العالمية. على سبيل المثال من خلال المواقف الاجتماعية، فإنه يشير إلى السلوك القويم والمسؤولية والاهتمام بما في ذلك التسامح والتفاهم المتبادل"⁵⁷⁶ وهناك عدد من المؤسسات والمنظمات حول العالم تدعم مشروع تعلم المواطن العالمي وتشمل جامعة آنا جي. مانديز، ومنظمتي اليونسيف وأوكسفام⁵⁷⁷.

في العالم العربي الإسلامي، نجد حديثاً قصاصة إخبارية لوكالة الأنباء السعودية⁵⁷⁸، بتاريخ 07 فبراير 2020، حيث أطلق مشروع سلام للتواصل الحضاري مبادرة «تسامح» للمواطنة العالمية للأطفال والناشئة كفرصة للتدريب العملي على مبادئ التواصل والتعايش وبناء جسور التواصل بين أطفال ينتمون إلى ثقافات مختلفة وتعزيز مفاهيم المواطنة العالمية لديهم عن طريق إقامة فعاليات ثقافية تعمل على بناء المشتركات الإنسانية لدى الأجيال القادمة وقبول التنوع والتعايش الثقافي.

في المغرب، انطلق بتاريخ 16 أكتوبر 2019 مشروع تمكين المنظومة التربوية من نشر التربية على المواطنة العالمية ومفهوم العيش المشترك⁵⁷⁹ من خلال عملية تجريب العدة التربوية المتعلقة بإدراج موضوعات التربية على المواطنة العالمية في مناهج التدريس. العملية التي يشارك فيها أساتذة قاموا بإدراج موضوعات التربية على المواطنة العالمية في ورشات داخل القسم.

باعتبارها مشروعاً تربوياً تواقفاً إلى تطوير السياسات التعليمية في الأمد المتوسط والبعيد، من اللازم أن تحتضن المدرسة والمناهج وبيئات التعلم الملائمة موضوعات وأنشطة التربية على المواطنة العالمية تراعي السياقات والخلفيات الثقافية وحاجات الفئة المستهدفة من التعلم وخصائصها اللغوية، كما يجب أن تعتمد على التواصل التربوي

⁵⁷⁵ - <https://academicimpact.un.org/content/> (Accessed 28/03/2020). اليونسكو-تعليم-المواطنة-العالمية

⁵⁷⁶ - اليونسكو، التربية على المواطنة العالمية، مرجع سابق، ص 47.

⁵⁷⁷ - <https://academicimpact.un.org/ar/content/global-citizenship-education> (Accessed 28/03/2020).

⁵⁷⁸ - <https://www.spa.gov.sa/2031661> (Accessed 28/03/2020).

⁵⁷⁹ - <https://www.men.gov.ma/Ar/Pages/DetailActualite.aspx?ActuID=VqRITYLRC2s=> (Accessed 28/03/2020).

الأفقي والبناء الجماعي للمعارف والمواقف وتنويع أساليب التعليم والتعلم، من التعلم التعاوني والتعلم القائم على حل المشكلات والتعلم القائم على الحوار.

ومن البداهة البيداغوجية أن نتوسل إلى مقارنة بيداغوجية متعددة المنظورات والرؤى، بتعدد الأبعاد المختلفة للقضايا، عابرة للتخصصات ممتدة بين المواد التعليمية، متعددة المسارات والمفاهيم من قبيل التربية على حقوق الإنسان والتعليم من أجل السلام ومنظور التعليم مدى الحياة وتعليم مهارات الحياة والأنشطة البيداغوجية البين-ثقافية والجذابة التي تشجع على الحوار وتحت على الفعل، تفاعلية وإبداعية، تبرمج حسب البنيات والأسلاك التعليمية واختصاصات المؤسسات التربوية، مع شرط توفر إرادة القرار والتدريب المهني للعاملين في حقل التربية والتعليم والتكامل الداخلي والخارجي للمواد التعليمية في تصور نظرة شمولية للعالم وقضاياها.

حتى الآن، لا توجد مؤشرات متفق عليها عالميا لرصد التربية على المواطنة العالمية وتقييم مخرجاتها، خاصة القيم والمواقف والانجازات، لتبقى التغذية الراجعة الآنية ومستوى تقبل الأفكار والمعالم الثقافية وكثافة الأنشطة التعليمية والتربوية ودرجة الاقبال عليها وعدد البحوث العلمية حول التبادل الثقافي وندرة حالات كراهية الأجانب أو العنف على أساس ثقافي أو ديني مؤشرات يمكن الاستئناس بها لتقييم مدى فعالية برامج التربية على المواطنة العالمية.

كما تشكل وسائل الإعلام بمختلف أنواعها، الورقية والرقمية والفضائية، تحديا للتربية على المواطنة العالمية، نظرا لكم الهائل والمتنوع من المعلومات المتعددة المصدر التي تنشر على نطاق عالمي واسع، مما يتطلب مقارنة الخطاب الاعلامي مقارنة نقدية، هل هو موضوعي أو ذاتي، ايديولوجي أو ثقافي؟ والتوسل بالمقاربات التواصلية لفك شفرات الخطاب والصورة والوعي بمدى تأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على تصميم الكلمات والصور وصناعة الرأي العام. بالمقابل نطالب استغلال وسائل الاعلام كمصدر تعليمي لاكتشاف ثقافات العالم واشكاليات الاختلاف والترابط العالمي وتطوير التواصل والحوار الثقافي، كذلك، للحصول على المعلومات ونشرها من الفرد إلى الجماعة

ومن المجتمع المحلي إلى المجتمع العالمي أو لتسليط الضوء على قضايا بعينها بهدف التحسيس أو التنديد أو الإشادة بالممارسات الجيدة.

صفوة القول، لتقاسم فرص العولمة ومنافعها والتقليص من أضرارها وجب تسليط الضوء على القضايا العالمية: المواطنة، الهجرة، الترابط، الهوية الرقمية والذكاء الاصطناعي، العلاقات شمال- جنوب، التعدد الثقافي، الحرية الدينية، حوار الثقافات، الاختلاف الثقافي، حقوق المرأة، التنوع البيولوجي، التغير المناخي وتحقيق تواصل وحوار بشأنها ضمانا لحضارة إنسانية آمنة. لذلك كان قصدنا الحديث في موضوع الوعي بأهمية المواطنة العالمية والانفتاح على ما هو عالمي وكوني، عبر فضاءات وقنوات التربية والتعليم، لخلق مواطن عالمي يمتلك كفاية التفاهم مع الآخر المختلف ثقافيا ويعي واجباته اتجاه العالم، مهما اختلف عنه ومتشعب بقيم المواطنة العالمية التي تتمظهر في التواصل والحوار والتسامح والسلام بوصفها قيما إنسانية وكونية. مواطن يعي التحديات العالمية، سواء كانت ثقافية أو بيئية أو اجتماعية أو صحية أو... ويستشعر مدى إسهاماته في حلها انطلاقا من انتمائه للكون دون إلغاء الهويات الثقافية والانتماءات المحلية التي تعد بمثابة نقطة الانطلاق نحو العالمية. يبرز دور التواصل عبر العالم في تحقيق التوازن والمناخ الثقافية، إن صح التعبير، بين تعزيز أصالة الانتماء والهوية والانتفاع بمنجزات الحضارة العالمية ومعالج ثقافتها وتلافي الانشقاقات والصراعات اللغوية والدينية والثقافية.

من شأن الإيمان بالتواصل، أيضا، منحنا الثقة في تصور رؤية مشتركة للعالم وتعزيز التعاون الدولي لإيجاد حلول للمشكلات ذات البعد العالمي، تصور لبناء حضاري مشترك وليس تصور لفرضيات الصراع الحضاري. تواصل ييسر الانتقال من ثقافة الهيمنة إلى ثقافة الشراكة ومن ثقافة الفردانية إلى ثقافة المشاركة المبنية على الحوار والتفاهم، وصولا إلى معرفة وفهم الآخرين والثقافات. تواصل مشبع بالحس الإنساني المشترك ومسؤولية التضامن العالمي والعمل المدني والمشاركة المجتمعية والالتزام الجماعي واحترام التعددية والبحث عن البدائل. أليس العمل التطوعي على الصعيد العالمي نابع من قيم الإنسانية المشتركة؟

في هذا المضمار، وعوض الاقتصار على تراكم المعارف والبيانات حول مواضيع - جلها متقادم- المنظومة التربوية المغربية على المحك في تطعيم مناهجها بمنظور يترابط فيه المحلي والعالمي، يعزز الحقوق الإنسانية والثقافية ويبرز مسؤوليات المواطنة المحلية من جهة والعالمية من جهة أخرى. منظور يدعم قدرات التفاعل الاجتماعي والتدبير التشاركي لقضايا الإنسانية ومهارات التواصل والحياة مثل: التفكير النقدي، إدارة الذات، حل المشكلات، التفاوض، المبادرة، المرونة والتكيف، قيادة التغيير لدى مواطن القرن الحادي والعشرين المقبل على مواطنة عالمية دينامية تتجاوز حدودها الوطن الأم، متعددة الأبعاد وقابلة للتطوير مع تطورات وافرازات العولمة التي يمكن أن تنتج يوما شبكات تعلم عالمية كالشبكات الدولية القائمة حاليا في حقل الأعمال والتواصل.

ثالثا: بناء التعليم لمجتمع المعرفة نهج لبناء حصون للتواصل الحضاري وحوار الثقافات.

نقلا عن رحمة بورقية، تقول حنا آرندت في مؤلفها «la crise de la culture» إن التربية تهيئهم لمهمة تجديد عالم مشترك وتجديد العالم يكتسب عبر المعرفة⁵⁸⁰ وعُرف عن المفكر الفلسطيني ادوارد سعيد قوله «المعرفة سلاحنا»، فمع مرور التاريخ الحديث بأحداثه المعروفة وجدنا أنفسنا إزاء شكل جديد من التطور المجتمعي يعتمد على المعرفة عموما والعلمية خصوصا.

الثورة العلمية خلفت إنتاجا كثيف المعرفة وخلقت ثورة معلوماتية، انعكست - بإيجابياتها وسلبياتها- على التربية والتواصل، على الأفراد والجماعات والثقافات والحضارة الإنسانية وبناءً على منافع المعرفة المعاصرة في مجالات التعليم وتكنولوجيا المعلومات والاتصال والبحث والإبداع، سيطرة التقنية والعلوم على وجود الإنسان وتواصله مع العالم، بل هناك من ادعى أن "أهم ما جاءت به النهضة الحضارية الجديدة للإنسانية هو مجتمع المعلومات الكوني والتنمية والابداع وذلك بفضل الثورة المعلوماتية وحضارة العولمة"⁵⁸¹. وهناك من اعتقد فكرة المفكر الفرنسي جاك أتالي بأن "مقدم

⁵⁸⁰ - رحمة بورقية، نحو مدرسة لبناء القدرات المعرفية، مجلة المدرسة المغربية، المجلس الأعلى للتعليم، الرباط، عدد مزدوج 5/4، 2012،

ص14.

⁵⁸¹ - عبد المجيد عمراني، نداء إلى حضارة واحدة لعالم واحد، مرجع سابق، ص 1.

مجتمع المعلومات لا يعني أنه سيسفر عن ظهور ثقافة سائدة من حيث المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة، بل يعني أن ثقافات الشعوب أصبحت متداخلة ومن جراء هذا التداخل طفت على السطح إلى جانب الثقافات المحلية أو الوطنية «ثقافة كونية»⁵⁸².

في ظل هذا المشهد المستجد، يمكن للمرء أن يتساءل: من المسؤول عن مخزون المعرفة بالمجتمع؟ وهل يحقق مجتمع المعرفة تواصلا حضاريا وحوار ثقافيا؟ أم يعمق قلق فجوة حضارية متعددة المظاهر ويضعف الهوية والخصوصيات الثقافية؟ كيف تستوعب منظومة التربية والتعليم مقومات وامكانات مجتمع المعرفة وتجعلها دعامة للتواصل الحضاري وحوار الثقافات؟ بأي مداخل بيداغوجية ومهارات تواصلية تعرض في المناهج التربوية؟ بالموازاة مع ذلك، أي حضور لمجتمع المعرفة في الرؤية الاستراتيجية لإصلاح المدرسة المغربية؟

ترد كلمة المعرفة ضمن مترادفات لغوية متعددة: العلم والدراية والاطلاع والوعي والإدراك والإخبار، يكتسبها الإنسان وتتعرز بالبحث والنظر، تنتقل بشكل فاعل ومنظم لتتلقاها الأجيال مع مرور الزمن. للمعرفة قيمة الاستعمال والتوظيف في كل مناحي الحياة اليومية وأضفت عليها تكنولوجيا الاعلام والاتصال قيمة التدوال والتبادل، محليا وعالميا.

ما يهمننا في هذا العمل، تملك الفرد للمعارف والمفاهيم والتصورات العلمية الموجودة وتوظيفها لاكتشاف ذاته ومحيطه وعلاقاته بالآخر في العالم من حوله ومدى اسهامات ذلك في الانفتاح والتواصل الحضاري. الأمر الذي سيبسر التقارب والتفاهم والحوار، بل الأولى القول: لا تواصل حضاري ولا حوار ثقافي بدون معرفة ولا مناص من التعامل أو غض الطرف عن منجزات المعرفة وارتباطها بمفاهيم حضارية أخرى، من قبيل مجتمع المعرفة.

نحن إذن، أمام مجتمع للمعرفة ظهر كمصطلح في سبعينات القرن الماضي بالموازاة مع التطور التكنولوجي والمجتمع ما بعد الصناعي الذي يركز على الخدمات حيث المعرفة النظرية في خدمة الاقتصاد الجديد: اقتصاد المعرفة. مجتمع المعرفة هو

⁵⁸² - محمد مصطفى القباچ، مقاربات في الحوار والمواطنة ومجتمع المعرفة، منشورات دار ما بعد الحداثة، فاس، الطبعة الأولى، 2006، ص

نسيج اجتماعي تشكل المعرفة فيه اللبنة الأولى في البناء والإنتاج، ينتج ويوظف ويتقاسم المعرفة بمختلف أبعادها لضمان التقدم الحضاري لأفراده، معتمدا على اللغات وقدرتها على المنافسة في إنتاج المعارف وسمات الابداع المعرفي والبحث العلمي والابتكار - أرقى مستويات التفكير - في مختلف المجالات والعلوم والتي تظهر تطبيقاتها عمليا في تواصلنا اليومي ودورها الأساس في التحولات المجتمعية والثقافية التي نعيشها بشكل متسارع وأفرت اشكالات ترتبط بالهوية والعولمة، سواء في أبعادها الكونية أو المحلية. اشكالات جعلت معظم الدول العربية في موقع متوسط على دليل التنمية البشرية لسنة 2017 وأكدت التقارير حول حالة المعرفة في المنطقة العربية ضعف هذه الحالة وثباتها إزاء التحولات العالمية الكبرى⁵⁸³.

لقد أحدث مجتمع المعرفة صدمة ثقافية خلخلت توازنات معرفية وألزمت مهارات في التواصل لم يكتسبها الإنسان من قبل. مما أدى إلى تحول في نظريات الاتصال التقليدية التي كانت تقدم تفسيرات بسيطة ومدرسية لعملية الاتصال، تسير في اتجاه واحد، من قبيل: من المتكلم؟ ماذا يقول؟ القناة؟ من الجمهور؟ بأي أثر؟⁵⁸⁴، في اتجاه الارتقاء بالعلاقات والمعاملات الإنسانية استنادا إلى قدرات كبيرة في التواصل مع العالم الخارجي سواء في نوع وسائل الاتصال أو أنماطه أو المحتوى، في بيئات تشجع على الانفتاح والحرية والتواصل والتفاعل وتفرض امتلاك الفرد قدرات ومهارات وأساليب حاجية "لإبراز التوافقات أو اكتشاف القواسم المشتركة بين الحضارات أو الثقافات أو معتقدات داخل الدولة الواحدة أو بين دول متعددة"⁵⁸⁵.

بالموازاة مع ما مثلته الثورة الرقمية من مرحلة انتقالية في تاريخ الاتصال الانساني وتطوير الابتكارات العلمية لأشكال الاتصال والتواصل في عصرنا هذا وتأثيرها اللامحدود على كثافة المعلومات، برزت مجتمعات المعرفة كمرحلة من مراحل الارتقاء الحضاري في تاريخ البشرية كإطار مهم لإعادة هيكلة التواصل الإنساني بصفة خاصة والتواصل الحضاري بصفة عامة وجعل التفاهم ممكنا بأيسر الوسائل، حيث شكل الاتصال

⁵⁸³ - اليونسكو، بناء مجتمعات المعرفة في المنطقة العربية، القاهرة، 2019، ص 11.

⁵⁸⁴ - يعرف بنموذج هارلد لاسويل H. laswell، عالم السياسة الأمريكي، أسسه من خلال أسئلة خمسة شهيرة: من المرسل؟ ماذا يقول؟ في أية

قناة؟ لمن المستقبل؟ ما التأثير؟

⁵⁸⁵ - محمد مصطفى القباح، مقاربات في الحوار والمواطنة ومجتمع المعرفة، مرجع سابق، ص 45.

مكونا أساسا من مكونات هذه المجتمعات وتأثرت وسائل الاتصال بالمنجز الفكري والمعرفي والتقني وتميزت أنظمة الاتصال الجديدة بخصائص العالمية والتفاعل وفرص المشاركة والحرية. تخطت المعلومات الحدود والحواجز السياسية والجغرافية وأصبح البث والتلقي متاحا للجميع وأضحت تكنولوجيا المعلومات الأداة الرئيسة في العصر الحالي لتحصيل وتداول ونشر المعرفة وتطوير التنمية الإنسانية، مما أدى إلى تضاعف المعرفة وتراكمها في زمن قياسي.

الثقافة كغيرها من المجالات تأثرت بإنتاج مخرجات ثقافية جديدة ساهم فيها الارتقاء المعرفي وتطور الانفتاح الثقافي بما يحقق تواصل مجتمعات العالم وتقوية أواصر التعارف والتعاون بين الشعوب والتقليل من سوء الفهم الثقافي واتخاذ مواقف إيجابية اتجاه مختلف القضايا، مقابل التبادل الثقافي ومعرفة الثقافات المختلفة على أوسع نطاق وأكثر من أي زمن مضى. هذا المسار في الانفتاح على الثقافات يمكن أن يمثل عامل تحفيز وعامل تدمير للثقافة الأصلية في آن واحد، مما يخلف شعورا بالاستياء وظهور أصوات تحذر من الآثار السلبية للتفاوت التكنولوجي بأبعاده المعرفية على ثقافة وقيم المجتمعات وهو الفاعل الأبرز في عملية التتميط الجارية في العالم، لا يحده موقع أو جغرافية، يعزز الترابط بين العولمة والمعلومة ويولد صداما حضاريا له بعد معرفي يضع العالم في قالب ثقافي واحد يملك قوة المعرفة والنفوذ وينتج عنه خلافا وصراعات ثقافية.

ليس معنى هذا أن المعرفة كجزء من الثقافة، تتقاطع قوتها مع محاولات التجانس الثقافي الكوني الذي تشيعه العولمة بقيم اجتماعية وأخلاقية تنشرها قوى الاتصال والتواصل لتعيد تشكيل وجودنا وخصوصيتنا الثقافية. الصواب أن المعرفة جسر للخروج من قوقعة العزلة والانغلاق المفضي إلى التزمت وبساط للتواصل مع الذات لكشف أعطابها وعللها أولا والتواصل مع الآخر بعقلانية وثقة، ثانيا. ليتوصل الجميع إلى التواصل المعزز بالحوار من أجل انجاز معرفي أو إنتاج مشترك للمعرفة أو تبادلها وتشاركها. لا سبيل للتعامل إلا بالحوار بين المنتج والمستهلك سواء كانا من الشرق أو الجنوب، من الغرب أو الشمال.

يدفعنا التفكير في مجتمعات المعرفة ودورها في تحقيق تواصل حضاري عالمي وحوار بين الثقافات إلى مسؤولية المنظومة التعليمية وأهميتها في تكوين الإنسان الذي سيستند إلى المعرفة لفهم الحاضر والمستقبل والتواصل والحوار مع الآخر، بكلمة من العقل إلى العقل. من المسلم به أن التعليم جوهر التنمية بكل تجلياتها وأحد العوامل الحاسمة في تحديد مستقبل أي مجتمع. تنافسية الأمم، في عصرنا هذا، تقاس بجودة الرأسمال البشري لاسيما في مجال اقتصاد المعرفة. من موقعه الاستراتيجي، التعليم قناة للمعرفة ونقيض للجهل، يمنح للأفراد، أطفالا وشبابا، الرأسمال المعرفي إلى جانب القيم الإنسانية، في فضاءات ومؤسسات تعليمية تدرس التلاميذ ما ينبغي من مستجدات عالم اليوم وتلبية احتياجات المستقبل.

مجتمع المعرفة هو أيضا مجتمع التعليم، الفرد يتعلم ليعرف وليعلم وليكون وليعيش مع الآخرين، ينهل في فيض من المعلومات والرموز الثقافية والاتجاهات الفكرية ويتفاعل معها، بعيدا عن التلقي السلبي الذي كان سائدا في التعليم التقليدي، بينما التعلم في مجتمع المعرفة غير مقيد بأي مكان لتمكنك واستيعاب وتجديد بناء المعرفة وفحص مدى صلاحيتها، تتعدد فيه منصات وفضاءات التعلم بين الحضورية والالكترونية وتتنوع مهارات الاتصال والاحتكاك بالآخر، بهدف "إنتاج إنسان متعدد المواصفات، له القدرة على استعمال ملكة التفكير التي تمكنه من بسط أفكاره بالحجج العقلية والمعرفية"⁵⁸⁶.

في ظل التحول من مجتمع الصناعة إلى مجتمع المعرفة تغيرت أولويات التعليم من تخريج يد عاملة مؤهلة للعمل اليدوي وتشغيل الآلة إلى يد عاملة تبدع الأفكار وتبتكر الحلول للإنسانية وتقدم خدمات عن بُعد وظهرت أنماط جديدة من مصادر المعرفة والبحث العلمي وحقول معرفية موازية كالدراسات الثقافية والنقدية والأدب المقارن والأدب الرقمي والذكاء الاصطناعي وتكنولوجيات الاتصال والأمن الرقمي....

ثمة إذن، قدرات معرفية ينبغي تطويرها في حقول التربية والتكوين للاسهام في مجتمع المعرفة وتحقيق إمكانات اللحظة التكنولوجية الحالية لفائدة تواصل حضاري فعال، نلخصها في ضرورة تنمية ملكات التفكير ليس باستيعاب المعلومات وتخزينها - كما هو

⁵⁸⁶ - رحمة بوقرية، نحو مدرسة لبناء القدرات المعرفية، مرجع سابق، ص 17.

عليه تعليمنا الآن - ولكن ببناء القدرة على توليد الأفكار والتحليل والتركيب والتصنيف والتمييز والتنظيم والقياس وإصدار الأحكام والتقييم، في سياقات تعليمية تسمح بالمبادرة والاكتشاف والابتكار والتصور والاختيار والابداع. لقد حدد المنتدى الاقتصادي العالمي لسنة 2018⁵⁸⁷ عشر مهارات مطلوبة في سنة 2020، منها: حل المشكلات المعقدة، التفكير النقدي، الابداع، إدارة الأشخاص، التنسيق مع الآخرين، الذكاء العاطفي، التفاوض، المرونة الإدراكية.

ومن المؤكد أنه إلى جانب البحث والتطوير والابتكار والابداع، تظل جودة التعلم مؤشر من مؤشرات مجتمع المعرفة، بل شرط لاكتساب وإنتاجها كقيمة مضافة، يوظفها أفراد المجتمع في فهم مزيد من الثقافات والحوار وتوجيه السلوك البشري في تنظيم العلاقات مع الآخرين على أساس احترام التنوع الثقافي واللغوي وحرية التعبير وخلق كائن ثقافي ملم بالثقافات ويتفاعل ايجابيا.

بالنسبة لحالة المغرب، ما موقع منظومة التربية والتكوين من مجتمع المعرفة وإبداع نموذج معرفي ذي خصوصية ثقافية مغربية؟ وأي حضور لمجتمع المعرفة ومقوماته في خارطة اصلاح المنظومة مستقبلا؟ لمقاربة التساؤل الأول سندرس عينة من مؤشرات مجتمع المعرفة، وهي: جودة التعلم، الابتكار والبحث والتطوير.

نختصر جودة التعلم في جودة التحصيل الدراسي في العلوم واللغات واستعمالات تكنولوجيا الاعلام والاتصال في العملية التعليمية، إذ يكفي الاطلاع على نوعية المعرفة التي يكتسبها خريجو التعليم الثانوي في نهاية المسار التعليمي للوقوف على ضعف جودة المكتسبات والمعارف التي يتلقاها مواطنو الألفية الثالثة في المغرب والتي لم تتجدد المناهج الدراسية الحاملة لها منذ 2003 - ما عدا ما يتعلق بتعليم الدين الاسلامي - كما أنها لا تمنح أغلب التلاميذ تملك مؤهلات الالتحاق بالتخصصات العلمية في التعليم العالي. قبل عشر سنوات سجل تقرير المعرفة العربي أن "الغلاف الزمني المخصص للعلوم والتقانات

⁵⁸⁷ - تقرير استشراف مستقبل المعرفة 2019، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم وبرنامج الامم المتحدة الانمائي، الغرير للطباعة والنشر، دبي، ص 21. (https://knowledge4all.com/reports/futureofknowledge2019_ar.pdf)

يعتبر غير كاف وهو دون المعدل العالمي⁵⁸⁸ وأرجع ضعف التحصيل الدراسي إلى "غياب تمثّل واضح من قبل المدرسين لطرائق التدريس التي تتماشى مع متطلبات مجتمع المعرفة وصعوبة تطبيقها"⁵⁸⁹. استمرّ الاخفاق في النتائج التي حصل عليها المغرب في الاختبارات الدولية وأقرّ المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي أن المغرب "ما زال يحتلّ المراتب الأخيرة ضمن البلدان المشاركة... حيث حصل على معدلات دون المعدل الدولي"⁵⁹⁰ وأن "أكثر من نصف التلامذة المغاربة لم يصلوا أدنى مستويات التحصيل الدولية في الرياضيات والعلوم"⁵⁹¹.

بالنسبة لتعلم اللغات، على الرغم من تنوعه وانفتاحه على اللغات الأجنبية، فهو ليس أفضل حالا ويظلّ تحكم التلاميذ ضعيفا. توصل تقرير الهيئة الوطنية لتقييم منظومة التربية والتكوين والبحث العلمي حول تقييم مكتسبات تلامذة الجدع المشترك من التعليم الثانوي التأهيلي، إلى أن "تحليل معدلات التحصيل الخاصة بالمكتسبات وكذلك التحليل البيداغوجي لأجوبة التلامذة، كلها معطيات تكشف عن ضعف مستوى التحكم في اللغتين العربية والفرنسية لجميع تلامذة الجذوع المشتركة"⁵⁹². في اللغة الانجليزية، من بين مائة دولة مشاركة، احتل المغرب الرتبة ستة وسبعين في مؤشر EF لكفاءة اللغة الانجليزية لسنة 2019 بمستوى كفاءة متدن جدا⁵⁹³ ومن غير المفاجئ وجود ارتباط بين معدل إتقان اللغة الإنجليزية وعدد المقالات العلمية والتقنية المنشورة عالميا.

أما توظيف التكنولوجيات التربوية، فبرنامج GENIE الذي انطلق سنة 2005 بهدف "تحقيق الولوج إلى وسائل وخدمات تكنولوجيا المعلومات والاتصال لفائدة أكثر من 22٪ من مجموع ساكنة المملكة"⁵⁹⁴ ومركز الإبداع في تكنولوجيا الإعلام من أجل التنمية البشرية⁵⁹⁵ «CITI» المحدث سنة 2008 في إطار التعاون المغربي الكوري، هما التجسيد

⁵⁸⁸ - تقرير المعرفة العربي للعام 2010/2011، رصد وقياس وإعداد النشء لمجتمع المعرفة، حالة المغرب، برنامج الأمم المتحدة الانمائي ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم.

⁵⁸⁹ - المرجع نفسه، ص 367.

⁵⁹⁰ - المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، تقرير موضوعاتي حول نتائج التلامذة المغاربة في الرياضيات والعلوم ضمن سياق دولي (TIMSS 2015)، 2018، ص 45.

⁵⁹¹ - المرجع نفسه، ص 46.

⁵⁹² - المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، الهيئة الوطنية لتقييم منظومة التربية والتكوين والبحث العلمي، البرنامج الوطني لتقييم مكتسبات تلامذة الجدع المشترك، PENA 2016، ص 76.

⁵⁹³ - <https://www.ef.com/wwar/epi/regions/africa/morocco/> (Accessed 11/04/2020)

⁵⁹⁴ - <https://www.anrt.ma/ar/missions/service-universel/genie> (Accessed 11/04/2020)

⁵⁹⁵ - <http://citi.aui.ma/> (Accessed 11/04/2020)

العملي للاستراتيجية الوطنية لإدماج تكنولوجيا المعلومات والاتصال والبحث العلمي في المجالات التربوية والتعليمية، نتائجهما بادية للعيان في الارتباك الذي عرفه التعليم عن بعد إبان جائحة كورونا: تفاوت في تكافؤ الفرص للتولوج إلى الخدمات بين الواسطين القروي والحضري وضعف في رصيد المحتوى الرقمي للتعلّيمات... مما يجعل المتابع يتخطى عتبة السؤال حول الفعالية والنجاعة إلى إصدار أحكام قيمة سلبية وخيبة الأمل في إمكان التولوج لمجتمع المعرفة بقصور تكنولوجيا حاد في الوسط المدرسي، يكرس المزيد من طرائق التدريس والتواصل والممارسات التعليمية التقليدية.

لقد أظهرت دراسة للوكالة الوطنية لتقنين الاتصالات «ANRT» على المستوى الوطني⁵⁹⁶، حول استخدامات الإنترنت (مستخدمو الإنترنت الذين تتراوح أعمارهم بين 5 سنوات وما فوق) آخر ثلاثة أشهر من سنة 2018 وجود 96,4% يشاركون في مواقع التواصل الاجتماعي و81% يلجون مواقع الدردشة والمدونات عبر الإنترنت، مقابل 11,1% يقومون بقراءة أو تنزيل الكتب الإلكترونية، مما يؤشر لنزعة تواصل وانفتاح لدى فئة عريضة من المجتمع المغربي، لا تواكبها منظومة التربية والتكوين، تأطيرا وتوجيها.

لننتقل إلى الابتكار، الضرورة الملحة في مجتمع المعرفة، لمكانته الاستراتيجية والحيوية كمعيار للتطور الحضاري وترسيخ ثقافة المبادرة والابداع، ميدان التربية والتعليم حقل خصب ومثّل له، إلا أن الواقع التعليمي يحاصرنا بأسئلة، من مثل: هل يمكن أن نبتكر في ظروف عمل غير مشجعة ومكونات منهاج متقدمة؟ ألا تتطلب التربية على الابتكار ابتكارا بيداغوجيا وديداكتيكيا في التدريس وتكوين الفاعل التربوي لإحياء هذه الملكة في ممارساته الصفية؟ إضافة إلى النقص الحاد في العتاد الديداكتيكي والمختبرات العلمية والمكتبات المدرسية بمؤسساتنا التعليمية. يبقى الأمل في همة الشباب، حيث نتابع بين الفينة والأخرى شباب مغربي حصل على براءات اختراع، مكنت المغرب المرتبة 78 من أصل 141 بلدا في تصنيف مؤشر الابتكار العالمي 2015 الذي تنشره

⁵⁹⁶ - <https://www.anrt.ma/sites/default/files/publications/enquete-tic-2018.pdf> (Accessed 11/04/2020)

المنظمة الدولية للملكية الفكرية وجامعة كورنيل والمعهد الأوروبي لإدارة الأعمال⁵⁹⁷. النتيجة التي نعتبرها واعدة أمام الاخفاقات السالفة الذكر في العلوم واللغات والتكنولوجيا، وهي بمثابة مخاطر في طريق ثقافة الابتكار وتحول دون نجاحه.

في هذا الصدد وفي زمن الإصلاح نظم المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي في أكتوبر 2018 ندوة وطنية في موضوع الابتكار التربوي ودينامية الإصلاح بالمغرب، بغرض تدقيق دلالات المفهوم والتعريف برهانات الابتكار والاطلاع على التجارب الوطنية والدولية حول إسهام الابتكار في تحسين أداء المدرسة وكيفية دعم البيئة المباشرة للمدرسة الابتكار البيداغوجي. خلصت أشغال الندوة إلى ضرورة "النهوض بمجالات البحث والابتكار بما فيها مجالات العلوم التربوية والترجمة"⁵⁹⁸.

أما مؤشر البحث والتطوير، فمنظومة البحث العلمي في المغرب حديثة العهد نسبيا وإن كانت بعض مؤسساتها قديمة جدا، وشكلت إحداث كتابة الدولة للبحث العلمي سنة 1998 منعطفا في بناء منظومة البحث في المغرب وبدأ الاهتمام بتمويل البحث العلمي وتنامي الموارد المخصصة للبحث خلال سنوات 2000 واتخذت الدولة مجموعة من المبادرات لتحسينها، منها إعادة هيكلة المركز الوطني للبحث العلمي والتقني سنة 2001 وإرساء أكاديمية الحسن الثاني للعلوم والتقنيات سنة 2006 وإعادة تنظيم المجلس الأعلى للتربية والتكوين سنة 2006 ويكتسي إحداث المؤسسة المغربية للعلوم المتقدمة والإبداع والبحث العلمي سنة 2007 أهمية خاصة لـ "تنمية البحث في مجال التكنولوجيات الحيوية والإلكترونيات الدقيقة وتكنولوجيات النانو ولكن دون أن تكون لها علاقة عضوية ووثيقة بالمختبرات التي تحتضن طلبة سلك الدكتوراه حتى يكون لها تأثير واسع"⁵⁹⁹.

يتبين من هذا التحليل، أن المدرسة المغربية في حاجة إلى وقفة تأمل ومساءلة من أجل أطفال المغرب رجال المستقبل، المحفوف بمخاطر لا سبيل لمواجهة إلا بالمعرفة. هذه الوقفة التأملية صيغت على شكل رؤية استراتيجية للإصلاح على المدى البعيد وهي مشروع جواب التساؤل الثاني.

⁵⁹⁷ - <http://maroc.ma/ar/أخبار/2015/العالمي-الابتكار-مؤشر> (Accessed 11/04/2020)

⁵⁹⁸ - المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، أشغال ندوة الابتكار التربوي ودينامية الإصلاح بالمغرب، الرباط،

2018، ص 27.

⁵⁹⁹ - المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، تقييم سلك الدكتوراه لتشجيع البحث والمعرفة، الرباط، 2017، ص 11.

تعتبر الرؤية الاستراتيجية لإصلاح منظومة التربية والتكوين بالمغرب 2015-2030 مجتمع المعرفة أكبر استثمار في القدرات المعرفية والتواصلية للأفراد والمؤسسات يقوم "بتوسيع وتكثيف امكانات استعمال تكنولوجيات الاعلام والاتصال وتنامي وتنوع طرق التعلم مدى الحياة والانفتاح على لغات مجتمعات العالم وثقافته والتعويل على البحث العلمي والابتكار وتكسير الحواجز بين الأفراد والجماعات والشعوب"⁶⁰⁰، كما تطمح الرؤية للارتقاء بالمجتمع المغربي "من مجتمع مستهلك للمعرفة إلى مجتمع لنشر المعرفة وإنتاجها عبر تطوير البحث العلمي والتقني والابتكار في مجالات العلوم البحتة والتطبيقية والتكنولوجيات الحديثة وفي مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية والفنون والآداب"⁶⁰¹.

- من أجل الانخراط الفاعل في مجتمع المعرفة اقترحت الرؤية أربعة مداخل:
 - مدخل تكنولوجيا الاعلام والاتصال بتعزيز ادماجها في المقاربة المنهجية عبر البرمجيات التربوية الالكترونية والحوامل الرقمية.
 - مدخل اتقان اللغات الأكثر استعمالا في العالم، للتمكن منولوج السلس للمعارف وتعزيز الانفتاح على العلوم والثقافات وتوسيع اشعاع المغرب ونموذجه الثقافي والقيمي.
 - مدخل البحث العلمي والتقني والابتكار عن طريق تطوير التربية على الابداع والابتكار وحرية الاختيار والاكتشاف والمبادرة وتعلم التعلم.
 - مدخل تشجيع التفوق والتميز الدراسي والتكويني الموجه نحو ترسيخ ثقافة الابتكار وربط الابتكار بمختلف المجالات والأنشطة الثقافية والفنية، مع اعتماد آليات وبرامج للاستكشاف المبكر للنبوغ والتفوق لدى المتعلمين وتوفير مناخ مؤسسي محفز على الابتكار.

إيماننا بأهميته في إنكاء ومواكبة تحولات مجتمع المعرفة، حددت الرؤية الابتكار في إطار "نسق ثلاثي الأبعاد: من خلال ربطه بالنموذج البيداغوجي من جهة وبمنظومة البحث العلمي والتقني من جهة ثانية وبالتنمية والانخراط الفاعل في اقتصاد ومجتمع

⁶⁰⁰ - المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، الرؤية الاستراتيجية للإصلاح، مرجع سابق، ص 84.

⁶⁰¹ - المرجع نفسه، ص 10.

المعرفة من جهة ثالثة⁶⁰² ووردت كلمة الابتكار ستة وستين مرة في نص الرؤية الاستراتيجية، ومثل حيزا هاما في مبادئها عبر التأكيد على ضرورة الانخراط في مجتمع العلم والمعرفة والابداع والابتكار والتكنولوجيات الحديثة⁶⁰³ وعلى مستوى وظائف المدرسة من خلال تمكين المدرسة من الاضطلاع بوظائف التثقيف والبحث والابتكار⁶⁰⁴ وشكل الابتكار رابع أركان النموذج البيداغوجي المتوخى في المدرسة المغربية إلى جانب التنوع والانفتاح والنجاعة.

مرت سنوات من زمن الرؤية والمشروع التربوي المغربي دون المأمول معرفيا واجتماعيا ورقميا. صنف المغرب، سنة 2019، في المرتبة 92 في مؤشر المعرفة العالمي⁶⁰⁵ ب 41.20 نقطة وما زال تعليمنا يعاني من سيادة المقاربات التقليدية، القائمة على التلقين والحفظ والتكرار وغياب أي استراتيجية للتكوين الأساس والمستمر للفاعلين التربويين. منظومة تعيش حالة مخاض وتردد في الإصلاح واصلاح الاصلا ح وهدر زمن الاصلا ح وتغيير رجالات الاصلا ح وتعدد مؤسسات الاصلا ح وكثرة خطابات التشخيص، مما يجعل قياس المسافة بين تعليمنا ومجتمع المعرفة صعبة ويحذونا الأمل لتقريبها بأجراء مضامين الرؤية الاستراتيجية.

تأسيسا على ما سبق، نقل المعرفة وتوطينها أو توظيفها في التواصل الحضاري وحوار الثقافات يوسع دائرة الابداع والتجديد، ويسهم لا محالة في التواصل والبناء حضاري، وظهور رأس مال بشري بمواصفات معرفية وقيم ومهارات لغوية في التواصل. فاعلا ومتلقيا، لا يشتغل بالأدوات التقليدية للمعرفة، بل يتعداها إلى تكنولوجيا التواصل ووسائط الاتصال الحديثة والمتطورة. المجتمعات المعاصرة الآن تتباهى بما تزخر به من مخزون معرفي وثقافي بفضل عقول ومعارف وتقنيات وقدرات على البحث والتطوير والابداع والابتكار والاتصال والتواصل عبر الشبكات. أما تأثر جل مكونات الثقافة بالثورتين العلمية والتكنولوجية وما يحيط بهما من سياقات عالمية ومتغيرات محلية

⁶⁰² - عبد الغفور العلام، الرؤية الاستراتيجية للإصلاح والابتكار البيداغوجي، أشغال ندوة الابتكار التربوي ودنامية الإصلاح بالمغرب، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، 2018، ص 23.

⁶⁰³ - المرجع نفسه، ص 8.

⁶⁰⁴ - المرجع نفسه، ص 9.

⁶⁰⁵ - <https://www.knowledge4all.com/ar/WorldMap> (Accessed 08/04/2020)

وما تفرزه من اشكاليات، فالتعليم هو المصفة القمينة بضبط منجزات الانسان وتوجيه التفكير العلمي والحرية بما يخدم الثقافات في تنوعها وليس ثقافة واحدة، انطلاقا من فصول التعلم والتحصيل العلمي.

وفق هذ التصور، نضمن الانخراط في مجتمع المعرفة، بالاستناد على مسلمتين رئيسيتين: أولاهما هي التعليم الجيد قاطرة المجتمع لإنتاج وإبداع المعرفة والثانية هي التواصل والحوار الثقافي الموسع مع الذات والآخر من أجل إقامة جسور المنجزات العلمية والخبرات وتبادل الموارد بين مجتمعات المعرفة في بيئة ثقافية حاضنة ومحفزة.

تحتاج مدارسنا أن تكون خادمة للمعرفة أكثر من أي زمن مضى وتسمح بالانفاذ إلى المصادر المتنوعة للمعرفة، واعداد رؤى وتصورات استشرافية للمستقبل وأن يتحول الفضاء المدرسي إلى شبكة لمجتمعات التعلم تتقن قدرات الحوار والبحث والتعلم الذاتي والالكتروني ومتمكنة من القنوات الرئيسية للاتصال والتواصل، استنادا إلى تنوع لغوي يعين على تحصيل وتبادل المعرفة المكتسبة وتوليد أخرى جديدة.

حالنا لا يختلف كثيرا عن السياق العربي، فقد حذر أول تقرير مفصل لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي UNDP⁶⁰⁶ من خطورة تدني مستوى التعليم في العالم العربي، الذي دخل القرن الحادي والعشرين بعبء أكثر من 60 مليون أمي، غالبيتهم من النساء ومن المتوقع ألا يستطيع العالم العربي القضاء على أمية الرجال قبل 2025، أما بالنسبة للنساء، فسوف لن يكون ذلك قبل 2040. لا يزال العالم العربي والإسلامي يسعى إلى محو الأمية الأبجدية في حين يتحدث العالم لغة البرمجة ويواجه الأمية الرقمية.

إنها نتيجة عدم الاستثمار في البحث العلمي والتخطيط للمستقبل التي حذر منها المفكر المهدي المنجرة بقوله "إن العالم الإسلامي إذا لم يخطط لمستقبله فإنه يوشك أن يستعمر بدوره كما استعمر ماضيه وحاضره"⁶⁰⁷. فهل ضاعت البوصلة أيها السادة أم لا زال الأمل قائما.....

⁶⁰⁶ - http://www.hdr.undp.org/sites/default/files/hdr_2019_overview_-_arabic.pdf (Accessed 08/04/2020).

⁶⁰⁷ - المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى، مرجع سابق، ص 176.

في نهاية هذا الفصل، نعتقد أن منظومة التربية والتعليم في مواجهة خطابات ومطالب متعددة، منها ما هو اقتصادي ومنها ما هو اجتماعي ومنها ما هو ثقافي وحضاري بل وترد كثير من اشكالات وأزمات المجتمع إلى اخفاقات هذه المنظومة، باعتبارها المسؤولة عن فشل المشروع المجتمعي برمته: غياب الكفاءات وندرة الابتكار وإنتاج المعرفة والإسهام في التنمية وأزمة القيم والتخلف عن الركب الحضاري المعاصر.

تجرأنا على مقارنة موضوع التواصل الحضاري وحوار الثقافات انطلاقاً من تداخل وتقاطع مهمات التعليم والثقافة وقناعة راسخة بأهمية منظومة التربية والتكوين في نبذ التعصب والتطرف والانغلاق وكسب رهان التواصل والحوار وتنمية الفعل التواصلية أمام موجات التواصل التي فرضتها الثورة الرقمية وخلقت ترابطاً بين الشعوب بشكل غير معهود، أدخلت تغييراً على سلوكيات ووعي الأفراد، إما انفتاحاً أو رفضاً. وأصبح، في سياقها، كل شخص ملزماً بالانخراط - نفعياً أو طوعياً - في تبادل معارف وأفكار تنهل من القواسم المشتركة بين الثقافات، تسهل العيش المشترك والتعايش بين الأفراد والجماعات وتلامس القضايا والأحداث في امتداداتها العالمية وانعكاساتها على البيئات الثقافية المحلية.

في محاولة للامساك بزمام المشكلات المتسارعة حولنا، بدل أن نتحكم فيها وتزيد أمرنا سوءاً، كان رهاننا فتح آفاق جديدة في المنظومة التعليمية بناء على مداخل استراتيجية، ذات العلاقة بتساؤلات وأبعاد موضوع البحث ولها منطلقات فكرية ومرجعية، مؤسساتية دولية، تخدم التواصل الحضاري وحوار الثقافات من منظور تربوي وتعليمي تستند إليه كل وضعية تواصل وحوار مع الآخر.

أولاً، القناعة بتنوع الثقافات والوظيفة التواصلية للغات تحيلنا على ضرورة تعليم وتعلم اللغات في أبعادها الثقافية، لأنها جسر بين الحضارات والأمم عبر التاريخ ومصدر للانفتاح ونقل معارف جديدة من حقول ثقافية شتى وفق مشروع للانخراط في التواصل الحضاري وحوار الثقافات، يشجع على التفاهم ويحد من التعصب. من غير الممكن أن نتواصل ونتحاور مع الآخر وثقافته ونحن لا نجيد إلا لغة واحدة. بالمقابل، نشر تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها وتحفيز البحث العلمي في هذا المجال خيار استراتيجي ثقافي

للتلاقح والتواصل الحضاري وإبراز تاريخ وعراقة الحضارة العربية الإسلامية وتغيير الصور النمطية عن الثقافة العربية الإسلامية، ولعل الاهتمام المتزايد الذي يشهده مجال تعليمها، بسبب التبادلات التجارية العابرة للقارات، إضافة لاهتمام الغرب بالعالم العربي وحركية طلبة التعليم العالي والرغبة التي تحذو باحثين لدراساتها- مع زيادة الطلب الاقتصادي على الكفاءات المتعددة اللغات- وعدد الناطقين بها عالميا وتراكم الخبرات الناجحة في تعليمها يبشر باستمرار دور اللغة العربية في التواصل الإنساني مع باقي شعوب العالم وحضاراته. إن المخزون المعرفي المحصل عليه بفضل اتقان اللغات وتطور المعرفة بشكل عام وتكنولوجيا الاتصال بشكل خاص قد يسهم في أفق كوني يجمع المشترك الإنساني للثقافات في حضارة إنسانية واحدة.

الانفتاح على اللغات في المغرب تاريخي، يُحصنه الدستور حاليا وتعززه السياسات التعليمية كمحور من محاور الإصلاح البيداغوجي، رغم الجدل الذي يرافق خيار تدريس المواد العلمية باللغات الأجنبية، يشهد تعليم وتعلم اللغات اقبالا كثيفا من دور الحضانة إلى الجامعة، في التعليمين النظامي وغير النظامي. يبقى الرهان على تجويد أساليب وتقنيات التدريس والتحصيل الدراسي لتجاوز القلق الذي تبعثه تقارير تقييم مستوى تحكم التلاميذ المغاربة في اللغات. أما اشكالية هيمنة اللغة الفرنسية على اللغتين الوطنيتين، فالأمر لا يدعو إلى الانزعاج لأن الفيصل في الصراع اللغوي هو إنتاج المعرفة والتداول العلمي عالميا والتعامل التجاري الدولي، وهو ما تحسمه الآن اللغة الانجليزية كلغة للكوكب وتعاني منه كل اللغات. من تم فنهضة كل لغة رهينة بالعلم والمعرفة والابتكار.

ثانيا، حيث العلاقة وثيقة بين الدين والثقافات والحضارات، الحاجة لخطاب ديني مُجدد لعلاقة الدين بتحديات الحضارة المعاصرة وتنوع الهويات الثقافية ومُغاير لنُظم واستراتيجيات التواصل التقليدية، يلائم طبيعة الاختلاف بين الثقافات في زمن العولمة وطفرة الاتصالات ولا يتشدد أو يتعصب في عرض حقائق الاسلام مستغلا إمكانات الفضاء الرقمي ومؤهلاته، تجديد يمكن أن يتمظهر في تحديث آليات التواصل والتبليغ وأسلوب الحجاج والقبول بالآخر ومناظرته ومراجعة مناهج التعليم الديني- بنوعيه

النظامي والتقليدي- من أجل التعريف بأديان العالم في سياقات تعليمية وتعزيز الحوار بينها وخلق مساحة للتسامح والمساواة واكتشاف المشترك الديني.

الإيمان بأن الحل في التربية التعليم جعلنا نتمسك بالتعليم الديني أداة وحيدة لتقديم خطاب ديني يواكب التحولات ويصحح صورة الاسلام مما لحقها من تشويه في الغرب وآلته الإعلامية، وينحو بأجيال الغد بعيداً عن التطرف العنيف. وجعلنا نتفحص منظومة التعليم الديني في المغرب، بنوعيه التعليم العام والعتيق. النوع الأول، تحتضنه وزارة التربية والتعليم ويتم بشكل نظامي في المؤسسات التعليمية وفق مادة تعليمية تخضع لشروط وضوابط المنهاج التربوي والنوع الثاني تحتضنه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، له خصوصية تاريخية ويتم بشكل غير نظامي في المدارس العتيقة والكتاتيب القرآنية.

يتميز منهاج تعليم مادة التربية الإسلامية بخلوه من كل أشكال التمييز أو اللاتسامح أو أي خطاب اقصائي للآخر. وفي نفس المقال، يفتقد لجوانب معرفية وتواصلية وثقافية وبيداغوجية وتكنولوجية واستراتيجية، حيث يغلب على الجانب المعرفي الموضوعات التقليدية المتعلقة بالعقيدة والعبادات وتغيب جوانب أخرى، سواء المرتبطة بمعتقدات الآخر الديني وتاريخ العلاقات التواصلية للمسلم بغيره من ذوي الثقافات والمعتقدات الأخرى، أو ما له علاقة بقضايا مستجدة، من مثل الذكاء الاصطناعي، قيم التواصل الالكتروني، حوار الثقافات والحضارات، التسامح الديني، المعاملات الرقمية، التنمية المستدامة، اضافة إلى محدودية إبراز اسهامات المغرب كملتقى لحوار الأديان والتسامح الديني والتعايش ومحدودية ابراز علاقة الدين بالحضارة والهوية الثقافية المغربية ودور الدين الاسلامي في منجزات الحضارة الاسلامية والتفاعل الحضاري عبر التاريخ. أما بيداغوجيا، رغم اعتماد الوضعية-المشكلة كمدخل للتدبير البيداغوجي فمهارات التفكير النقدي ونهج أساليب الاقناع وتنويع المقاربات البيداغوجية والجوانب المهارية والسلوكية تظل غائبة، أو جد محدودة، أمام الاقتصار على استنباط القيم الدينية المتعلقة بالعقيدة الإسلامية والعبادات والمعاملات الواردة في النص القرآني والحديثي.

تكنولوجيا، وفي زمن التواصل الرقمي سجلنا ضعف استغلال ما يعرف في التكنولوجيات التربوية بالموارد والمضامين الرقمية ومدى تأثير وتأثر المتعلمات والمتعلمين بالتحويلات الرقمية والتكنولوجية للمجتمعات المعاصرة وأهمية المناعة التواصلية التي ينبغي تبنيها. بالمقابل، يتميز التعليم العتيق عن التعليم الديني النظامي بمقاربتة لمواضيع التعدد الثقافي وصراع الحضارات كمحاور للدراسة والتأمل ويعتمد تدريس اللغات بهدف انفتاح الطلبة والطالبات على الثقافات الأجنبية والوعي بالآخر.

ثالثاً، أسهم تقاسم فرص العولمة ومنظور حوار الثقافات في اضاءة قضايا: مجتمعات المعرفة والمواطنة العالمية والهجرة والاختلاف الثقافي والتعدد الثقافي والحرية الدينية وترابط العلاقات شمال- جنوب والهجرة والتسامح والسلام. منحتنا امكانات التواصل، أيضاً، الثقة في تصور رؤية مشتركة للعالم وتعزيز التعاون الدولي لإيجاد حلول للمشكلات ذات البعد العالمي (التغيرات المناخية نموذجاً) وتصور بناء حضاري قائم على المشترك الإنساني والديني والتواصل والحوار وقبول الاختلاف، يجابه فرضيات الصراع والصدام ويفندها. تواصل يخلصنا من ثقافة الهيمنة نحو تقارب ثقافي مبني على الشراكة والتفاهم والعيش المشترك والأمن في المجتمعات المعاصرة الموسومة بالمعرفة وطفرة التواصل.

ونحن نعلم جيداً أن التربية والتعليم هي السبيل الوحيد لإعداد هذه المواصفات المعرفية والسلوكية والمهارية لمواطن القرن الحادي والعشرين، كان قصدنا الحديث في مجالات التربية على المواطنة العالمية والتربية على قيم التسامح والسلام وإسهام المنظومة التعليمية في بناء مجتمع المعرفة كمدخل ثلاث انتظمت في مبحث واحد يتوق إلى إعادة هيكلة التواصل الإنساني بصفة خاصة والتواصل الحضاري بصفة عامة، ويروم بث الوعي بأهمية المواطنة العالمية والانفتاح على ما هو عالمي وكوني، عبر فضاءات وقنوات العلم والتواصل، لخلق مواطن عالمي يعي واجباته اتجاه العالم والآخر المختلف ثقافياً، منتشعب بقيم المواطنة العالمية التي تتمظهر في التواصل والحوار والتضامن العالمي والعمل المدني والمشاركة المجتمعية واحترام التعددية والتسامح والسلام بوصفها قيماً إنسانية وكونية ونتاج لنوعية التربية والثقافة السائدة في المجتمع.

في عالم يفيض بالتعدد والاختلاف والعنف والإكراه، تطل أحداث واضطرابات بين الفينة والأخرى تشي برفض التعايش مع الآخر المختلف في الثقافة والدين وتجعل التربية على التسامح والسلام أولوية إنسانية وتعليمية وحضارية لنبذ العنف والحد من التعصب وإحداث تغيير في دافعية واستعداد الفرد لقبول الآخر واحترام ثقافته ومعتقداته، ينتفع بالمنجزات الحضارية ويحسن تدبير التعدد اللغوي والثقافي والديني.

مزايا التربية على المواطنة العالمية والتربية على التسامح والسلام، تكتمل في مجتمع المعرفة التي اخترقت الحدود السياسية والحوازر الجغرافية ومنحت الفرد المفاهيم والتصورات الفكرية والمعارف العلمية الكفيلة باكتشاف الذات والآخر والعالم بعتمته وأنوراه. المعرفة التي أضحت معيارا للنهضة الحضارية المعاصرة، التعليم الجيد قناتها وقاطرتها نحو الابداع والابتكار والبحث العلمي والتطوير وجودة التعلم. الحاصل لدينا في هذا المبحث هو أن لا تواصل ولا حوار إلا بتعليم ينمي المعرفة ويربي على السلام والتسامح والمواطنة.

في منظومة التربية والتعليم، رغم الجهود الكبيرة التي بُذلت والمكتسبات التي حققتها المدرسة المغربية في مجال التربية على القيم وحقوق الإنسان بشكل عام والتربية على قيم المواطنة والتسامح والسلام بشكل خاص وتهيبى رؤية استراتيجية لإصلاح المنظومة تمتد لغاية 2030، لا نشهد انتظاما لتكوين الفاعلين التربويين ولا تزال السلوكات اللامدنية والعنف يطبع واقعنا بدءا بالعلاقة البيداغوجية بين المعلم والمتعلم ولا تزال البرامج والكتب المدرسية لم تخضع لمراجعات شاملة، منذ سنة 2003، ما عدا مادة التربية الإسلامية ويتم الاقتصار على مشاريع تربوية موازية - ظرفية وموسمية- للتعلمات المدرسية، نتائجها تبدو محدودة. إضافة إلى تقديم ومراكمة معارف متقادمة تشحن الذاكرة الجماعية للتعلمات والمتعلمين.

إن المثير للانشغال في هذا الموضوع هو أننا في عصر تتوق فيه الأفراد والمؤسسات إلى ولوج مجتمع المعرفة والرقمنة، في حين تصنيف جودة الخدمات التعليمية بالمغرب لا زال دون المأمول والمدرسة الوطنية المغربية تعاني من ضعف الثقة في مخرجاتها عموما وضعف التوجيه نحو التخصصات العلمية والتقنية خصوصا. ومن تم،

منظومة التربية والتعليم بالمغرب مطالبة بإعداد مناهج حديثة متعددة الأبعاد الحضارية، تنهض بمجالات البحث والابتكار، تعلي من شأن المعرفة وتسمح بالنفاز لمصادرها المتنوعة كجسر للتواصل مع الذات وكشف أعطابها والخروج من قوقعة العزلة والانغلاق المفضي إلى التزمت أولاً، والتواصل مع الآخر بعقلانية وثيقة، ثانياً. تستهدف إعداد متعلم ومتعلمة يستند إلى المعرفة لفهم الحاضر والمستقبل والتواصل والحوار مع الآخر، مطلع على الاشكاليات التي تؤثر في المعتقدات والقيم وتفاعل الثقافات وملتزم بالمشاركة المدنية في المجتمع العالمي، يقدر التنوع في الثقافة واللغة والتقاليد ويستوعب القضايا العالمية المعاصرة والصلات بين الاهتمامات العالمية والمحلية ومقبل على مواطنة عالمية تتجاوز حدودها الوطن.

مناهجنا يجب أن يتعالق فيها المحلي والعالمي بتوازن راشد، وفق الركائز الأربعة: تعلم لتعرف، تعلن لتكون، تعلم لتشارك وتعلم لتعمل، مناهج تواكب تيارات العولمة في نموذج بيداغوجي ينفتح على شبكات تعلم عالمية بقدرات الذكاءات المتعددة والتفكير النقدي وتوليد الأفكار والتحليل والتركيب ومهارات التواصل والتعلم مدى الحياة، من مثل: الريادة والمبادرة، المرونة والتكيف، التفاعل الاجتماعي، الإبداع وحل المشكلات، قيادة التغيير ومهارات التعامل مع الكم الهائل من المعلومات والمصادر المعرفية واللغات وتكنولوجيا الإعلام والاتصال.

في مرحلة يعيش فيها العالم ألغازا ولحظات من الخوف والتحولات السياسية والثقافية، نركز عملنا بكل ثقة على الدور التربوي ذو البعد الثقافي في مسارات اشتغال حقل التربية والتعليم حيث المهمة معقدة لتوجيه عقول الصغار -عقول المستقبل- نحو التعلم لفهم الذات والآخر والأسس الثقافية للتحويلات الجارية عالمياً، من خلال مشروع تربوي يحقق من جهة المشروع المجتمعي الذي نتطلع إليه كل مكونات الأمة السياسية والتربوية والإعلامية ويحقق من جهة أخرى خبرات الانفتاح على باقي الثقافات وصورة المغرب الحضارية دولياً.

لا نميل إلى المبالغة في القول أن خلاصنا في التعليم الجيد، ولنا في دول من آسيا من مثل كوريا الجنوبية وسنغافورة المثال الحي. نستند في التمكين لهذا المنظور على الإرادة والامكانيات والفرص المتاحة حالا ومستقبلا.

خاتمة

في عالم متغير في خصائصه واتجاهاته وقضاياها، يتميز بالتركيب والانفتاح والانغلاق ويعرف تحولات متتالية ومتسارعة تزداد تعقيدا وتزيدنا قلقا يوما بعد يوم، التنوع والاختلاف الثقافي حقيقة كونية ثابتة، نشهدها من حولنا على مستوى المعتقدات

والرموز والأفكار والتصورات والأفراد والشعوب والحضارات، كانت سببا للنزاع والصدام وكأن البشرية لم تصل بعد إلى مرحلة تقبل وتدبير تنوعها واختلافاتها الثقافي. وفق هذا المنظور، الثقافة أحد أهم أوجه العولمة وحلبة للصراع واستثارة الهوية، أضحت تؤجج النزاعات وتنتشر التعصب وتقضي إلى اشكاليات تتعلق بالهوية الثقافية وتفاعل الثقافات والهيمنة وتنميط الثقافات.

وفي عالم تعاقبت فيه حضارات عديدة أنجبت حصيلة من المنجزات والاكتشافات والاختراعات والعمران ورؤى للإنسان والكون، شكلت عبر التاريخ ذاكرة جماعية ووعاء لثقافات. منذ العقد الأخير من القرن الماضي، مرت العلاقة بين الحضارات بثلاث لحظات تاريخية، اللحظة الأولى تميزت بالترويج لنهاية التاريخ وصدام الحضارات بعد انهيار الكتلة الشرقية وتحول الآخر «الاشتراكي» إلى الآخر «الإسلامي» واللحظة الثانية تمثلت في الدعوة إلى حوار الحضارات والثقافات كرد فعل على مقولة الصدام، في سياق عالمي عرّف أحداث شنتبر 2001 ثم اللحظة الثالثة على شكل مبادرة عرفت بتحالف الحضارات، تستهدف المعرفة بالثقافات الإنسانية والديانات والحضارات عبر العالم ومواجهة موسومة بتطرف عنيف. المبادرات التي يمكن للتعليم أن يلعب فيه دورا حاسما وأن ينظم العالم بالمعرفة أكثر من القوة العسكرية.

الحضارات تكمل بعضها البعض وتتطور عبر الاتصال والتبادل والاحتكاك الذي يبرز الاختلافات الثقافية ومستويات الصدام، على سبيل المثال لا الحصر الحضارة الإسلامية جوهرها الدين والعالم الإسلامي يملك رصيда حضاريا متميزا، لا زال قائما إلى الآن، بيد أنه يعاني من أعراض ضعف في عصرنا هذا لا يمكنها إنتاج حوار أو تحالف، بينما الحضارة الغربية تحاول طمس قيما إنسانية شيّدتها حضارات سابقة، تعلي من شأن العلمانية والنزعة الفردية ولها إنجازات تكنولوجية وتقنية عمقت بها الفجوة الحضارية وعدم التوازن بين الشرق والغرب، مقابل غياب مشروع حضاري في الشرق النائه بين محاولات النهضة ومحاولات الهيمنة.

في هذا العمل البحثي، نعتقد أننا أمام حضارة إنسانية واحدة بثقافات متعددة ولا مستقبل لهذه الحضارة إلا بالتواصل - كمنهج وممارسة- يقود إلى التعارف والحوار والتقارب بين الثقافات، اعتماداً على الآليات التقليدية والحديثة، المباشرة وغير المباشرة، في حقول التعليم واللغات والرحلات والبعثات العلمية والترجمة والتبادل الثقافي، التي ما فتئت تتطور يوماً بعد يوم، لنخلص إلى حوار الثقافات كخيار أو عمق استراتيجي لتواصل حضاري يمد الجسور للاحتكاك والتداول والتبادل والتلاقح وتقاسم الأفكار والآراء والبحث المشترك عن الحلول وتخفيف التوتر بين الثقافات والشعوب وتوجيه الفكر البشري نحو التعاون والتضامن. إن التواصل هو سبيلنا الوحيد لتجاوز الأنا واكتشاف الآخر رغبة في التفاعل والمشاركة والتقاسم وتدبير القلق الذي يطبع علاقتنا معه والتي تأرجحت تاريخياً بين التكامل والتأثير والتأثر والصراع. كذلك الإيمان بالحوار هو منصة التفاهم والتقارب والتعايش والحوار بين الثقافات أرقى صيغ التواصل والحوار مع الآخر، أفراداً وجماعات، على أساس أن لا حوار بين الثقافات بدون حوار بين ذوي الأديان. إنما الصراع في جوهره صراع بين معتقدات وقيم مختلفة وأهم سمة في الثقافة والحضارة هي الدين، رغم حضوره المتفاوت بين حضارة وأخرى.

يعد حوار الثقافات أو التقارب بين الثقافات، حوار الحضارات، تعارف الحضارات أو تحالف الحضارات وحوار الأديان رحلة وعي للتبادل والاحترام واكتشاف قيم العيش المشترك التي تزخر بها الخلفيات الثقافية والدينية المختلفة. تتعدد الهيئات الدولية، الرسمية وغير الرسمية التي تهتم وتندارس هذه المفاهيم، من هيئات عالمية وإقليمية ومنظمات غير حكومية: الأمم المتحدة ومجلس أوروبا واليونسكو واليونسيف والاييسيسكو والاليكسو.

عالمنا المفتوح لا زال أفقا رحباً للتواصل والتبادل والتعارف واختلاط الأجناس، مفتوحاً على فرص ملائمة لمشروع تواصل حضاري وحوار فاعل بين الثقافات والأديان، بدون قد تتحول الاختلافات الثقافية إلى منشأ للتعصب وبؤرة للتطرف العنيف. لذلك لا نرى مستقبلاً لنا وللآخر والعالم من حولنا بدون أصوات التواصل والحوار القادرة على توحيد عالم الفروق الثقافية فيه سبب صراع وصدام يهدد مصير الإنسان والكوكب.

وتحقيقاً لمسؤوليتها في تكوين الفرد وتأطير المجتمع، منظومة التربية والتعليم - أحد المنابر التي يفترض أن تؤمن لكل الثقافات فرص التعبير والانتقال - لا يمكنها أن تكون معزولة عن السياقات الثقافية المحلية والعالمية والانشغالات التواصلية للفرد والجماعة وتظل بمنأى عن تحولات وتأثيرات العولمة وتدفق المعلومات والتطور المتسارع والمقلق لتكنولوجيات الإعلام والاتصال والذكاء الاصطناعي. المستجدات التي تفرض وجوباً إعادة التفكير في دور التعليم ومستقبل التربية بأبعادهما العالمية، والانتقال من تعميم المعرفة إلى التمكين من مفاتيح المعرفة والابتكار والابداع والاكتشاف والتعلم مدى الحياة وتعلم العيش المشترك ورسم معالم مستقبل موسوم بالسلام والتسامح والفرص. لنستنتج أن التعليم بأشكاله المتعددة يمكن أن يسهم في مد الجسور بين المجتمعات والأمم وخلق التوازن بين تعليم الفرد وتعرف قضايا دولية وفهم المجتمعات والثقافات الأخرى وتقديرها. بمعنى الحاجة إلى تعليم عالمي وعبر الثقافات أمر ملح وعاجل في عصرنا هذا.

من جانب آخر، تفاقم أحداث العنف والتطرف وتواتر أخبار مروعة بين الفينة والأخرى يحتم الانتقال بسرعة أكبر نحو الجوانب التربوية والتعليمية العملية للحوار والتواصل واستهداف رواد مدرسة ومنظومة تعليم اليوم - مواطنو ومواطنات الغد - عبر آليات بيداغوجية أكثر تأثيراً، تتحمل فيها الحكومات وأنظمة التعليم ومؤسسات التعليم المدرسي والعالي وخبراء التربية المسؤولية. الحاجة تبدو ملحة إلى نموذج بيداغوجي منفتح يُثمن الاختلاف بين الثقافات ويبرز التنوع الثقافي واحترامه، يستثمر الرصيد الثقافي الإنساني والقيم والمبادئ المشتركة بين الثقافات والحضارات، يعزز المشترك ويبني قدرات عقلية وقناعات شخصية تتطلع إلى الوعي بوحدة الجنس البشري واكتشاف الذات والآخر والتسامح والحوار والتعاون بثقة. لذا تغدو الأهمية لنموذج بيداغوجي يدمج مختلف التعبيرات الثقافية وأشكال التراث العالمي في مكونات المنهاج التربوي، ينقل الرصيد الثقافي ويرسخ الهوية الثقافية ويعزز التقارب والانفتاح على ثقافات أخرى وفق منظور التعلم من أجل العيش المشترك وتطوير قدرات التعامل مع الثقافات واستكشاف ما هو مختلف في ثقافات العالم.

إن مؤسسات التربية والتعليم مدعوة، قبل المؤسسات الثقافية لأن تكون قاطرة لتواصل وحوار يزواج بين تحقيق الحقوق الثقافية وقيم التواصل والتعايش والتسامح والسلام والمساواة والالتزام بالواجبات الأخلاقية اتجاه الآخر، سيما أن الحوار في المجال التربوي والتعليمي أداة بيداغوجية ناجعة لبناء المفاهيم والتعلم وتربية الطفل على إدارة الاختلاف وتنمية العلاقات الإنسانية التربوية والتمكن من مهارات وفنون التواصل وخبرات التفاوض والتناظر والتدريب على الاستدلال والتحليل والتركيب والتقويم وتأسيس الاتجاهات الإيجابية والقيم الإنسانية النبيلة.

ينمي الحوار سيكولوجية الطفل من حيث الاستعداد النفسي وضبط الانفعالات والتعبير عن الذات والثقة بالنفس وتقديرها وقبول الآخر والتخفيف من مشاعر العدوانية اتجاهه والتعامل بدون خجل أو خوف أو تعصب. أما سوسيولوجيا، فالحوار وسيلة لتنمية المشاركة والمبادرة، يتحقق معها تدريب الطفل كفاعل اجتماعي يتميز بمهارات الاتصال والإنصات والقدرة على الاندماج والتفاعل مع محيطه.

في نفس المنحى، للتربية على الحوار أفق وامتدادات تطال التربية على السلام والتسامح والالتزام الجماعي بقيم المواطنة العالمية وحل مشكلات الاختلاف الثقافي ضمن منظور إنساني يقوم على الاعتراف بمشروعية الاختلاف ونسبية الحقيقة وإمكانية التصويب. بالمقابل، تغييب الحوار مؤشر على غياب الحرية ووجود التوتر وإقصاء الآخر وسبب للكراهية وظهور التطرف الذي يؤدي إلى العنف والصدام بين الأفراد، من جهة وبين الثقافات من جهة أخرى.

في تحليلنا لإشكالية البحث والإجابة عن تساؤلات البحث، رصدنا أربع إشكاليات كبرى تعترض التواصل الحضاري وحوار الثقافات.

– الإشكالية الأولى ترتبط بالتفاعل الثقافي المنتج للوعي بالفروق والاختلافات الثقافية ويستثير التشبث بالخصوصية الثقافية. لذا، من الضروري سنّ استراتيجيات

تربوية وتعليمية من أجل مواجهة سلبيات العولمة وتعزيز الهوية الثقافية بالموازاة مع إقامة تواصل وحوار حقيقيين بين الثقافات دون استلاب.

– الإشكالية الثانية تتمظهر في هيمنة لغات بعينها على المشهد اللغوي العالمي، تؤثر على العدالة اللغوية وتوازن التعددية اللغوية، بهدف إعادة إنتاج التبعية الثقافية والحضارية. كل سيطرة لغوية ستنتج لا محالة سيطرة ثقافية ولعل هذه الامبريالية اللغوية علامة من علامات امبريالية أخرى من نوع ثقافي والمنظومتان الثقافيتان الفرنكفونية والانجلوسكسونية كلتاهما أدوات إيديولوجية للهيمنة وإعادة إنتاج علاقات التبعية الثقافية، تستثمران الموروث اللغوي الاستعماري. لا يبدو، في نظرنا لا حل في الأفق المنظور لمساواة لغوية تقرب الأفكار وتشيع الود والتفاهم في فرص للتواصل والحوار والتقارب والتلاقح.

– الإشكالية الثالثة تتعلق بالعلاقة المعقدة بين الإسلام والغرب، تاريخيا وجغرافيا ودينيا وثقافيا، صورة العالم الاسلامي في الغرب ليست كما نريدها، هي رهينة نظرات الخوف والعداء أحيانا ولا تعكس الرؤية الاسلامية للتعامل مع الآخر، مما ينتج عنه عقبات كبرى في وجه التواصل الحضاري وحوار الثقافات، تقتضي بدل المزيد من الجهود على مختلف المسارات، خاصة منظومتي التعليم والاعلام.

– الإشكالية الرابعة نلخصها في التطرف العنيف العائق الأخطر أمام التواصل والحوار بين الأفراد والثقافات. منذ مطلع القرن الحادي والعشرين والعالم رهينة للعنف والعنف المضاد، بل تمدد عبر جغرافيا العالم، مثيرا لسؤال عميق: كيف نتجاوز في ظل الارهاب المتعدد؟ كوباء ناتج عن عجز الإنسان في بناء السلام في عقول البشر.

علاقة بهذه الاشكاليات حددنا أربعة أبعاد وامتدادات من شأنها اسعافنا في مزيد من التحليل والتفكيك لعناصر موضوع البحث وتتمثل في: التنوع الثقافي والتعدد اللغوي، الترجمة والمشارك الإنساني والديني، من أجل عالم آمن، يحترم التنوع ويتحدث فيه كل شخص اللغة التي يختارها ويمارس معتقداته وثقافته بدون خوف، بل يرنو مؤكدا المشترك مع الآخر.

أولاً، في عالم تفتح فيه الثقافات نوافذها يومياً لنور الشمس، التنوع الثقافي ضروري ضرورة التنوع البيولوجي في كوكب الأرض، ثروة لا يجب أن تكون مصدراً للتوتر والصدام، بل سبيلاً لدعم فرص التواصل وتبادل مختلف أشكال التعبير والحوار الحقيقي بين الثقافات والحضارات. التحدي الذي يجب رفعه بالمعرفة والفهم في مشاتل وحقول التربية والتعليم، من أجل حماية التنوع الثقافي وتخطيط أنشطة وبرامج دراسية تبرزه وتيسر تداوله منذ الطفولة المبكرة.

ثانياً، حيث العالم متعدد الثقافات، فهو بالضرورة متعدد اللغات محلياً وإقليمياً ودولياً. التمكن من اللغات مدخل من مداخل تعزيز فرص التواصل الحضاري وحوار الثقافات، من غير الممكن أن نتواصل ونتحاور مع الآخر ونحن لا نتقن إلى لغتنا، تعدد اللغات انفتاح على ما يحيط بنا من أفكار وإبداع الثقافات الأخرى وجسر متين نحو الآخر. إذا سلمنا بالوظيفة التواصلية للغة كمصدر حي للمعرفة والمقومات الحضارية التي تميز مجتمعاً أو ثقافة معينة عن غيرها من الثقافات، وجب تعلم اللغة أو اللغات الوطنية أولاً كحاجز دفاع هوياتي يضمن للفرد خصوصيته الثقافية واستقلاله الفكري، ثم خوض غمار تجربة تعلم لغات أخرى.

المجتمع المغربي متعدد اللغات والمواطن المغربي يتميز بميله للانفتاح وإقباله على تعلم اللغات الأجنبية الأكثر تداولاً وانتشاراً في العالم. لكن بدون تعددية لغوية مخطط لها تعليمياً وبيداغوجياً لا يمكن بناء قدرات مواطن متعدد اللغات ومستوعب للثقافة المحلية والعالمية.

ثالثاً، الترجمة سر من أسرار تقاسم المعرفة الإنسانية وانفتاح وتعارف الحضارات والأمم، قناة تعبر منها المعرفة والنظريات والأفكار ومن خلالها تتحاور وتتقارب الثقافات ويحصل التواصل الحضاري. حركية الترجمة تلبي حاجة التواصل مع الآخر وتحوّل فرضية الصدام إلى تواصل حضاري وحوار وتفاعل الحركات الثقافية والفكرية لحضارات العالم.

رابعاً، ابتداء من وحدة الأصل البشري وانتهاء بوحدة المصير، المشترك الإنساني عابر للثقافات والحضارات المتعاقبة على مستويات عدة، أهمها كونية المعرفة والقيم الإنسانية التي تتقاسمها الأديان والحضارات ويؤمن بها كل إنسان وتُشكّل سندا للتعارف والتواصل والحوار والسلام. خلّصت قراءتنا في هذا الموضوع إلى أربعة منها وهي: الكرامة والحرية والعقل والعلم، ومنظومة قيم وأخلاق مشتركة بين كل الثقافات والحضارات والديانات السماوية تمثل مثلاً علياً للضمير الإنساني كالعدالة والتعاطف والتعاون والعدل والإيمان بالسلام والتسامح والرحمة والتعايش وقبول الآخر. الحديث عن المشترك الإنساني والديني سيغدو بلا أفق إذا لم يصاحبه جهد تربوي وتعليمي يستثمر في الإنسان وينتقل به من حالة الصدام إلى اعتناق فلسفة المشترك، بمناهج مبنية على رؤية إنسانية مشتركة للثقافات والحضارات، تراعي التعدد والتنوع والتكامل المعرفي وتبحث عن البعد الإنساني في القضايا المعاصرة.

في غمار هذا البحث بدت لنا القناعة حاصلة بأهمية حوار الحضارات والثقافات على نطاق عالمي، سيما أن الدعوة إلى الحوار والتحالف انطلقت من داخل أروقة الأمم المتحدة ورصدنا عملاً مؤسساتياً دولياً وإقليمياً، عربياً وإسلامياً، يُجمع على استحالة التواصل الحضاري والحوار بين الثقافات والأديان بدون التربية والتعليم، كمدخل مثلى لإزالة الصور النمطية وتدبير التنوع الثقافي وتعزيز المعرفة بالثقافات والأديان ونشر القيم الإنسانية الكونية في إطار سياسات واستراتيجيات وطنية للتعليم المتعدد الثقافات، تستهدف تكوين المدرسين والمدرسات وتنقيح المناهج التعليمية والجامعية.

على الصعيد الدولي، توالى قرارات الجمعية العامة وتقارير الأمين العام للأمم المتحدة، ذات العلاقة بالحوار بين الأديان والثقافات، داعية الحكومات والمنظمات الدولية وغير الحكومية إلى تخطيط وتنفيذ برامج ثقافية وأنشطة تعليمية واجتماعية ملائمة لتعزيز مفهوم الحوار بين الثقافات، عبر تنظيم مؤتمرات وحلقات دراسية ونشر مواد أكاديمية والتشجيع على تفهم أفضل لجميع الثقافات والحضارات في المناهج التعليمية، على أساس:

■ مساندة تعددية اللغات والاهتمام بتعليمها كعامل تمكين مثالي للتواصل والحوار والانفتاح على الآخر واكتشاف ثقافات أخرى، عامل لا تشكل فيه اللغة عائقاً في التفاعلات البين-ثقافية.

■ تعزيز المواطنة الديمقراطية والمشاركة وتدريب كفاءات التفاعل بين الثقافات أو الكفاءات البين-ثقافية: المواطنة الديمقراطية والترجمة والتاريخ بالإضافة إلى خلق فضاءات تربوية مخصصة لممارسة حوار الثقافات بمؤسسات التعليم العالي وتطوير برامج «تاريخ العالم» أو «تاريخ الإنسانية» ودعم العلماء والمنخرطين في أبحاث وتدريب الحوار والتفاهم عبر الثقافات.

■ إشراك ممثلي الأديان والعقائد في عملية تعزيز معرفة وفهم الأديان والمعتقدات على أساس القيم المشتركة للتسامح واحترام الاختلافات والكرامة الإنسانية.

■ جمع وبث أفضل الممارسات والتوجيهات والمصادر التعليمية عن الأديان العالمية، مثل جمع وتنظيم المعلومات المتعلقة بالأديان والمعتقدات في برنامج التعليم حول الأديان والمعتقدات باسطنبول.

■ تنقيح المناهج التي تشتمل على القضايا المثيرة للجدل في المعتقدات الدينية والمواقف الأيديولوجية ومراجعة المناهج التعليمية ومناهج المدارس الدينية وضمان عدم احتقارها لأي معتقد أو توليد الكراهية لمجتمعات أخرى.

■ ضرورة إدراج مفاهيم مثل الآخر والمواطنة الديمقراطية والحوار والتسامح والتنوع الثقافي في مقررات المدارس الثانوية وتوسيع نطاق «الآخر» نحو الآخر الأفريقي أو غيره وعدم الاقتصار على ثنائية الآخر الغربي والآخر العربي الإسلامي.

تنفيذا لهذا التصور، حددت اللجنة العالمية التابعة لليونسكو والمعنية بالتعليم في القرن الحادي والعشرين أربعة دعائم، هي: التعلم من أجل أن نكون والتعلم من أجل أن نعرف والتعلم من أجل أن نفعل والتعلم من أجل العيش المشترك، كما ساعدت اليونسكو الدول الأعضاء فيها على تعزيز فعالية النظم التعليمية الوطنية ودمج التعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية وترويج ثقافة السلام ونبذ العنف والحوار والتفاهم بين الثقافات، من خلال مشاريع مراجعة أو تعديل المناهج الدراسية لتتقيحها من الصور النمطية،

الثقافية والدينية والجنسانية، إضافة إلى التعاون في تأهيل المدرسين لتعزيز الوعي بالتعدد الثقافي واكتساب كفاءات التعامل بين الثقافات.

انسجاماً مع جهودها في هذا المجال، أقرت اليونسكو خطة عمل للعقد الدولي للتقارب بين الثقافات 2013-2022 يروم تمكين الأجيال الحالية والمقبلة من المعارف والكفاءات والمهارات الجديدة اللازمة للتبادل والتواصل والتعاون عبر الحدود الثقافية والدينية والوطنية من خلال مبادرات ومشروعات التعليم والفنون والتراث والعلوم وتكنولوجيات المعلومات.

في العالم العربي، أقيمت أنشطة مشتركة بين الفضاءين العربي والأوروبي وعقدت الاليكسو اتفاقيات مع منظمات ومؤسسات - فكرية وثقافية وتربوية - عالمية ونظمت وشاركت في ندوات وملتقيات دولية بحثت شروط وأخلاقيات الحوار بين الثقافات والعلاقة مع الآخر، مؤكدة على إسهام التربية والتعليم في تحسين التعرف على الآخر والاعتراف بخصوصياته الثقافية والدينية في الحوار الثقافي العربي الإفريقي والعربي الصيني والعربي الأوروبي والعربي الإيبيري-أمريكي والعربي الروسي، وتسهيلاً للحوار عن طريق التربية، قدمت الألكسو الرؤية العربية لمواضيع التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات والحضارات والتعددية الثقافية واللغوية ودور التربية في تعزيز التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات والحضارات، في إطار توصيات نذكر منها:

- دراسة الحضارات وتدريسها في الجامعات العربية وتبادل البعثات والمنح التعليمية مع مراكز أساسية للحضارات العالمية.
- عقد المؤتمر العالمي لتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها وتشجيع تعليم اللغة العربية بأوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية، للتعريف بالثقافة العربية الإسلامية وترجمة معاني القرآن الكريم.
- تمويل أنشطة عبر حضارية مثل الترجمة - بيت حكمة عربية معاصرة في كافة حقول المعرفة - والمعارض الفنية والعروض الموسيقية وغيرها وإعداد أبحاث عن

صورة العربي في المناهج التعليمية وفي وسائل الإعلام الإفريقية وصورة الإفريقي في المناهج ووسائل الإعلام العربية.

على صعيد العالم الاسلامي وإيرازا لدور الإسلام في إرساء مبادئ الحوار والتسامح والتواصل ودور المسلمين في البناء الحضاري، قامت الإيسيسكو بالتعاون مع المنظمات الدولية والإقليمية ذات الاهتمام المشترك بالمشاركة وتنظيم العديد من الندوات المتخصصة في الترجمة والتعليم من أجل التسامح وحرية الدين أو المعتقد والمؤتمرات الدولية من مثل مؤتمر كوبنهاغن حول التربية على التفاهم الثقافي والحوار وحلقات دراسية للخبراء حول صورة العالم الإسلامي في مناهج تدريس التاريخ في أوروبا وإعداد مواد تعليمية حول مقومات العمل اللائق من وجهة نظر مشتركة للديانات السماوية وإصدار منشورات ومؤلفات علمية تناولت قضايا الحوار بين الحضارات والثقافات داخل العالم الإسلامي وخارجه.

كما حددت الإيسيسكو في خطتها التربوية للسنوات الثلاث 2016 و2017 و2018 أولويتي تجديد السياسات التربوية للدول الأعضاء من أجل الانتقال من التعليم إلى التعلم وتعزيز دور التربية في التنمية والعيش المشترك، بهدف دمج قضايا العيش المشترك كالحوار والسلام والمواطنة في مناهج جميع المراحل التعليمية.

كان الاطلاع على المنجزات الدولية والعربية والإسلامية، حافزا لنا للتساؤل حول المشاركة المغربية في الجهود الدولية السالفة الذكر، خاصة وأن الانفتاح والاعتدال والتسامح مشهود به للشعب المغربي وتتويج صاحب الجلالة الملك محمد السادس، من قبل التحالف العالمي من أجل الأمل بنيويورك، في شتبر 2017 بجائزة الريادة في النهوض بقيم التسامح والتقارب بين الثقافات، اعترافا بدوره ودور المملكة، الموطن الآمن للتسامح والتعايش، في إقامة جسور التواصل على الصعيدين الحضاري والثقافي. سيما أن ما يطبع التجربة المغربية في هذا المجال أنها تشكلت بانصهار مكوناتها العربية والأمازيغية والصحراوية الحسانية وغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية.

في هذا المسار، نظم المغرب بوصفه عضوا مؤسسا لتحالف الحضارات، فعاليات وندوات عديدة في شأن حوار الثقافات والحضارات والأديان والتواصل الحضاري، كان أبرزها مشروع تعهدات الرباط في شأن تعزيز الحوار بين الثقافات والحضارات من خلال مبادرات ملموسة ومستدامة ونداء فاس لتعزيز الحوار بين الثقافات والأديان، في 2005 و2013 و2018. أوصى المشاركون في المحافل الثلاث بمجموعة من التدابير التعليمية والبيداغوجية، نجلها في:

- إقامة جسر بين المقاربة النظرية للحوار وبين التطبيق العملي والفعال في ميادين التربية والعلوم والثقافة والاتصال.
- مراجعة الكتب والمناهج الدراسية في الغرب لمواجهة الأفكار المعادية للإسلام وجعل الحوار وسيلة للتقرب من الآخر والاعتراف به.
- تنمية الوعي بالاختلاف الثقافي وأبعاده ومصادره المتعددة عند مراجعة المناهج الدراسية وإعداد دراسات حول الصور النمطية في الكتب المدرسية عن ثقافة الآخر ومراعاة القيم الإنسانية المشتركة ومبادئ السلام وحقوق الإنسان والتسامح والمواطنة الديمقراطية عند تطويرها وتكوين المدرسين.
- إدماج التعليم متعدد الثقافات في مرحلة التعليم قبل المدرسي والتعليم الأساسي ومواصلته في مراحل التعليم الثانوي والعالي وتوفير البرامج التعليمية معلومات كافية حول الديانات الرئيسية وإبراز القيم والقضايا الأخلاقية المشتركة بينها.
- تدريس اللغات لمد جسور الحوار بين الثقافات وتعزيز تدريس اللغة العربية لغير الناطقة بها ترسيخا لقيم الفهم والتفاهم.
- إحداث المزيد من الكراسي الجامعية في مجال الحوار بين الثقافات في بلدان ومناطق ثقافية مختلفة واقتراح إنشاء مرصد للثقافات والأديان في الفضاء الفرنكفوني.
- تكثيف تكوين المترجمين وخلق صندوق موجه لترجمة النصوص المقدسة والكتابات حول الدين لتشجيع التبادل بين الثقافات والأديان.
- تأهيل مدارس التعليم الديني وتكوين مسؤولين حكوميين في القطاع الديني.

اعتباراً لهذه المرجعية الدولية والمؤسسية والمنطلقات الفكرية والعملية، ارتأينا التفكير في فتح مداخل وآفاق استراتيجية في المنظومة التعليمية، لها علاقة بتساؤلات وأبعاد موضوع التواصل الحضاري وحوار الثقافات من منظور تربوي وتعليمي.

بداية، نحو أفق كوني يجمع المشترك الإنساني للثقافات تحيلنا القناعة بالتنوع الثقافي والوظيفة التواصلية للغات على ضرورة تعليم وتعلم اللغات في أبعادها الثقافية، باعتبارها جسر بين الحضارات والثقافات عبر التاريخ ومصدر للانفتاح والتلاقح. بالمقابل، الاهتمام بتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها وتحفيز البحث العلمي في هذا المجال عمق استراتيجي ثقافي للتواصل الحضاري العربي والإسلامي في سياق انشغال الغرب بقضايا العالم العربي وزيادة الطلب الاقتصادي على الكفاءات المتعددة اللغات. في المغرب الانفتاح على اللغات مُحَصَّن دستوريا ويشهد تعليم وتعلم اللغات اقبالا ملحوظا يمتد من دور الحضانة إلى الجامعة، في التعليمين النظامي وغير النظامي. تعززه السياسات التعليمية الحالية كمحور من محاور الإصلاح الذي تعرفه المدرسة المغربية. رغم الجدل الذي يرافق خيار تدريس المواد العلمية باللغات الأجنبية، نرى هيمنة اللغة الفرنسية إلى زوال، لأن الفيصل في الصراع اللغوي هو مستوى الإنتاج المعرفي والعلمي وسرعة الابتكار والتعامل التجاري الدولي، وهو ما تحسمه الآن اللغة الانجليزية كلغة للكوكب.

ثانياً، حيث العلاقة وثيقة بين الدين والثقافة والحضارة والإيمان بالتربية والتعليم حلاً لتجاوز الصدام والصراع، نعتبر تجديد الخطاب الديني وتطوير التعليم الديني بنوعيه النظامي والتقليدي أداة فعالة للتعريف بأديان العالم وتعزيز الحوار بينها في سياقات وفضاءات تعليمية للمساواة والتسامح واكتشاف المشترك الديني، تواكب التحولات وتصحح صورة الاسلام في الغرب.

في المغرب منظومة التعليم الديني، بنوعيتها العام والعتيق، في المؤسسات التعليمية أو في المدارس العتيقة، تخلو من كل أشكال التمييز أو اللاتسامح أو إقصاء الآخر إلا أن

النوع الأول يفتقد لجوانب معرفية وتواصلية وثقافية وبيداغوجية وتكنولوجية واستراتيجية، حيث يغلب على الجانب المعرفي الموضوعات التقليدية المتعلقة بالعقيدة والعبادات ويغيب الحديث عن علاقة الدين بالحضارة ومعتقدات الآخر وعلاقة الحضارة الإسلامية بغيرها من الثقافات والمعتقدات الأخرى عبر التاريخ، كما يستبعد مستجدات معاصرة، من مثل: الذكاء الاصطناعي وقيم التواصل الإلكتروني، إضافة إلى عدم إبراز اسهامات المغرب كملتقى لحوار الأديان والتسامح الديني والتعايش. أما بيداغوجيا، فمهارات التفكير النقدي ونهج أساليب الإقناع والمناظرة وتنويع المقاربات البيداغوجية ومهارات التواصل تظل مفقودة، أمام الاقتصار على استنباط القيم الدينية المتعلقة بالعقيدة الإسلامية والعبادات والمعاملات. بشكل تقليدي مباشر لا يراعي التكنولوجيات التربوية الحديثة ومدى تأثير وتأثر المتعلمات والمتعلمين بالتحويلات الرقمية والتكنولوجية المعاصرة وبناء مناعة في التواصل الرقمي. النوع الثاني أي التعليم العتيق يتميز عن التعليم الديني النظامي بمقاربتة لمواضيع التعدد الثقافي وصراع الحضارات في إطار البرنامج الدراسي ويعتمد إلى حد ما تدريس اللغات بهدف انفتاح الطلبة والطالبات على الثقافات الأجنبية والقدرة على التواصل والحوار مع الآخر.

ثالثا، أسهمت مواضيع الاختلاف الثقافي والهجرة وترابط العلاقات بين الشمال والجنوب ومجتمعات المعرفة والوعي بأهمية المواطنة العالمية في إعادة هيكلة التواصل الانساني بصفة خاصة والتواصل الحضاري بصفة عامة، وتصور رؤية مشتركة للعالم وتعزيز التعاون الدولي لإيجاد حلول للمشكلات ذات البعد العالمي وتشكيل مواصفات بعينها في مواطن القرن الحادي والعشرين. مواطن عالمي يعي واجباته اتجاه العالم والآخر المختلف ثقافيا ومتشبع بقيم المواطنة العالمية، من قبيل التواصل والحوار والتضامن العالمي والعمل المدني والمشاركة المجتمعية واحترام التعددية والتسامح والسلام بوصفها قيما انسانية وكونية ونتاج للمشارك الإنساني وقبول الاختلاف. لنبد العنف والتطرف اللذان اخترقا كل الحدود والحواجز السياسية والجغرافية، تبرز التربية على قيم المواطنة العالمية والتسامح والسلام وبناء مجتمع المعرفة كأولويات تعليمية

وحضارية تحدث التغيير في دافعية واستعداد الفرد لقبول الآخر واحترام ثقافته ومعتقداته، بهدف الانتفاع بمنجزات الحضارات وتحسين تدبير التعدد الثقافي والديني.

لكن، رغم الجهود المبذولة والمكتسبات المحققة للمدرسة المغربية في مجال التربية على القيم في بعديها الوطني والكوني وحقوق الإنسان والسلوك المدني بشكل عام والتربية على قيم المواطنة والتسامح والسلام بشكل خاص وتركيز الرؤية الاستراتيجية لإصلاح منظومة التربية والتعليم 2015-2030 على بناء مواطن ذو تكوين متجانس بين تحصيل المعارف وامتلاك مهارات التواصل وفن الحياة والعيش المشترك، لا تزال السلوكات اللامدنية والعنف تغزو واقع فضاءتنا التعليمية وتوتر العلاقة التربوية بين المعلم والمتعلم ولا تزال البرامج والكتب المدرسية تراكم معارف متقدمة تشحن الذاكرة الجماعية للمتعلمات والمتعلمين ولم تخضع لمراجعات شاملة، منذ سنة 2003، ما عدا مادة التربية الإسلامية ويتم الاقتصار على مشاريع تربوية ظرفية، نتائجها تبدو محدودة وغير معممة ولا يواكبها انتظام في تكوين الفاعلين التربويين، سواء التكوين الأساس أو المستمر.

الأمر الذي يجعل جودة الخدمات التعليمية بالمغرب دون المأمول والمدرسة الوطنية المغربية تعاني من ضعف الثقة في مخرجاتها وسيل جارف من الانتقادات، ويضع مهندسو منظومة التربية والتعليم بالمغرب أمام تحدي إعداد مناهج حديثة متعددة الأبعاد الحضارية، تستوعب القضايا العالمية المعاصرة وتنهض بمجالات البحث والابتكار والاكتشاف، تنهل من التنوع الثقافي كبوابة للتواصل الحضاري والحوار مع الآخر والخروج من قوقعة الانغلاق المفضي إلى التعصب. مناهجنا يجب أن يتعالق فيها المحلي بالعالمي، وفق الركائز الأربعة: تعلم لتعرف، تعلم لتكون، تعلم لتشارك وتعلم لتعمل، مناهج تواكب تيارات العولمة في نموذج بيداغوجي ينفث على شبكات تعلم عالمية بقدرات الذكاءات المتعددة والتفكير النقدي والمتبصر ومهارات التحليل والتركيب والتواصل والتعلم مدى الحياة - التعلم الموجه إلى الذات - ، من مثل: الإبداع وحل المشكلات؛ الريادة والمبادرة؛ المرونة والتكيف؛ التفاعل الاجتماعي؛ قيادة التغيير والتحقق من صحة المعلومات في الفضاء الرقمي.

حاصل القول وصفوته، لسنا تحت أوهام مفرطة في التفاؤل ولكننا نعتقد أن منظومة التربية والتعليم في مواجهة خطابات ومطالب متعددة، منها ما هو سوسيو - اقتصادي ومنها ما هو ثقافي وحضاري بل وترد كثير من اشكالات وأزمات المجتمعات والثقافات إلى اخفاقات هذه المنظومة ومدى اسهامها في المشروع المجتمعي: أزمة القيم وندرة الابتكار وغياب الكفاءات ومحدودية انتاج المعرفة والتخلف عن الركب الحضاري المعاصر.

تجرأنا في سياق هذه المواجهات على مقارنة موضوع التواصل الحضاري وحوار الثقافات انطلاقاً من تداخل وتقاطع مهمات التعليم والثقافة وقناعة راسخة بأهمية منظومة التربية والتكوين في نبذ التعصب والتطرف والانغلاق وكسب رهان التواصل والحوار وتنمية الفعل التواصل في مواجهة موجات وشبكات التواصل التي فرضتها الثورة الرقمية وخلقت ترابطاً غير معهود، أدخل تغييراً على سلوكيات ووعي الأفراد، إما انفتاحاً أو استلاباً أو رفضاً ونفوراً، أضحى في سياقها كل شخص ملزماً بالانخراط - نفعياً أو طوعياً - في تبادل معارف وأفكار تنهل من القواسم المشتركة بين الثقافات، تسهل العيش المشترك والتسامح والسلام بين الأفراد والجماعات وتلامس القضايا العالمية في امتداداتها وانعكاساتها على الثقافة المحلية.

إن للتواصل والحوار بداية وليست لهما خاتمة، مادام كوكب الأرض صالحاً للحياة. العالم اليوم بعتمته وأنواره، بشكله الحالي كسوق للاستهلاك، في مواجهة مستقبل محفوف بالمخاطر والرهانات وأمواج من الخوف والتحوليات الجيو - سياسية والثقافية والاشكاليات التي تتحدى كل الايديولوجيات والفرضيات وأساليب التفكير البسيطة. إذا كان الإنسان يملك ما يكفي من القدرات لتدمير هذا الكوكب في ساعات معدودة، فهو يملك ما يكفي من النوايا الحسنة والعقول والقيم لإقناع البشر بالتواصل والحوار وأن في زمن الحوسبة السحابية والتكنولوجيات الدقيقة الصراع مع اكتساب مزيد من المعرفة وليس مع الآخر المختلف ثقافياً. ألم يكن العالم في حاجة إلى تواصل وحوار أكثر من أي زمن مضى لمواجهة الوباء المدمر للوجود الانساني، فيروس كورونا؟

في نفس المقام الذي نؤمن فيه بأهمية التعليم في الارتقاء الفكري الإنساني، تركز عملنا بكل ثقة على الأدوار الثقافية لحقل التربية والتعليم ذي المهمة المعقدة في توجيه عقول الصغار -عقول المستقبل- نحو فهم الأسس الثقافية للتحويلات الجارية عالميا وحالات التنافر والتجاذب بين الثقافات، لا ندعي حوصلة موضوع البحث وحصره في عدد من الإشكالات والأبعاد والمشاريع الفكرية التي تصب في تأكيد القول أن خلاصنا في تعليم جيد لبذور المستقبل وآمال الغد، أي مخاطرة أو تهاون في رعايتها سيطمس الوعي اللازم ويصب كذلك في تثبيت القناعة على دور التعليم كقاطرة لتغيير العالم وحجر الزاوية في تأسيس سليم للتواصل والحوار الثقافي. إنها بدايات الدراية الكافية بمدى أهمية وانفتاح موضوع الدراسة وإثارته لموضوعات بحث أخرى، لأهل البحث العلمي والاختصاص والأكاديميين والتربويين تفكيكها وتمحيصها واستشراف المزيد منها، موضوعات من مثل:

■ أدب الطفل وأدب الرحلة على افتراض أنهما مدخلين تعليميين للتربية بين الثقافية، حيث لن نحتاج عناء التذكير بأهمية القراءة المبكرة في التعلم وبناء عقل وتفكير الطفل واكسابه شغف الاطلاع واستكشاف عوالم جديدة غير أن الإضافة التي نود تسجيلها - في زمن الرقمية وسيطرة الصورة - تكمن في إبراز أهمية أدب الطفل وأدب الرحلة كأدوات أساسية لتنقيف الطفل والتعرف على التنوع اللغوي والتنوع الثقافي وتنمية الوعي باختلاف التجارب الإنسانية وتعزيز التواصل الحضاري وحوار الثقافات وتمير جملة من القيم والمعايير التربوية في سبيل مجابهة التحديات المعاصرة والاشكالات السالفة الذكر في هذا العمل، من قبيل: التطرف؛ التعصب؛ العنف؛ ... مع لفت انتباه الباحثين إلى أن التدريس بالحكاية يُعتمد في التعليم المدرسي المغربي ضمن مشروع القراءة المبكرة كمنهجية بيداغوجية لتعلم اللغات وتعزيز الرصيد المعجمي والمعرفي للمتعلّم والمتعلمة.

■ وضع تصور نظري وآخر عملي لإطار مرجعي خاص بالكفايات متعددة الثقافات نتوسل بها في وضعيات تواصلية أو مهام ومواقف حوار نواجه فيها التعدد والاختلاف الثقافي بكفاية ومهارات التواصل والحوار، تُعزز بتدريس الكفاءات البين-ثقافية وتحفيز الإقبال على الدراسات بين الثقافات والحضارات التي من شأنها الإسهام في

تعلم استراتيجيات التكيف مع الآخر ورؤية الذات والعالم من خلال نظرة أو منظور الآخر الثقافي وإدراك الخصائص والأبعاد الثقافية وتملك القدرة على التعامل معها من خلال مجموعة متنوعة وواسعة من مناهج تعليمية ومجالات وتخصصات أكاديمية تسعى لتعزيز المعرفة بالثقافات الإنسانية وتحليل النماذج الثقافية حول العالم- من حيث التشابه والاختلاف- وإعداد المتعلمات والمتعلمين للتفاهم والتفاعل مع الثقافات المماثلة أو المختلفة لثقافتهم، بغاية تحصيل خبرة أو كفاية ثقافية تترجم في وعي أو ذكاء ثقافي يمكن الأفراد المختلفين ثقافيا من التواصل والحوار بصورة فعّالة في سيرة مشروع تربوي يحقق من جهة المشروع المجتمعي الذي تتطلع إليه كل مكونات الأمة السياسية والتربوية والإعلامية ويحقق من جهة أخرى خبرات الانفتاح على باقي ثقافات العالم وصورة المغرب الحضارية دوليا.

لائحة المراجع والمصادر

– القرآن الكريم برواية ورش.

المراجع باللغة العربية:

- ابراهيم أحمد (حسن)، استمرارية التاريخ ما بين صدام المصالح وحوار الحضارات، دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر، 2016.
- ابن خلدون، المقدمة، القاهرة (د.ت).
- أدونيس (علي أحمد)، موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف)، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، 2002.
- أرسلان (شكيب)، لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدّم غيرهم؟، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية.
- ايت امجوض (عبد الحليم)، حوار الأديان نشاته وأصوله وتطوره، دار الامان للنشر والتوزيع، المغرب، الطبعة الأولى، 2012.
- ايت حمو (محمد)، أفق الحوار في الفكر العربي الإسلامي، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2012.
- باهي (حسان)، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، ب.ط، 2004.
- بكريم (ميلود) وآخرون، منار الاجتماعيات، دليل الأستاذ (ة)، السنة الثالثة من التعليم الثانوي الاعدادي، top édition، 2005.
- بلقزيز (عبد الإله)، العولمة والممانعة، دراسات في المسألة الثقافية، بيروت، منتدى المعارف، 2011.

- بلقزيز (عبد الاله)، الفرنكوفونية ايدولوجيا، تحد ثقافي – لغوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2011.
- بن عبد الرحمن الصويان (أحمد)، الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى.
- بن عجيبة (يوسف) وآخرون، في رحاب التربية الاسلامية، مكتبة السلام الجديدة والدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، طبعة 2019.
- بن محمد المغامسي (خالد)، الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، 2004.
- بهلول (رجا)، خطاب الكرامة وحقوق الإنسان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، الطبعة الأولى، 2017.
- بولعوالي (التجاني)، المسلمون في الغرب، بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل، افريقيا الشرق، 2010.
- الجابري عابد (محمد)، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1997.
- جمعة (حسين)، ثقافة الحوار في مواجهة تحديات العولمة، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الطبعة الأولى، 2010.
- الحسني الندوي أبو الحسن (علي)، حديث مع الغرب، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1967.
- حسين أبو عيشة (خالد)، المغني في تعليم العربية للناطقين بغيرها، أصوات للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 2018.
- حنفي (حسن)، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2012.
- حنفي (حسن)، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.
- الخليل (سمير)، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي: إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2017.

- الدين الراشدي (جمال) وآخرون، المختار في اللغة العربية السنة الأولى من التعليم الثانوي الإعدادي، مكتبة المدارس، الدار البيضاء، الطبعة التاسعة، 2015.
- الرشيد (المصطفى) وآخرون، واحة الكلمات العربية للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي، دليل الأستاذ والأستاذة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2019.
- الريسوني (أحمد)، محاضرات في مقاصد الشريعة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2014.
- الريمي (مصطفى) وآخرون، مرشدي في اللغة العربية، السنة الخامسة من التعليم الابتدائي، كتاب التلميذ، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2019.
- زكريا (فؤاد)، الإنسان والحضارة، مؤسسة هنداوي للنشر، المملكة المتحدة، 2018.
- زماري (عبد اللطيف) وآخرون، كتابي في اللغة العربية للسنة الأولى من التعليم الابتدائي، دليل الأستاذ والأستاذة، المكتبة الوراقة الوطنية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2019.
- السرجاني (راغب)، المشترك الإنساني نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011.
- سعدي (محمد)، دور الثقافة في بناء الحوار بين الأمم، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الأولى، 2012.
- سومية (حجاج)، المشترك الديني بين الأديان السماوية والعالمية (دراسة مقارنة)، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2017.
- شحاته (حسن)، تصميم المناهج وقيم التقدم في العالم العربي، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 2008.
- الشفيري (المصطفى) وآخرون، المنير في التربية الإسلامية، السنة الثانية إعدادي، دار النشر سوكرام، طبعة 2017.
- شيخ ادريس جعفر، صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى، 2012.

- صلاح (سالم)، حوار الأديان .. رؤية اسلامية، كراسات مستقبلية ، المكتبة الاكاديمية، 2009.
- عابد الجابري (محمد)، مسألة الهوية :العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2008.
- عابد الجابري (محمد)، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، 1999.
- عبد الرحمان (طه)، الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2005.
- عبد الرحمن (طه)، الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، 2013.
- عبد الرحمن (طه)، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2011.
- عثمان (ابراهيم) وآخرون، سؤال التسامح، دراسة وحوار، مركز عمان لدراسات حقوق الانسان، دار الخليج للصحافة والنشر، الطبعة الأولى، 2017.
- العروي (عبد الله)، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، 1997.
- عطا الله (شوقي) وعبد الله عبد الرزاق (ابراهيم)، الحضارة الافريقية، دار الجمهورية للصحافة، مصر، 2009.
- عمار(حامد)، مواجهة العولمة في التعليم والثقافة، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000.
- عمراني (عبد المجيد)، نداء إلى حضارة واحدة لعالم واحد، دروب للنشر والتوزيع، الأردن، 2016.
- الغذامي (عبد الله)، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2009.
- الغرباوي (ماجد)، التسامح ومنابع اللاتسامح، فرص التعايش بين الأديان والثقافات، الحضارية للطباعة والنشر، بغداد، الطبعة الأولى، 2008.

- فضل (صلاح) وآخرون، أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2010.
- قاسم (محمود)، موضوعة الحضارات المختصرة، المكتبة الأكاديمية، الطبعة الأولى، 2012.
- قاسم التميمي (حيدر)، بيت الحكمة العباسي ودوره في ظهور مراكز الحكمة في العالم الاسلامي، دار زهران للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، 2011.
- القباچ (محمد مصطفى)، مقاربات في الحوار والمواطنة ومجتمع المعرفة، منشورات دار ما بعد الحداثة، فاس، الطبعة الأولى، 2006.
- ليله (علي)، تفاعل الحضارات بين إمكانيات الالتقاء واحتمالات الصراع، دار شركة الحريري للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006.
- محمد عثمان (خالد)، تفاعلنا الراشد مع الغرب حضاريا وتربويا، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2013.
- المسدي (عبد السلام)، الهوية العربية والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، الطبعة الأولى، 2014.
- مصطفى الخولي (هديل)، التعليم والمواطنة: رؤية مستقبلية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2012.
- معطلا (أحمد) وآخرون، فضاء الاجتماعيات السنة الأولى من التعليم الثانوي الإعدادي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، طبعة 2019.
- المنجرة (المهدي)، الإهانة في عهد اليغا امبريالية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة، 2007.
- المنجرة (المهدي)، الحرب الحضارية الأولى، مكتبة الشروق، مصر، الطبعة العربية السابعة، 1995.
- المنجرة (المهدي)، قيمة القيم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2007.
- المنجرة (المهدي)، من المهد إلى اللحد: التعلم وتحديات المستقبل، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 2003.

- منصف (عبد الحق)، رهانات البيداغوجيا المعاصرة، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007.
- منصور مرشو (غريغوار) وصادق الحسيني (سيد محمد)، نحن والآخر، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، 2001.
- الميلاد (زكي)، المسألة الحضارية: كيف نبكر مستقبلنا في عالم متغير؟ المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1999.
- نانافع العشيرى (محمد)، السوق اللغوية المغربية، دار كتوبيا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2019.
- ولد ديب (سيدي محمد)، الدولة وإشكالية المواطنة، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2011.

المراجع المترجمة:

- إ. هاريزون (لورانس) وانتجتون (صمويل)، الثقافات وقيم التقدم، ترجمة شوقي جلال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، 2009.
- إدغار (موران)، النهج الإنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2009.
- ادوارد (سعيد)، الثقافة والامبريالية، ترجمة علاء الدين أبو زينة، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، 2007.
- أركون (محمد) ومايلا (جوزيف)، من مناهن إلى بغداد، ما وراء الخير والشر، ترجمة عقيل الشيخ حسين، دار الساقى، الطبعة الأولى، 2008.
- انتجتون (صمويل)، صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، الطبعة الثانية، القاهرة، 1999.
- أنجرس (موريس)، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ترجمة بوزيد صحرؤاي وآخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر، الطبعة الثانية، 2006.
- انجلو ياكوبوتشي (مايكل)، أعداء الحوار: أسباب اللاتسامح ومظاهره، ترجمة عبد الفتاح حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010.

- انغليز (ديفيد) وهيوسون (جون)، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة لما ناصر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، الطبعة الأولى، 2013.
- باسينت (سوزان) وليفيير (اندرية)، بناء الثقافات، مقالات في الترجمة الأدبية، ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2015.
- بروديل (فرناند)، تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.
- بندي (جيروم)، القيم إلى أين؟، ترجمة زهيدة درويش جبور، منشورات اليونسكو، دار النهار، بيروت.
- بيدرفين (بيترس جان)، العولمة والثقافة، المزيج الكوني، ترجمة خالد كسراوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015.
- توفلر (ألفين)، صدمة المستقبل، المتغيرات في عالم الغد، ترجمة محمد علي ناصف، مطابع نهضة مصر، الطبعة الثانية، 1990.
- تيري (ايجلتون)، فكرة الثقافة، ترجمة شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سلسلة إنسانيات، 2012.
- ج. آيبر ألفريد، منابع اللاتسامح، التسامح بين شرق وغرب، دراسات في التعايش والقبول بالآخر، ترجمة ابراهيم العريس، دار الساقى، بيروت، الطبعة الأولى، 1996.
- الخطيبي (عبد الكبير)، السياسة والتسامح، ترجمة عز الدين الكتاني الادريسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998.
- الخطيبي (عبد الكبير)، المغرب العربي وقضايا الحداثة، ترجمة أدونيس وآخرون، منشورات الجمل، بيروت، 2009.
- الخليل (سمير)، التسامح بين شرق وغرب، دراسات في التعايش والقبول بالآخر، ترجمة ابراهيم العريس، دار الساقى، بيروت، الطبعة الأولى، 1997.
- دو سوان (أبرام)، كلمات العالم منظومة اللغات الكونية، ترجمة صديق محمد جوهر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، الطبعة الأولى، 2011.
- دو كونانك (توماس)، الجهل الجديد ومشكلة الثقافة، ترجمة منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2004.

- دوبار (كلود)، أزمة الهويات، تفسير تحول، ترجمة رنده بعث، المكتبة الشرقية، بيروت، الطبعة الأولى، 2008.
- روا (أوليفيه)، الجهل المقدس، زمن دين بلا ثقافة، ترجمة صالح الأشمر، دار الساقى، بيروت، الطبعة الأولى، 2012.
- روبول (أوليفي)، لغة التربية، ترجمة عمر أوكان، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002.
- سيزار بوري (بيير) و مارشينيولي (سافيريو)، أخلاق كونية لثقافات متعددة، ترجمة أحمد عدوس، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007.
- شتراوس (كلود ليفي)، العرق والتاريخ، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- غارودي (روجييه)، الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة العالم والفكر، ترجمة ذوقان قرقوط، دار دمشق، دمشق، الطبعة الأولى، 1995.
- غارودي (روجييه)، في سبيل حوار الحضارات، تعريب عادل العوا، عوידات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة 4، 1999.
- غارودي (روجييه)، وعود الإسلام، ترجمة ذوقان قرقوط، دار الرقي، بيروت، الطبعة الثانية، 1985.
- فوكوياما (فرنسيس)، نهاية التاريخ ودراسات أخرى، ترجمة يوسف جهماني طه، دار الحضارة الجديدة، بيروت، 1993.
- فولتير، رسالة في التسامح، ترجمة هنرييت عبودي، دار بترا للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2009.
- قزم (جورج)، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، ترجمة رلى ذبيان، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 2011.
- كابيزودو (اليسا) وآخرون، الدليل التطبيقي للتربية من أجل المواطنة العالمية، ترجمة عفاف مبارك وطارق محضاوي، مركز الشمال- الجنوب لمجلس أوروبا، لشبونة، 2008.

- كافي (لويس جان)، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى.
- كوش (دنييس)، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2007.
- كوكلر (هانس)، تشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين... الأسباب والحلول، تعريب حميد لشهب، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، الطبعة الأولى، 2013.
- لالاند (اندرية)، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت- باريس، الطبعة الثانية، 2001.
- لوك (جون)، رسالة في التسامح، ترجمة منى أبو سمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997.
- ليكلرك (جيرار)، العولمة الثقافية الحضارات على المحك، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 2004.
- ماتلار (أرمان)، التنوع الثقافي والعولمة، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفارابي، لبنان، الطبعة الأولى، 2008.
- مارتن (جيمس)، معنى القرن الحادي والعشرين، ترجمة أحمد رمو، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2011.
- معلوف (أمين)، اختلال العالم، ترجمة ميشال كرم، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 2009.
- موران (ادغار) وبودريارد (جان)، عنف العالم، ترجمة عزيز توما، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الأولى، 2005.
- ميشو (إيف)، ما الثقافة؟، جامعة كل المعارف، الجزء السادس، ترجمة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006.
- هاينال (اندرية) وآخرون، 1995، سيكولوجية التعصب، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الساقى، الطبعة الأولى، لندن.

- الأعرج (واسيني)، الأدب العربي في المهجر الفرنسي من ضيق المحلية إلى الترجمة وأفق العالمية، الكتاب العربي، الثقافة العربية في المهجر، الجزء الثاني، وزارة الاعلام، مجلة العربي، الكويت، الطبعة الأولى، 2013.
- ايت أحمد وعلي (مريم)، جدلية الحوار، قراءة في الخطاب الإسلامي المعاصر، مجلة علوم التربية، الرباط، 2011.
- باسكون (بول)، زيارة قصيرة لمطبخ العلوم الإنسانية، ترجمة مصطفى كامل، مجلة بيت الحكمة، العدد 3، 1996.
- بلقاسم اليوبي (عبد السلام) و بن عياد الحجوري (صالح)، تطوير مهارات اللغة العربية وفق الاطار الأوروبي المشترك للغات، مجلة التواصل اللساني، مؤسسة العرفان للاستشارات التربوية والتطوير المهني، المجلد 19، العددان 1 و2.
- بورديو (بيير)، السوق اللغوية، ترجمة حسن احجيج، مجلة فكر ونقد، عدد 20، 1999.
- بورقية (رحمة)، التعدد اللغوي بين المجتمعي والسياسي، مجلة المدرسة المغربية، المجلس الأعلى للتعليم، العدد 3، اللغات في المدرسة المغربية، مارس 2011.
- بورقية (رحمة)، نحو مدرسة لبناء القدرات المعرفية، مجلة المدرسة المغربية، المجلس الأعلى للتعليم، الرباط، عدد مزدوج 5/4، 2012.
- بوعناني (مصطفى)، التواصل اللغوي بين المقتضيات اللسانية والمعرفية، التواصل، منشورات مختبر العلوم المعرفية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، مطبعة أنفو - برانت، فاس.
- جورافسكي (أليكس)، المسيحية والإسلام، ترجمة خلف محمد الجواد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 215، 1996 .
- الجيزاوي (داليا)، المواطنة العالمية وآفاقها المستقبلية في الوطن العربي، مجلة الطفولة والتنمية، المجلس العربي للطفولة والتنمية، الرياض، العدد 29، 2017.
- خرما (نايف) وحجاج (علي)، اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 126، 1988.

- الخطابي (عز الدين)، نموذج بيداغوجي للتواصل، مجلة دفاتر التربية والتكوين، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، العدد 12، أكتوبر 2017.
- ديورنغ (سايمون)، الدراسات الثقافية: مقدمة نقدية، ترجمة ممدوح يوسف عمران، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 425، 2015.
- ربيع (مبارك)، ظاهرة التعدد اللغوي ومضاعفاتها في المحيط المجتمعي والتربوي المغربي، مجلة المدرسة المغربية، المجلس الأعلى للتعليم، العدد 3، اللغات في المدرسة المغربية، مارس 2011.
- رشيد (بوطيب)، مفهوم التواصل في الفلسفة، من الحقيقة إلى الاختلاف، سلسلة فكر ونقد، التواصل نظريات وتطبيقات، الكتاب الثالث، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، 2010.
- رضوان (محمد فاضل)، نحن والعولمة، مأزق مفهوم ومحنة هوية، مجلة رؤى تربوية، مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، فلسطين، العدد 20.
- الرفاعي بن أحمد (حامد)، نحن والآخر وإشكالية المصطلح والحوار، سلسلة إصدارات لتعارفوا، العدد 23، مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى، 2006.
- زغبوش (بنعيسى)، السيرورة التواصلية والكفاءة اللغوية بين علوم الأعصاب وعلم النفس المعرفي، التواصل، منشورات مختبر العلوم المعرفية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، مطبعة أنفو – برانت، فاس.
- سان برو (شارل)، نظرة الغرب إلى الإسلام ومستقبل الإسلام السلفي، سلسلة محاضرات الإمارات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الأولى، 2009.
- السورطي (يزيد عيسى)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 362، 2009.
- سيد عبد الله (معتز)، الاتجاهات التعصبية، سلسلة علم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 137، 1989.

- شراد (فوزية)، الحوار والتواصل عند يورغن هابرماس، مجلة علوم التربية، العدد 17، منشورات عالم التربية، 2007.
- الصغير جنجار (محمد)، الوضع اللغوي المغربي بين إرث الماضي ومقتضيات الحاضر، مجلة المدرسة المغربية.
- عبيد (حاتم)، البعد الثقافي في تعليم العربية لغة ثانية من وجهة نظر لسانية تداولية، مجلة اللسانيات العربية، مركز الملك عبد الله، العدد 2، شتبر 2015.
- عقار (عبد الحميد)، في وظائف المدرسة، المدرسة المغربية أسئلة ورهانات، مجلة المدرسة المغربية، المجلس الأعلى للتعليم، المملكة المغربية، العدد 1، ماي 2009.
- العمراني (المصطفى)، انتروبولوجية التواصل ورهان الحوار الثقافي، مقاربات مجلة العلوم الإنسانية، العدد 24، المجلد 12، 2016.
- القباج (محمد)، التربية على المواطنة والحوار وقبول الآخر في التعليم الثانوي، مجلة علوم التربية، الرباط، العدد 32، 2006.
- كاميرا دافليتيو (إيزابيلا)، نماذج لبعض الكتاب العرب في روما، الكتاب العربي، الثقافة العربية في المهجر، الجزء الثاني، وزارة الاعلام، مجلة العربي، الكويت، الطبعة الأولى، 2013.
- مستر (حسن)، لا وعي التواصل، سلسلة فكر ونقد، التواصل نظريات وتطبيقات، الكتاب الثالث، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، 2010.
- المنجرة (المهدي)، حوار التواصل، سلسلة شراع، كتاب الشهر 1، دار النشر المغربية، الطبعة الرابعة، 1997.
- المنجرة (المهدي)، عولمة العولمة، من أجل التنوع الحضاري، منشورات الزمن، العدد 18، مطبعة لنجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2011.
- مؤنس (حسين)، الحضارة: دراسة في أصولها وعوامل قيامها وتطورها، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 237، 1998.
- الميلاذ (زكي)، تعارف الحضارات: الفكرة، الخبرة والتأسيس، مجلة الحوار الثقافي، مخبر حوار الحضارات التنوع الثقافي وفلسفة السلم، جامعة مستغانم، الجزائر، عدد خريف وشتاء 2013.

- نادية جمال الدين، واقع ترجمة الأدب العربي المعاصر إلى الإسبانية، الكتاب العربي، الثقافة العربية في المهجر، الجزء الثاني، وزارة الاعلام، مجلة العربي، الكويت، الطبعة الأولى، 2013.
- هارولد (جميس)، مفهوم جديد وواقع قديم، التمويل والتنمية، مجلة فصلية، صندوق النقد الدولي، العدد 53، دجنبر 2016.
- الهيتي هادي (نعمان)، ثقافة الأطفال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 123، 1988.
- يحيى (محمد)، صراع الحضارات مرة أخرى، مجلة البيان، العدد 162، 1998.
- يقطين (سعيد)، الديموقراطية في قاعة الانتظار، إكراهات التحول الاجتماعي المغربي، منشورات الزمن، العدد 47، دجنبر 2014.
- يونغ (وانغ)، حضور الثقافات العربية في الصين قديما وحديثا، الكتاب العربي، الثقافة العربية في المهجر، الجزء الثاني، وزارة الاعلام، مجلة العربي، الكويت، الطبعة الأولى، 2013.

تقارير وإعلانات ووثائق ومنشورات:

- الأمم المتحدة، إعلان بالي بشأن الوثام بين الأديان في إطار المجتمع الدولي (A/60/254)، 2005.
- الأمم المتحدة، إعلان بشأن الألفية قرار الجمعية العامة 2/55 المؤرخ 8 أيلول/سبتمبر 2000.
- الأمم المتحدة، الاعلان العالمي لحقوق الانسان، 1948.
- الأمم المتحدة، البرنامج الانمائي للأمم المتحدة والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، تقرير التنمية الانسانية العربية 2002.
- الأمم المتحدة، الجمعية العامة، قرار رقم A/RES/70/1، 2015.
- الأمم المتحدة، أمانة تحالف الحضارات، قاعدة بحوث لتقرير الفريق الرفيع المستوى، التعليم: التحليل والمبادرات الحالية، نيويورك، 2006.
- الأمم المتحدة، برنامج الأمم المتحدة الانمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية، 2003،

- الأمم المتحدة، تحالف الحضارات، تقرير الفريق الرفيع المستوى، نيويورك، 2006.
- الأمم المتحدة، تحالف الحضارات، خطة التنفيذ 2007-2009، نيويورك، 2006.
- الأمم المتحدة، مكتب مكافحة الإرهاب، دليل مرجعي، وضع خطط العمل الوطنية والاقليمية لمنع التطرف العنيف، الطبعة الأولى.
- الايسيسكو، الإعلان الإسلامي حول التنوع الثقافي، 2004.
- بن عامر (توفيق)، التراث العربي والحوار الثقافي، أعمال ندوة حول حوار الثقافات مطبوعة فن الطباعة، تونس، 2007.
- بن عامر (توفيق)، الحوار ... لماذا؟ أعمال الندوة المنعقدة في إطار وحدة البحث «حوار الثقافات» من 23 إلى 25 نونبر 2007 بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، مطبوعة فن الطباعة، 2009.
- التويجري بن عثمان (عبد العزيز)، التواصل الحضاري والتفاهم بين الشعوب، منشورات الايسيسكو، 2010.
- التويجري بن عثمان (عبد العزيز)، الحوار وتحالف الحضارات، منشورات الايسيسكو، 2009.
- العلام (عبد الغفور)، الرؤية الاستراتيجية للإصلاح والابتكار البيداغوجي، أشغال ندوة الابتكار التربوي ودينامية الإصلاح بالمغرب، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، 2018.
- فاعور (محمد)، التعليم الديني والتعددية في مصر وتونس، أوراق كارنيغي، مركز كارنيغي للشرق الأوسط، 2012.
- مجلس أوروبا، الكتاب الأبيض حول حوار الثقافات، من أجل العيش معا متساويين في الكرامة، ستراسبورغ، 2008.
- مجموعة البنك الدولي، توقعات وتطلعات إطار جديد للتعليم في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، 2018.
- مغامس (جورج)، حوار الثقافات والأديان، من الحوار العقائدي إلى ثقافة الحوار والانفتاح، وقائع المؤتمر المنعقد في جامعة السيدة اللويزة، لبنان، 2000.

– المملكة المغربية، البرلمان، مجلس النواب، مشروع قانون تنظيمي رقم 04.16 يتعلق بالمجلي الوطني للغات والثقافة المغربية.

– المملكة المغربية، الدستور، ظهير شريف رقم 1.11.91 صادر في 29 يوليوز 2011 بتنفيذ نص الدستور، الجريدة الرسمية عدد 5964 مكرر بتاريخ 30 يوليوز 2011.

– المملكة المغربية، الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب الآداب والإنسانيات، الجزء الخامس، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، 2002.

– المملكة المغربية، الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب الآداب والإنسانيات، الجزء الخامس، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، 2002.

– المملكة المغربية، الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب التعليم الأصيل، الجزء الخامس، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، 2002.

– المملكة المغربية، الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب التكنولوجيات، الجزء الثامن، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، 2002.

– المملكة المغربية، الكتاب الأبيض، المناهج التربوية لقطب العلوم، الجزء السابع، لجان مراجعة المناهج التربوية المغربية للتعليم الابتدائي والثانوي الإعدادي والتأهيلي، 2002.

– المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015-2030 .

– المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، الهيئة الوطنية لتقييم منظومة التربية والتكوين والبحث العلمي، البرنامج الوطني لتقييم مكتسبات تلامذة الجدد المشترك، PNEA 2016، التقرير التحليلي، 2017.

– المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، التقرير الموضوعاتي لسنة 2009 حول نتائج البرنامج الوطني لتقوين التحصيل الدراسي 2008، التقرير التركيبي، 2009.

- المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، التربية على القيم بالمنظومة الوطنية للتربية والتكوين والبحث العلمي، 2017.
- المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015-2030، من أجل مدرسة الانصاف والجودة والارتقاء، 2015.
- المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، تقرير موضوعاتي حول نتائج التلامذة المغاربة في الرياضيات والعلوم ضمن سياق دولي (TIMSS 2015)، 2018.
- المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، تقييم سلك الدكتوراه لتشجيع البحث والمعرفة، الرباط، 2017.
- المملكة المغربية، المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، من أجل مدرسة الإنصاف والجودة والارتقاء، رؤية استراتيجية للإصلاح 2015-2030.
- المملكة المغربية، المجلس الأعلى للحسابات، تقرير موضوعاتي حول مدى جاهزية المغرب لتنفيذ أهداف التنمية المستدامة 2015-2030، يناير 2019.
- المملكة المغربية، المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، اللجنة الدائمة المكلفة بالقضايا الثقافية والتكنولوجيات الحديثة، المدرسة- التكنولوجيات الجديدة والرهانات الثقافية، إحالة ذاتية رقم 17/2014، مطبعة سيياما، 2014.
- المملكة المغربية، المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، النموذج التنموي الجديد للمغرب، مساهمة المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، الرباط، 2019.
- المملكة المغربية، المغرب الممكن، تقرير 50 سنة من التنمية البشرية بالمغرب وآفاق 2025، محمد توفيق مولين وآخرون، 2005.
- المملكة المغربية، الميثاق الوطني للتربية والتكوين، اللجنة الوطنية للإصلاح، 1999.
- المملكة المغربية، ظهير شريف رقم 1.02.09 صادر في 15 من ذي القعدة 1422 الموافق ل 29 يناير 2002، بتنفيذ القانون 01-13 في شأن التعليم العتيق، الجريدة الرسمية عدد 4977 بتاريخ 11 فبراير 2002.

- المملكة المغربية، ظهير شريف رقم 1.19.113 صادر بتاريخ 9 غشت 2019 بتنفيذ القانون الإطار 51.17 المتعلق بمنظومة التربية والتكوين والبحث العلمي، الجريدة الرسمية عدد 6805 بتاريخ 19 غشت 2019.
- المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مديرية التعليم العتيق ومكافحة الأمية، برامج التعليم العتيق، مادة الفلسفة، الطور الثانوي العتيق، شتبر 2016.
- المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مديرية التعليم العتيق ومكافحة الأمية، برامج التعليم العتيق، مادة الفكر الإسلامي، الطور الثانوي العتيق، شتبر 2016.
- المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي والتكوين المهني، مديرية المناهج، مستجدات المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي، غشت 2020.
- المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، مديرية المناهج والحياة المدرسية، البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة اللغة الإنجليزية بسلك التعليم الثانوي الإعدادي، السنة الثالثة، 2009.
- المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، مديرية المناهج والحياة المدرسية، البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة اللغة الألمانية بسلك التعليم الثانوي الإعدادي، السنة الثالثة، 2009.
- المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، مديرية المناهج والحياة المدرسية، البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة اللغة الإيطالية بسلك التعليم الثانوي الإعدادي، السنة الثالثة، 2009.
- المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، مديرية المناهج والحياة المدرسية، البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بمادة اللغة الإسبانية بسلك التعليم الثانوي الإعدادي، السنة الثالثة، 2009.
- المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي، مديرية المناهج، مستجدات المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي، طبعة ماي 2019.
- المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي، مديرية المناهج، منهاج التربية الإسلامية بسلكي التعليم الثانوي الإعدادي والثانوي العمومي والخصوصي، طبعة يونيو 2016.

– المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مديرية المناهج، منهاج التربية الإسلامية لجميع المستويات الدراسية بالتعليم الابتدائي العمومي والخصوصي.

– المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مديرية المناهج، الإطار المنهجي للتعليم الأولي، الطبعة الأولى، 2018.

– المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مديرية المناهج، منهاج التربية الإسلامية لجميع المستويات الدراسية بالعلم الابتدائي العمومي والخصوصي، طبعة يونيو 2016.

– المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مذكرة وزارية رقم 132-19 بتاريخ 6 دجنبر 2019 في شأن دعم تعزيز التسامح والسلوك المدني والمواطنة والوقاية من السلوكات المشينة في الوسط المدرسي.

– المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، الكتاب الأبيض، الجزء الأول، الاختيارات والتوجهات التربوية العامة المعتمدة في مراجعة المناهج التربوية.

– المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، الكتاب الأبيض، الجزء الثالث، البرامج والتوجيهات الخاصة بالسلك الاعدادي.

– المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، مائدة مستديرة حول تدريس اللغة الألمانية بالنظام التربوي المغربي، فضاء الشركاء، عدد 156، 2016.

– المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، مائدة مستديرة حول تدريس اللغة الألمانية بالنظام التربوي المغربي، فضاء الشركاء، نشرة تواصلية عدد 156، 2016.

– المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية، مديرية المناهج، قطب الكتاب المدرسي، وثيقة جرد القيم الواردة في متون الكتب المدرسية المصادق عليها من قبل الوزارة.

– المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي، مذكرة رقم 72*19 صادرة بتاريخ 18 يونيو 2019 في شأن إرساء النظام المعلوماتي رائد لتتبع تنفيذ برنامج العمل الملتمزم به أمام صاحب الجلالة.

– مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم وبرنامج الأمم المتحدة الانمائي، تقرير استشراف مستقبل المعرفة 2019، الغرير للطباعة والنشر، دبي.

- مؤسسة محمد بن راشد المكتوم وبرنامج الأمم المتحدة الانمائي، تقرير المعرفة العربي للعام 2010/2011، رصد وقياس وإعداد النشء لمجتمع المعرفة، حالة المغرب.
- اليونسكو وآخرون، التعليم حتى عام 2030، إعلان انشيون، نحو التعليم الجيد المنصف والشامل والتعلم مدى الحياة، 2015.
- اليونسكو، إعادة التفكير في التربية والتعليم نحو صالح مشترك عالمي، منشورات باريس، 2015.
- اليونسكو، اعلان مبادئ بشأن التسامح، 1995.
- اليونسكو، الإعلان العالمي بشأن التنوع الثقافي، 1982.
- اليونسكو، التربية على المواطنة العالمية، مواضيع وأهداف تعليمية، بيروت، 2015.
- اليونسكو، التقرير الجامع الثالث بشأن تطبيق التوصية المتعلقة بتعزيز التعدد اللغوي واستخدامه وتعميم الانتفاع بالمجال السيبرني لعام 2003، المؤتمر العام، الدورة الثامنة والثلاثون، باريس 2015.
- اليونسكو، برنامج كوبنهاجن عن التعليم من أجل التفاهم والحوار بين الثقافات، 2009.
- اليونسكو، بناء مجتمعات المعرفة في المنطقة العربية، اللغة العربية بوابة للمعرفة، ملخص تنفيذي، القاهرة، 2019.
- اليونسكو، تقرير الاستثمار في التنوع الثقافي وحوار الثقافات، موجز تنفيذي، باريس، 2009.
- اليونسكو، خطة العمل الخاصة بالعقد الدولي للتقارب بين الثقافات (2013-2022)، باريس، 2014.
- اليونسكو، مستقبل التعلم 2، أي نوع من التعلم في القرن الحادي والعشرين؟ بحث ونظرة استشرافية بشأن التعليم، سينتيا لونا سكوت، اوراق عمل، 2015.
- اليونسكو، منع التطرف العنيف من خلال التعليم، دليل لصانعي السياسات، 2018.

المراجع الأجنبية:

- Crossing the Divide: Dialogue among Civilizations (South Orange, NJ: Seton Hall University School of Diplomacy and International Relations, 2001).
- Education in a multilingual world, UNESCO 2003.
- European Commission, Directorate-General for Education and Culture, Special Eurobarometer 386, europeans and their languages, report, June 2012.
- UNESCO, 2014, Education Sector, Global Citizenship Education, Preparing learners for the challenges of the 21st century, Paris.

الويبوغرافيا:

اعتمدنا على المواقع الالكترونية الرسمية لمؤسسات دولية ووطنية وجامعية وفكرية وإعلامية ودينية وتشريعية، نظرا للاعتبارات الآتية:

- نشر هذه المؤسسات (الأمم المتحدة؛ مجلس أوروبا؛ اليونسكو؛...) للمعلومات والوثائق والأرشيف - أحيانا- على مواقعها الالكترونية الرسمية، مع تعذر وجود النسخة الورقية أو النصوص المطبوعة من هذه الوثائق؛
- أهمية وميزة تنويع حوامل المعرفة ومصادر المعلومات عبر تصفح المحتوى الرقمي الرسمي أو الأكاديمي وذخائر النشر الالكتروني ومنصات المكتبات والدوريات الفكرية؛
- تنمية القدرات والمهارات التكنولوجية لدى الطالب الباحث في زمن الرقمية والقارئ المتفاعل والخدمات الالكترونية الميسرة للولوج المفتوح والمباشر للمضامين والمنشورات الأكاديمية والأرشيف الرقمي.

<http://www.unesco.org>

<http://citi.aui.ma/>
<http://humanfraternitymeeting.com>
<http://mediatheque.francophonie.org>
<http://www.chambreconseillers.ma>
<http://www.fldm.usmba.ac.ma/formation/langues-complementaires>
<http://www.habous.gov.ma>
<http://www.hdr.undp.org>
<http://www.maroc.ma>
<http://www.stgeorges.co.uk>
<http://www.vatican.va>
[https:// www.mapnews.ma/ar/activites-royales](https://www.mapnews.ma/ar/activites-royales)
<https://academicimpact.un.org>
<https://arabic.euronews.com>
<https://aref-fm.men.gov.ma>
https://carnegieendowment.org/files/Religious_education
<https://en.unesco.org/futus-education>
<https://fr.statista.com>
<https://hekmah.org>
<https://iles.ma>
<https://knowledge4all.com/reports/futureofknowledge2019>
<https://muslim-guide.jp>
<https://openknowledge.worldbank.org>
<https://rsf.org/>
<https://teacherswithoutborders.org>
<https://unchronicle.un.org>
<https://unctad.org/meetings/en/SessionalDocuments>

<https://undocs.org>
<https://unesdoc.unesco.org>
<https://www.annalindhfoundation.org/ar/qstn>
<https://www.anrt.ma/ar/missions/service-universe>
<https://www.aot.org.lb>
<https://www.arabic-online.net>
<https://www.arabstates.undp.org>
<https://www.bbc.com>
<https://www.bible.com>
<https://www.britannica.com>
<https://www.cg.gov.ma>
<https://www.cg.gov.ma>
<https://www.coe.int>
<https://www.cour-constitutionnelle.ma>
<https://www.diplomatie.gouv.fr>
<https://www.diplomatie.gouv.fr>
<https://www.dw.com/ar>
<https://www.e.gov.kw>
<https://www.ef.com/wwar/epi/regions/africa/morocco>
<https://www.erudit.org/fr/revues>
<https://www.europarl.europa.eu/news/fr>
<https://www.flshr.ac.ma>
<https://www.imf.org>
<https://www.internetworldstats.com>
<https://www.isesco.org>
<https://www.men.gov.ma>

<https://www.msf.org>

<https://www.ohchr.org>

<https://www.paris-halal.com>

<https://www.refworld.org>

<https://www.spa.gov.sa>

<https://www.tolerance.gov.ae>

<https://www.un.org>

<https://www.unaoc.org>

الفهرس:

1	مدخل.....
19	الفصل الأول.....
20	المبحث الأول: التواصل الحضاري وحوار الثقافات، دلالات وخلفيات.....
21	أولاً: الثقافات، من الحوار إلى التقارب الثقافي.....
28	ثانياً: الحضارات الإنسانية بين مسارات الحوار والتعارف والتحالف.....
35	ثالثاً: حوار الثقافات أم حوار الحضارات أم حوار الأديان: نحو تواصل حضاري بديل..
40	المبحث الثاني: التربية والتعليم والثقافة: معادلات التفاعل.....
40	أولاً: الحاجة إلى معرفة الآخر للتواصل وضرورة الحوار في زمن التحولات.....
48	ثانياً: علاقات التربية والتعليم والثقافات: حدود وأبعاد.....
54	ثالثاً: مستقبل ثقافة الأطفال بين الاستثمار في التعليم ورهانات القرن الحادي والعشرين.
60	المبحث الثالث: نحو نموذج بيداغوجي يدعم التواصل الحضاري وحوار الثقافات.....
61	أولاً: الحاجة إلى التربية والتعليم من أجل التواصل الحضاري وحوار الثقافات.....
68	ثانياً: دواعي وأهمية ترسيخ التواصل والحوار في مجال التربية

	والتعليم.....
73	ثالثاً: أفق التربية على الحوار ومخاطر اللا حوار على الأفراد والمجتمعات الإنسانية....
84	الفصل الثاني.....
85	المبحث الأول: مستقبل العلاقة بين الحضارات والثقافات، حوار أم صدام أم توازن؟..
86	أولاً: أطروحة صدام الحضارات: المنشأ والمبررات.....
90	ثانياً: أطروحة حوار الحضارات: السياق والمبادئ والتصورات.....
94	ثالثاً: قراءات نقدية للأطروحتين: الحضارات في صدام أم حوار أم توازن وتواصل؟....
100	المبحث الثاني: إشكاليات التواصل الحضاري وحوار الثقافات.....
101	أولاً: تشظي الهوية والخصوصية الثقافية مقابل العولمة والمركزية الغربية.....
108	ثانياً: اللغات موقد صراع وإمبريالية لغوية جديدة أم سبيل للتواصل والحوار.....
115	ثالثاً: تفاقم خطر الكراهية للإسلام الشغل الشاغل للغرب.....
123	رابعاً: التطرف والعنف المعولم مؤشرات الصدام الحضاري في زمننا المعاصر.....
129	المبحث الثالث: أبعاد وامتدادات التواصل الحضاري وحوار الثقافات.....
130	أولاً: تعزيز التنوع الثقافي قوة محركة للتواصل الحضاري وحوار الثقافات.....

139	ثانيا: التعدد اللغوي مطلب حضاري للتواصل والحوار في عالم متعدد اللغات.....
148	ثالثا: الترجمة نافذة على الثقافات ورأسمال ثقافي في التواصل الحضاري.....
155	رابعا: المشترك الإنساني والديني خطوة نحو التواصل الحضاري وحوار الثقافات.....
171	الفصل الثالث.....
173	المبحث الأول: التربية والتعليم وحوار الثقافات من منظور مؤسسات الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي.....
173	أولا: التربية والتعليم في عمل الأمم المتحدة لتشجيع الحوار بين الثقافات.....
	ثانيا: اليونسكو واليونسيف: من الاستثمار في حوار الثقافات إلى العقد الدولي للتقارب بين الثقافات وتعلم العيش معا.....
177	ثالثا: التربية والتعليم في الكتاب الأبيض حول حوار الثقافات من أجل العيش معا.....
183	المبحث الثاني: التربية والتعليم في منديات تحالف الحضارات والبيانات الدولية.....
186	أولا: التربية والتعليم في منديات تحالف الحضارات.....
187	ثانيا: التعليم من أجل التفاهم والحوار بين الثقافات في مؤتمر كوبنهاغن.....
192	المبحث الثالث: التربية والتعليم وحوار الثقافات من منظور اسلامي وعربي ووطني ..
198	أولا: المنظور المؤسساتي الإسلامي والعربي: منظمتا الايسيسكو والالكسو نموذجاً.....

	ثانيا: الاسهامات الوطنية: مشروع تعهدات الرباط ونداء فاس لتعزيز الحوار بين
208	الثقافات والأديان
	ثالثا: التواصل الحضاري وحوار الثقافات في رؤى اصلاح منظومة التربية والتعليم
	بالمغرب بين الوارد
214	والشارد.....
227	الفصل الرابع.....
229	المبحث الأول: تعليم وتعلم اللغات جسر للتواصل الحضاري وحوار
	الثقافات.....
	أولا: الأبعاد التواصلية وما بين الثقافية للتعليم المتعدد اللغات: نحو كفاية تواصلية
231	متعددة اللغات.
239	ثانيا: جدل السوق اللغوية بالمغرب وانعكاساته على تعليم وتعلم
	اللغات.....
	ثالثا: التدبير البيداغوجي لتعليم اللغات في المدرسة المغربية: انجازات محققة
250	ورهنات في
	الانتظار.....
	المبحث الثاني: تجديد الخطاب الديني عبر التعليم وتعليم اللغة العربية للناطقين
	بغيرها.....
265	
267	أولا: تجديد الخطاب الديني عبر التعليم مشروع للتواصل الحضاري وحوار
	الثقافات.....
274	ثانيا: التعليم الديني والتعليم العتيق بالمغرب: أفق جديد قيد التشكيل.....
	ثالثا: تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وأهمية توظيفها في التواصل الحضاري
	وحوار
282	الثقافات.....
291	المبحث الثالث: التربية على التسامح والسلام والتعليم من أجل المواطنة العالمية

في مجتمع

المعرفة.....

292 أولاً: التربية على قيم التسامح والسلام سبيل للتواصل الحضاري وحوار

الثقافات.....

308 ثانياً: التعليم من أجل تحقيق المواطنة العالمية قيمة مضافة لمشروع التواصل الحضاري وحوار الثقافات

ثالثاً: بناء التعليم لمجتمع المعرفة نهج لبناء حصون التواصل الحضاري وحوار

319 الثقافات.....

338 خاتمة.....

355 لائحة المراجع

والمصادر.....

377 فهرس

الموضوعات.....